الشيخ الأكبر محيي الدين أبو عبد الله محمد بن علي

ابن العربي

شرح رسالة

رُوحُ القُدُسِ فِي مُنَاصَحَةِ النَّفْسِ

نقلها ونقّحها وشرحها الفقير إلى ربّه

أبو حامد صخر بن حسين

الحمد لله والصلاةُ والسلام على رسولِ الله، محمد بنِ عبد الله الرحمةِ المُهداه، وعلى آله وصَحبه ذوي الجاه، وعلى جميع أولياء الله أولَئك الذين استجابوا لدعوتِه في كلّ عَصر ومِصر واتّبعوا هُداه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يتَّقُون لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة﴾[يونس 63- 64]، فأحسَنوا تَحويلَ العِلمِ عَمَلاً باتِّباع الرسول وإخلاصًا لله.

وبعد، فقد مَنَّ الله على عبده الفقير الحقير هذا، إذْ قضَى تعالى بإخراجِ هذا الكنز للناس على يديه. وإن كانت لِهذه الرسالة الفذّة عِدّةُ نشرات، فإنها لا تخلو واحدةٌ منها مِن أخطاء كثيرة وسقطات متكرّرة وزيادات فُضوليّة وتَقطيعات جِدُّ اعتباطيّة. فكلُّ ذلك أخلّ بالْمَبنَى وأساء بالمعنى حتى ظلّ القارئُ في حَيرة مِن أمرِه. لذا وجبَت حتمًا إعادةُ نشرِها كما هي حقًّا أَهلُه.

مِمّا يدلّ على أهميَّة رسالة 'روح القدُس في مُناصَحة النّفس' أنّ الشيخ الأكبر لم ينقطِع عن تدريسها مِن حين أَلَّفها. فإنّه يقول فيها "...لَمّا قرأتُ بالحرَم الْمَكِّي على الناس ما ذكرتُه لك... الخ" فقد قرأها على الناس قبلَ أن يُرسلَها إلى المهدوي، وأقلُّ ما في هذا أنّه جدُّ مُلفتٌ للانتِباه. وقد ظلّ الشأنُ كذلك إلى أواخر عمر الشيخ الأكبر، فإنّه يقول في موضعٍ آخرَ منها "...في شهر صَفَر سنةَ أربعٍ وثلاثين وستمائة". فشأنُ هذه الرسالة عجيبٌ غريب؛ كُتبت سنةَ ستمائة ويُذكَر فيها أمرٌ قد وقع بعد أربعٍ وثلاثين سنة من وَضْعِها. ولا غَرابةَ في الحقيقة، إذ لا معنًى لهذا الأمر الواقع غير أن الشيخَ الأكبر لَم يتوقَّف عن إملاء هذه الرسالة وتدريسها وتمحيصها مع الزيادة فيها. وذلك من سنة ستمائة حيث أَلَّفها بمكة وهو ابن الأربعين إلى سنة ستمائة وأربع وثلاثين وقد بلغ من العُمر أربعا وسبعين عاما، بدمشق حيث قضى آخر سنِيّ عمره. هذا هو الظاهر الذي لا شكّ فيه كما يدلُّ عليه نصُّ الرسالة. ولا أعلمُ نصًّا قد حَظيَ بهذا القِسط مِن الاهتمام من طَرَف الشيخ كهذه الرسالة. اِستنادًا إلى ما لَديّ مِن أدِلّة.

تكمُنُ أهميَّةُ هذه الرسالة في كونها تَضع الأسُس وترسُم الأُطُر التي ينبني عليه البرنامج الصُّوفِي الفعّال سلوكًا ومعرفة. هذا أمرٌ واضح وبديهي، لولا اعوِجاج البَشَر. فما التصوُّفُ إلاّ السعي في إيقاظ الهمّة وتزكية النفس وفقَ الشريعة، أي على سنَّة نبيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، بقَصْد رؤية الحقِّ حقًّا والباطلِ باطلا والسَّير على ذلك المنهاج بإخلاصٍ رَغْبةً ورَهْبة.

لا شكَّ أن عُنوان الرسالة هو 'روح القدس في مُناصحة النفس' دون غيره مما ورد في بعض النشرات. فزيادة على أننا نجد هذا العنوان على وجه أقدَم مخطوطة فإن ربيب الشيخ وتلميذَه القُونَوي يقول بالحرف الواحِد في الإجازة التي منحها إياه الشيخُ الأكبر: سمعتُ كتابَ رسالة 'روح القدُس في مناصحة النفس' وكمُل السماع في جمادَى الآخرة سنةَ ثمان وعشرين وستمائة بمدينة دمشق بمنزل سيِّدِنا الْمُسمِع. يعني الشيخَ الأكبر ابنَ العربي.

يدلُّ اسمُ هذه الرسالة على معناها وعلى أن مَبناها النّصيحة، وهي كلِمة يُعبَّر بها عن إرادة الخير للمَنصوح له. فمادة 'نصح' تُفيد الخُلوص والصَّفاء بِلا شَوب ولا امتِزاج، ومنها جاء الإخلاص في الدين أي تخليصُه من الشِّرك والمعصيَة والغَفلَة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّين ؛ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِص﴾[الزمر 2- 3] الْمَحْض الصِّرْف الذي ليس فيه شيءٌ ممّا يخالِف الوَحْيَ لا ظاهِرًا ولا باطِنا. وقد جاءت 'مُناصحةً' على وزْن مُفاعَلة لتُفيدَ المشاركة. نقول ناصَحت مُناصحةً، كقاتَلت مُقاتلةً، جادلْت مُجادلة. فهذه الصيغة تفيد الاشتِراك في الفعل بين اثنين فأكثر، لذا كانت أكثرَ غَورًا مِن النَّصيحة، حيثُ أنها عاطِفيّة وعِلميّة وعَمَليّة معًا. فهي إذًا تنبيهٌ للمَنصوح ناتِجٌ عن مَحبّة مع مُسايَرته ومشاركته في الجُهد الذي تقتضيه اليقَظة المطلوبة. وذلك معنى قول العارف ابن عطاء الله السَّكَندَري في حِكَمه "لا تَصحبْ إلاَّ مَن يُنهِضُك حالُه ويدُلُّك على الله مَقالُه؛ إن غَفَلتَ ذكَّرك وإن ذَكرتَ أعانَك." فتلك هي الْمُناصحة، تنبيهٌ وتعليم وإعانة نتيجةَ مَحبَّةٍ خالصة لوجه الله تعالى. ولَمّا جمَعت النصيحةُ الْمَحبّةَ بالنيّةِ

والعملَ ضمَّتِ الدينَ جُملَةً، كما جاء عن تَميمٍ الداري أن النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام قال «الدينُ النصيحةُ» قالوا: لِمن؟ قال «لله ولِكتابه ولرَسولِه ولأئمةِ المُسلمين وعامَّتِهم!»[1]
يقول سيدي محيي الدين ابن العربي، قدَّس الله سِرَّه، مُبيّنا لهذا المعنى "مقصودي بهذه الرسالة إبرازُ معرفةٍ نفسانية وربانية تُحرِّض على الكَلِم الطيب والعمل الصالح..." وليس ذلك من حيث كونُه مُطالَباً بالنصيحة التي جاء بها الشرع كما هو مُفتَرض على كل فرد من المسلمين خِطابًا عامّا، فالشيخ الأكبر له مقامٌ أعلى من عامّة الخلق. فإنه يقول في أوّل الرسالة أنّه "الناصح الشفيق المأمور بالنُّصح لإخوانه والمشدَّد عليه في ذلك دون أهل زمانه".
يحتاج هذا الاختصاص إلى بعض البيان حتى يظهرَ قدرُ هذه الرسالة التي اختتمها بقوله "...فهذه يا أخي نصيحَتي لي ولك". فالأمر إذًا ليس من قَبيل الفُضول أو الاشتغال بما لا يعني، فإن الشيخ الأكبر مأمور ومأذون له بالنصيحة. فقد أُمر بذلك في مكّةَ كما جاء في هذه الرسالة حيث يقول "فأُمِرتُ بالقعود والنَّصيحة للخلق قَسرًا وحتما واجبا؛ فقعدتُ رفيعَ الكلام مُصلَّتَ الحُسام..." وهذا تأييدٌ وتَمكين إلَهيّ، فالشيخَ مأمورٌ مأذونٌ له من لَدن الله.
فذلك مقام التبليغ عن الله كما جاء عن نوح إذ قال لقومه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[الأعراف 62] وقوله ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾[هود 34] وعن صالحٍ إذ قال لقومه ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[الأعراف 79] وشعيب إذ قال لقومه ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[الأعراف 93] وعن هود إذ قال لقومه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِين﴾[الأعراف 68]. لمّا كانت النَّصيحةُ جزءًا من الرسالة احتاجت إلى تأييدٍ إلَهي، وقد حظيَ به الشيخ كما يدلّ عليه قولُه في ديوانه:

---

[1] رواه مسلم في الإيمان وأبو داود والنسائي وأحمد، وله شواهد عن تميم الداري وغيره.

فالله يَمنحُ ما أمَّلتُ منه وما يُعطيني إلاّ الذي في الوقتِ يُصلِحُني
بروحه القُدسِيّ العالِ أيَّدَني وبالظِّلالِ الَّتي فِي الْحَرِّ ظَلَّلَنِي

فهذه النصيحةُ مقيَّدة بالتأييد والتَّمكين، لذَا كان عنوانُها "روح القدُس في مُناصحة النفس". وروح القدُس مُرسَلٌ مِن أمر الله لتأييد عباده المصطفَين، كما جاء ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة 87- 253]. فهو الروح الأمين، مَلَك الوحي، مُعلِّم الأنبياء، الناموس الأكبر، جبريلُ عليه السلام. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله يُؤيِّدُ حَسَّانَ برُوحِ القُدُس ما نافَحَ وفاخَر عن رسول الله.»[2] وعن البَراء بن عازِبٍ أنه قال: سمعتُ حسّان بنَ ثابتٍ يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «اُهجُهم وهاجِهم وجبريل معك!»[3]
فالشيخُ الأكبر ليس كغيره من أفراد الأمة بشأن النصيحة، فقد بيّن في غيرِ موضع أنّه مكلَّف أكثر من غيره بالنُّصح. يقول في باب أسرار الصوم من الفتوحات المكية : الله سبحانه قد أمرني على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم خطابًا عامًّا ثم خاطبني على الخصوص من غيرِ واسطة غيرَ مرّةٍ بمكةَ وبدمشقَ فقال لي «اِنصَح عبادي!» في مُبشِّرة أُرِيتُها؛ فتعيَّن عليّ الأمرُ أكثرَ مما تعيّن على غيري." وفي ديوانه يقول:

فمَن يُردْ يَمتازُ في أهلِهِ فليَمشِ بالحالِ على أثَري
فإنه الحقُّ الذي قال لي: اِنصَح عبادي وامتثِل أمري!
بِمكّةَ في حالةٍ تَقتَضي في وقتها القَبضَ مِن العُسر

[2] رواه البخاري ومسلم. وحسان هو ابن ثابت الأنصاري الخزرَجي، شاعرُ الإسلام الذي كان يردّ على المشركين دفاعًا عن الله ورسوله.
[3] رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

وفي دِمشقَ قال لي مِثلَه في مَرّة أخرى على سرِّي

فقلتُ: يا ربِّ أعِنّي على ما قلتَ لي ! فقالَ بالنصرِ

فلمْ يزلْ في نُصرتي قائمًا في كلِّ حالٍ دائمِ البِشر

ومّما يُثبِتُ هذا ما قالَه في باب الوصايا وهو خاتمة الفتوحات: وصيَّة ونصيحة كتبتُ بها إلى السلطان الغالب بأمر الله كيكاؤس صاحب بلاد الروم بلاد يونان رحمه الله جوابَ كتابٍ كتب به إلينا سنة تسع وستمائة: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَ الاهتمامُ السُّلطاني الغالب بأمر الله العزيز أدام الله عدلَ سلطانه، إلى والده الداعي له محمد بن العربي. فتعيَّن عليه الجواب بالوصية الدينية والنصيحة السياسية الإلَهية على قدر ما يُعطيه الوقتُ ويحتمله الكتاب..." فأجبتُه: ...أنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين وقد قلَّدك اللهُ هذا الأمرَ وأقامك نائبًا في بلاده ومتحكِّما بما تُوَفَّق إليه في عباده، وضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم وأوضح لك مَحجَّة بيضاء تمشي بهم عليها وتدعوهم إليها. على هذا الشَّرطِ وَلاّك وعليه بايَعناك؛ فإن عَدِلتَ فلك ولَهم وإن جُرتَ فلَهم وعليك. فَاحذَرْ أن أراك غدًا بين أئمَّة المسلمين مِن أَخسَرِ الناس أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا﴾[الكهف 104]. لا يَكُن شُكرُك لما أنعمَ الله به عليك مِن استواء مُلكِك بكُفرانِ النِّعم وإظهار المعاصي وتسليط النُّوّابِ السُّوءِ بقوَّة سُلطانِك على الرَّعيَّة الضَّعيفة؛ فإن الله أقوى منك. لا يتحكَّموا فيهم بجَهالة الأغراض وأنت المسؤولُ عن ذلك. يا هذا، قد أحسنَ الله إليك وخَلَع خِلَعَ النيابةِ عليك، أنت نائبُ اللهِ في خَلقِه وظِلُّه الْمَمدود في أرضه فأنصِفْ الَمظلومَ مِن الظالِم. ولا يَغُرَّنّك أنّ الله وَسّع عليك سُلطانَك وسَوّى لك البِلاد ومَهّدها مع إقامتِك على الُمخالفة والجَوْر وتَعدِّي الحُدود، فإنّ ذلك الاتِّساعَ مع بَقائك على مثلِ هذه الصفات إمهالٌ مِن الحقِّ لا إهْمال. وما بينَك وبين أن تَقِفَ على أعمالِك إلا بُلوغُ الأجَل

الْمُسمَّى ، فتصِل إلى الدارِ التي سَبَقَك إليها آباؤك وأجدادُك ، لا تَكن مِن النادمين فإنّ الندَم في ذلك الوقت غيرُ نافِع... إلى أن قال ، قدَّس الله سرَّه العزيز ، للمَلِك كيكؤوس :

إذا أنت أعززتَ الهُدَى وتبِعته	فأنت لهذا الدين عِزٌّ كما تُدْعَى
وإن أنت لم تَحفَل به وأهنتَه	فأنت مُذِلُّ الدين تخفَضه وَضْعا
فلا تأخُذِ الألقاب زُوراً فإنكم	لَتُسأل عنها يومَ يجمعكم جمعا
يقال لِعِزِّ الدين : أعززتَ دينَه	ويُسأل دينُ الله عن عِزِّكم قطعا
فإن شهِد الدينُ العزيز بعِزِّكم	تكن مع دين الله في عِزّه شَفعا
وإن قال دينُ الله : كنتُ بِمُلكه	ذليلاً وأهلي في ميادينه صرعَى
ومازلتُ في سلطانه ذا مَهانَةٍ	وفي زَعمه بي أنه مُحسنٌ صُنعا

إلى أن يقول معلنًا صِدقَ نصيحته :

فيا أَيُّها السُّلطان حَقِّق نصيحَتي	لكم وأَرْعِني منكم لما قُلتُه سَمعا
فإنّي لكم والله أنصحُ ناصحٍ	إذْ أَردُّ الردَى عنكم وأمنعُه مَنعا
وأجلِب للسلطان من كل جانب	من الدين والدنيا العوارفَ والنَّفعا

والله ينفعُني بوصيتي ويُجازيني على نيَّتي ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. اه

مدارُ نصيحة شيخِنا الأكبر على الخروج من الدنيا قبل الموت ، خروجًا معنويًّا بالقلب. وذلك بالفرار من الدنيا إلى الآخرة ، فِرارًا إلى الله تعالى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ؛ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين﴾[الذاريات 50] فمن ذلك قولُه : بالحقيقة مَن زهِد في ظاهر الدنيا لم يزهَد في خَير ، ومن تركها لم يترك إلا شرًّا نَكِدا. فلم يَحرُم اللهُ أولياءَه وأحبّاءَه خيرًا في الدنيا ولا في الآخرة ، على ما يشير إليه قولُه تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَة﴾[النحل 97]. ولذلك لم يُعطِ أهلَ الدنيا إلا صُوَرًا باطِنُها عذابٌ ، كما قال تعالى ﴿فَلاَ

تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم ؛ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِها فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[التوبة 55] وقال ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيه !﴾[طه 131] فليُعلم هذا بتأييدٍ مِن أمرِ الله تعالى، ينكشف حجاب الملك ويقِلّ موقعُه في قدر ما وراءَه وتذهب العَجَمة.[4] و'التأييد من أمر الله' إنَّما هو روح القُدُس كما أسلفنا بيانَه. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عن الرُّوح، قُل: الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا !﴾[الإسراء 85].

* * *

كتب الشيخ الأكبر هذه الرسالة لشيخه وصديقه أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدَوي. وكان يُجلُّه ويبجِّلُه كثيرا، فقد كتب له هذه الرسالة و'الفتوحات المكيّة' و'تاجَ الرسائل' وغيرَ ذلك من الكتب، وبدأ تصنيفَ 'إنشاء الدوائر' عنده بتونس. يقول شيخُنا عنه في هذه الرسالة "وقد فُزتَ يا أخي، في زمانك هذا بخِلال لم أقدِر أن أراها في غيرك. منها معرفتُك بِمَرتَبة العلم وأهلِه، وعدمُ تعريجك على الكَرامات والأحوال، ومنها انقيادُك للحق وتواضعُك له ونزولُك إليه عند مَن وجدتَه سواءً كان مِمّن تَلحظُه العيونُ أم لا يُؤبَه له. ولم تَلحَظ منزِلَتك الدنيويَّة مِن تعظيم الناس لك وتقبيلهم يدَك وإتيان السلاطين إلى بابك؛ وهذا غاية الإنصاف. ثبَّتك الله وإيانا."

يتجلّى من هذا الإطراء أن الشيخ المهدَوي قد كان من عُظَماء تونس سواءً على المستوَيين السياسي والدنيوي والديني والروحي. زاره الشيخ الأكبر مرَّتين في مدرسته وبيته على كُدية خضراء تُطلُّ على البحر بالمرسَى شمالَي مدينة تونس. إحداها عامَ 590، وقد مكثَ حينها عنده بضعةَ أشهُر. ثم زاره سنةَ 598 حين ترك الغربَ لغير رجعة. ومع هذا فإني لم أجد

---

[4] المبادئ والغايات، ص137، الكتب العلمية.

لهذا الشيخ الجليل أيّة ترجمة مستقلّة فيما لديَّ من المراجع، وهي كثيرة. وقد كان مشتَهِرًا جدّا بين رجال التصوُّف، كما تشهد عليه إشاراتُهم إلى تعاليمه وتصانيفه.

نقل عنه ابنُ عطاء الله السكندري في 'التنوير' والشيخ زرّوق الفاسي في 'الجامع للفوائد'. وقد ترك في طريق القوم من الإشارات والفقه الربّاني ما يدلُّ على علوِّ كعبه وطول باعه في المعارف. فمن ذلك ما نقله أبو العباس البسيلي التونسي المتوفّى سنةَ 830 قال: ...سُئِلَ عنها الشيخُ الصّالح العالِم أبو محمدٍ عبد العزيز المَهْدَوي فأجاب "اِعلم أن الأنبياء عليْهِمُ السلام مَنَزَّهون عنِ الفواحِش، مَعْصومون مِن الكبائِر. وعندنا عالَمان: عالَمُ العِلم والإرادة، وهو المُعبَّرُ عنه بالعالَم العُلْويّ، الْمُسمَّى بعالَمِ الْمَلَكوت. وعالَمُ الْمُلكِ والشهادة، وهو المعبَّرُ عنه بالعالَم السُّفْلي. فالعالَمُ الْمَلَكوتي هو الذي لا يَقْتَضي التَّرتيبَ ولا الزّمانَ ولا المكان، وإنّما هو أَمْرٌ ربَّانيّ إراديّ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ: كُن! فَيَكُونُ﴾[النحل 40]، إذْ ليسَ في وُجودِه تَقديمٌ ولا تأخير ولاَ زيادةٌ ولا نَقْص؛ فهذا عبارةٌ عنِ العالَم الملَكوتيِّ الْمُستَمِرِّ على حقيقةٍ واحدة، وهو الأَزَليُّ الذي لا كسبَ فيه، وإنّما الكَسْبُ في عالم المُلْكِ والشَّهادة الْمُضَافِ إليه القدرةُ الْمُصَرِّفةُ للحِكْمَة، وفيه الترتيبُ والكَسْب والزمانُ والمكان والأكوانُ والأحكام."[5]

ونقل عنه أحمد ابنُ عَجيبة قال: وقال الشيخ عبد العزيز المهدَوي رضي الله عنه "مَن لَم يكن في دُعائه تاركًا لاختيارِه راضيًا باختيار الحقِّ تعالى له، فهو مُستَدرَجٌ مِمَّن قيل فيه «اُقْضوا حاجته، فإني أكرَه أن أسمع صوته!»[6] فإن كان مع اختيار الحقِّ تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مُجابًا وإن لَم يُعْطَ، والأعْمالُ بخَواتِمها." وقال ابن عجيبة أيضا: قال الشيخ عبد العزيز

---

[5] النُّكَت والتنبيهات في تفسير القرآن، مطبعة النجاح الجديدة ج2/ص243، الدار البيضاء.

[6] أخرجه الطبراني عن أنس وله شاهد عن جابر.

المهدوي رضي الله عنه "أجمعَ العُلماء على أن الحلال الْمُطلَق ما أُخِذ مِن يَد الله بسُقوط الوَسائط ؛ وهذا مَقامُ التوكُّل. ولهذا قال بعضُهم : الحَلالُ هو الذي لا يُنسَى اللهُ فيه.[7]

ومن أقوالِه ما نقلَه محمد بن عبد الكريم الحسيني قال: قال الشيخُ عبد العزيز المهدوي "حُسنُ الظَّنّ عِبارةٌ عن قَطعِ الوَهْم أن يكون أو لا يكون، لأنّ الوَهمَ قاتِلٌ وهو لِوقت ثانٍ. فمتى أَعطَيتَ أُذُنَك لِلوَهم هَلكتَ وَحدَك. وكذلك الإصغاء بالأُذُن إلى الشيطان والنَّفس جِنسٌ واحِد. وقال "العِلمُ النافِع هو عِلمُ الوَقتِ وصَفاءُ القلبِ والزُّهدُ في الدنيا، وما يُقرِّبُ من الجَنَّة وما يُبعِد عن النار، والخوفُ من الله والرّجاءُ فيه، ومعرفة آفات النُّفوس وطَهارتِها. وهو النورُ الْمُشارُ إليه أنه نورٌ يَقذِفُه الله في قَلبِ مَن يَشاء، دونَ عِلمِ اللِّسان والْمَنقولِ والْمَعقول". وقال "قُرّة العينِ لا تَكون لِمُجاهِدٍ ولا لِمَن يَدفَع الشيطانَ عنه، بل هي لِمَن اِستَراح مِن الْمُجاهَدة والدَّفْع" وقال "النفسُ الْمُطمَئِنَّةُ هي التي تخلَّصَت مِن السُّوء ولَم يَبقَ بينَها وبين السوء نسبةٌ. وكانت مَبادِئُها في الاكتساب الإيمانُ والرِّضا الْمُكتَسَب، فلما صَفَت وتطَهَّرت مِن جِهَة الْمَخلوقات وزالَ عنها الحِجابُ الذي هو صِفةُ الخَلق ؛ سَمِعَتِ النِّداءَ مِن مَكانٍ قريب، فأجابَت لِعَدَمِ الحِجاب، فخَرجَت للمَواهِب والرِّضا الوَضْعِيِّ الوَهْبِي الذي قال الله فيه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنه﴾ [المائدة 119] فدخلتْ في رِضا الله الَمطلوبِ الموهوب وفي عباده وجنته، لا في جنَّتِها بوَصْفِ كَسبِها وأعمالِها. وقال "الوَرَع أن لا يكون بينك وبين الخلقِ نِسبةٌ في أخذٍ أو إعْطاءٍ أو قَبولٍ أو ردّ، وأن يكون السَّبْقُ لِلَّه تعالى. وهو أن تَأتِيَ إليه طاهِرًا مِن جَميع الأشياءِ والعِلمِ والعَمل، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام 94] وقال أيضا "الورَعُ ألاّ تتحرَّك ولا تَسكُنَ إلا وترَى اللهَ في الحرَكات والسُّكون. فإذا رأى

[7] إيقاظ الهمم في شرح الحِكم ص37 وص143، الكتب العلمية، بيروت.

اللهَ ذهبت الحركةُ والسُّكون وبَقيَ مع الله. فالحركَة ظَرفٌ لِما فيها، كما قيل: ما رأيتُ شيئًا إلا رأيتُ اللهَ فيه. فإذا رأيتَ الله ذَهَبَت." [8].

هذا كلُّ ما وجدتُه عن هذا الشيخ، مع بعض الفقَرات هنا وهناك، وأكثرُها في الفتوحات المكية وهذه الرسالة. وحاصلُها ما سبقَ وأنَّه من تلاميذ الشيخ أبي مدين شُعيب وأنّه توفّي عامَ 621. يقول محمد ابن سالم مخلوف: أبو يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني القيرواني: ...العالم الرباني. كان من أكابر أعلام طريقة الإرادة وأئمتها... توفي بالقيروان سنة 621 وسنّه 72 عاما. وفي رجب من هاته السنة تُوفِّيَ صاحبُه ورفيقه في الأخذ عن أبي مدين، الشيخ الصالح المشهور عِلمًا وعَمَلا، أبو محمَّد عبد العزيز المهدوي.[9]

من الغريب جدًّا أن يكون شيخٌ بهذه المكانة خاملَ الذِّكر إلى هذا الحدّ. يقول شيخُنا في هذه الرسالة، تنبُّؤًا بهذا الأمر العجيب "ويعلم الله، لولا وُدّي فيك وحُرمتُك التي لك في نفسي ما خاطبتُك بشيء من هذا كلِّه ولا ذكرتُ اسمَك ولتركتُك مُهمَلا في جملة عباد الله تعالى! لكنّ اللهَ قد عرّف بيني وبينك روحا وجِسما، ومعنًى ورَسما[10]، فلم يتمكّن أن أُخاطبك إلا بما يقتضيه الوُدّ الصريحُ والدين الخالِص الصحيح. وأما فضلُك وتقدُّمك في طريقك عندي فمشهور..."

---

[8] موسوعة الكستزان، 290/13، 128/15، 213/15، 237/19، 43/21، دار المحبَّة، دمشق.

[9] ترجمة رقم567، الشجرة الزكية في طبقات المالكية، ج1/ص243، الكتب العلمية، بيروت.

[10] يشير هذا التعبير إلى أن شيخَنا لَم يرَ، على كثرة تلاميذ أبي مدين الذين لقيَهم، مَن هو أنسب من المهدوي لحمل علم وحال الغوث. فإنَّه يذكر في غضون هذه الرسالة قولَ الغوث فيما أخبره به أبو عمران السدراني: أما الاجتماع بالأرواح فقد صحّ بيني وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك...

فلو لا ذكرُ الشيخ الأكبر له في مصنَّفاته لما كان عندنا خبر عن هذا العالِم العامِل الفذّ. وقد نُسبت إليه بعض الكُتُب، من بينها 'تفسير بعض الآيات من القرآن' و'كشف الحجاب لرؤية عالي الجَنابِ، سيدِنا محمد حبيب الأحباب'. وهو مدفونٌ بالْمَرسَى شمالَي مدينة تونس في مقبرة سيدي عبد العزيز التي تحملُ اسمَه، وقد زرتُه هناك سنةَ 1437. نعم ترجم له حسن عبد الوهاب في كتاب العمر في مصنفات التونسيين[11]، ولكن لم يأتِ بشيء زائد عما ذُكر.

* * *

ترجمة صاحب الرسالة

العالِم العامل، إمام العلوم الشرعية روايةً ودراية، وشيخ المعارف الكشفيّة إلى الغاية، حُجّةُ الله الظاهرة وآيته الباهرة، الشيخُ الأكبر ذو المحاسن التي تبهر، أبو بكر وأبو عبد الله محيي الدين محمد بن علي ابن العربي الحاتمي الأندلسي. شأْنه ليس كسائر العلماء، بل إنّه خَتمٌ الوَلاية المحمّديَّة وصاحب الراية العليَّة. يقول في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات: خَتْمُ الوَلاية الْمُحمدية لرجُلٍ من العرَب من أكرمها أصلاً ويَدا وهو في زماننا اليومَ موجودٌ عرفتُ به سنةَ 595 ورأيت العلامة التي له، قد أخفاها الحقُّ فيه عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيتُ خاتَم الولاية منه. وهو خاتم النبوة المطلقة لا يعلمها كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقّق به من الحق في سره من العلم به. كما أن الله ختم بمحمد عليه السلام نبوَّةَ الشرائع، كذلك ختم بالختم المحمدي الوَلايةَ التي تحصُل من الوارث المحمدي! والواقع أنَّ شيخَنا هو ذاك الوارث كما يقول صراحةً:

أنا وارث، لا شكَّ، عِلمَ محمدٍ ... مِن الله في النَّعماء فانهَضْ على أَثَري

ولستُ بمعصومٍ ولكنَّ شهودَنا ... هو العصمةُ الغرَّاءُ في الأنجُمِ الزُّهر

---

[11] رقم 120، ج1/ص481.

علمتُ الذي قُلنا ببلدةِ تونسَ بـأمْر إلَـهيٍّ أتاني فـي الذِّكْـر

أتاني بهِ في عامِ تسعينَ شِرِبُنا بمنزلِ تَـقديسٍ منَ الوهمِ والفكرِ

ولَـمْ أدرِ أنِّـي خاتَمٌ ومُعــيَّنٌ إلى أربـعٍ منها بِـفاس وفي بَـدرِ

فإنِّـي خَـتمٌ لأَولياءِ مُـحمَّـد خِتامُ اختصاصٍ في البَداوةِ والحَضرْ

وُلد شيخُنا بمدينة مُرسيَة، حاضرةِ شرق الأندلَس، يومَ الاثنين سابعَ عشر رمضان سنة 560. ثم انتقل به أهلُه إلى إشبيلية سنة 568 بُعيدَ وفاة ابن مَردَنيش، فترعرع فيها وأقام بها إلى سنة 598. أبوه سَلسلُ ذرِّيّة حاتم الطائي وأمُّه نورٌ من عائلة بربرية صَنهاجيَّة من تلمسان. كان له أختان، أمّ السعد وأمّ العلاء. وتزوَّج على الأقل أربعَ نساء أنجبن له زينبَ وعِمادَ الدين محمدًا الكبير وسعدَ الدين محمدًا الصغير. هذا فيما بلغنا، والله أعلم. ومات، قدَّس الله سرَّه العزيز، بدمشقَ سنةَ 638 ليلةَ الجمعة لثمان وعشرين من شهر ربيع الآخر ودفن بمقبرة الصالحية بسفح جبل قاسيون.

أخذ علوم الشريعة واللغة عن عدد من أهل المغرب، يطول تعدادهم. أخذ القرآن بالقراءات السبع على أبي بكر بن خلف الإشبيلي وأبي القاسم الشراط القُرطبي. وسمع على عبد الله الحجري وابن الصائغ ومحمد بن أبي جمرة وابن زرقون وعبد الحق الإشبيلي، وأخذ عنه كُتبَ أبي محمد علي ابن حزم، كما ذكرَه في الإجازة للملك المظفَّر. ثم ارتحل إلى المشرق ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم أخذًا وعطاء. فأخذ هنالك عن الكثير روايةً ودراية، وأجازه جماعة منهم الحافظ السِّلَفي وابن عَساكر وابن الجوزي وغيرُهم كثير.

لقد بلغ هذا العالِم العارف الإمام الفَرد الفذّ درجة الاجتهاد المُطلَق في كافَّة العلوم الشرعية من أصول وفروع وعلوم وهبية. فلا يُنسب إلى مذهبٍ ولا إلى أيّة مدرسة، مع أنَّه أقرب ما

يكون إلى المذهب الظاهري. يقول في الباب السبعين ومائتين من الفتوحات: لقد أنعم الله عليّ ببشارة بشَّرني بها وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي. فأوقفني عليها ونهاني عن الانتِماء إلى مَن لقيتُ من الشيوخ وقال لي «لا تَنتَمِ إلا إلى الله، فليس لأحد مِمَّن لقِيتَه عليك يَدٌ مِمّا أنت فيه. بل اللهُ تولاّك بعِنايته. فاذْكُر فَضْلَ مَن لَقيتَ إن شِئتَ ولا تَنتَسِب إليهم، وانتسِبْ إلى رَبِّك!» ومن شعرِه في ذلك:

نَسَبوني إلى ابنِ حَزمٍ وإنّـي	لستُ مِمّن يقول: قال ابنُ حزمِ
لا ولا غَـيرُه فَإنَّ مَقـالـي	قال نصُّ الكتاب، ذلك عِلمي
أو يقول الرسولُ أو أجْمع الخَـ	ـلْقُ على ما أقولُ؛ ذلكَ حُكمي

لقد نقِم عليه عددٌ من علماء الرُّسوم إذْ لم يقِفوا على فهم كلامه، فكفَّروه وهم لا يعلمون مدَى عُمقِ مقالِه وعلوِّ مَقامه. فمِن ذلك ما ذكره في الباب السابع ومائتَين من الفتوحات، حيث قال: قلنا في نَظمٍ لنا:

يا مَن يراني ولا أراه	كم ذا أراه ولا يراني

فقال لي بعضُ أخواني: كيف تقول أنّه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له في الحال مُرتَجِلا:

يا من يراني مُجرمًا	ولا أراه آخِذَا
كَم ذا أراه مُنعِـماً	ولا يراني لائذا

مِن مثل هذا نعلم أن لظاهره كلام شيخِنا، قدّس الله سرَّه، مَحامِلَ تليق به، وأنّه يحتاج إلى تأويل وغَور في الأمور وقبَس مِن نور. فأَحسِن الظنَّ، يا هذا، ولا تنتَقِدْ بل اعتَقِد. وللناس في هذا المعنى كلام، والتسليم أسلم، والسلام.

على أنّ الشيخ الأكبر ما بلغ هذه الدرجةَ والمقامَ السامي إلا بالعبوديَّة المحضة والتواضع التّامّ، فإنه يقول في الباب الخامس والستين وثلاثمائة من الفتوحات: ما علَّقتُ نفسي قطُّ إلى جانب الحق أن يُطلعني على كَونٍ مِن الأكوان ولا حادِثةٍ من الحوادث. وإنما علَّقت نفسي مع الله أن يَستعمِلَني فيما يُباعدُني عنه وأن يَخُصَّني بمقام لا يكون لِمُتَّبِع أعلَى منه. ولو أَشركَني فيه جميعَ مَن في العالَم لم أتأثَّر لذلك؛ فإني عبدٌ مَحض، لا أطلُب التّفوُّقَ على عِباده. بل جعل اللهُ في نفسي مِن الفرَح أني أَتَمنَّى أن يكون العالَمُ كلُّه على قَدَمٍ واحِدة في أعلى المراتب. فخصَّني الله تعالى بخاتِمةِ أمرٍ لم يَخطُر لي بِبال. فشكرتُ الله تعالى بالعَجز عن شُكره، مع تَوفيَتي في الشُّكر حقَّه. وما ذكرتُ ما ذكرتُه مِن حالي للفخر، لا والله! وإنما ذكرتُه لأمرَين: الأمرُ الواحِد لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى 11] وأَيَّةُ نعمةٍ أعظمُ من هذه؟ والأمرُ الآخر ليسمَعَ صاحبُ هِمَّةٍ، فتُحْدِث فيه هِمّةً لاستِعمال نفسِه فيما استعملتُها، فينالَ مثلَ هذا فيكون معي وفي درجتي؛ فإنه لا ضيق ولا حرج...

قُل للشخصِ الذي بالحقِّ يعرفُني	مَن كان يعرفني بالحقِّ يُنصفني
ولستُ فيه بِمَعصوم وإن غلِطتُ	إلفاظًا فعلى التحقيقِ يوقِفُني
فصاحِبي مَن أراه في تَقلُّبه	في كلِّ حال من الأحوال يَنصحُني
في خلوةٍ إذْ نُصحُ الشخصُ في ملإٍ	فضيحةٌ، وخليلي ليسَ يَفضَحُني
فالله يَمنحُ ما أمَّلت منه وما	يعطيني إلا الذي في الوقتِ يُصلِحُني
بروحه القُدسِيّ العال أَيَّدَني	وبالظِّلالِ التي في الحرِّ ظلَّلني
وجاءنا منهُ تَوقيعٌ بأنَّ لَنا	خَتْمَ الوَلايةِ والْخَتْمانِ في قَرَنِ
فقلتُ: يا ربِّ أما العلمُ أقبلهُ	والمُلكُ لَستُ أراه، فهوَ يخدعني

ولنقبض عِنانَ القول، وإلا فترجمة شيخنا تستغرق الأوقات والمجلّدات. وأحسن ما قرأتُ في ذلك ما كتبَته السيدة كلود عدّاس[12] وقد تَرجمه مُرخَّرا أحمد الصادقي[13]، وأُهديتُ مِن قِبَل الشيخة سعاد الحكيم، والتي قدَّمت له، نسخةً منه ببيتها يوم السبت 9 شوال 1439.

خصائص هذه الطبعة

أوّلُ ما يلزَمُنا التنبيهُ عليه هو أنّنا أعرضنا عن نقل نصٍّ شِعري جاء في ذَيل الرسالة. قد أضافه الشيخُ للمهدوي وأمثالِه خاصّة؛ أبيات ذكر فيها أسرارَ حروف الهجاء. مَطلَعُها "إن الحروف أئمة الألفاظ... " وَردت في أواخر المخطوطات والطبعات، وعُنون لها بـ 'المبادئ والغايات...' والصواب أن ذلك جزءٌ من عنوان كتاب مستقلّ. أعرضنا إذًا عن ضمّه لهذه النشرة لِما نراه من عدَم الجدوَى من إيراده، إذ لا عَلاقةَ له بموضوع الرسالة إطلاقا، بل هو خاصّ بعلم الحروف. ثم إن قراءته جدُّ عَويصة لغُموضه وإبهامه، فمَن لا دِراية له بعلم الحروف لا يستفيد منها شيئا البتة. وأما مَن شاء الاطّلاعَ عليه فهو بِذَيل سائر الطبعات. ولقد خصّص له الشيخُ ابن العربي الباب الثاني من 'الفتوحات المكية' في معرفة مَراتب الحروف والحركات وكتابا مستقلاًّ بعنوان 'المبادئ والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات'. فمَن أراد مُطالعتَه والاستفادةَ من شروح وبَيانات الشيخِ الأكبر فما عليه إلاّ أن ينظُره في هاذَين الموضِعَين. ففيهما ما يكفي ويشفي. لكنّه علمٌ غامض لا بُدّ فيه مِن شيخ. أمّا أنا فلا عِلمَ لي بهذا الفنّ. وليس كلُّ ما يُعلَم يُقال، فلِكلِّ مقامٍ مَقال ولكل فنّ رِجال!

الغاية من هذا العمل إنما هي تقريب الرسالة إلى عامّة القُرّاء قدرَ الطاقة، وذلك بنسخ النص اعتمادا على المخطوطات وعلى قواعد الإملاء والنحو، وتقسيمه على أربع أجزاء وخاتمة

[12] *Ibn 'Arabî, ou la Quête du Soufre Rouge*, Gallimard, Paris 1989.

[13] ابن عربي، سيرته وفكرُه، المدار الإسلامي، بيروت 2014.

كما هو الشأن في المخطوطات، بخلاف الطبعات المتداولَة في السوق. ضبطنا أسماء الأعلام والأمكِنة واللغات والعبارات، بإضافة بعض التراجم، وضبطنا الآيات القرآنية مشكولةً مع نسبتها إلى مواضعها في مصحف المدينة برواية حفص عن عاصم. خرَّجنا الأحاديث النبوية وآثار الصحابة وغيرهم الواردة، وذلك بذكر مصادرها من دواوين السنَّة وغيرها مع بيان درجاتها ما أمكن. كلَّما اقتضى الأمرُ شرحنا الغريبَ وقيَّدنا المُهمَل وأوضحنا ما غمُض من اصطلاحات القوم وفتحنا ما استُغلق من عبارات الشيخ الأكبر بما فتح الله تعالى به. وقد اعتُمِدت لهذه النشرة خمسُ مخطوطات وستأتي صورُ أولَى صفحاتها.

وختامًا أرجو من قارئ هذه الرسالة أن يتقبّلَها كهديَّة مُلقاةٍ إليه وأن يتمعنها كنصيحة مُسداة إليه، شاكرًا للهِ الذي منحه إيّاها عسى أن يُطلِعه على الأسرار المصونةِ فيها، داعيًا لصاحبها أن يرفع اللهُ مقامَه في علِّيين، ومُستغفِرًا لِشارحها الذي لَم يألُ جُهدًا في تقريبها إليه، مُقدِّمًا بين يدَي ذلك وخاتِمًا بالصلاة على خير خلق الله محمّدٍ ذي لواء الحمد والجاه وعلى آله وصحبه ومَن والاه، والحمد لله. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، وربُّنا الرحمن المستعان وعليه التُّكلان ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وهو أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

* * *

أسانيد الشارح إلى الشيخ الأكبر

أروي هذه الرسالة "رُوح القُدُس في مُناصَحَة النَّفْس" وجميع كتب الشيخ الأكبر إجازةً عن محمد الحسن بن علوي المالكي المكي عن والده عن عمر حمدان عن محمد علي بن ظاهر الوتري عن أحمد منة الله العدوي عن محمد الأمير الكبير المصري عن محمد بن سالم بن أحمد الحفني عن محمد البديري الدمياطي عن المُلاّ إبراهيم عن زين العابدين بن عبد القادر محمد بن يحيى الطبَري عن والده عبد القادر عن جدّه يحيى عن عبد العزيز بن

عمر بن تقي الدين محمد بن عمر بن فهد المكي عن أبيه عمر عن جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشدي المكي عن أبي محمد عبد الله بن سليمان النشاوي عن رَضي الدين الطبري عن الشيخ الأكبر محمد بن علي ابن العربي الحاتمي قدَّس الله سرّه.

وهذه بعضُ الأحاديث النبويّة أرويها بالأسانيد المُتّصلة من طريق الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي. فمنها ما نرويه إجازةً عن محمد الحسن بن علَوي عن والده علوي عن والده السيد عباس المالكي المكي الحسني عن محمد عابد المكي عن السيد أحمد زيني دَحلان عن عثمان بن حسن الدمياطي عن محمد الأمير الكبير عن العدوي عن عقيلة المكي عن حسن العجيمي عن أحمد بن محمد قشاش عن أحمد بن علي الشناوي عن والده علي بن عبد القدوس الشناوي عن عبد الوهاب الشعراني عن زكريا الأنصاري عن زين الدين المراغي العثماني عن شرف الدين بن إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي عن أبي الحسن علي بن عمر الواني عن الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي قال: حدَّثنا، أمام المقام بالحرَم المكي الشريف تجُاهَ الرُّكن اليماني الذي فيه الحجَر الأسود سنةَ أربعٍ وستمائة، شيخُنا مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني البزار عن أبي الفتح عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكرْخي الهرَوي قال: أخبرني أبو عامر محمود بن القاسم الأزْدي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي وأبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغورجي التاجر قالوا: أخبرنا محمد بن عبد الجبار الجراحي قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي عن التِّرمِذي. (ح) ويرويه الشيخ الأكبر أيضًا عن عبد الوهاب بن علي بن سُكينه البغدادي عن أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكروخي عن أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهرَوي عن عبد الجبار الجرّاحي عن أبي العباس محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي عن أبي عيسى محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى الضحاك السُّلَمي الضرير

البوغي التِّرمِذي قال: حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود أخبرنا شُعبة عن قَتادة قال: سمعت أَنَسَ بنَ مالكٍ يُحدِّث عن عُبادةَ بنِ الصامِتِ، رضي الله عنهما أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال «مَن أحبَّ لقاءَ الله، أَحَبَّ اللهُ لقاءَه، ومَن كَرِه لِقاء الله كَرِه اللهُ لقاءَه»[14]

وعن حاتم شَلَبي الفَلاّزوني الدّمياطي عن صُبحي بن جاسم السامرّائي عن محمد الحافظ بن عبد اللطيف التِّجاني عن المعمَّر علي بن سرور الزَّنكَلوني عن البرهان إبراهيم بن الحسن السَّقا عن الأمير الصغير عن والده محمد الأمير الكبير المصري عن محمد بن سالم بن أحمد الحفني عن محمد البديري الدمياطي عن المُلاّ إبراهيم عن زين العابدين بن عبد القادر محمد بن يحيى الطبَري عن والده عبد القادر عن جدّه يحيى عن عبد العزيز بن عمر بن تقي الدين محمد بن فهد المكي عن أبيه عمر عن جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشدي المكي عن أبي محمد عبد الله بن سليمان النشاوي عن رَضي الدين الطبري عن الشيخ الأكبر محمد بن علي ابن العربي الحاتمي قدَّس الله سرّه قال: حدّثنا محمد بن علي بن أخت أبي الربيع المقوقي حدثنا أحمد بن محمّد ابن إبراهيم الحافظ حدثنا أبو عبد الله الثَّقَفي حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلَمي الصوفي حدثنا محمد بن حَمدون حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا أحمد بن صليح حدثنا ذو النون المصري عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال «الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر»[15].

---

[14] الحديث صحيح رواه الترمذي في الزهد وقال: حسن صحيح، وفي الباب عن أبي موسى وأبي هريرة وعائشة. قلت: وعن أنس مرفوعا. ورواية عُبادة في الصحيحين وغيرهما.

[15] الحديث صحيح رواه البزار في مُسنَده ر6108 والقُضاعي مسند الشهاب عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد عن موسى بن عُقبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر. وله شهد عن أبي هريرة عند مسلم والترمذي وعن ابن عَمرٍو عند أحمد وابن أبي شيبة.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد آل سعد المَطيري عن الشاذلي النَّيفر عن عَبْد الحَيّ الكتاني عن الشهاب أحمد الجمل النهطيهي المصري عن محمد بن أحمد البهي الطندتائي عن الحافظ مُرتضى الزَّبيدي عن المعمَّر داوود بن سليمان الخربتاوي المالكي عن المعمر الشمس الفيومي عن السيد يوسف الأرميوني عن الحافظ جلال الدين السيوطي عن محمد بن مقبل عن أبي طلحة الحراوي الزاهد عن الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي عن سعد الدين محمد بن محيي الدين محمد بن علي ابن العربي قُدِّس سرُّه عن أبيه الشيخ الأكبر.عن أبي الوليد بن العربي وأبي عبد الله بن عيسون وأحمد الشاهد عن القاضي أبي بكر بن العربي الْمَعافِري عن أبي المطهَّر سعد بن عبد الله الأصبهاني عن أحمد بن أحمد الأصبَهاني عن أحمد بن عبد الله[16] قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق السراج قال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله عزّ وجل قال: مَن آذى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب! وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أفضلَ من أداء ما افترضتُ عليه, وما يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يُبصر به ويدَه التي يَبطِش بها ورجلَه التي يمشي بها. فلئن سألَني عبدي أعطَيتُه, ولئن اِستعاذني لأَعَذتُه. وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُه تَردُّدي عن نفسِ المؤمِن؛ يَكرَه الموتَ وأكرَه إساءتَه, أو مساءته!»
وعن العلامة إسماعيل بن عثمان زين اليمني المكي الشافعي عن محمد بن يحيي الأهدل عن محمد بن عبد الرحمن الأهدل عن أحمد زيني دحلان عن عبد الله الشرقاوي عن محمد بن

[16] وهو الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني صاحب الحِلية وغيرها. والحديث صحيح رواه البخاري في الرقاق وابن حبان عن أبي هريرة، وله شواهد عن عائشة وعمر وابن عباس.

سالم الحفني عن أحمد الخليفي عن أحمد البشيشي عن علي بن عيسي الحلبي عن علي الزيادي عن أحمد بن حجر الهيتمي ومحمد الرملي والخطيب الشربيني، كلهم عن زكريا الأنصاري عن أبي الفتح المراغي عن القطب إسماعيل الجَبَرتي عن القطب الواني عن الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين ابن العربي الحاتمي قدس الله سرَّه قال: حدثنا غيرُ واحد إجازةً وسماعا عن ابن صاعد العراوي عن عبد الغافر الفارسيّ عن الجُلودي عن إبراهيم بن محمد بن سفيان المروَزيّ عن مُسلم بن الحجّاج القُشَيري قال: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن بَهرامَ الدارِمي حدثنا مَروان، يعني ابنَ محمد الدمشقي، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخَولاني عن أبي ذَرٍّ جُندُب بنِ جُنادةَ الغِفاري، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّما؛ فلا تظالَموا! يا عبادي, كُلُّكم ضالٌّ إلاّ مَن هَدَيتُه, فاسْتَهدوني أهْدِكم. يا عبادي, كُلُّكم جائعٌ إلاّ مَن أطعمتُهُ, فاستطعِموني أُطْعِمْكم. يا عبادي, كُلُّكم عارٍ إلا مَن كَسوتُه, فاستكْسُوني أَكْسُكُم. يا عبادي, إنَّكم تُخطِئون بالليل والنهار, وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعا, فاستغفروني أغفِرْ لكم. يا عبادي, إنَّكم لن تبلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني, ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني. يا عبادي, لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتْقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم, ما زاد ذلك في مُلْكي شيئا. يا عبادي, لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجرِ قلب رجل واحدٍ منكم, ما نقَص ذلك مِن مُلكي شيئا. يا عبادي, لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صَعيدٍ واحد فسألوني, فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألَتَه, ما نَقصَ ذلك مما عندي إلا كما

يَنقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ. يا عبادي، إنّما هي أعمالُكم؛ أُحصيها لكم ثم أُوَفّيكم إيَّاها. فمَن وَجَدَ خيرًا فليَحْمَدِ الله, ومَن وجد غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه!»[17]

وعن شيخ الجامع الأموي الشيخ عبد الرزاق الحلبي عن عبد الله الهَرَوي عن توفيق الهبري عن يوسف بن إسماعيل النَّبهاني عن أبي الخير عابدين عن والده أحمد بن عابدين عن محمد بن عابدين عن شاكر العقاد العُمري عن أحمد العطار عن إسماعيل العَجْلوني عن عبد الغني النّابُلسي عن محمد بدر الدين الغَزّي عن والده محمد نجم الدين عن زكريا الأنصاري عن أبي الفتح المراغي عن القطب إسماعيل الجَبَرتي عن القطب الواني عن الشيخ الأكبر قدس الله سرَّه العزيز عن صدر الدين أبي طاهر السِّلَفي الأصبهاني، قال: أخبرنا أبو عثمان عبد المنعم بن المسلم بن موسى الصعيدي الأَبْنودي بمصر أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله التُّجيبي أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن مرزوق الأَنماطي أخبرنا أبو القاسم هشام بن محمد بن أبي خليفة حدثنا سعيد بن هاشم بن مَرثَد حدّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دُحيم حدثنا علي بن معبد عن موسى بن أعين عن عطاء بن السائب عن الأغرّ أبي مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما أدخلته جهنم!»[18]

وعن محمد بن علوي بن عباس المالكي عن والده عن عمر حمدان عن أحمد بن إسماعيل البرزنجي عن أبيه عن صالح الفُلاّني عن محمد سعيد سفر عن مُحمّد حَياة السِّندي عن عبد الله بن سالم البَصري عن عيسى الجَعفري عن علي الأجْهوري عن النور القَرافي عن جلال الدين السُّيوطي عن خديجة بنت الزين الأرموي عن عائشة بنت محمد بن عبد الهادي عن

---

[17] حديث صحيح خرّجه مسلم في البِرّ وابن حبان والبخاري في الأدب المفرد وغيرهم.

[18] صحيح خرّجه أبو داود في اللِّباس وابن حبان، وله شاهد عند مسلم عن أبي سعيد.

أبي العباس أحمد الحجَّار الصالحي عن محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود ابن النجار عن الشيخ الأكبر قدس الله سرَّه قال حدّثنا أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادي بمكة حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن هَزار مَرْد الصريفيني إملاءً ببغداد أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن هارون الدقاق حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغَوي حدثنا علي بن الجَعْد أنبأنا شُعبة عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يَتمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الموتَ مِن ضُرّ أَصابَه، فإن كان لا بُدّ فاعِلاً فَلْيَقُل: اللَّهمَّ أحْيني ما كانتِ الحَياةُ خَيْرًا لي، وتَوَفَّني إذَا كانتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لي!»[19]

وعن أبي الفيض محمد ياسين الفاداني الأندُنيسي قال: أخبرنا الشيخ محمد عبد الباقي الصوفي عن شيخه صالح بن عبد الله السناري الصوفي عن الشمس محمد بن خليل القاوقجي الصوفي عن الشيخ محمد بن أحمد البهي الصوفي عن السيد محمد مرتضى الزبيدي الصوفي عن الشمس محمد بن الطيب المغربي ثم المدني الصوفي قال: أخبرنا الشيخ البركة الصوفي أبو طاهر عن والده إمام الصوفية أبي العرفان إبراهيم عن شيخ الصوفية الإمام صفي الدين القشاشي الصوفي عن أبي المواهب الشناوي الصوفي عن والده العارف بالله نور الدين علي بن عبد القدوس الصوفي عن العارف بالله عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الصوفي عن شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري عن الشرف أبي الفتح محمد بن الزين أبي بكر بن الحسين القرشي الأموي العثماني المراغي الصوفي عن شيخ وقته الشرف إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي العقيلي الجبرتي الصوفي عن المسنِد المعمَّر أبي الحسن علي بن عمر بن أبي بكر الواني الصوفي عن الشيخ الأكبر شيخ الصوفية

[19] صحيح خرجه البخاري في المرضى وباقي الستّة، وله شاهد عن عمار بن ياسر.

محيي الدين بن العربي عن الشيخ الزاهد أبي أحمد عبد الوهاب بن الأمين علي بن عبد الله البغدادي المعروف بابن سُكينة، وهي أم أبيه، بقراءته على الشيخ العارف بالله أبي الفضل أحمد بن طاهر بن سعيد بن الإمام العارف بالله الصدِّيق فضل الله أبي سعيد بن أبي الخير أحمد بن محمد بن إبراهيم الْمِيهَني عن الشيخ أبي بكر أحمد بن علي بن خلَف الشيرازي عن الشيخ الإمام الولي المقرَّب شيخ الصوفية بخراسان أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزْدي السُّلَمي، قال: أخبرنا عبد الواحد بن علي السَّيّاري أخبرنا خالي القاسم بن القاسم السيّاري أخبرنا أحمد بن عبّاد بن مسلم أخبرنا محمد بن عبيدة النافِقاني أخبرنا عبد الله بن عبيد البَلْخَتجاني أخبرنا سَورة بن شدّاد الزاهد عن سفيان الثَّوري عن إبراهيم بن أدهم العَجلي عن موسى بن زيد الراعي عن أويس القَرني عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ للّهِ تِسعةً وتِسعين اِسْمًا، مَن أحْصاها دَخَلَ الجَنَّة: هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلهَ إلا هوَ الرَّحْمن الرَّحيم المَلِك القُدُّوس السَّلام الْمُؤمِن الْمُهَيْمِن العَزِيز الجَبّار الْمُتَكَبِّر الخالِق البارِئ الْمُصَوِّر الغَفّار القَهّار الوهّاب الرَّزّاق الفَتّاح العَليم القابض الباسِط الخافِض الرّافِع الْمُعِزّ الْمُذِلّ السَّمِيع البصير الحَكَم العَدْل اللَّطِيف الخَبِير الحليم العَظيم الغَفُور الشَّكُور العَليّ الكَبير الحَفِيظ الْمُقيت الحَسِيب الجَليل الكريم الرَّقِيب الْمُجيب الواسِع الحَكيم الوَدُود المَجيد الباعِث الشَّهيد الْحَقّ الوَكِيل القَويّ الْمَتِين الوَليّ الْحَميد الْمُحصي الْمُبدِئ الْمُعيد الْمُحْيي الْمُميت الْحَيّ القَيُّوم الْواجِد الْماجد الواحِد الأحَد الصَّمَد القادِر الْمُقْتَدِر الْمُقَدِّم الْمُؤخِّر الأوَّل الآخِر الظّاهِر الباطِن الوالي الْمُتعالِ البَرّ التَّوّاب الْمُنتَقِم العَفُوّ الرَّؤوف مالِكُ الْمُلْكِ ذُو الجَلالِ والإِكرامِ الْمُقْسِط الجامِع الغَنيّ الْمُغني الْمانِع الضّار النّافِع النُّور الهادي البَديع الباقي الوارِث الرَّشِيد الصَّبُور.»

فائدة: يقول سيدي الشيخ الأكبر في الباب لسابع والسبعين ومائة في معرفة مقام المعرفة من الفتوحات المكية: اِعلم أن الذي يعتمِد عليه أهلُ الله تعالى في أسمائه سبحانه هي ما سمَّى به نفسَه في كُتبه أو على ألسنةِ رسله. وأما إذا أخذناها من الاشتقاق أو على جهة المدح فإنها لا تحصَى كثرةً والله يقول ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[طه 8- الحشر 24]. وورد في الصحيح «إنّ لِلّه تسعةً وتسعين اسما، مائةً إلا واحدا، مَن أحصاها دخل الجنة»[20] وما قدرنا على تعيينها مِن وجه صحيح، فإن الأحاديث الواردة فيها كلّها مُضطرِبة لا يصحُّ منها شيء. وكل اسم إلهي يحصُل لنا من طريق الكشف أو لِمَن حصل، فلا نورده في كتاب وإن كُنّا ندعو به في نفوسنا. لِما يؤدّي إليه ذلك من الفساد في المدَّعين الذين يفتَرون على الله الكذب. وفي زماننا منهم كثير. ولما فَحَصنا عن الحُفّاظ لم نر أحدًا اعتنى بها مثلَ الحافظ أبي محمد علي بن سعيد بن حَزْمٍ الفارسي، وغاية ما وصلت إليه قُدرتُه ما أَذكُره من الأسماء الحسنى. هذا مَبلَغ إحصائه فيها مِن الطرُق الصحاح على ما حدَّثناه علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الفرياني عن أبي محمد بن عبد الحق بن عبد الله الأزدي الإشبيلي وحدثناه عبد الحق إجازة عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن محمد علي بن حزم الفارسي قال: إنما تؤخذ يعني الأسماءُ من نص القرآن ومما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد بلغ إحصاؤنا ما نذكره، وهي: الله الرحمن الرحيم العليم الحكيم الكريم العظيم حليم القيوم الأكرم السلام التواب الرب الوهاب الأقرَب سميع مجيب واسع العزيز الشاكر القاهر الآخِر الظاهر الكبير الخبير القدير البصير الغفور الشكور الغفار القهار الجبار المتكبر المصوِّر البَر مقتدِر الباري العلي الغني الولي القوي الحي الحميد المجيد الودود الصمَد الأحد الواحد الأول الأعلى المتعال الخالق الخلاق الرزاق الحق اللطيف رؤوف عفوّ الفتاح المتين المبين المؤمن

[20] خرجه البخاري في التوحيد ومسلم والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن أبي هريرة.

المهيمن الباطن القدّوس الملِك مليك الأكبر الأعز السيِّد سُبّوح وِتْر مِحسان جميل رفيق المسعِّر القابض الباسط الشافي المعطي المقدم المؤخر الدَّهْر. فهذا الذي رُوِّيناه عن أشياخنا عن أشياخهم عنه في إحصائه. وعندنا من القرآن أسماءٌ أُخَرُ جاءت مُضافةً وهي عندنا من الأسماء وليست عنده من الأسماء وكذلك في الأخبار. ومن أراد أن يقف على أسماء الله تعالى على الحقيقة فلينظر في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾[فاطر 15] وعلى الحقيقة ما في الوجود إلا أسماؤه ولكن حَجبَت عيونَ البَصائر عن العِلم بها أعيانُ الأكْوان.

***

وهذا سَنَدي في طريق القوم. أقول وأنا أبو حامد صخر بن محمد الهادي ابن حسين الأموي الجزائري: أخذتُ العهد في الطريقه العلوية، ودخلت بفضل الله في سِلك السادة الصوفية سنةَ 1413 هجرية، وذلك بالزاوية العلَوية بمنزل بوحارَة، بحيدرة بالجزائر العاصمة، على يدي الشيخ الْمُعمَّر الساقي الذي أخذَ بيدي ولقَّنني 'لا إلهَ إلاّ الله' بحضرة الشيخ الْمُعمّر الفقيه العارف الْمُربِّي مولود بوداعي القبائلي، المتوفّى يوم الأحد 28 شعبان من هذه السنة أي 1438 عن عمر يفوق المائة وعشرة سنين رضي الله عنه وأرضاه، - وسيِّدايَ الشيخ الساقي والشيخ مولود رحمهما الله كانا قد أخذا عن شيخ الطريقة مُباشرةً- ، عن شيخ الطريقة سيدي أحمد بن مصطفى بن عليوة الْمُستَغانِمي، قال قدَّس الله سرَّه: ولَمّا كان مَشربُ القومِ، رضوانُ الله عليهم، أبلغَ المشارب في التحقيق وأسنَى المدارِج في التدقيق، تعيَّن على كلِّ مُنتَسِب إليهم أن يُحقِّق مُستَنَدَه على الوَجه الأحَقِّ. لأن الحقائق لا تؤخَذ من كل ذي دَعوى، إلا بعد تحقُّق اِنتِسابه على الوجه الأكمل كما ستراه إن شاء الله في هذه السِّلسِلَة الْمُرتبِطة خلَفاً عن سَلَف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مِن غَير رِيبة ولا أدنَى شُبهة في دُرَّةٍ مِن دُرَرِها. فالْمُتَمسِك بالفَرعِ آخِذٌ

بالأصل مهما تَحقَّق الاتِّصالُ. وتلقَّيناه مِن ذُروة مَجدهم وثمرةِ غَرْسهم، ذي الأخلاق الطيبة والأسرار العجيبة، سيِّدنا ومولانا محمد بن الحبيب البَوزَيدي الشريف المُستَغانِمي، طَيَّب الله مَثْواه وجَعل الحَضرةَ العَليَّةَ مَنزِلَه ومَأواه. فعنه رضي الله عنه أخذنا ولقَّننا وأذِن لنا، فجزاه الله بما هو أهلُه. وهو أخذَها عن أُستاذه أبي المواهب سيِّدي محمد بن قَدُّور الوَكيلي، عن سيدنا محمد بن عبد القادر الباشا وعن سيدي أبي يعزَى المهاجي، وهما عن سيدي مولاي العربي بن أحمد الدَّرْقاوي، عن سيدي علي الجمل العمراني، عن سيدي محمد العربي بن عبد الله الفاسي، عن سيدي أحمد بن عبد الله الفاسي، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن سيدي محمد بن عبد الله الفاسي، عن سيدي عبد الرحمن الفاسي، عن سيدي أبي المحاسن يوسف الفاسي، عن سيدي عبد الرحمن المجذوب، عن سيدي علي الصنهاجي الدوار، عن سيدي إبراهيم الفحام، عن سيدي أبي العباس أحمد زَروق الفاسي، عن سيدي أحمد بن عُقبة الحضرمي، عن سيدي يحيى بن أحمد القادري، عن سيدي علي بن محمد وفا، عن أبيه سيدي محمد وفا، عن سيدي داود بن ماخلا الهكاري، عن سيدي تاج الدين أبي الفضل أحمد بن عطاء الله السكندَري صاحب الحِكم، عن سيدي الشيخ الإمام العالم الزاهد الكبير العارف بالله شهاب الدين أحمد بن عمر بن محمد الأنصاري المرسي المشهور بأبي العباس الْمُرسي، عن سيدي سيّد الطائفة أبي الحسن الشاذلي وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي، عن سيدي عبد السلام بن مَشيش وهو عبد السلام بن أبي بكر بن علي الإدريسي الحسني، عن سيدي عبد الرحمن العطار الزيات المدني، عن سيدي تُقَيِّ الدين الفُقَيِّر الصوفي، عن سيدي القطب فخر الدين، عن سيدي نور الدين أبي الحسن علي، عن سيدي تاج الدين محمد التركماني، عن سيدي شمس الدين محمد التركماني،

عن سيدي زين الدين القزويني، عن سيدي أبي إسحاق إبراهيم الخواص البصري، عن سيدي أبو القاسم أحمد المَرْواني، عن سيدي سعيد الصافي، عن سيدي أبي محمد فتح السعود، عن سيدي أبو عثمان سعيد الغزواني، عن سيدي أبي محمد جابر، عن سيدي الحسن بن علي السِّبط، عن والده سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، عن سيد المرسَلين سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ترجمة الشارح

أقول، وأنا الفقير الحقير الشاهد على نفسي بالعجز والتقصير، أبو حامد صخر بن محمد الهادي بن محمد الأمير بن أحمد بن ناصر ابن حسين الأموي الأندلسي الجزائري:

يقول الشيخ العلامة عبد الحميد ابن باديس عن رحلته إلى أم لبَّاقي: ..وتغدَّيت من الغد عند القائد السيد الباشا من آل بني حسين أعيان "الخنقة" بيت مجدٍ قديم، يروُون عن أوائلهم اتِّصالَ نسَبهم ببني أمية. والقائد يمثِّل بأخلاقه وسيرته المجمَع على حُسنِها وامتيازها ما يُصدِّق ذلك المجدَ ويُنميه[21]. وسيدي الباشا هو أبو محمود وحسناء ومنانة وجُمانة، من كبار أعيان عائلتي في القرن الماضي توفِّيَ عام 1370ه- 1951م. قد سألتُ يومًا سيدي حمّه بن حسين فقلت له: يُقال في العائلة أننا من ذريَّة عثمان بن عفّان، أصحيح هذا؟ فقال: ليس هذا بالثابت، لكنّنا من بني أميَّة. وسيدي حمّه مع كونه مطَّلعا عالِمًا بما في الكتُب، إلا أنّه كان، قدَّس الله سرَّه العزيز، من أهل الكشف والوُجود. فلا شكّ عندي أننا أمويّون. قفَل أجدادي الأعيانُ من الأندلس، بعد سقوط غرناطة عامَ 898هـ- 1492م، إلى المغرب الأقصى ثم الأوسَط، وكانوا يمكُثون زمانًا حيث يَحُلُّون فيستقرُّ فريقٌ منهم ويُتمُّ الباقون مسيرتَهم نحوَ المشرق بعد حين، فاستَغرَقت تشريقتُهم

---

[21] 'آثار ابن باديس' الصنهاجي المتوفَّى عام 1359هـ، ج4/ص302، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.

دهرًا لأسباب لا نعلمها، قد تكون أَمنيّة أو مَعيشيَّة أو دينيّة. إلى أن جاء زمانُ الرجل الصالح سيدي المبارك بن قاسم بن ناجي المتوَفّى سنةَ 1031هـ- 1622م. كان قد رأى في المنام أنه يأوي بأهله وأصحابه إلى بموضع اسمُه "مورد النَّعام" على ضفَّة "وادي العرب" جنوبَي جبال الأوراس في منطقة الزاب الشرقي ما بين بسكرة وتبسّة بالجزائر. فقصد ذلك الموضع وأسَّس سنةَ 1010هـ - 1602م قرية "خَنقة سيدي ناجي" تيمُّنا بجدِّه الذي عُرف بالصلاح والبركة. ازدهرت الخنقة وأدركت مجدَها فصارت حاضرةً تستقطب الناس لمصالحهم ومقصَدا للعلماء والزهاد والطلبة. إلى أن جاء أجلُها بعد استِقلال الجزائر فهجرها أهلُها وتركوها خرابا واستقرُّوا على ميلين منها على حافَّتي الطريق الواصل بين بسكرة وخنشلة. ثم أصبحت مؤخَّرا محفوظة ضمن المعالم التاريخية تحت منظَّمة اليونسكو. وقد سألت الشيخَ العارف بالله سيدي حمّه بن حسين رحمه الله قبل ذلك بمُدّة عن مستقبَل الخنقة فقال لي "بقَى الخلا والجلا!" وهكذا كان. وُلِدتُ بمدينة باتنة عاصمة الأوراس يوم الأربعاء 18 جمادى الأولى عام 1382هـ الموافق لِـ 17 أكتوبر 1962م، وبعد سنة من ولادتي انتقل أَهلي إلى الجزائر العاصمة حيث قضيتُ طفولتي وتابعتُ الدراسة الرسمية، وتلقّيتُ علومَ العربية والدين على جملة من الأساتذة وبخاصَّة الشيخ أبو زيد المصري الذي حبَّب إلي اللغة وكشف لي أسرارَها. وفي عامي الخامس عشر بعثني أبي إلى مدينة عنابة، بونة، لأُواصل دراستي، فتحصَّلت على باكالوريُس في الكيمياء ثم انتقلت إلى باريز للدراسة الجامعية. فلَم ألبث أن صدمني أسلوب العيش الغربي فزجَّ بي بقوّة في أحضان الإسلام التِجاءً إلى الله تعالى، فغادرت الدراسة التقنية وعزمتُ على طلب العلم النافع، فاقتنيتُ من الكتب في شتى العلوم الشرعية ما رأيتُه مفيدًا وعكفت سنينَ على دراستها بنَهم. بدأتُ بكتب الدعوة من مؤلّفات الإخوان مثل البنّا وقطب والهضيبي وحوّى والغزالي وكتب الندوي والبوطي وكتب السيرة، ثم تدرَّجت إلى دراسة المختصرات في التفسير كالجلالين وتفسير الصابوني، وفي

الحديث كالأربعين ورياض الصالحين والأذكار للنووي وفي الفقه كالرسالة القيروانيّة وأصول الفقه، ثم اهتمتُ بكتب ابن الجوزي وابن القيّم وابن تيميّة وأبي حامد الغزالي. ثم بدا لي أن أطلُب العلم عند أهلِه وآخذَه من أفواههم، فعُدتُ إلى الجزائر لأحضر دروس جماعة منهم الشيخ المعمَّر أحمد سحنون، ثم لازمت مدَّة الشيخ الصالح حَمَّه بن حسين بالخنقة، ثم انتقلت إلى أدرار لأسمَع من محمّد بن الكبير شيخ المالكية بالمغرب، ثم لازمت الزاوية العلاوية بالجزائر العاصمة حيث سمعت الشيخ الفقيه البركة الصوفي المولود بوداعي تلميذ الشيخ أحمد بن عليوة، وأخذت العهد عن الشيخ المعمَّر الساقي عن مؤسِّس الطريقة العلاّوية الشاذلية الشيخ أحمد بن عليوة المستغانمي المتوفَّى عام 1353هـ - 1934م. وأخذتُ الوِرد أيضا عن الشيخ عبد الحميد بن شيكو تلميذ الشيخ محمد بَلقايد مؤسس الطريقة الهبْرية الشاذلية. ثم سافرت إلى دمشق لأسمع الشيخ المقرئ عبد الرزاق بن حسن الحلبي الحنفي عميد الجامع الأموي، وحضرت دروسَ البوطي وخاصَّة شرح رياض الصالحين للنووي. ثم توجّهتُ إلى مكّة لأسمع محمد علي الصابوني المفسِّر وإسماعيل زين اليمني الفقيه الشافعي وقد خلع علي خِلعة، ومحمدًا الحسن بن علوي المالكي وقد ناولَني عدّة من كتبه، وقد أجازوني كلُّهم. ثم رجعت إلى الجزائر إبّانَ أزمة التسعينات فعملت في الصحافة والنشر وفي حقل الدَّعوة السِّلميّة من دون تحيَّز لجِهة في الميدان السياسي، وقد سُجِنتُ مرّات لالتِزامي الديني لكن دون ملاحقات لعدم تورُّطي في قضايا عدليّة. وفي تلك الفترة عكفت على دراسة كتب لا حصر لها باللغتين العربية والفرنسية في الشريعة من علوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث والأمّهات والفقه وأصوله وقواعده ومقاصده وفي العقيدة والدعوة والتصوف والفلسفة والتاريخ وعلوم اللغة. آخذًا بنَهَم من شتَّى المذاهب والمدارس والطُّرق. كان ذلك الاطّلاع في الحقيقة تضلُّعًا واسعا في شتى علوم الدين. وبعد المصالَحة الوطنية في الجزائر بين الدولة والجماعات المسلّحة، انتقلتُ بأَهلي إلى باريس

عاصمة فرنسا حيث عملتُ في حقل الثقافة مواظبًا على الدراسة والتأليف باللغتين العربية والفرنسية إلى الساعة. ولي تحقيقات منها فصوص الحِكم لابن العربي والسياسة للحضرمي والرَّمي للطرسوسي، ولي مقالات في اللغة والشريعة، وترجمات بين العربية والفرنسية في التاريخ وغير ذلك. ولي أيضًا مؤلَّفات منها الأثارة في الحديث ونُطق النَّقط في التصوف ومعالم الإسلام في أصول الشريعة وفهم الصلاة ومقاصد الصلاة وأحكام الصلاة الأصوليّة، والدين بين السياسة والاجتماع بالفرنسية، وسبيل النجاة وكلاهما بالفرنسية.

٧٩

رسالة روح القدس في مناصحة النفس
كتب بها الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي ابن العربي الطائي
الحاتمي الأندلسي من مكة حرسها الله سنة ستمائة
إلى عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس
ببلاد المغرب رضي الله عنهما وعن جميع المسلمين
رواية عبد الله المسعود بدر بن عبد الله الحبشي
معتوق أبي الغنائم بن أبي الفتوح الحراني عنه
غفر الله ذنبه

[illegible]

[illegible] في الله تعالى مرتدي الحج مولانا عبد المنعم بن محمد الأنصاري وإسماعيل [illegible]
[illegible] بالقاهرة المحروسة [illegible]

وقف هذا الكتاب الشيخ صالح ... محمد ... رضي الله عنه على ... والمبد

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وعلى آله

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المامور بالنصح
لاخوانه والمشدد عليه في ذلك دون اهل زمانه
محمد بن علي بن محمد ابن العربي الطائي الحاتمي
وفقه الله الى وليه في الله تعالى واخيه الدين
الوثيق ابي محمد عبد العزيز بن ابي بكر القرشي المهدوي
نزيل تونس ابقاه الله محفوظا وبعين الصون =
الالاهي والحراسة ملحوظا سلام عليك ورحمة الله
وبركاته اما بعد فاني احمد اليك الله
الذي لا اله الا هو واصلي على سيدنا محمد وعلى آله واسلم
تسليما اما بعد يا اخي فان النصح اولى ما تعامل به
رفيقان وتسامر به صديقان وقل ما دامت صحبة
اليوم الا على مداهنة وقد ثبت ان النبي عليه السلم
قال ما ترك الحق لعمر من صديق وقال
اويس القرني ان الحق لم يترك لرجل من مراد يا اخا مراد ان الموت
وذكره لم يترك لمومن فرحا وان علمه بحقوق الله لم
يترك له في ماله فضة ولا ذهبا وان قيامه لله بالحق
لم يترك له صديقا روينا هذا من حديث مخلد بن جعفر
عن محمد بن جرير عن محمد بن حميد عن زافر بن سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمور بالنصح لاخوانه والمتردد
عليه في ذلك دون اهل زمانه محمد بن علي العربي الحراق الحسني وفقه الله
الى وليه في الله واخيه الركن الوثيق ابي محمد عبد الواحد بن ابي بكر التونسي
نزيل تونس ابقاه الله محفوظا وبعين الصون الالهي والحماية ملحوظا
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته اما بعد فاني احمد اليك الله الذي
لا اله الا هو واصلي على سيدنا محمد وعلى اله واسلم تسليما اما بعد
فان النصح اولى ما تعامل به رفيقان وتامر به صديقان فقلما
دامت صحبة القوم الا على مداهنتهم وقد ثبت ان النبي صلعم قال ما ترك الحق
لعمر من صديق وقال اويس القرني لرجل من مراد يا اخا مراد ان الموت
وذكره لم يترك لمؤمن فرحا وان علمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضة ولا
ذهبا وان قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا فكل انسان يقبل النصح
في غيره ويلتذ بسماع معايب النفس او ارسلتها في مجلسك مطلقة من غير
تعيين ويتبرك بان هذا هو الحق فاذا قلت له اياك اعني بهذا الكلام
والمؤمن مرآة اخيه وقد رايت فيك ما اوجب علي ان اقول لك فيه نصحت
النفس وقالت سبحان الله انا انا مرآة لنفسك رايتك في ومثل انا من
يقال له هذا فاذا نصحناه في امر واحد الى ارتكاب محظورات كثيرة من
الكذب والنفاق وقل يا وليي اين تجد اليوم الناصح من صديق ولقد قلنا
في ذلك لما لزمت النصح والتحقيقا لم يتركا لي في الوجود صديقا
ولعمر الله ما كذبت وما قلت الا ما وجدت فتعلم وليي ابقاك الله اياما
اقامتني عنده اني ما عاشرته الا بالمناصحة حتى ذكر لي يوما على العشاء وقال
لي مواجهة انك كثير الانتقاد واصبح على [illegible] ابراهيم [illegible]
العادل وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
فاعربت له وفقه الله ان ذلك مقام شتان [illegible] نفسه واما من [illegible] لك فلا
سبيل ولما كان جعل الله اياما انا لا نعرف [illegible] ينبهنا على معايبنا ويظهر لنا
نقائصنا ويدلنا على مكارم الاخلاق ومحامد الافعال ويوضح لنا مناهجها
ويرفع لنا معارجنا ولما اصبناه لانفسنا ولم يمكن في الحقيقة ان نحجبه لما
عن ذلك لهذا ارضينا بما يصدر منه مما لا يوافق اغراضنا ونجعه [illegible]
بكرهه طاعتنا والسعيد هو الذي يرضى بذلك منه ومن سواه النصح ويتخذ
نسال الله العافية في ذلك والسلامة وقد ذكرت يا اخي خصالا ابعد
اياك من الغافرين في [illegible] هذه الخصال لم اقدر ان اراها في غيرك منها هو تمسك
بمرتبة العلم واهله وعدم تعويلك على الكرامات والاحوال ومنها انقيادك

بسم الله الرحمن الرحيم من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمون

بالنصح لإخوانه والمشدد عليه في ذلك دون أهل زمانه محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي رضي

الله تعالى إلى وليه في الله تعالى وأخيه الركن الوثيق أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي

نزيل تونس أبقاه الله نعشة لمحبيه وعين الصون لأهله وإجابة لطالبيه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما أما بعد يا أخي فإن

النصح أولى ما تعامل به رفيقان وتسامى به صديقان وقل ما دامت صحبة الناس إلا على المداهنة وقد

ثبت أن النبي عليه السلام قال ما ترك الحق لعمر من صديق وقال أويس القرني لرجل من

مراد ما الخامس إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرحا وإن علمه بحقوق الله لم يترك في ماله فضة

ولا ذهبا وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقا روينا هذا من حديث مخلد بن جعفر عن محمد بن جرير

عن محمد بن حميد عن زافر بن سليمان عن شريك عن جابر عن الشعبي عن رجل من مراد وقد أنكر أن

يقبل النصح في غيبته ويلتذ بسماع معايب النفس إذا أرسلها في مجلس مطلقا من غير تعيين

ويقر بكل ما قيل هذا هو الحق فإذا قلت له أنا أعنيك بهذا الكلام والمؤمن مرآة أخيه وقد رأيت فيك

ما أوجب علي أن أعمل لك فيه تمحضت النفس وقالت سبحان الله إنما أنا مرآة نفسك رأيت في ما لي أنا

من يقال له هذا فادعى نصحنا له في أمري راجل إلى التكاب مخطوءات كثيرة من الكذب والنفاق

وقد بادلت أن نجد اليوم ناصحا من صديق ولعقد قلنا في ذلك لما لزمت النصح والتحقيقا

لم يترك الي في الوجود صديقا ولعمر الله ما كرهت وما تلت إلا ما رجلت وتعلم ولي أبقاه الله في تتقاد

أيام أقامتي عندك أني ما عاشرته إلا بالمناصحة حتى ذكر لي يوما على العشاء وقال لي من أجمعه أكل كثرا لكم

واجتمع على مسألة إبراهيم بن أدهم ثم استشهد على بيت القائل وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدي المساويا

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وعليه توكل

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المامور بالنصح لاخوانه والمشدد
عليه في ذلك دون اهل زمانه محمد بن علي بن محمد ابن العربي الحاتمي الطائي
وفقه الله تعالى الى وليه في الله تعالى والاخ الوثيق ابي محمد عبد العزيز
بن ابي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس ابقاه الله محفوظا وجعله
[illegible] والجانب ملحوظا سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو واصلي على
سيدنا محمد وعلى آله واسلم تسليما اما بعد يا اخي فان النصح اول
ما تعامل به رفيقان وتناصح به صديقان وقلما دامت صحبة اليوم
الا على المداهنة وقد ثبت ان النبي عليه السلام قال ما ترك الحق
لعمر من صديق **وقال** اويس القرني لرجل من مراد يا اخا
مراد ان الموت وذكره لم يترك لمومن فرحا وان علمه بحقوق الله لم يترك
له في ماله فضة ولا ذهبا وان قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا رويناه
من حديث مخلد بن جعفر عن محمد بن جرير عن محمد بن حميد عن زافر بن
سليمان عن [illegible] عن جابر عن الشعبي عن رجل من مراد وكان
انسان يقبل النصح في غيره ويلتذ بسماع معايب النفس اذا ارسل
في مجلس مطلقة من غير تعيين ويقول [illegible] الحق [illegible]
له ايال عنيت بهذا الكلام والمومن مراة اخيه وقد رايت فيك ما
يجب علي ان اقابلك فيه بمحض النصح فقالت سبحان الله انما انا مراة
[illegible] وعلى انا من يقال له [illegible] نعمنا [illegible]
الي [illegible] خطوات [illegible] من الذهب والنساك [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المامور بالنصح
لاخوانه والمشدد عليه في ذلك دون اهل زمانه محمد
ابن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي وفقه الله تعالى
الى وليه في الله تعالى ونجيه الركن الوثيق ابي محمد عبد
العزيز بن ابي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس ابقاه
الله تعالى محفوظا وبعين الصون والرعاية ملحوظا
سلام عليك ورحمة الله وبركاته اما بعد فاني احمد اليك
الله الذي لا اله الا هو واصلي على سيدنا محمد وعلى اله
واسلم تسليما اما بعد يا اخي فان النصح اولى ما
تعامل به رفيقان وتسامر به صديقان وقل ما اتى
اليوم صحبة الا على مداهنة وقد ثبت ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال ما ترك الحق لعمر من صديق
وقال اويس القرني رضي الله عنه لرجل من مراد يا اخا مراد

ان الموت

رسالة

روح القدس في مُناصحة النفس

كتب بها الفقير إلى الله تعالى

محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي من مكة حرسها الله

إلى عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس ببلاد المغرب

رضي الله عنهما وغفر لهما وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله

من العبد الضعيف، الناصح الشفيق المأمور بالنُّصح لإخوانه والْمُشدَّد عليه في ذلك دون أهل زمانه، محمدِ بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، وفّقه الله. إلى وليِّه في الله تعالى وأخيه، الرُّكن الوَثيق أبي محمد عبدِ العزيز بن أبي بكر القُرَشي المهدَوي، نزيل تونس، أبقاه الله مَحفوظا وبعَين الصَّون الإلَهي والحماية ملحوظا. سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فإني أَحْمَدُ إليك اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو وأصلّي على نبيّه سيدِنا محمد وعلى آله وصَحبه وأُسلِّم تسليما.[22]

[22] الشفيق: مِن شفِقَ، أي هاب على غيرِه أن يُصيبَه مكروهٌ رحمةً به مع إسداء النُّصح إليه تنبيها له على مواقع العَطَب ومراتع السلامة. الرُّكن: الجزء القويّ الذي يعتمِد عليه البُنيان فيَثبُت به، ومنه رَكَنَ إلى الشيء أي اعتمدَ عليه وارتاح إليه، ومنه رجُلٌ ركين أي رَزين لا يهتزُّ بل يبقى ثابتًا قويًّا في الشدائد. الوَثيق: من وَثُقَ الشَّيءُ ووُثوقا أي قَويَ وثَبَتَ، ومنه الثِّقة أي الأمان. والمعنى أنّ الْمَهدوي رجلٌ رزين متمكِّن يوثَق به ويُطمأنُّ إليه. الصَّون: من صان الشيءَ صَونًا وصيانة أي ووَقاه وحَماه من أن يُصيبَه ضرَر. ملحوظ: مِن لَحَظ يلحَظ أي نَظر إليه نظرَةَ مُراقبٍ للمُراعاة. وأما قولُه: أحمَدُ إليك الله، فمعناها: أُعلِمُك بأنّي بخير لتطمئنَّ عليّ، وأُشهِدُك بأني أحمد الله وأشكُرُه على النِّعم التي أتمتَّع بها من فضلِه تعالى، وذلك عملا بقول الله عزّ وجلّ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى 11]. والعِبارة قديمة وردت في السُّنن، فمن ذلك ما بلغنا عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطّاب، وقد سلَّم عليه رجلٌ فقال "السلامُ عليك" فردَّ عمرُ السلامَ ثم قال "كيفَ أنت؟" قال الرجل "أَحمَدُ اللهَ إليك" فقال عمر "ذاك الذي أردتُّ منك" رواه مالك في الموطأ.

أما بعد[23]، يا أخي فإن النُّصح[24] أوْلى ما تعامل به رفيقان وتسامر به صديقان، وقلَّما دامت اليومَ صُحبةٌ إلا على مُداهنة. وقد ثبت أن النبي عليه السلام قال

---

[23] قولُه: أما بعد، أي الآنَ وقد قدَّمنا بين أيدي ما نبغي قولَه: حمدًا وتهليلاً لِخالِقنا ورازِقنا سبحانَه الذي هدانا إلى مَراشِدِ أمورنا وعلَّمنا الأسماءَ وألهمَنا الثناء، وقدَّمنا صلاةً وتسليما على مَن علَّمنا بأمرٍ مِن مولاه وأرشدنا إلى ما يحبُّه ويرضاه وحذَّرنا سوءَ ما قد نلقاه إن لم نتجنَّبه ونتفاداه وبشَّرنا بما نتمنَّاه إن نحن عمِلنا بما علِمناه؛ محمَّدٍ بنِ عبد الله خاتَمِ النبيِّين الذي أرسلَه الإلَه سيِّدا مُطاعًا مِن قِبَل مَن هداه مَعصيًّا مِن طَرَف مَن أَضلَّه الله وأخزاه، وقدَّمنا ترضِّياً على الآل والصَّحب ومَن والاه: فهذا ما أردناه وتوخَّيناه مما قصدناه. فهي كلمة مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلَّم، كان يقولُها في خُطبِه بعد الثناء على الله تعالى وقَبل الشروع فيما كان يقصد من موضوع. واتبعه في ذلك الصحابة والتابعون وتابِعوهم، والمسلمون على ذلك جيلا بعد جيل. وقيل أوَّل مَن قالها النبيُّ داودُ عليه السلام تأويلا لقول الله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص 20] ففصلُ الخِطاب قولُه: أمّا بعد...

[24] لقد سبقَ في تقديم الرسالَة بيان معنى النصح والنصيحة، وأنّ الله قد كلَّف الشيخَ محيي الدين ابن العربي بالنُّصح زيادةً على بَني جنسِه، وذلك لكونِه وارثَ رسولِ الله على الحقيقة. يقول الشيخ في: الذي أقول به أنّ النصيحة هي عينُ الدين وهي صِفة الناصح. فتَسري منفعتُها في جميع العالَم كلِّه من الناصح الذي يستبرئ لدينه ويطلُب معالي الأمور. فيَرى حيوانًا قد أضرَّ به العطَش، فيتعين عليه أن يردَّه إلى طريق الماء ويسقيه إن قدِر على ذلك؛ فهذا من النصيحة الدينية. وكذلك لو رأى مَن ليس على مِلّة الإسلام يفعل فِعلاً من سَفساف الأخلاق، تعيَّن على الناصح أن يَرُدَّه عن ذلك مهما قَدِر إلى مَكارم الأخلاق. وإن لَم يقدِر عليه تَعيَّن عليه أن يُبيِّن له عَيبَ ذلك، فربَّما انتَفَع بتِلك النَّصيحة ذلك

الشخص، وينتفع بتلك النصيحةِ مَن اندَفَع عنه ضَرر. فتعيَّن على صاحب الدين نُصحُ خَلقِ الله مطلقا. الباب الموفِّي ستين وخمسمائة في وصية حُكمية ينتفع بها المريد السالك، وهو آخرُ أبواب الفتوحات المكيَّة، وقد طبع مستقلاً بعنوان 'الوصايا'. والأدلَّة كثيرةٌ في القرآن والسنَّة جاءت بوجوب النصيحة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر؛ وذلك هو نشرُ الدين وتبليغ رسالة الله تعالى اتِّباعًا للرُّسُل والأنبياء لكوننا مطالَبين بالوراثة. فمن ذلك قول الله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارا﴾[التحريم 6] قُوا: فِعلُ أمر من وَقَى، يقي وِقايَةً، أي: اِجعلوا لأنفسكم ولأهلكم وأقاربكم وِقايةً تحميكم من النار. وهذا أمرٌ، فدلّت الآيةُ على وُجوبِ النُّصح بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكَر للأقرب فالأقرب. والمعنى: اِنصحوهم ومُرُوهم بقَبول النصيحة بالْمَوعظة الحسنة، دلُّوهم على السُّنةِ والجماعة، بَلِّغوهم نصوصَ القرآن والسنَّة وفَقِّهوهم وأَدِّبوهم، اُدْعوهم بالإرشاد والترغيب والتَّرهيب إلى طاعة الله التي بها يتَّقون العقوبة في الآخرة ويستحقّون الجزاء بالحُسنى، أظْهِرُا من أنفسكم العبادات والأخلاق الحسنة ليرَوا صِفةَ المسلِم المؤمن المحسِن فيقتدوا بهَدْيِكم النبويّ. وذلك بحَمل أنفسكم وبِحَثِّهم على التوبة إلى الله، كما جاءَ مفسِّرا بعد آية من تلك وهو قولُه تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا توبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ اِرجعوا من أنفُسكم إلى ربِّكم بِحُبِّه وبغضِ ما يبعِدُكم عنه تعالى، ارجِعوا بالنَّدم والاستِغفار ممّا فرطَ منكم من انتهاكات لمحارم الله تعالى، اِرجِعوا بطاعتِه وتَقواه عن ذنوبكم ومعاصيكم وأفيقوا من غفلَتِكم، اِرجِعوا من سَفاسف الأمور إلى مَعاليها ومن الصوَر العوارض إلى معانيها، واهتمُّوا بما يُرضي ربَّكم عنكم ولا تهتمُّوا بالرزق فإنّه تعالى كافيكم، وكلُّ ذلك بعزم وحَزم وإصرار ليس فيه جُبنٌ ولا إدبار ﴿تَوْبَةً نَّصُوحا﴾ أي خالِصةً لله، تامَّةً مَحضةً غيرَ ناقصة، متكرِّرة متجدِّدة في كل آن وحين؛ فتوبوا من الكبائر ثم توبوا من الصغائر ثم توبوا من الأماني والشهوات ثم توبوا من التقليد والشُّبُهات ثم توبوا من اللَّهو والسَّهو. توبوا إلى الله توبةً بعد توبة عبرَ الساعات

والأيام حتى تنمحي عنكم أضغاثُ الأحلام وتقطعوا العلائقَ التي تشدُّكم إلى الأرض والإخلاد إليها ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ وهنا وقف لأنّ الجملة خاصَّة بالنبي كما في قول إبراهيم ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُون﴾[الشعراء 87] أي لا تُذلَّني وتُهنّي وتُوقِعْني في بليَّة بأن يلقَوا غيرَ ما وعدتَهم به على لساني فأكونَ كاذبا، ولن يكون الأمر كذلك أبدًا ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه﴾[إبراهيم 47]، بل سوف يُصدَّق الله المرسَلين كما أكّده بذكره تعالى ما سيقولُه أصحابُ اليمين يومَ القيامة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف 43] ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون﴾[يس 52] فالرسول ما جاءَنا إلا بالحق من عند الله تعالى؛ فالذين اتَّبعوه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ؛ نُورُهُمْ﴾ أي علمُهم ومعرفتُهم التي به يرَون الأمور كما هي على حقيقتِها بما فيها من جمال وجلال وكمال ﴿يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير!﴾[التحريم 6] فلا يزالون يزدادون علمًا بالله ومعرفةً ويقينا وطُمئنينة بلا نهاية ولا حدّ. والسبيلُ إلى هذا كلِّه إنّما هو النُّصح إلقاءً وتلقِّيا، وهو أساسُ الدين الذي لا قيامَ له إلا عليه حتى قال الله تعالى «أَحَبُّ ما تَعَبَّدَني به عبدي إليّ النُّصحُ لي» رواه أحمد والطبراني والحكيم عن أبي أُمامةَ الباهلي عن رسول الله عن ربِّ العزّة. بلغنا عن جرير بن عبد الله أنّه قال: أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت "أُبايعك على الإسلام" فشرط عَلَيّ «والنُّصح لكل مسلم» فبايعتُه على هذا. وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الدينُ النصيحة، الدينُ النصيحة، الدينُ النصيحة!» قيل "يا رسولَ الله، لِمَن؟" قال «لِلَّه ولِكتابه ولِرسولِه ولأَئِمَّة الْمُسلِمين» وعن تَميمٍ الداري أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنَّما الدينَ النَّصيحة، إنّ الدينَ النَّصيحة، إنَّ الدينَ النصيحة» قالوا "لِمن يا رسولَ الله؟" قال «لِلَّه ولِكتابه ولِرسولِه ولأَئِمَّة الْمُسلِمين وعامَّتِهم». وللحديث شواهدُ وردت عن عدد من الصحابة، منهم ثوبان وابن

عُمر وابن عباس وزيد بن أسلم وابن عَمرٍو. وفي معنى ذلك قال أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي: هو حديث شبيه بحديث جبريل، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم «إنما الدينُ النصيحةُ» بكلمة واحدة جامعة فلما قيل "لِمَن؟" قال «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» فجمعت هذه الكلمة كلَّ خيرٍ يُبتغَى ويُؤمر به وكلَّ شرٍّ يُتّقَى ويُنهى عنه. جِماعُ تفسير النصيحة هو عنايةُ القلب للمنصوح له، مَن كان. وهي على وجهين، أحدهما فرض والآخر نافلة. فالنصيحة المفترضة لله هي شِدّة العناية من الناصح باتّباع محبة الله في أداء ما افتَرضَ ومُجانبة ما حرَّم. وأما النصيحة التي هي نافلة فهي إيثار محبته تعالى على محبة النَّفس، وذلك أن يعرض أمران أحدهما لنفسه والآخر لربه فيبدأ بما كان لربه ويؤخِّر ما كان لنفسه؛ فهذه جملة تفسير النصيحة له، الفرض منه والنافلة. فإن عَجَز عن القيام بفرضه لآفةٍ حلَّت به من مرض أو حبس أو غير ذلك، عزم على أداء ما افتُرض عليه متى زالت عنه العِلّة المانعة له؛ قال الله عزّ وجل ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة 91] فسمّاهم: مُحسنين. وقد يُرفع الأعمال كلُّها عن العبد في بعض الحالات ولا يُرفع عنهم النُّصح لله. لو كان من المرض بحالٍ لا يمكنه عملُ بشيء من جوارحه بلسان ولا غيره، غيرَ أن عقله ثابتٌ، لَم يَسقُط عنه النُّصحُ لله بقلبه. وهو أن يَندَم على ذُنوبه ويَنويَ إن صحَّ أن يَقومَ بما افترَض الله عليه وأن يَتجنَّب ما نَهاه عنه، وإلا كان غيرَ ناصحٍ لله بقلبه. ومِن النُّصح الواجب لله أن لا يرضَى بِمَعصيَة العاصي وأن يُحِبَّ طاعةَ مَن أطاع اللهَ ورسولَه. وأما النصيحة التي هي نافلة لا فرض، فبَذلُ الْمَحمود بإيثار اللهِ على كل محبوب بالقلب وسائر الجوارح، حتى لا يكون في الناصح فَضلاً عن غيره. وأما النصيحة لكتاب الله فشدة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق وشدة الرغبة في فهمه ثم شدة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما

أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم له به بعد ما يفهمه وكذلك الناصح من القلب يتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه - كتاب منه عني بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه كذلك الناصح لكتاب الله يعني يفهمه ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى ثم ينشر ما فهم من العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

وأما النصيحة للرسول: ففي حياته، ببَذلِ الْمَجهود في طاعتِه ونُصرته ومُعاونَتِه، وبَذلِ المال إذا أراده والمُسارعة إلى مَحبَّته. وأما بعد وَفاته، صلى الله عليه وسلم، فالعِناية بطلب سُنَّته والبَحثِ عن أخلاقه وآدابه، وبتعظيم أَمرِه ولُزوم القِيام به، وبشِدَّة الغَضب والإعراض عمَّن يَدين بخِلاف سُنَّته والغَضب على مَن ضيَّعها لأَثَرَة دُنيا، وإن كانَ مُتديِّنا بذلك. وحُبّ مَن كان منه بسبيلٍ: مِن قَرابة أو صِهر أو هِجرة أو نُصرة أو صُحبة، ساعَةً مِن ليل أو نَهار على الإسلام، والتَّشبُّه به في زِيِّه ولِباسه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فحبُّ طاعتِهم ورُشدِهم وعَدلِهم، وحُبّ اجتماع الأمّةِ كلِّهم وكَراهيةِ افتِراقِها عليهم. والتَّدَيُّنُ بطاعَتِهم في طاعَةِ الله والبَغض لِمَن رأى الخروجَ عليهم، وحبُّ إعزازهم في طاعة الله. قلتُ: فإن كانوا مخالفين للشرع مفارقين لما كانت عايه الجماعة التي أسَّسها رسولُ الله فلا طاعةَ ولا كرامة كما كان عليه أصحابُ محمَّد من قولهم "لا طاعةَ لِمَخلوق في مَعصيَةِ الخالِق" وقد جاء عن عمران بن حُصين وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلَّم، وفي جامع الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «السَّمعُ والطاعَةُ على الْمَرءِ الْمُسلِم فيما أَحَبَّ وكَرِه، ما لَم يُؤمَر بِمَعصية. فإن أُمِر بِمَعصِيَةٍ؛ فلا سَمعَ عليه ولا طاعَةَ!» وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وأبو داود عن علي «إنَّمَا الطاعةُ في المعروف» وقال أبو بكر خليفة رسول الله حين بُويِع "أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه. فإذا عَصيت الله ورسولَه؛ فلا طاعةَ لي عليكم!" رواه ابن إسحاق في السيرة وصحَّحه ابنُ كثير.

«ما تركَ الحقُّ لعُمر[25] مِن صَديق»[26] وقال أُوَيسٌ القَرَني[27] لرجل من مُراد "يا أخا مراد، إن الموتَ وذِكرهُ لم يترك لمؤمن فرَحا، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له في

وأما النصيحة لعامَّة المسلمين: فأن يُحِبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه ويكرهَ لهم ما يكره لنفسه، ويُشفِقَ عليهم ويَرحم صغيرَهم ويوقِّر كبيرَهم ويَحزُنَ لِحُزنهم ويَفرَحَ لفرَحِهم، وإن ضَرَّه ذلك في دنياه. ويُحِبُّ صلاحَهم وأُلفَتَهم ودَوامَ النِّعَمِ عليهم ونَصرهم على عدوهم ودفع كل أذى ومكروه عنهم. انتهى كلام أبي عبد الله محمد بن نَصْرٍ الْمروزي، البَغداديِّ الْمَولِد السمرقندي الوفاة، نقلاً من كتابه العظيم 'تعظيم قدر الصلاة' ج2/ص 681- 694، مكتبة الدار، المدينة– وهو الإمام الفقيه الْمُحدِّث المتوفَّى سنةَ 294 هـ، والذي كان من أرجَح الناس عقلاً وأعلمِهم باختلاف الصحابة فمَن بعدَهم في الأحكام. والذي قال عنه ابن حزم: ... [إن كنت ولا بدَّ مقلِّدا:] قَلِّدْ مُحمَّد بنَ نَصرٍ الْمَروَزِيَّ، فإنّه أتَى مُتعقِّباً بَعد أَحمَد. ولقد لَقِي أحْمد وأخَذَ عنه وحَوَى عِلمَه، ولَقِيَ أصحابَ مالِكٍ والشّافِعِيِّ وأَصحابَ أصحابِ أبي حَنيفَةَ وأخَذ عِلمَهم، وقد كان في الغايَةِ التي لا وَراءَ بَعدَها في سَعَةِ العِلم بالقُرآن والْحَديث والآثار والْحِجاجِ ودِقَّة النَّظَر، مع الوَرَع العَظيم والدِّين الْمَتين! 'الإحكام في أصول الأحكام' ج2-ص283، دار الكتب العلمية، بيروت.

[25] هو الفاروقُ أبو حَفْصٍ عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزَّى القُرَشي العَدَوي، أميرُ المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين وأحدُ العشرَة المبشَّرين بالجنَّة على لسان سيِّد المُرسَلين. دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم له أن يُعِزَّ اللهُ به الإسلام فأجاب الله دعاءه فيه وهاجر وشهد المَشاهد وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ. وَلِيَ الخلافة بعد أبي بكر الصِّدّيق بِعهدٍ منه، فسار السيرةَ العُمرية التي تضرب بحُسنها الأمثال، وأنزل نفسَه من مال الله بمنزلةِ والي اليَتيم؛ إن استغنى عنه استعفَّ وإن احتاج اقترض بالمعروف، فإذا أَيسَرَ قضَى دَينَه.

وفتح الفتوح الكثيرة بالشام والعراق ومصر، ودَوَّن الدواوين في العطاء. وهو الذي أرَّخ التاريخ من الهجرة. ولد بمكَّة عام ثلاث عشرة من عام الفيل، وقُتِل بيد مَجوسيٍّ اسْمُه أبو لؤلُؤة بمسجد المدينة وهو يصلّي بالناس يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحِجّة سنةَ ثلاث وعشرين من الهجرة، وعُمرُه ثلاث وستون سنة. نقلاً بتصرُّف مِن كتاب 'إسعاف الْمُبطَّأ برجال الْمُوَطَّأ' للسُّيوطي، وهكذا تراجمُ مَن سيأتي من الصحابة إلا ما ليس فيه، وحينئذ أبيِّنُ المصدر إن شاء الله. ولقد رأيتُه في رؤيا عظيمة وأنا ابنُ ست عشرة سنة، و لم أكن أعرف عنه شيئًا قبلَ ذلك. فوجدتُه مَوصوفا بعد ذلك كما رأيتُه في المنام خَلقًا وخُلُقًا، وهو الذي عرَّفني على النبي صلى الله عليه وسلَّم في تلك الرُّؤيا. وقد ذكرتُها كاملةً في كتاب 'فهم الصلاة' و لم أرَ من الصحابة أحدًا غيرَه إلى يومِنا هذا.

[26] لم أجده بهذا اللفظ، وقد أخرج ابنُ أبي عاصم في السنة عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله عمر، يقول الحق وإن كان مرا، تركه الحق ما له من صديق» وقد أخرج الترمذي في المناقب من جامعه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «رَحِمَ الله أبا بكر: زوَّجني ابنتَه وَحَمَلَني إلى دار الهجرة وأَعتَقَ بلالا مِن مالِه. رحم الله عمر: يقول الحقَّ وإن كان مُرًّا، تَرَكه الحقُّ وما له صديق. رحم الله عثمان: تَسْتَحِييه الملائكةُ. رحم الله عليّا: اللهم أَدِرِ الحقَّ معه حيثُ دار.» قال الترمذي: غريب. والحديث عند الطبراني في الأوسط والبزار وأبي يعلى في مسندَيهما وأبو نُعيم في معرفة الصحابة، كلُّهم عن علي بن أبي طالب.

[27] هو سيِّد التابعين صاحب المناقب المشهورة، أويس بن عامر القَرَني من اليمن من مُراد، قبيلة باليمَن،أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم و لم يَرَه، سكن الكوفة وهو معدود من تابعيها. وكان عابدا زاهدا روَى عن عُمر وعليّ وروى لَه مسلم في صحيحه. قيل أنه قتل يومَ صِفِّين في رجال عليّ، وقيل أنّه مات على جبل أبى قُبيس بمكة، وقيل أنه مات بدمشق. ومن

ماله فِضّة ولا ذَهبا، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا!"[28] وكل إنسان يَقبل النُّصح في غيره ويلتذّ بسَماع مَعايبِ النفس إذا أرسلتَها في مَجلِسك مُطلقةً من غير تعْيين، ويُقِرّ لك بأن هذا هو الحق. فإذا قلتَ له "إيّاك عنيتُ بهذا الكلام، والمؤمنُ مِرآةُ أخيه[29] ؛ وقد رأيت فيك ما أَوجبَ عليّ أن أقول لك فيه"

الناس مَن أنكَر وجودَه أصلا. بتصرُّف من كتاب الثقاة لابن حِبّان وتاريخ دمشق لابن عساكر والتقريب لابن حَجر.

[28] أخرجه أبو نُعيم في الحلية عن شريك عم جابر عن الشعبي، والحاكم في معرفة الصحابة من المستدرَك عن الأحوص قال: حدثني صاحب لنا قال: جاء رجل من مراد إلى أويس القرني، فقال: السلام عليكم، قال: وعليكم. قال: كيف أنتم يا أويس؟ قال: الحمد لله، قال: كيف الزمان عليكم؟ قال: لا تسأل الرجل إذا أمسى لم ير أنه يصبح، وإذا أصبح لم ير أنه يمسي. يا أخا مراد، إن الموت لم يُبق لِمؤمنٍ فرَحا. يا أخا مراد، إن عِرفان المؤمن بحقوق الله لم تبق له فضةً ولا ذهبا. يا أخا مراد، إن قيام المؤمن بأمر الله لم يُبق له صديقا. واللهِ إنا لَنأمرُهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر، فيتَّخذوننا أعداءً، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانا حتى والله لقد يقذِفوننا بالعظائم. ووالله لا يمنعني ذلك أن أقول بالحق!

[29] قال النبي صلى الله عليه وسلم «المؤمنُ مِرآةُ أخيه. والمؤمن أخو المؤمن؛ يَكُفُّ عليه ضَيعتَه ويَحوطُه مِن وَرائه.» رواه البخاري في الأدب المفرَد عن أبى هريرة، وهو في السُّنن بروايات متقاربة. فأنت إذًا مِرآةٌ لأخيك يُبصر حالَه فيك وهو كذلك مِرآةٌ لك تبصِر حالَك فيه. فإن شَهِدتَ فيه خيرًا فهو لك وإن شهدت غيرَه فهو عليك. وذلك لأنّ حقيقة الإيمان أن تُحبّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك كما بيَّنه لنا النبي صلى الله عليه وسلم. فكن لأخيك كالمرأة تُريه مَحاسنَ أحوالِه وتَحثُّه على الشُّكر وتمنعه مِن الكِبْر، وتُريه قَبائح أموره

شَمِخت النفسُ وقالت "سبحان الله، إنما أنا مرآةُ نفسك؛ رأيتَ فِيَّ! ومثلي أنا مَن يقال له هذا؟!" فأدّى نصحُك له في أمر واحد إلى ارْتكاب مَحظورات كثيرةٍ من الكذِب والنِّفاق. وقلَّ يا وليّي أن تجد اليومَ للناصح مِن صديق! ولقد قلنا في ذلك:

لَمّا لزِمتُ النُّصح والتَّحقيقا لَم يترُكا لي في الأنام صديقا[30]

ولَعَمْرُ اللهِ، ما كذَبتُ وما قلتُ إلا ما وَجدت! ويعلم وليّي، أبقاه الله، أيامَ إقامَتي عنده أني ما عاشرتُه إلا بالْمُناصَحة. حتى ذكر لي يوما على العَشاء وقال

وتُرشِده على سبُل الخَلاص منها بلِينٍ في خِفيَة، فلا تُجابِهُه بها بين الناس، بل تَنصحُه ولا تفضحه.

[30] شرح الغريب: قولُه: تسامر، مِن سَمَر أي مال إلى السواد ومنه سواد الليل، لذا جاء السَّمَر والمُسامَرَة للتأنيس بالليل ولنَزع وَحشَة الظُّلمة. قولُه: مُداهنة، من داهَن يُداهِنُ أي أظهَر خِلافَ ما يُبطن طمعًا أو جُبنا. قولُه: مَعايبِ، أي العيوب والقبائح. قولُه: شَمِخت النفس، من شمِخ الجبلُ إذا ارتَفع، والنعنى هنا أنّ النفس استَعلَت واستكبرت. قولُه: مَحظورات، من حظَر بالظاء أي مَنَع، ومنه الحَظيرة وهي البقعة من الأرض الممنوعَة، والمعنى هنا المحرَّمات الشرعية. قولُه: النِّفاق، من نفِقَ أي مرَّ من جانب إلى آخر، ومنه النَّفَق وهو الْمَمرّ تحت الأرض، ومنه النفقة وهي مرور الدراهم من يد ليد، ونفقَ السوق أي مرَّت السِّلَع من أيدٍ إلى أُخرى، ومنه النفاق وهو المرور من ملَّة إلى أُخرى، كإظهار الإسلام وإبطان الشِّرك. قولُه: الأنام، كلمة لا مفرَدَ لها من لفظِها، ومعناها مجموع الخلق من إنس وجنّ. و جاء في بعض النُّسَخ لَم يترُكا لي في الوُجود صديقا، وما أثبتناه أوفَق والله الموفِّق.

لِي مواجَهةً "إنّك كثيرُ الانتِقاد!" واحتجّ عليّ بِمَقالة إبراهيم بن أَدْهَم[31]، ثم استشهد بقول القائل:

---

[31] مِن سادَة الصوفيَّة وأئمَّتهم، وهو أوّلُ مَن ذكره القُشيري في رسالته مِن شيوخ الطريقة قال: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كُورة بلخ، رضي الله عنه. كان من أبناء الملوك، فخرج يومًا مُتصيِّدا، فأثار ثعلبًا أو أربنا، فلما كان في طلبِه هتف به هاتِفٌ: يا إبراهيمُ أَلِهذا خُلقتَ أم بهذا أمُرت؟! ثم هتف به من قُربوس سِرجه: والله ما لهذا خُلقتَ ولا بهذا أُمرت! فنَزل عن دابَّته فصادف راعيًا لأبيه، فأخذ جبّةَ الراعي وكانت مِن صوف فلبِسها وأعطاهُ ثوبَه وفَرسَه وما معه، ثم خرج إلى البادية. ثم دخل مَكَّة وصحب بها سفيانَ الثوري والفُضيل بن عياض، ودخل الشام. وكان يأكل من عمل يده، مثلَ الحصاد وحِفْظ البساتين وغير ذلك. كان إبراهيم بن أدهم كبيرَ الشأن في باب الورع، ويُحكى عنه أنه قال "أَطِبْ مَطْعَمَك، ولا حَرَجَ عليك أن لا تقوم الليل ولا تَصوم النهار" وقيل لإبراهيم بن أدهم "إن اللَّحم قد غلا" فقال "أَرخِصوه؛ فلا تشتروه!" وأنشد في ذلك:

وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركْـــتُه   فيكونُ أرخصَ ما يكون إذا غَلا

وعن أحمد بن خضرويه أن إبراهيم بن أدْهم قال لرجل في الطواف "اِعلم أنك لا تَنالُ دَرجةَ الصالِحين حتَّى تَجوزَ سِتَّ عَقبات. أولاها: تُغلِقُ بابَ النِّعمة وتَفتحُ باب الشِّدَّة، الثانية: تُغلق بابَ العِزِّ وتفتَح باب الذُّلّ، الثالثة: تغلق بابَ الراحةِ وتفتَحُ باب الجُهد، الرابعة: تُغلق باب النَّوم وتفتَح بابَ السهَر، الخامسة: تُغلق بابَ الغِنَى وتفتح باب الفَقْر، السادسة: تُغلق بابَ الأَمَلِ وتَفتَحُ بابَ الاِستِعداد لِلمَوت. الرسالة القشيريّة ص22، دار الكتب العلمية، بيروت. وذكره ابن حبان قال: إبراهيم بن أدهم بن منصور الزاهد أبو إسحاق روى عنه سفيان الثوري. أصله من بَلْخ، ثم انتقل بعد أن تاب وتركَ الإمارة إلى

الشام طَلَبًا للحَلال. فأقام بها مُرابِطًا غازيا، يَصبِر على الجَهد الجَهيد والفَقر الشَّديد والوَرَع الدائم والسَّخاء الوافِر إلى أن مات في بلاد الروم سنة إحدى وستين ومائة. اه كتاب الثقاة ترجمة رقم 6563. أمّا الْمَقالة التي أشار إليها الشيخ، فالغالب أنّها مقالَتُه المَشهورة التي تلقَّاها الناسُ وسارت بها الرّكبان وصارت مثَلا يُضرَب، وهو ما رواه أبو نُعيم في الحلية في ترجمة إبراهيم بن أدهم، وابن عساكر في تاريخ دمشق والخطيب البغدادي في الزهد، كلهم عن إبراهيم بن بشار الرطابي، قال: بينا أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي وأبو عبد الله السخاوي ونحن متوجِّهون نُريد الإسكندرية، فصرنا إلى نهر يقال له نهر الأُردُن. فقعدنا نستريح فقَرَّب أبو يوسف الغسولي كُسَيراتٍ يابسات، فأَكلنا وحَمِدنا الله تعالى. وقام أحدُنا ليَسقِيَ إبراهيمَ فَسارَعَه فدَخَلَ النهرَ حتى بَلغَ الماءُ رُكبَتَيه، فقال بكفَيه في الماء فملأَهما ثم قال "بسمِ الله" فشَرِب ثم قال "الحمدُ لِلَّه"، ثم مَلأَ كَفَّيه من الماء وقال "بسمِ الله" ثم قال "الحمدُ لِلَّه". ثم خرَج فَمَدَّ رِجْلَيه ثم قال "يا أبا يوسُف، لو عَلِمَ المُلوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه مِن السُّرور والنَّعيم، لَجالَدونا على ما نحن فيه بأسيافهم، أيّامَ الحياة، على ما نحن فيه مِن لَذَّةِ العَيشِ وقِلَّةِ التَّعَب!" فقال له أبو يوسف "يا أبا إسحاق، طلبَ القومُ الراحةَ والنعيم، فأخطؤوا الطريقَ المستقيم!" فتبسَّم إبراهيمُ ثم قال "مِن أين لك هذا الكلام؟!" يعني مِن أين بلغك أن العبادة تعب وعناء وابتلاء، بل هي راحة ونِعمة واصطفاء. وذلك المشهور من مذهب ابن أدهم في السلوك من الورع والتقلُّل من الحلال كما مرّ من قوله "أَطِبْ مَطْعَمَك، ولا حَرَجَ عليك أن لا تقوم الليل ولا تَصوم النهار". وقد كان ابن أدهم من أبناء مُلوك الفُرس فتخلّى عن ملكه وزهِد في الدنيا وتفرَّغ للعبادة، فازدادت تلك المقالة صدقًا لأنّ قائلها يعلم ما يقول، وذلك أنّ نعيم الزُّهّاد عظيمٌ في الحقيقة، فمأكُلُهم حلالٌ طيِّبٌ وطول جوعِهم يجعلُ الخشِنَ ليِّنا وما يُلقيه الناسُ شَهيًّا وماءَ الأنهار والبِرَك حُلوًا مَريئا. وذلك بخلاف الملوك والأسياد بل وعامّة العِباد الذين يتعَبون لتحصيل الدُّنيا فلا يجنَون غيرَ

وعينُ الرِّضا عن كل عَيبٍ كَليلَةٌ ولكنّ عين السَّخْط تُبدي الْمَساوِيا[32]

التعب والشقاء، وهم لا يدرون شيئًا من راحةِ ونَعيم الزُّهّاد الذين يبيتون حيث يُمسون ولا يهتمّون بالدنيا وشؤونها ومشاغِلها التي لا تفنى إلا بالموت، بل هم في رضوان الله وأُنسه ينعَمون. وكتب إبراهيم بن أدهم إلى أخ له: أما بعد؛ فإني أُوصيكَ بتقوَى مَن لا تَحِلُّ مَعصيتُه ولا يُرجَى غَيرُه ولا يدرَكُ الغِنى إلا به، فإنّه مَن اتّقى اللهَ عَزَّ وقَوي وشَبِع ورَوِي. ورفع عقلَه عن الدنيا؛ فبدنُه منظور بين ظَهْرانَي أهلِ الدنيا وقلبُه مُعاينٌ للآخرة. فأطفأ بصرُ قلبه ما أبصرت عيناه من حُبِّ الدنيا، فقَذِرَ حرامَها وجانب شهواتِها, وأضرَّ بالحلال الصافي منها إلا ما لا بُدَّ له من كِسْرة يَشُدُّ بها صُلبَه أو ثَوبٍ يَواري به عَورتَه، مِن أَغلَظِ ما يَقْدِر عليه وأخشنه. ليس له ثقة ولا رجاء إلا الله, قد رُفعت ثقتُه ورجاؤه مِن كل شيء مَخلوق ووَقعت ثقتُه ورجاؤه على خالق الأشياء. فجدَّ وهَزل وَأَنهَك بَدنَه لله، حتى غارَت العينان وبدت الأضلاع. فأبدله الله تعالى بذلك زِيادةً في عَقْله وقُوَّةً في قلبه. وما ذُخِرَ له في الآخرة أكثرُ. فَارْفُض، يا أخي الدنيا، فإنّ حُبَّ الدُّنيا يُصِمُّ ويُعمي ويُذِلُّ الرِّقاب. ولا تَقُلْ "غدًا وبَعْدَ غَد" فإنما هَلَكَ مَن هلك بإقامَتهم على الأماني حتى جاءَهم الحقُّ بَغتةً وهم غافِلون، فنُقِلوا على إصرارِهم إلى القُبور الْمُظلِمة الضَّيِّقة، وأَسلَمَهم الأَهْلون والوَلَد. فانقَطِع إلى الله بقَلبٍ مُنيب وعَزمٍ ليس فيه شَكٌّ، والسلام. رواه أبو نعيم في الحلية و الخطيب في الزُّهد.

[32] البيت لعبد اللّه بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وقال قبلَه:

فلستَ براءٍ عيبَ ذي الوُدِّ كلِّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضيَا

المَساوي هي ما يَسوء صاحبَها سماعُه، فهي المَعايب كما أنّ ضدَّها المحاسن. والمعنى أنّ الإنسانَ إذا أحبَّ لَم يرَ العيبَ وإذا كَرِه لم يرَ الخصلة. ولقد جاء عن أبي أبو الدرداء

فأعرَبتُ له، وفَّقه الله، أن ذلك مقامُ مَن أحبّك لنفسه، وأما من أحبك لك فلا سبيل. ولَمّا كان حُبّ الله إيّانا لنا لا لنفسه، نبَّهَنا على مَعايبِنا وأظهرَ لنا نقائصَنا ودلّنا على مَكارم الأخلاق ومحامِد الأفعال، وأوضح لنا مناهجها ورفع لنا معارِجها. ولما أحبَبناه لأنفُسنا و لم نتمكَّن في الحقيقة أن نُحبَّه له، تعالى عن ذلك، رضِينا بما يصدُر منه مما لا يُوافق أغراضَنا وتَمُجُّه أنفسُنا وتكرهُه طِباعُنا. والسعيد هو الذي رضِي بذلك منه تعالى، ومَن سِواه يَضجَر ويَسْخط. فنسأل الله العفْوَ والعافية في ذلك لنا وللمسلمين.

وقد فُزتَ يا أخي، جعلني الله وإيّاك من الفائزين، في زمانك هذا بخِلال لم أقدِر أن أراها في غيرك. منها معرفتُك بمَرتَبة العلم وأهلِه، وعدمُ تعريجك على الكَرامات والأحوال، ومنها انقيادُك للحق وتواضعُك له ونزولُك إليه عند مَن وجدتَه سواءً كان مِمّن تَلحظُه العيونُ أم لا يُؤبَه له. و لم تَلحَظ منزِلَتك الدنيويَّة مِن تعظيم الناس لك وتقبيلهم يدَك وإتيان السلاطين إلى بابك؛ وهذا غاية الإنصاف، ثبَّتك الله وإيانا. [33]

أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ». خرّجه أبو داود في الأدب وأحمد والبيهقي وغيرُهم.

[33] هذه الخصال تدل على علوّ قدر الشيخ المهدوي على المستويَين؛ الروحي والدُّنيوي. وقلّما يجمع العبدُ بين السعي للآخرة والدنيا دون إخلال بإحداهما. وإلاّ فمُعظم الناس مُعرَّضون للأمراض الباطنيّة مِثل الكِبْر والعُجْب وغير ذلك إذا هم حصَّلوا الدُّنيا. وهي في الحقيقة مَهالكٌ تُؤدّي إلى سوء العاقبة، والعياذ بالله.

ومنها قولُك فيما لا تعلم "لا أعلم"[34] وفيما تعلم "أُحبُّ أن أسمعَه من غيري". فقد حُزتَ، والله يا وليي، هذه الخصالَ التي تتطايَر دونَها رِقاب الرِّجال والمقامَ الذي لا تغيِّره الأحوالُ ولا تزيده حُسنا ووضاءةً رَواتِبُ الأعمال. ثم بحْثُك، الذي لم أرَه في غيرك، في معرفة الأنَام والزمان، واعتقادُك أنه مِن فُروض الأعيان؛ مِن أعجب ما سَمِعته الآذانُ وتسامرت به الخِلاّن وسارت به الرُّكْبان. ثم ما وهبك الله مِن الصَّولة والقوة على الفُقهاء بِدلائل المكارم والفُتُوَّة الجارية مع براهين النبوَّة. وأما أهلُ زمانك اليوم، يا وليّي، فكما قال الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي رحمه الله "ضَعفٌ ظاهِر ودَعوَى عَريضة!"

فأوَّل ما وصلتُ إلى هذه البلاد سألتُ عن أهل هذه الطريقة الْمُثلَى، عسى أن أجِد منهم نفحةَ الرفيق الأعلى. فحُملت إلى جماعة قد جمعتهم خانقاه[35] عاليةُ

---

[34] هذا كَذبٌ مَحض وأعظمُه إذا كان يخصُّ الدين، فإنّه من وَحي الشيطان ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾[البقرة 169] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْم﴾[الأنعام 144] قال بعضُهم "تعلّم: لا أدري، ولا تتعلّم: أدري! فإن قلتَ أنّك لا تدري، علّموك حتى تدرِيَ، وإن قلت: أدري! سألوك حتى لا تدري!" لِذا قال الآخَرُ "لا أدري: نِصفُ العلم" وقال غيرُه "إذا أغفل العالِمُ: لا أدري؛ أُصيبت مَقاتِلُه! أي هَلَك من جرّاء ذلك. وأما قولُه "أُحبُّ أن أسمعَه من غيري"، فهذا مِن الفتوَّة وهو خصلة عظيمة عزيزةُ الوُجود.

[35] خانقاه كلمة فارسية: خانگاه بالقاف البدوية، وهي الموضع الذي يسكنُه الصوفيَّة المتفرِّغون للرياضة والتَّعبُّد، ويسميها الأتراكُ التكيَّة والمغاربةُ الزاوية والرباط. لم تكن تلك

البِناء واسعةُ الفِناء، فنظرتُ إلى مَغزاهم المطلوب، ومَنحاهم المرغوبُ: تَنظيفُ

المواضع معروفةً بالمغرب في القرن السادس، والظاهر أنّها أصلُ ظهورِ الطُّرق الصوفيّة التي انجرَّت عن اجتماع المريدين حَول شيخ واحد يُرشدهم ويسلِّكهم بحيث لا يفارق بعضُهم بعضا. وقيل أنّ أوَّل مَن أسَّس خانقاها للصوفيَّة على الإطلاق أبو سعيد فضلُ الله بن أبي الخير الْمَيهَني، العالم الشاعر الصوفي الفارسي صاحب الكرامات والمكاشفات. وصفَه الذهبي في السِّيَر بشيخ خراسان وبالقدوة وبالعارف. أخذ التصوف عن الشيخ أبي الحسن علي بن جعفر الخَرَقاني الذي أخذ عن أبي يزيد البِسطامي. ورحل إلى أبي عبد الرحمن السُّلَمي بنيسَبور وسمع منه وأخذ عنه الخِرقة. وأخذ عنه جماعة، منهم إمام الحَرَمَين أبو المعالي الجوَيني شيخُ أبي حامد الغزالي ولد سنة 357 بمَيهَنة إحدى قُرى خراسان، وتُوُفِّي بها في صومَعة الخانقاه التي أسَّسها بجوار داره سنةَ 440هـــ. أمّا الموضع الذي يذكُره الشيخ في مصر فالأغلب على الظنّ أنّها خانقاه سعيد السُّعداء التي أسَّسها المَلِك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب المعروف بصَلاح الدين الأيوبي. و لم يكن قبلَ ذلك بالديار المصرية شيءٌ من المدارس السُّنّيّة لأنَّها كانت تحت حُكم الفاطميين الشيعة. فعمَّر صلاح الدين القاهرة بالمدارس ووقف عليها أوقافا كثيرة. وفي عام 569 حوّل صلاح الدين دارَ أحدِ خُدّام الخليفة المستنصِر المقرَّبين، وكان اسمُه قبر أو عنبر سعيد السُّعداء، إلى خانقاه للصوفيَّة الوافدين على مصر خاصَّة، وكان أغلبُهم من أهل المغرب. ورتَّب لهم كل يوم طعاما ولحما وخبزا ووقف لهم حمّامًا مُتاخما لها. وهي أوَّل خانقاه عُمِّرَت بديار مصر، وسُمّي شيخُها 'شيخ الشيوخ'. قلتُ: وهي موجودة إلى يومنا هذا بحي الجماليّة بالقاهرة، وانظُر 'النجوم الزاهرة في مُلوك مصر والقاهرة' لتغري بردي ج1/ص403 وج1/ص135، و'حُسن المحاضرة في أخبار مِصر والقاهرة' للسيوطي ص301-302، الوراق.

مُرَقَّعاهم، بل مُشهِّراتِهم، وتَرجيلُ لِحاهُم. غيرَ أنهم يدَّعون أنّ أهل المغرِب أهلُ حقيقة لا طريقة وهم أهل طريقة لا حقيقة. وكفى بهذا الكلامِ فَسادا! إذْ لا وُصول إلى حَقيقةٍ إلا بعد تَحصيل الطَّريقة، وقد قال الإمام الْمُقدَّم والصدْر المبرَّز أبو سليمان الداراني "وإنما حُرموا الوصول -وهو الحقيقة- بتضييعهم الأصول -وهي الطريقة-". وقد شهِدوا على أنفسهم بفَراغهم مِن الحقيقة فهي شهادتُهم بعينها أنهم على غير الطريقة. وشهادتهم لنا أننا على الحقيقة شهادةٌ منهم لنا بتحصيل الطريقة. وهاتان جَهالتان منهم وهم لا يشعُرون.

فالزمان، يا وليّي، اليومَ شديد، شيطانُه مَريد وجبّاره عنيد؛ عُلماءُ سَوءٍ يَطلُبون ما يأكلون وأمراءِ جَوْر يَحكُمون بما لا يعلَمون وصوفيَّة صُوف بأعراض الدنيا مُوَسَّخون ومَوْسومون. عظُمت الدُّنيا في أعيُنهم فلا يرَون فوقَها مَطلَبا وصغُر الحقُّ في أنفُسهِم فأعْجَلوا عنه هرَبا. حافظوا على السَّجّادات والْمُشَهِّرات والعَكاكز وأظهروا السَّبْحات الْمُزيَّنة كالعجائز؛ طَغامٌ، أطفال، صبيانُ الأحلام! لا علمَ لهم عن الحرام يَردَعُهم ولا زُهدَ عن الرَّغبة في الدنيا يَصدُّهم. اِتَّخذوا ظاهرَ الدين شَرَكًا للحُطام ولازَموا الخَوانِق والأَرْبِطَة رَغبةً فيما يأتي إليها مِن حلال أو حرام. وسَّعوا أَردانَهم وسَمَّنوا أبدانَهم.[36]

---

[36] قولُه: شيطانُه مَريد، فالشيطان قد يكون من شياطين الإنس الذين يصدّون عن سبيل الله والذين هم أعداء الله على الحقيقة، والْمريد مَن تعدَّى كلَّ الضوابط واجتاز كلَّ الحدود، فلا شيءَ يحجُزُه عن ارتكاب ما يريده وإن كان أكرَ المَنكَرات؛ كان ما كان وفي حقِّ أيٍّ

كان. قولُه: جبّارُه عنيد، الجبّار اسمٌ من أسماء الله تعالى ولا يحقُّ لِمَخلوق أن يتسمّى به، فحرامٌ على الخلق أن يتجبَّروا كما أنَّه لا يحق لهم التَّكبُّر، ومَن تجبَّر من الناس فهو طاغية يرى نفسَه بمثابة الربّ الفعَّالُ لِما يريد لكونه يرزُق ويحيي ويُميت. والعنيد، من عَندَ أي صادَم الحقَّ وأنكَرَه، لا عن جهلٍ بل قصدًا وتعدّيا. قولُه: صوفيَّة صُوف، أي متظاهرين بأدنى ما يَمُتُّ إلى التصوُّف بصِلَة، وهو الصوف الذي ليس سوى أنسِجة تُشترَى في السوق، والتي لا حاجةَ لاكتِساها إلى رياضةِ نَفس أو تفقُّه أو ارتكاب مَكارِه ولا إلى تورُّع ولا همَّة. قولُه: مَوْسومون، من الوَسْم، وهو قريب من الوَشْم، أي الأثر في ظاهر الحَيّ بشيء يترُك عليه علامةً، ومنه السِّمَةُ وهي ما يظهَر للحواسّ، والتوسُّم وهو إدراكُ باطن الأمر ممّا لا يظهر. قولُه: السَّجّادات، مفردُه سجَّادة وهي منسوج أو جلد يصلّي عليه مَن يَتفادَى الصلاةَ على الأرض، وقد بيَّنا في كتابنا 'فهم الصلاة' أنّ ذلك بدعة وأن الصواب الصلاة على الأرض من غير حائل، عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلّم «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطَهورا». قولُه: الْمُشَهِّرات، هذا من جِنس التَّهكُّم ومقابلَة الباطل بما يُبطِلُه، وذلك لأنّ هؤلاء القومُ أرادوا أن يَظهَروا للناس كصوفيَّة ليستطيعوا الدخولَ إلى الخانقاهات والأربطة للعَيش والأكل والنَّوم تطفُّلاً، فارتَدَوا الخِرَق وأشهَروا زِيَّ الصوفيَّة، خاصَّةً وأنّ أكثرَ الذين يقِفون الأبنية والبساتين والمَعامِل يشترطون أن تكون للصوفيَّة خاصَّة، فالْمُتصوِّف، لا الصُّوفي، هو مَن تزيَّى بالصوف وتظاهَر بالتَّدروُش. وإلاّ فالصوفي الحقيقي لا يريد أن يتظاهرَ بشيْ لأحد سوى الله، ولا يقول أحد بأنه صوفي إلا لكونه جاهلاً أو كاذِبا، فالتصوُّف سر بين العَبد وربه. قولُه:العَكاكز، جمع عُكّاز أو عُكّازَة وهي العَصا التي يُتوَكَّأ عليها للمَشي. قولُه: السَّبْحات، جمع سَبحة، والمشارقَة يقولون: مِسبحة، وهي عِقد من تسعٍ وتسعين حبَّة لِعدَّ التسبيحات والتحميدات والتَّكبيرات للذِّكر، وليست ببدعة لأنّ النبي صلى الله عليه وسلَّم قد أشار إلى عدّ الذِكر بالحصى. قولُه: طَغامٌ، جمع

فوالله، لا أراهم إلا كما حدثني غيرُ واحد، منهم أبو الوليد بن العربي وأبو عبد الله بن عيسون وأحمد الشاهد، عن القاضي أبي بكر بن العربي الْمَعافِري قال: حدثني أبو المطهَّر سعد بن عبد الله الأصبهاني قال: حدثنا أحمد بن أحمد الأصبَهاني قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا محمد بن أحمد بن علي قال: حدثنا أحمد بن الهيثم قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال: حدثنا بِشر بن

طَغامَة مِن طَغِم أي تجاهَل على الناس وأظهر الحُمق. قولُه: صبيانُ الأحلام، أي صَغيرو العُقول ضعيفو الأنفُس. قولُه: شَرَكًا للحُطام، والشَّرَك هو الحُبالَة التي يُصطاد به السَّمك والطَّير. قولُه: وسَّعوا أَردانَهم، أي ملابسَهم وأكمامَهم خاصَّة. قوله: سَمَّنوا أبدانَهم، أي أكثَروا مِن الأكل إلأى أن عظُمت أجسامُهم من السِّمن، وهذا علامة على نقص الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن يأكل في مِعًى واحدٍ، وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء» رواه الجماعة عن أبي هريرة وابن عمر وأبي موسى وغيرهم. الحاصلُ أنَّ الشيخ قد وصف هؤلاء المتصوِّفة بالأطفال والعجائز اللَّذين ليس لهم سوى اللَّهو بأمور تافهة. ولكنَّ أوّل خصلة يجب أن تكون في رجال الله إنما هي أن يكونوا رجالا، وقد انتقَد الشيخُ هؤلاء الطُّفيليين الماكثين في الخوانق والزوايا ألذعَ نقد، ووصفهم بأنواع ممّا يسمِّيه الفقهاءُ خَوارِمَ المروءة أي الأمور السخيفة التي لا يأبَه لها الكثير من عامَّة الناس والتي تطعَن في العدالَة وفي رُجوليَّة الرَّجل وأنوثة المرأة. بل يجب الحِفاظُ على آداب الشَّرع كما حثَّ عليه القرآن والسنَّة تحت اسم المَعروف والمُنكَر. وليس كلُّ ما يُنكِرُه الناس بمُكَر شرعًا ولا كلّ ما أقرُّوه بمَعروف شرعًا. فالمعروف شرعًا هو ما تعارَف عليه الناس وأقرَّه التَّتريل، والمنكَر شرعا ما أنكَرَه المجتمَع ولَم يأتِ التتريلُ بالحثّ عليه، فمِن ذلك أمورُ الدين التي أتَى بها الرُّسُل، فقد أنكَر الناسُ الكثيرَ منها ولكنَّها ليست بمُنكَر، وأوَّلُها التوحيد، فاهَم هذا.

مَطر بن حكيم بن دينار القطيعي قال: سمعتُ عَمرو بن دينار، وكيلَ آل الزُّبير، يحدّث عن مالك بن دينارٍ قال: حدثني شيخٌ من الأنصار عن سالِمٍ مَولى أبي حُذَيفةَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَيُجاءَنَّ بأقوامٍ يومَ القيامة معهم مِن الحسنات مِثلُ جبال تِهامَةَ، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالَهم هَباءً ثم قذفهم في النار» فقال سالم "يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي، حُدَّ لنا هؤلاء القوم حتى نعرفَهم، فوالَّذي بعثَك بالحقّ إني أتَخوَّف أن أكون منهم!" قال «يا سالم، أما إنَّهم كانوا يَصومون ويصلون وكانوا يأخذون وَهَنًا من الليل، ولكنّهم كانوا إذا عرَض لهم شيءٌ مِن الحرام وَثَبوا عليه؛ فأدحض الله عز وجل أعمالَهم.» فقال مالك بن دينار "هذا والله النفاق!"[37]

والله، يا وليي، لو رأيتهم في صلاتهم يَنقُرونَها وفي صُفوفهم لا يقيمونها. يجعل أحدُهم بينَه وبين صاحبه في الصفّ قدرَ ما يدخُل فيه ألفُ شيطان، ثم إذا شئتَ أن تسُدَّ ذلك الخَلَل تَراهم قد قطَّبوا وجوهَهم. وإن غفَلتَ ووَطِئت برجلك سَجّادةَ أحدِهم لَكَمَكَ لَكمةً حيثُ جاءَت منك وقد يكون فيها حَتفُك! هذه وأشباهُها هي الطريقة التي أهلُ زمانك عليها. ويرحمُ الله أبا القاسم القُشَيريَّ حيث أدرَك مَن تَحلَّى بحِلْيَة القَوم في ظاهره وتعرَّى عنهم في باطنه فأنشد فيه:

أما الْخِيامُ فإنَّها كخِيامِهم   وأرَى نِساءَ الحيِّ غيرَ نِسائها

---

[37] أخرجه أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الأصبهاني الحافظ ترجمة سالم مولى أبي حذيفة من الحلية، وفي معرفة الصحابة وابن أبي الدنيا في الأهوال.

هذا الذي قد اشترك معهم في الزِّيّ الظاهر، وأما اليومَ فلا خِيامَ ولا نساءَ بإجماعٍ مِن القوم. وإن الْمَوت الأخضرَ[38] عندهم طَرحُ الرِّقاع بعضِها على

[38] يقول الشيخ عبد الرزاق القاشاني: وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما "الموت هو التوبة قال تعالى ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة 54]، فمن تاب فقد قتل نفسَه." واعلم أن للصوفية أوصافًا يعبِّرون عنها بالموت الأبيض والأخضر والأسود والأحمر، ولكل من هذه الموتات الأربع حياةٌ تخصُّه.

الموت الأبيض: يعنون به الجوع، فإذا كان السالك ممن لا يعرف الشِّبع، بل لا يزال جائعًا، فقد مات الموتَ الأبيض، وتحيى فِطنتُه إذ كانت البِطنة تُميت الفطنة. فإذا ماتت بطنته حَيِيَت فطنتُه.

الموت الأخضر: هو لبس المرقَّع، وهو أن يقتصِر على ما يستُر العورة مما لا قيمةَ له. ولما لم يكن كذلك إلا الخِرقُ الْمُلْقاةُ على المزابل اقتصرَ صاحبُ هذا المقام مِن لباسه على ما يَجمعُه منها، ويغسِله لتصِحَّ صلاتُه فيه. فمن اقتصر في لِباسه على هذا القدر، فقد مات الموتَ الأخضر.

الموت الأسود: هو احتمالُ أذى الخَلق. فإذا تحقَّق السالك بالمقام الذي يصير فيه بحيث لا يجد في نفسه حَرَجًا مما ينالُه من أذى الناس وسبِّهم وشَتمِهم وغير ذلك، فقد مات الموتَ الأسود. ويحيا بالإمداد من حضرة الجواد، لأنه يصير مِمّن قد شاهد النِّعم الباطنة عن غيره حين صارت في حقه ظاهرة، لا يرى صدورَ الكل إلا مِن مَحبوبه.

الموت الأحمر: هو مُخالفة الهوى، وهذا هو الموت الجامع باقي الموتات كلها، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلّم، لما كان يرجع من قتال الكفار «رجَعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، قالوا: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال «مخالفة النفس». وفي حديث آخر «والمجاهد من جاهد نفسه». قال تعالى﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ

بعض. وذلك شِعارُهم رضي الله عنهم. فقام هؤلاء فقالوا "إنما لنا لَبْس مُرقَّعة خاصّة"، و لم يَلحَظوا ما أُريدَ بها، فتأنَّقوا في الثياب الْمُطرَّحة والأعلام المشهِّرة، وخاطوها على وزنٍ مَعلوم وترتيب مَنظوم؛ تُساوي مالاً عظيما، وأفسدوا عليها ثيابا وسَمّوها: مُرَقَّعَة. فرحِم الله سيِّدَ هذه الطائفة أبا القاسم الْجُنَيدَ حيث أنشد لَمّا رأى مِن فساد الحال:

أهلُ التَّصَوُّفِ[39] قد مَضَـــوْا صار التصوُّف مَخْرَقَه

لَمَعَ الْمُحْسِنِين﴾[العنكبوت 69]. فمن مات عن هواه فقد حيِيَ بهُداه من موت الضَّلالة وبمعرفته من موت الجهل. انتهى من لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام القاشاني.

[39] يقول ابن قيم الجوزيّة: كان التصوُّف والفقر في مواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب. كان خرقة فصار حِرفة. غيِّرْ زِيَّك أيُّها الْمُرائي، فإنّه يَصيحُ بك "خذوني!" الفوائد ج3/ص576. يقول ابن خلدون أصلُه: -يعني التصوف- أنّ طريقةَ هؤلاء القوم لم تزل، عند سَلَفِ الأمة وكِبارها مِن الصَّحابة والتابعين ومَن بعدَهم، طريقةَ الحق والهداية. وأصلُها العُكوفُ على العِبادة والانقطاعُ إلى الله تعالى والإعراضُ عن زُخرُف الدنيا وزينَتِها، والزهدُ فيما يُقبِل عليه الجُمهور مِن لذَّةٍ ومال وجاه، والانفِرادُ عن الخَلْقِ في الخَلْوَة للعبادة. وكان ذلك عامًّا في الصَّحابة والسَّلَف، فلمّا فَشا الإقبالُ على الدنيا في القَرْنِ الثاني وما بعدَه، وجَنَحَ الناسُ إلى مُخالَطة الدنيا، اِختَصَّ الْمُقبِلون على العِبادة باسمِ الصُّوفيّة والْمُتصَوِّفة... فلما اختصَّ هؤلاء بِمَذهَب الزُّهد والاِنفِرادِ عنِ الخَلق والإقبالِ على العِبادة اختُصُّوا بِمَأخَذ مدركة لهم. وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميَّز عن سائر الحيوان بالإدراك، وإدراكُه نوعان: إدراكٌ للعُلوم والْمَعارف، مِن اليَقين والظَّنّ والشَّكّ والوَهم، وإدراكٌ للأَحوال القائمَة، مِن الفَرَح والحُزن، والقَبْضِ والبَسْط، والرِّضا والغَضَب، والصَّبر والشُّكر، وأمثال

ذلك... وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحال إمّا أن تكون نوعَ عبادة، فتَرسَخُ وتَصيرُ مَقامًا للمريد، وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صِفةً حاصِلةً للنفس من حُزنٍ أو سُرور، أو نَشاطٍ أو كَسَل، أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد يترقي من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والْمَعرفة، التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة» تاريخ ابن خلدون ج1/ص467. وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللّقب. اختلفوا في أصل، فقيل من الصِّفة وقيل من الصفاء وقيل من الصُّوف وقيل من الصَّفوة وقيل من الصفّ وقيل من الصُّفة لقرب أحوالهم من أحوال أصحاب الصفة كما سيأتي في موضعه. وذهب البيروني في كتابه 'تحقيق ما للهند' إلى أن أصل اللفظة يوناني وهو: '*sophia*' أي حِكمة. يقول: السوفية هم الحكماء فإن 'سوفيا' باليونانية الحكمة. وبها سُمّي الفيلسوف 'فيلوسوفيا' أي محب الحكمة. ولما ذهب في الإسلام قومٌ إلى قريب من رأيهم سُمَّوا باسمِهم، ولم يعرف اللقبَ بعضُهم فنَسبَهم إلى أهل الصُّفّة، وهم أصحابُها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صُحِّف بعد ذلك فصُيِّر من صوف التُّيوس؛ وعدَل أبو الفتح البُستي عن ذلك أحسنَ عُدول في قوله:

تنازع الناسُ في الصوفِيِّ واختلَفوا ... قِدمًا وظنُّوه مُشتَــقًّا من الصُّوف

ولستُ أَمنَح هذا الاسمَ غيرَ فتىً ... صافَى فصُوفِيَ حتّى لُقِّبَ: الصوفي

فالتصوف ليس زيًّا يتعارف به فريقٌ من الناس، ولكنّه علم مصدرُه الله وعمل مقصَدُه الله، والبد في ذلك فانٍ عن سعيه في ذات الله تبارك وتعالى. قال ابن قيم الجوزية: التصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه فإن المرء مع من أحب ، وقال: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف فإن حسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق : يدل على سعة قلب

صار التَّـــصوف رَكْـــوَةً   وسَـــجّادة ومَـــذلَقَه
صار التصوف صَيحَـــةً   وتَـــواجُدًا ومَـــطبقَه
كذَبتك نفسُك ليس ذي   سَنَنَ الطريق الْمُلحِقه

واللهِ ما أعلم أهلَ الطريق هكذا! وما كان الطريق إلا بالقُعود في مَرابِض الكِلاب مُجاهدةً، وتَحمُّلِ الأذى وكفِّه رياضةً، والرحمةُ والشفَقة والعطْف على الفُقراء والمساكين والمسلمين كافَّة تَحقيقًا ومعرفة. أين هم من صِفة أهل الله كما نعَتهم شيخُ الطائفة العاليَة رضي الله عنهم، على ما حدّثنا أبو محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو بكر بن أبي منصور وحدّثنا أبو الفضل أحمد قالا: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو الحسَن أحمد بن محمد بن مِقسَمٍ قال: حدثنا عباس بن يوسف الشِّكلي قال: حدثني محمد بن عبد الملك قال: قال عبد

صاحبه وكرم نفسه وسجيته وفي هذا الوصف يكف الأذى ويحمل الأذى ويوجد الراحة ويدير خده الأيسر لمن لطم الأيمن ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه ويمشى ميلين مع من سخره ميلا وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها وأما رفض العلائق عزما : فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه والأصل هو قطع علائق الباطن فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. وقال: قال أبو القاسم النصراباذي شيخ خراسان في وقته "أصل التصوُّف مُلازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبِدع وتعظيم كرامات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات. مدارج السالكين ج2/ص317- 467-307، دار الكتاب العربي، بيروت.

الباري: قلتُ لذي النون المصري رحمه الله "صِفْ لِيَ الأَبْدال[40]" قال "أَإنّك تسألني عن دَياجي الظُّلَم لأكشِفَ لك عنها، يا عبد الباري؟ هم قومٌ ذكَروا الله

[40] اعلَم أن الأولياء والذين هم الأفراد، على طبقاتٍ، ويضمُّهم ديوانٌ مُحكَم الترتيب والمراتب: فيأتي على رأسهم القُطبُ ثم يليه الإمامان ثم الأوتاد ثم الأبدال ثم النجباء ثم النُّقباء ثم العصائب ثم الحكماء ثم المفردون ثم الرجبيون. فمتَى فُقد أحد من هذا الديوان استُخلِف بواحد من الطبق التي تحتَه ليبقى النظام مُحكَمًا لحُسن سَرَيان أمور العالَم، فإنَّهم ملجأ الخلق بإذن الله في جلب المنافع ودفع المضارِّ، لا بأن يُصمَد لَهم بل كوسائل ووسائط حقٍّ بين الخلق ومسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى. فبهم يُستَنزل الْمَطَر ويُجلَب النَّصر وتتقى النكبات الخاصَّة والعامة. وقد شاهدتُ هذا مرّات في الجزائر وبخاصَّة إبّان فتنة الفيس، من سيدي حمّه بن حسين الخنقي وسيدي بمحمّد بَلْقايد التلمساني وسيدي محمد بلكبير الأدراري وسيدي التوزري التونسي. وقد توفَّوا جميعا في تلك المحنة، رضي الله عنهم وأرضاهم. ويقول الشيخ الأكبر، قدَّس الله سرَّه، في الباب السادس عشر في معرفة المنازل السُّفلية والعلوم الكونية: الأبدالُ في هذا الطريق لفظٌ مُشترَك. يُطلِقون الأبدال على من تبدَّلت أوصافُه المذمومة بالمحمودة، ويطلقونه على عددٍ خاصّ. وهم أربعون عند بعضهم لصفة يجتمعون فيها، وقالوا: سموا أبدالاً لكونهم إذا مات واحد منهم كان الآخر بدله. ويؤخذ من الأربعين واحد وتكمُل الأربعون بواحد من الثلاثمائة وتكمل الثلاثمائة بواحد من صالحي المؤمنين. وقيل: سموا أبدالاً لأنهم أعطوا من القوّة أن يتركوا بَدَلَهم حيث يريدون لأمر يقوم في نفوسهم على علم منهم فإن لم يكن على علم منهم فليس من أصحاب هذا المقام، فقد يكون من صُلحاء الأمة وقد يكون من الأفراد. وقد ألّف الشيخ في المسألة رسالةً سمّاها حلية الأبدال، قال فيها:

بقلوبهم تعظيما لربِّهم لِمَعرفَتهم بجلاله، فهم حُجَجُ الله تعالى على خلقه. ألبسَهم النورَ الساطِع مِن مَحبَّته ورفع لهم أعلامَ الهِداية إلى مُواصلته، أقامهم مقامَ الأبطال لإرادته وأَفرَغ عليهم الصَّبرَ عن مُخالَفتِه وطهَّر أبدانَهم بمُراقبَته وطيَّبهم بطِيب أَهلِ مُعامَلتِه وكَسَاهم حُلَلاً مِن نَسْجِ مَودَّتِه ووَضع على رؤوسِهم تِيجانَ مَسرَّته. ثم أَودَع القلوبَ مِن ذَخائر الغيوب، فهي مَعلَّقةٌ بمُواصَلته. فَهِمَمُهُم إليه سائرةٌ وأعينُهم بالغَيب إليه ناظرة. قد أقامَهم على باب النظَر مِن قُربه وأجلَسهم على كَراسِي أَطِبّاء أهل مَعرِفتِه، ثم قال عز وجل لهم «إن أتاكم عَليلٌ مِن فَقْدي فداَوُوه أو مَريضٌ من فَرَقي فعالِجوه أو خائفٌ منّي فأمِّنوه أو آمن مني فحَذِّروه أو راغِبٌ في مُواصَلَتِي فهَنّوه أو راحِلٌ نَحْوِي فزَوِّدوه أو جَبانٌ في مُتاجَرَتي فشَجِّعوه أو آيسٌ من فَضْلي فعِدوه أو رَاجٍ لإحساني فبَشِّروه أو حَسَنُ الظَّنِّ بي فباسِطوه أو مُحِبٌّ لي فوَاطِئوه أو مُعَظِّمٌ لقَدْري فعَظِّموه أو مُستَوصِفُكم نَحوي فأرشِدوه أو مُسيءٌ بعدَ إحسانٍ فعاتِبوه. أو مُستَرْشِدٌ نَحوي فأَرشِدوه، ومَن واصلَكم فِيّ فواصلوه ومَن غاب عنكم فافتقِدوه ومن ألزمكم جِناية فاحتملوه ومن قَصّر في واجب حقي

يا مَن أراد مَـــنازلَ الأبْـــدالِ	مِن غير قَـــصد منه لِلأعمالِ
لا تَطْمَعَنّ بها فَلستَ مِن أَهلِها	إن لَم تُزاحِمهُم على الأحوالِ
بَـــيتُ الوَلايَةِ قَسَّمت أركانَه	سادَتُـــنا فـــيه مِن الأَبْـــدالِ
ما بَينَ صَمْتٍ واعْتِزالٍ دائِـــمٍ	والْجُوعِ والسَّهَرِ النَّزيهِ العالي

فاترُكوه ومن أخطأ خطيئةً فناصحوه ومن مرِض من أوليائي فعُودوه ومن حزِن فبشِّروه، وإنِ استجار بكم مَلهوف فأجيروه. يا أوليائي، لكم عاتَبتُ وفي إيّاكم رَغِبتُ ومنكم الوفاءَ طلبت، ولكم اصطَفَيتُ وانتخَبت ولكُمُ استَخدَمت واختصَصت. لأني لا أحِبُّ استخدامَ الجبارين ولا مُواصَلة الْمُتكبِّرين ولا مُصافاةَ الْمُخَلِّطين ولا مجاوبَةَ المخادِعين ولا قُربَ المُعجَبين ولا مُجالسةَ البطّالين ولا مُوالاةَ الشَّرِهين. يا أوليائي، جزائي لكم أفضلُ الجزاءِ وعطائي لكم أجزلُ العطاء، وبَذْلي لكم أفضلُ البَذل وفَضلي عليكم أكثرُ الفضل، ومُعاملتي لكم أَوفَى المعاملة ومُطالبَتي لكم أشدُّ المُطالبَة. أنا مُجْتَبي القُلوب وأنا عَلاّمُ الغُيوب، وأنا مُراقِبُ الحرَكات وأنا مُلاحِظُ اللَّحْظات، أنا الْمُشْرِف على الخَواطر، أنا العالم بِمَجالي الفِكر. فكونوا دُعاةً إليّ، لا يُفزِعْكم ذو سُلطان سِوائي. فمَن عاداكم عادَيتُه ومَن وَالاكم والَيتُه[41]، ومَن آذاكم أَهلَكتُه ومَن أحسنَ إليكم جازَيتُه، ومَن هَجَرَكُم قَلَيتُه.»[42]

---

[41] كلام ذي النون المصري هذا إنّما ينبُع من مِشكاة النبوَّة الساطعةِ الأنوار إلى يوم القيامة ببركة نبيِّنا صلى الله عليه وسلّم. فصِفات الصَّفوة من المؤمنين قد بيَّنها الوحيُ والسنَّة: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِين؛ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج 37-38] فالْمُحسنون إنما هم أولياءُ الله وأصفياؤُه، فلا مَحالةَ أن يُقرِّبَ تعالى مَن قرَّبَهم ويُباعدَ مَن أقصاهم. كما دلّنا عليه في كتابه بقوله تعالى ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[يونس 62-64] وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله قال: مَن عادَى لي وَلِياًّ فقد آذنتُه بالْحَرْب! وما تقرَّب إِلَيَّ عبدي

فهذه أحوال العارفين[43]، يا وليي، وهكذا تكون عِمارة القلوب. وأما أهل زمانك فوالله لو اطلعتَ عليهم، كما اطلعتُ على جُملتهم، ظاهرِهم وباطنهم،

بشيء أحبَّ إِلَيّ مِمّا افترضتُ عليه! وما يَزال عبدِي يتقرَّبُ إِلَيّ بالنَّوافل حتى أُحِبَّه. فإذا أَحبَبْتُه، كنتُ سَمْعَه الذي يَسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجلَه التي يَمشي بها. وإن سألَني لأُعطِيَنَّه ولئن اِستعاذَني لأُعيذَنَّه! وما تَردَّدتُ عن شيء أنا فاعِلُه تَردُّدِي عَن نفسِ الْمُؤمِنِ؛ يكرَه الموتَ وأنا أَكرَه مَسَاءَتَه!» خرَّجه البخاري في الرقاق وابن حبان والبزار عن أبي هريرة، وله شواهد عن عائشة عند أحمد وعن أبي أمامة عند الطبراني في 'الكبير'. جعلنا الله بمنِّه وكرمِه منهم، آمين.

[42] لم يورِد الشيخ الأثرَ بتمامه بل توقّف عند قوله «فأرشِدوه» ثم قال: إلى آخر تمام القصة على ما ذكرناها في كتاب 'البُغية' مُستوفاة. والمصدر الذي يُحيل عليه الشيخ هو كتابُه 'البغية في اختِصار كتاب الحِلية' والذي ذكره الشيخ في الإجازة وفي الفِهرس، ولكن لا أثرَ له ضمن الطبعات ولا المخطوطات. فرأيتُ أن أُتِمّ الأثر من مصدره الأوّل لعِظم شأنه وفائدته، كما أخرجه أبو نُعيم في مقدمة 'حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء'.

[43] الْمَعرِفة والعِرفان مشتقّة من العُرف أي الرائحة، أو عُرفُ الشيء أي أعلاه، وهي إدراكُ الشيء بتدبُّر أثره. فلما كانت معرفة البشر لله تعالى هي تدبر آثاره دون إدراك ذاته قيل أنّهم يعرفون الله ويعرفون ربَّهم. ويضادُّها النَّكِرة والنُّكر، ومنه المعروف الذي يُؤمَر به والمُنكَر الذي يُنهَى عنه. ويقال فلان يعرف فلانًا ولا يقال يعلمُه إلا متعدِّيا إلى مفعول ثان، كأن يقال: يعلَمُه صادقًا ولما كان الله يعلَم الأشياء كما هي في أعيانها قيل عنه أنه تعالى يعلم ولا يقال أنه يعرف ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيم﴾[فاطر 38]. وأمّا العارف في مُصطَلح القوم، فيقول الكلاباذي: العارف هو الذي

لرأيتَ إن نظرت إلى وجوههم عيونًا جامدة متحرِّكة غيرَ هامدة، وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوسا سامدة، وإن نظرت إلى قلوبهم رأيتَ قلوبا لاهية من

بذل مَجهودَه فيما لِلَّه، وتحقَّقَ مَعرِفتَه بما مَنَّ الله، وصحَّ رُجوعُه من الأشياء إلى الله. ويقول الشيخ ابن العربي: العارفُ هو الذي عرَف شهادَتَه وغيبَه، وأعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. ويقول ابن عجيبة: العارف هو الذي بلغ من التقرُّب والقُرْبِ حتّى اِمتَحَق عن نفسهِ بالكلِّيّة وزالت عنه الإنِّـــيَّة والغَيريَّة، بحيث لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير مولاة قرار. بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأحد أصحابه «كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟ قال "أصبحت مؤمنا حقّا" قال «إنّ لكُلّ قول حَقيقَةً، فما حَقيقة ذلك؟» قال "أصبحتُ عَزَفَتْ نفسي عن الدُّنيا، فأَسهَرْتُ لَيلي وأَظمأتُ نَهاري، ولَكأنِّي أَنظُر إلى عَرشِ رَبّي قد أُبرِزَ للحِساب، ولكَأَني أنظرُ إلى أهلِ الجَنَّة يَتزاوَرُون في الجنة، ولَكَأنّي أَسمَعُ عُواءَ أَهلِ النار" فقال له «عبدٌ نَوَّرُ الإيمانُ في قَلبِه؛ إذْ عَرَفتَ فَالْزَمْ!» رواه ابن أبي شيبة ر31064 والبيهقي في الشعب والطبراني في الكبير والأصبهاني في المعرفة. ورواه الأصبهاني في الحلية وابن عساكر في التاريخ عن أنس بن مالك، أنّ معاذ بن جبل، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «كيف أصبحت يا معاذ؟» قال "أصبحتُ مؤمنا بالله تعالى" قال «إنّ لكلِّ قولٍ مِصداقا، ولِكلّ حَقٍّ حَقيقة، فما مِصداق ما تَقول؟» قال "يا نَبيَّ الله، ما أصبحتُ صباحًا قطُّ إلا ظَنَنتُ أنِّي لا أُمسي، وما أَمسَيتُ مساءً قَطُّ إلا ظننتُ أني لا أُصبِح، ولا خَطَوتُ خُطوَةً إلا ظَننت أني لا أُتبِعُها أُخرَى؛ وكأنّي أَنظُر إلى كلِّ أُمَّة جاثيَةً تُدعَى إلى كتابِها، معَها نبيُّها وأوثانُها التي كانت تَعبُد مِن دونِ الله، وكأني أنظُر إلى عُقوبَة أهلِ النار وثَواب أهلِ الجنة" قال صلى الله عليه وسلَّم «عَرَفْتَ فَالْزَم!»

العمارة العُلويّة القُدسيَّة خالية على عروشها خاوية؛ آجاما لأُسود ضارِيَة ومَرابِض لذئاب عاوِيَة. فسل الله عن رؤيتهم العافية! أين هم، يا وليي، مِن قوم وصفهم أبو الفيض رحمه الله تعالى حيث قال "إن لِلَّه لَصفوةً مِن خلقه وإن لله لَخِيرَة! قيل له "يا أبا الفيض ما علامتُهم؟" قال "إذا خَلع العبدُ الراحةَ وأعطى الْمَجهود في الطاعة وأحبَّ سُقوطَ الْمَنزِلة!" ثم قال:

منع القرآنُ بوَعدِه ووَعــيدِه	مُقَلَ العُيون بلَيلها أن تَهجَعْ
فهِموا عن المِلك الكريم كلامَه	فَهمًا تَذِلُّ له الرِّقابُ وتخضَعْ

فقال له بعض من كان في مجلسه "مَن هؤلاء القوم، يا أبا الفَيض، رحمك الله؟" قال "وَيحَك، هؤلاء قومٌ جعلوا الرُّكَب لِجباههم وِسادًا والتُّراب لجنوبهم مِهادا. هؤلاءِ قَوم خالَط القرآنُ لُحومَهم ودِماءَهم فعزلَهم عن الأزواج وحرَّكهم بالإدْلاج؛ فوضعوه على أفئدتِهم فانسَرحَت وضمُّوه إلى صُدورهم فانشرحَتْ وتصدَّعت هِمَمُهم به فكدَحت. جَعلوه لظُلمتهم سِراجا ولسبيلِهم مِنهاجا ولِحُجّتهم إفلاجا. يفرَح الناسُ وهم يَحزَنون وينام الناس ويسْهَرون ويُفطِر الناس ويَصومون ويأمَن الناسُ ويخافون؛ فهم خائفون حَذرون وَجِلون مُشفِقون مُشمِّرون، يُبادرون مِن الفَوت ويستعِدّون للموت. لم يَتصغَّر جَسيمُ ذلك عندهم لعِظَم ما يخافون مِن العذاب وخَطَر ما يوعَدون من الثواب. درجوا على شرائع القرآن وتخلّصوا بخالص القُربان واستناروا بنور الرحمن، فما لبِثوا أن أَنجَز لهم القرآنُ موعودَه وأوفى لهم عهودَه وأحلّهم سُعودَه وأجارهم وَعيدَه. فنالوا

به الرَّغائبَ وعانقوا به الكواعب وأمِنوا به العَواطِبَ وحذِروا به العَواقب، لأنهم فارقوا بَهجَة الدنيا بِعينٍ قالِيَة ونَظروا إلى ثَواب الآخرة بعَين راضيَة واشترَوا الباقيَة بالفانيَة، فنِعمَ ما اتَّجَروا. ربحوا الدارَين وجمَعوا الخيرَين واستَكمَلوا الفضلَين. بلَغوا أفضلَ الْمَنازِلَ بصَبر أيّام قَلائِل. قطعوا الأيامَ باليَسير حَذارَ يومٍ قَمْطَرير، وسارَعوا في الْمُهلة وبادَروا خوفَ حَوادِث الساعات، ولم يركُبوا أيامَهم باللَّهْو واللَّذّات، بل خاضُوا الغَمَرات للباقيَات الصالِحات. أَوهَن واللهِ قوَّتَهم التعبُ وغيّر ألوانَهم النَّصَب وذَكَروا نارًا ذاتَ لَهَب. مُسارِعين إلى الخَيرات، مُنقَطعين عن اللَّهَوات، بريئون مِن الرَّيْب والْخَنا، فهم خُرْسٌ فُصَحاءُ وعُمْيٌ بُصَراء. فعنهم تَقصُر الصفاتُ وبِهم تُدفَع النِّقْمات وعليهم تتزِل البَركات؛ فهم أحلَى الناسِ مَنطِقا ومَذاقًا وأَوفَى الناسِ عَهدا وميثاقا. سِراجُ العبادِ ومَنارُ البِلاد، مَصابيح الدُّجَى ومَعادن الرحمة ومنابع الحِكمة وقِوام الأمَّة. تَجافَت جنوبُهم عن الْمَضاجِع، فهم أَقبَلُ الناسِ للمَعذِرَة وأصفَحُهُم للمَغفِرة وأسْمَحُهم بالعَطِيَّة. نَظروا إلى ثَوابِ الله عزَّ وجلّ بأنفُسٍ تائقَة وعُيونٍ رامِقة وأعمال مُوافِقة، فحَلُّوا عن الدنيا مَطِيَّ رِحالِهم وقَطَعوا منها حِبالَ آمالِهم. لم يَدع لهم خوفُ ربِّهم عزّ وجلّ مِن أموالِهم تَليدًا ولا عَتيدا، فتَراهم لَم يشتَهوا مِن الأموال كُنوزَها ولا مِن الأَوْبار خُزوزَها ولا من الْمِطاءِ عَزيزَها ولا من القُصور مَشيدَها. بلى، ولَكنّهم نَظروا بتوفيقِ الله تعالى لَهم وإلْهامِه إيّاهم، فحرَّكهم ما عرَفوا بِصبْر أيّام قلائل. فضَمُّوا أبدانَهم عن الْمَحارِم وكَفُّوا أيديَهم

عن أَلْوان الْمَطاعِم وهرَبوا بأنفُسهم عن الْمَآثِم، فسَلَكوا مِن السبيل رَشادَه ومَهّدوا للرّشاد مِهادَه، فشارَكوا أهلَ الدنيا في آخِرتِهم، عَزَوا عن الرَّزايا وغُصَصِ الْمَنايا. هابُوا الموْتَ وسَكَراتِه وكُرُباته وفَجَعاتِه، ومِن القبرِ وضَيقِه، ومُنكَرٍ ونَكِير ومِن ابتِدارِهما وانتِهارِهما وسُؤالِهما، ومِن المقامِ بين يدَي الله عَزّ ذِكرُه وتَقدَّست أسماؤُه.[44] هذا ما قاله أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري، وهو كما علمتَ يا وليّي مِن ساداتنا. فهذا وصفُه لأولياء الله وبهذا حلاّهم وهكذا شاهَدهم ورآهم.

ولقد لقِيت بهذه البلاد من يلبَس سراويل الفِتيان ولا يستحْيِي في ذلك من الرحمن، لا يعرِف شروطَ السُّنَن والفرائض، ولا يصلُح أن يكون خَديما في الْمَراحِض! ومع هذا يا وليّي فهُم واللهِ الصدَفُ الذي يُخفي رفيعَ الدُّرَر، والسِّياجُ على الرَّوضة اليانِعة ذات الزَّهر؛ يدخُل بينهم الصادِقُ والصِّدّيق فيُجهل، والعارِف الْمُتمَكِّن فيُترَكُ ويُهمَل، فإنه يُحمَّل ما هم عليه لاشتراكهم في الْمَسكَن، وما بينَه وبينهم مُعامَلَةٌ في شيء. ولقد وقع بيدي منهم بمصرَ في الخانقاه بالقاهرة كَهلٌ يَقرُب أن يكون رُجَيلا لا بأس به، ففرِحتُ به لَمّا لم أجدْ غيرَه.

---

[44] وهنا أيضا لم يورد الشيخُ الأثرَ بتمامه بل توقّف عند قوله "ويستعدون للموت" ثم قال: إلى آخر ما قاله... فرأيتُ أن أُتِمّه من مصدره كذلك، واستبدلت قوله بـــ: هذا ما قاله... أخرجه أبو نُعيم الأصبهاني في مقدمة 'حِلية الأولياء'.

واجتمعتُ مع شيخ يُدعى فيهم 'شيخ الشيوخ بإربِل' هكذا قال لي بنفسه، ورأيته يعطي النصَف من نفسه للمتكلِّم معه، رضي الله عنه؛ فزعَم أن ليس في الغَرْب مَن يعرف الطريقَ إلى الله ولا يتعرَّفُه. فأراد وليُّك أن لا يُشافِهَه بخطاب ولا يتعرّض إليه، ثم رأيت ذلك قاصِمةَ الظهْر وقارعة الدَّهر، فأبدينا له يسيرا مما وهبَك الله من الأسرار، ثم أعقبناه ببعض أحوال سيّدنا أبي مَدْيَنَ[45] خُلاصةِ

---

[45] قال أبو العباس الغُبرينِي: الشيخ الفقيه المحقق، الواصل القطب، شيخ مشائخ الإسلام في عصره، إمام العُبّاد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد، سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي من ناحية إشبيلية، ومن حصين يقال له 'منتوجب' فتح الله عليه بمواهب قَلبيَّة، وأسرار ربانية، استفادَها بالتوجه والعمَل، وارتقى إلى غاية ما يؤمل... قال الشيخ العارف محي الدين أبو بكر بن العربي الحاتمي الطائي "إنّ الشيخ أبا مَديَنَ رحمه الله لم يَمت حتى تقطَّب قبل أن يُغَرْغر بثلاث ساعات" والقُطبيَّة للعارف هي مُنتهَى مَنالِه وغايةُ آمالِه... لما اشتهر أمره ببِجايةَ سُعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمرّاكش، فأمر بطلوعه إلى مراكش، وكتب لوالي بجاية في ذلك وأمر أن يحمله خيرَ مَحمل. فلما وصل إليه الأمر، اجتمع عليه أكابرُ أصحابه وعزَّ عليهم فِراقُه وتألَموا مِن حاله وأنفوا عليه، فقال رضي الله عنه "لا عليكم، شُعَيبٌ شيخٌ كَبيرٌ ضَعيف، لا قُدرةَ له على الْمَشي؛ مَنيَّتُه قُدِّرَت بغَير هذه البَلدة. ولا بُدّ مِن الوُصول إلى مَحَلِّ مَنِيَّتِه. فقَيَّضَ اللهُ له مَن يَحمِلُه بِرِفقٍ ويَسوقُه إلى مَرامِ الْمَقادير أَحسَنَ سَوْق. والقومُ لا أراهم ولا يَرَوني!" فطابَت بذلك نُفوسُهم وذَهب ضَيْرُهم وبُؤسهم. وارتَحل رضي الله عنه إلى أن وَصلَ تِلمسانَ، ونزلَ بها بالمَوضِع الْمُسمَّى بالعُبَّاد، وهنالك قال لأصحابه رضي الله عنه "لا بأسَ بالنَّوم بهذا المَكان!" فوافَتهُ هُناك مَنيَّتُه،

الأبرار، فبقي مَبهوتا بما سمِع وقال "ما تَخيَّلتُ أن يكون مثلُ هذا في بلاد المغرِب!" ثم ألقى عليه بعضُ أصحابنا مسألةً في الحقائق الإلَهية الْمُتوجِّهة على إيجاد جهنّم، فواللهِ ما زاد على أن قال "لا أدري شيئا!" وأنصفَ من نفسه واعترف بنَقصه، وهدَأت شَقاشِقُه وطفِئت بَوارقُه. فقلتُ له "هذا حالُك معي، وأنا أنقصُ حظًّا وأحقَر قَدرا من أن أُذكرَ فيهم أو أُنسَب إليهم؛ فكيف بك لو لاحظتَ الكُبراءَ والسادةَ النُّبلاء الكائنين بالْمَغرب: الغُرباء[46]؟!" فسلّم واستَسلم وحَمِدتُ الله على ما أَلْهَم وعلَّم.

وشَرُفَت تلك البِقاع بتُربَتِه، وهذه من جُملة كَراماتِه رضي الله عنه. وقبرُه هُناك مُعمَّر مَشهود. انتهى باختصار من عنوان الدّراية، ص22-28، دار الآفاق، بيروت. قلت: كان ذلك عامَ 594 هـ.

[46]. بلغنا عن أبي هريرة أنه قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا وسَيَعودُ غريبًا كما بدَأ، فطُوبَى للغُرَباء» أخرجه مسلم في الإيمان وابن ماجه وأحمد، وله شاهد عند مسلم أيضا عن ابن عمر وعند الترمذي عن ابن مسعود وعن عمر عند أحمد. وبلغنا عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزالُ أهلُ الْمَغرِب ظاهرين، لا يَضرُّهم مَن خَذَلَهم حتى تقومَ الساعة!» رواه أبو عَوانة في مسنده ر7511، وأبو عمرو الداني في الفتن وأبو نعيم في الحلية وقال: هذا حديث ثابت مشهور رواه الأئمة، منهم: شعبة وابن عيينة وغيرهما. ورواه مسلم وأبو يعلى والبزار في الإمارة بلفظ «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». وللحديث شواهد عن ثوبان عند مسلم وأبي داود والترمذي والدارمي وابن حبان، وعن عمر بن الخطاب عند الطبري تهذيب الآثار والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، وعن المغيرة عند الشيخين البخاري ومسلم، وعن معاوية وعن جابر وأبي أمامة وسلمة بن نَفيل.

وأما أهلُ السَّماعِ والوَجْد في هذه البلاد فقد ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوا﴾[الأنعام 70] لا تسمع إلا من يقول لك "رأيتُ الحقَّ وقال لي وفعل وصنع" ثم تُطالبه بحقيقة يَمنَحُها أو سرٍّ استفادَه في شَطْحِه، فلا تجدُ إلا لَذّة نَفسانيّة وشهْوَة شَيطانية. يصرُخ على لسانه الشيطان فيصعَق، ما دام ذلك الْمَغرور الآخَر بشِعره يَنهَق. فلا أُشبِّههم إلا بِراعي غَنم ينعِق بغَنمه؛ فتُقبِل وتُدبِر لنَعيقه، لا تدري في ماذا ولا لِماذا.

فواجبٌ على كل مُحقِّقٍ في هذا الزمان، مِمّن يُنظَر ويَقتدي به الْمُريد الضعيف، أن لا يقولَ بالسَّماع أصلاً ويقطَعه قَولاً فَصلا. وقد أوضحنا مَقامَه لأهل هذه البلاد وما يتطرَّق إليه مِن الفَساد، واحتَجُّوا علينا بأحوال مَن سَمِع مِن الشيوخ في 'الرسالة'[47] وغيرِها. فأوضحنا مُبهَمَها وأعرَبنا مُعجَمَها، فأقَرُّوا بنَقصه في مَراتِب الوُجود؛ فمنهم مَن عدَل عنه ومنهم من أقامَ فيه على مَعرفتِه بنَقصه.

وليعلمْ وليّي، وفَّقه الله تعالى، أني لَمّا قرأتُ بالحرَم الْمَكِّي على الناس ما ذكرتُه لك[48] في حق الْمُنتَسِبين إلى الصوفية وذمِّ أحوالِهم، ثقُل ذلك على شخص

---

[47] هي الرسالة القُشيرية في علم التصوُّف لأبي القاسم القُشيري، وهي من أمّهات كتب القوم. لها طبعات عديدة، وقد ألّف عليها القاضي زكريا الأنصاري شرحا كبيرا.

[48] هذا من الأدلّة على أن الشيخ الأكبر بدأ تدريس هذه الرسالة قبلَ أن يبعث بنُسخة منها إلى الشيخ المهدوي سنةَ 604 من مصر، أي بعد أربع سنوات من كتابتِها، على ما قالَه بعضُ الباحثين. وبقيَ يدرِّسُها إلى سنة 634 كما سيأتي في موضعه.

فقال "ما دَعاه إلى هذا؟"و"الإعْراضُ عن هذا كان أحسنَ!" وما أشبهَ هذا الكلام. فزاد عندي اعتراضُه تقويةً أن هذا هو الحق، لكونه ثَقُل عليه. ولقد عميَ هذا القائل عن الأصول التي استندتُ إليها في فعلي هذا. هو يُسلِّمها، وقد قرعَت سَمعَه غيرَ مرة، ولم يَعتِب عليهم، بل استحسَن ذلك. فلما وقع ذلك الذمُّ في أهل زمانه رأى ذلك فُضولا، لكونه في ذلك الزمان، فخاف أن يتطرّق إليه الذمُّ في نفسه، فحزِن. ولو أَنصَف لبحثَ عن نفسه. وأما الأصول التي استنَدت إليها في ذلك فكثيرة جدا؛ رُوِينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه يومَ فتحِ مكة، في القرن الفاضل، لَمّا فُقد عِقدٌ من عُنُق بعضِ أهله تأوَّه وقال "ارتفعت الأمانةُ اليومَ من بين الناس"! وحَكَمَ بتلك النازِلة الواحدة على الزمان. والأصل الآخَر بنتُه عائشة رضي الله عنها لما نظرت إلى زمانها وأهله وما هم فيه من البُخل والْمَذامِّ تَأوَّهت وقالت "يرحمِ الله لَبيدا حيث يقول:

ذهَب الذين يُعاش في أَكنافهم وبَقيت في خَلْف كجلد الأجرَب

ثم قالت "كيف به لو أدرك زمانَنا؟!"[49] فذمت زمانها وأهلَه. وعن القُشَيري قال في رسالته يذم أهلَ زمانه –وقد سمِعها هذا المعترضُ عليَّ واستحسن ذلك منه– ثم قال "لَم يبقَ في زماننا مِن أهل هذه الطائفة إلا أَثَرُهم:

---

[49] أخرجه الطبري في تهذيب الآثار ر347 وابن أبي شيبة وعبد الرزاق وأبو داود في الزهد وابن المبارك في الزهد. وأما الأثر الذي قبله فإني لم أجده فيما عندي من مراجع. لم يكن بين عائشة ولَبيد فارق كبير في الزمان. فلَبيد بن رَبيعة العامري الشاعر المخضرَم صاحب

أما الخيامُ فإنــــها كخيامهم   وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها

حصَلت الفترةُ في هذه الطريقة، لا بل اندرَست الطريقةُ بالحقيقة!" وذمَّهم بأشدّ الذم في أوّل 'الرسالة'، ولتداوُلِها بين الناس أَضرَبنا عن حكاية قوله.

ورُوينا عن أبي حامد وغيره عن أبي المعافَى في كتاب 'أُنس المنقطعين' له من حديث ابن الْمُهلَّب قال: مررتُ بالساحل فرأيت شابّا قد اِحتفَر لنفسه حُفرة في الرمل، فسألته فتأوَّه ثم قال يذُمّ أهل زمانه "توعَّرت السُّبل وقلّ السالكون لها. قدِ افترَشوا الرُّخَصَ وتَمهَّدوا الزَّلل واعتلُّوا بزلل الماضين!" إلى مثل هذا الكلام، ثم قام فمشَى على الماء حتى غاب عني. أرأيتَ قطُّ مثلَ هذا يتَّفق لِمَن تكلّم فيما لا يعنيه؟! وروينا عن غير واحد من حديث عبد الرحمن بن الحسن عن هارون عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قال: لَمّا قدِم أهلُ اليَمن زمانَ أبي بكر وسَمِعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال أبو بكر "هكذا كُنّا ثم قَست القلوب!"[50]

وثبت أيضا تقريعُ النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه المعذَّبين بمكة على إسلامهم، ومنهم خبّاب، وقاسى بلاءً شديدا من أجل إسلامه، قال رضي الله

المعلَّقة قد أسلم ووفد على النبي مع عَدي بن حاتم الطائي وكان من الْمُؤلَّفة قلوبُهم، فقد مات على الأرجح سنة 41 من الهجرة وقد بلغ من العمر 140 عاما وقيل 154 سنة وقيل 157 عاما بالكوفة. أما عائشة رضي الله عنها فكانت وفاتُها سنةَ 58 عن 66 سنة، فعاشت بعدَه 17 عاما.

[50] أخرجه أبو نعيم في ترجمة أبي بكر من الحلية وابن أبي شيبة في المصنّف.

عنه: شَكَونا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو مُتوسِّدٌ بُرْدةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا "ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تَدْعو الله لنا؟" فقال «قد كان مَن قبلَكم يُؤخَذُ الرجل، فيُحْفَر له في الأرض فيُجعَلُ فيها، ثم يُؤْتَى بالمِنشار فيوضَعُ على رأْسه فيُجْعَلُ نِصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دونَ لَحمه وعَظْمه؛ ما يَصدُّه ذلك عن دينه!»[51] فيا أيها المعترض، هذه الأصول التي استندتُ إليها في ذم أهل وقتي، لا حشَرني الله معهم ولا أماتني على حالتهم! هلاّ كنتَ ناصري في قولي هذا وتعرِف أنه الحق وأنّ اليوم الحال على ما وصفناه، وكنت تأتيني باكيًا على نفسك وأنا أيضًا كذلك، عسى الله يرحمُنا؟! أرضِيتَ لنفسك أن تكون مُنافقا مداهنا وللمُداهِنين إماما؟! لا والله، ما أرضَى بهذه الحالة لِمسلم؛ فتُب إلى الله وارجِع إليه تعالى، فإنه يرجع إليك. وتعالَ نُقم مأتَمًا ومَناحة على التقصير في العمر اليسير وعلى الاشتِغال بالتُّرَّهات والفرح بالخُزَعبَلات، بل أضَلِّ الأباطيل! ونقول: والله، إنّه كلّ مَن ثقُل عليه هذا الكلامُ فهو بتلك الصفة التي وصفنا. ولهذا قَلِق، ولو كان بريئًا منها سكَن كما سكن عند ذكرِنا ذمَّ السُّرّاق والقُطّاع وأشباهِهم. ولمّا كان له في هؤلاءِ مَدخل فرّ إلى الاعتراض، ليزداد من الله بُعدا في ردِّه الحقَّ. وليس اعتراضُه علينا في هذا بأوّل دمْع جرَى على طَلَل، فإنه لم يزل

[51] أخرجه البخاري في الإكراه وأبو داود والنسائي وأحمد، وتمامُه «والله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضرَموتَ، لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون».

أبدًا كلُّ مَن يتكلّم في مَعايب النفس وأحوالِها، ويُبدي نَقائصَها ويَذُمّ شأنَها، على التعْيين وعلى غير التَّعيين، في كل زمان مَذموما في زمانه، لعدَم موَافقته أغراضَ النفوس. فإذا انقرَض زمانُه ومات، ونشأت طائفةٌ أخرى بعدَه، عند ذلك يُعرف قدرُ ما جاء به ويقال "قال فلان رضي الله عنه: ..." هكذا كان الناس!

ثم أعرِّف وليي أبقاه الله تعالى، بما طرأ بيني وبين نفسي: رأيتُ نفسي في هذه البلاد مسجونةً مَقهورة. فإني كما يعلمه وليِّي مِمَّن يقول بوُجودها ولا يصِحّ عندي أبدا موتُها عن صفاتها، لِمعرفتي بحقائقها ومكانَتِها. ولما رأيتُ الله تعالى قد فتح إلى قلبي بابَ الحكمة وأجرى فيه بحارَها، وسبح سِرّي في لُجّة ثَبَجِها؛ حتى أني واللهِ لأنظُر إلى مُعظَم البحر إذا اشتدّت عليه الرياحُ الزعازِع فعَلا موجُه وارتفع دَوِيُّه. ثم أنظر إلى تَموُّج بحرِ الْمَعارِف والأسرار في صَدري فأجِد مُعْظَمَ ذلك البحر، بما وصفناه من تلاطُم الأمواج واشتداد الرياح، ساكنًا لا حَراك به عند تموّج بحر الحكم في صدري واصطفاقه، لاسيما في مكة.

فداخلني من ذلك رُعبٌ شديد وجزَع عظيم وخوف مُتلِف، فعزَمت على قَطْع الميعاد وأن لا أقعُد للناس. فأُمِرتُ بالقعود والنَّصيحة للخلق قَسرًا وحتما واجبا[52]؛ فقعدتُ رفيعَ الكلام مُصلَّتَ الحُسام. ثم أخلو بنفسي حيثُ مسْكَني،

[52] كان ذلك أمرٌ حتمٌ من الله تعالى خاصًّا بالشيخ الأكبر حيي الدين بن العربي، ليقوم للناس بالنصيحة، لا في عصره ومِصره فقط بل نصيحةً تعمُّ الموجودات في كل مكان وزمان، ميراثا نبويًّا خَتميّا.

فأزِن المواهب بالحال التي أنا عليها وفيها، فلا أجد بينهما نَسَبا يَربِط ولا سَببا يَضبِط. فخِفت، واللهِ يا وليي، مكرَ الله بي واستدراجَه إيّاي. فخلوت بنفسي وقد داخَلني مِن ذلك ما لا يعلمه إلا الله، ولا أجد طريقا أدخُل منه لتَمحيص نفسي، وقد انسدَّت عليّ المسالك بفنون الحقائق الأُوَل والمعارف. إلى أن لطَف الله بي برؤيا رأيتُها، وجدتُ بها الظفَر على نفسي وإقامةِ الوزْن عليها.

وذلك أني رأيت في منامي كأني أُدخِلتُ الجنةَ. فلما حصّلت الباب ورائي، و لم أكن رأيتُ نارا ولا حَشْرًا ولا حِسابا ولا شيئا من أهوال القيامة، وجدت في نفسي راحةً عظيمة لا يُقدَر قدرُها وسُرورها، وحمِدت الله كما ورَد في القرآن عنهم[53]. فلما استيَقظت، علِمت أن في حالي بعضَ اعتِلال، وأن نفسي ادَّعت

---

[53] وذلك ما أخبرنا به الله عن تحميد أصحاب الجنة إذا دخلوها، كما في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ؛ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقّ﴾[الأعراف 43] وقوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا. يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِير. وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُور. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِه؛ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوب﴾[فاطر 33-35] وقوله عزّ وجلّ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرا. حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ، فَادْخُلُوهَا خَالِدِين! وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء؛ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين﴾[الزمر 73-74]

فوقَ حالِها من جهة ما أعطاها الله من العلم. ولو كانت متحقَّقة بالحق تَحققُّا عقليا مقدَّسا إلَهيّا يُفنيها عنها، لم تلتذَّ بدخول الجنة ولا عقَلت الراحةَ ولشغلها التنَزُّه في جلال الله عن النظر إلى راحتها والْتِفاتِها إلى نَجاتها من أهوال الوَعيد. فأرادت أن تقيم عليّ الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها. فلم أسمع لها، وقامت حُجّتي عليها وآذنتُها بقُصورها وعظيم دعواها في شيء هي دونَه، وحَمِدتُ الله الذي أظفَرني بها.

فقلت لها: يا نفس، وعِزّةِ مَن جَبلك على الْمُخالفة وجعَلك مَحَلاًّ لكل وصفٍ مذموم؛ لا أتركُكِ على دَعْواكِ حتى أعرِض أحوالَك كلَّها على كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن وافقت ذلك ولم أجد منكِ خلَلا سلَّمتُ لك فيما أردتِ أن تُقيمي عليّ من سُلطانِك، والله يقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة﴾[الأحزاب 21] وقال ابن مسعود: كُن أنت الْمُحدَّثَ إذا سَمِعتَه يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[54]. وإن وجدتُكِ دون ذلك وقامت الحجّةُ عليكِ فأنا ألطُف بكِ وأرحَمك بأن أمشيَ بكِ على أحوال أهل الصُّفّة[55]، الذين تنتسبين إليهم، وعلى أحوال الصَّفْوَة من أعلام الصحابة فيهم.

---

[54] أخرجه أبو نُعيم في الحلية بلفظ: إن استطعتَ أن تكون أنت المحدَّث، وإذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأَرْعِها سمعَك؛ فإنه خيرٌ يأمُر به أو شر ينهَى عنه. وهو عند ابن أبي حاتم في تفسيره.

[55] كان أهلُ الصُّفَّة أو أصحاب الصُّفّة هم فُقراء الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلّم، كانوا غير متزوِّجين ولا أصحاب حِرَف، يعيشون ممّا يقدِّمه لهم النبيُّ والناسُ

ولكنّهم لم يكونوا يسألون شيئًا و لم يكونوا مُتسوِّلين. اِعلم أن المسجد النبوي لم يكن مُسقَّفًا، وكان حولَه الحجُرات التي كان يسكُنها نساءُ النبي صلى الله عليه وسلّم. والصُّفَّة مَوضع مَظَلَّل في المسجد النبوي كان يسكُنُه فقراءُ الصحابة ويأوي إليها الغُرباء والوفود وأضياف الإسلام ممّن لم يجد بالمدينة مسكَنا يترل فيه. كان عدُد أصحاب الصفة يزيد على المائة، ويختلف مع الأوقات والأحوال. والْمشهورُ مِن أخبار أهلِ الصُّفّة غلبةُ الفقر عليهم وإيثارُهم القِلّة واختيارهم لها. هذه أسماءُ بعض المعروفين منهم: أبو سعيد الخُدري سعد بن مالك الأنصاري الخَزْرَجي، أُسامة بن زيد بن حارثة الكلبي القرشي، البَراء بن مالك أخو أنس بن مالك الخزرجي، بلال بن رَباح الحَبَشي مؤذِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثابت بن الضحَّاك الخزرجي، ثَوبان بن بجدد الحِمْيَري مولى رسول الله، أبو ذرّ جُندب بن جُنادة الغِفاري، حُذَيفة بن اليَمان العَبسي، أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري الخزرجي، خبّاب بن الأرتِّ التميمي، رِفاعة بن رافع الخزرجي، زيد بن الخطّاب العَدوي القرشي أخو عُمر بن الخطاب، سالم مولى أبي حُذَيفَة، سَعْد بن أبي وَقّاص الزُّهري القرشي، سَلمان الفارسي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، صُهَيب بن سنان النَّمري، وقيل له الرومي لأنّ الروم سبَوه صغيرا فأخذ لسانَهم، عبدُ الله بن أمّ مَكْتوم القُرشي الأعمَى، عبد الله بن رَواحَة الخزرجي، عبد الله بن عُمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود الهُذَلي القرشي، أبو هُرَيرة عبدُ الرحمن بن صخر اليمَني الدوسي، عثمان بن مظعون الجُمَحي القرشي، العِرباض بن سارية السُّلَمي، عُقبة بن عامر الجُهَني، عُكّاشَة بن مِحْصَنٍ الأَسَدي، عَمّار بن ياسِر العَنسي القرشي، عَمْرو بن عَوفٍ الْمُزَني، أبو الدَّرداءِ عَوَيْمِر بن عامرٍ الخزرَجي، مُصعَبُ بن عُمَير القُرَشي العَبْدَري، مُعاوية بن الحكَم السُّلمي، أبو بَرْزَةَ نَضلة بن عُبيدٍ الأَسلَمي، واثِلةُ بن الأسقَع اللَّيثي. كان النبي صلى الله عليه وسلّم حريصا على أهل الصُّفّة، فلقد قال لعليٍّ وفاطمة حين سألاه أن يُعطيهما خادما ليُستعينا به وقد بلغه سبيٌ «لا أعطيكما وأَدَعُ

أهلَ الصُّفّة تُطوَى بُطونُهم مِن الجوع!» رواه أحمد والبيهقي في الشعب والطبراني في الدعاء وحسّنه الأرنؤوط. كان أبو هريرة كما مرَّ من أهل الصُّفّة وقد بلغنا عنه رضي الله عنه أنه قال: كان أهلُ الصُّفّة أضيافُ الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال. واللهِ الذي لا إله إلا هو، إن كُنتُ لأعْتَمِدُ بكَبِدي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشُدّ الحجرَ على بَطني من الجوع. ولقد قعَدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه؛ فَمَرّ أبو بكرٍ فسألتُه عن آية من كتاب الله –ما سألته إلا ليَستَتبعِني–، فمرّ فلم يفعل. ثم مر عُمر فسألته عن آية من كتاب الله –ما سألته إلا ليَستَتبعِني–، فمرّ فلم يفعل. ثم مرّ بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فتَبسَّم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي. ثم قال «يا أبا هِرّ» قلتُ "لَبَّيك يا رسولَ الله" قال «اِلْحَقْ!» ومضى. فاتَّبعته فدخل، فاستأذن فأذِنَ لي فدخل، فوجد لَبَنًا في قَدَحٍ فقال «مِن أين اللَّبَن؟» قالوا "أهداه لك فلانٌ أو فلانة" قال «أبا هرّ» قلتُ "لبيك يا رسول الله" قال «اِلْحَق إلى أهل الصُّفّة فادْعُهُم لي» –وأهل الصُّفة أضيافُ الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال، ولا إلى أحد. إذا أتته صدقةٌ بعثَ بها إليهم، ولم يتناوَل منها شيئًا. فإذا أَتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها. فساءني ذلك فقلت "وما هذا اللَّبَن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقَّ أن أصيبَ من هذا اللبن شَرْبةً أتقوَّى بها، فإذا جاؤوا أمرتَني، فكنتُ أنا أُعطيهم. وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن؟!" ولم يكن مِن طاعة الله وطاعة رسولِه بُدٌّ، فأتيتُهم فدعوتُهم فأقبَلوا، واستأذنوا فأُذِن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. فقال «يا أبا هِرّ» قلت "لبيك يا رسول الله" قال «خذ فأعطهم» فأخذتُ القدَح، فجعلتُ أُعطيه الرجلَ فيَشرَب حتى يروَى ثم يَرُدُّ القَدَحَ، فأعطيه الآخرَ فيشربُ حتى يَروى ثم يَرُدّ عليّ القدح، فأعطيه الآخَر فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، حتى انتهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد رَوِيَ القومُ كلُّهم. فأخذ القدحَ فوَضَعَه على يَده، فنَظر إليّ فتبسَّم وقال «يا أبا هِرّ» قلتُ "لبيك يا رسول الله" قال «بَقِيتُ أنا وأنت» قلت "صدقتَ يا

فإن خرجتِ مع واحد منهم في حال مَّا فأنا أُنزِلك معه وأرضى عنك، وإن لَم أجدكِ مَشِيتُ بكِ على تابعيهم على نحو ما فعلتُ بك مع الصحابة. فإن قصُرتِ عن أحوالِهم مشيتُ بك على تابعي تابعيهم وتابعي تابعي تابعيهم، فإما أن تقِفي مع واحد منهم وإما أن تقصُري عن شَأْوِهم. فالنار أولى بك، وأجعَل حِكمتَك ومَعرفَتك كدِرهَم زائفٍ عند صَيرَفِيٍّ ناقِد!

رسولَ اللهْ" قال «فاقعُدْ فَاشرَب» فقعدت فشَرِبْتُ فقال «اِشرَبْ» فشربت، فما زال يقول «اِشرب» حتى قلتُ "لا، والذي بعثَك بالحق، ما أجدُ له مَسْلَكا!" فأراني فأَعطيتُه القَدَح فحمِد الله وسَمَّى وشرب الفضلة. أخرجه البخاري في الرقاق والترمذي والحاكم وابن حبان وأحمد. وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صَلّى يَخِرُّ رجالٌ مِن قامَتهم في الصلاة مِن الخَصَاصَة، وهم أَصحابُ الصُّفَّة، حتى يقول الأعرابُ "مَجانين!" فإذا صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اِنصَرَفَ إليهم، قال «لو تعلمون ما لكم عند الله لأَحبَبتم أن تزدادوا فاقةً وحاجة!» أخرجه الترمذي في الزهد وصححه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد كان أصحابُ الصُّفّة سبعين رَجُلاً ما لَهم أَرْدِيَة. أخرجه الحاكم في الهجرة وصحّحه، وقال الذهبي قي التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. وقال الحاكم: تأمَّلتُ هذه الأخبارَ الواردة في أهل الصُّفّة، فوجدتُهم مِن أكابر الصحابة رضي الله عنهم وَرَعًا و تَوَكُّلاً على الله عز وجل ومُلازمَةً لِخدمة اللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم. اِختارَ اللهُ تعالى لهم ما اختاره لنبيِّه صلى الله عليه وسلم من الْمَسكَنة والفَقر والتَّضَرُّع لِعبادة الله عز وجل، وتركِ الدنيا لأهلِها. وهم الطائفة الْمُنتَمية إليهم الصوفيَّةُ قَرنًا بعد قرن. فمَن جرَى على سُنَّتهم وصبْرِهم على تَرْكِ الدُّنيا والأُنس بالفَقر وتَرك التعرُّض للسُّؤال فهم في كلِّ عَصْرٍ بأهلِ الصُّفّة مُقتَدون وعلى خالِقهم مُتوَكِّلون.

فقالت لي، وقالت بعضَ حقّ: أما النبي عليه السلام فلا أعرِض حالي على حاله أدبًا معه، فإنّ فلَك النبوَّة ليس لنا فيه قَدَم. ولا تقوم لك به عليّ حُجّة، فإنه البحرُ الذي يغترِف منه الخاصُّ والعامّ. فإن شدّدتَ عليّ به رخّصتُ أنا على نفسي به، وتتعارض الحجَج، وكلٌّ سُنّة. وأنا أُسقِط لك الدعوَى مِن أوّل وَهلَةٍ وأهجُم على الرُّخَص وأتَّخِذها سُنةً كما ورَدَت. وأقنَع بالنجاة من النار خاصَّة وأَحرُمك التَّنَزُّهَ في المنازِل العُلا، فيما بَقي مِن عُمرك. وكذلك القرآنُ فإنه البحرُ الأعظم الذي لا يُدرَك قعرُه، إذ ليس له قعرٌ فيدرك ولا ساحل فيُبلَغ، بل فيه هلَك الهالكون ونَجا المفلحون؛ قال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرا﴾[البقرة 26] تالله، لو عَرضَت الملائكة والنبيّون والمرسَلون أجمعون أحوالَهم على آيةٍ من القرآن، على حدِّ ما يعلمُه الله من أسرار ما أَودع فيها من الغيوب، لبقيَ الكلُّ إلى جانبها كَلا شيءَ عندها! لقد قيل في أوّل آية منه وهي قولُه تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[البقرة 3] يتيهُ العالَمُ أسفلَه وأعلاه لا يعرِف طريقَه أبدا، ولا يفي أحدٌ بحقيقتها؛ فإن في الغيب أمورا لو بَدا منها لَمحةُ بارِق لأعلى عالِمٍ مُشاهدةً من العالَم وأقواه إيمانا لتردَّد فيها واتَّهم إيمانَه. إنهم جهِلوا الأسماءَ، فما ظنُّكَ بما تنطَوي عليه الْمُسمَّيات من المعاني؟! وذلك لعُلوِّ الأمر عن مَراتب العقول وانفرادِ الحق بالخلق والإيجادِ دونَ الخلق. ولهذا قال تعالى ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَق؟!﴾[الملك 14] ولَمّا لَم يكن لنا خلْقٌ لم يكن لنا عِلم. فما أعطانا فمِنَّةً منه وعلمُه لا يتناهَى. فليس بإنصاف منك أن تعرِض حالي على كتاب الله الأقوَى

الأقهر! ولكن حَسبُك مَن دونَ القرآن والنبوة من المؤمنين، فخُذ معي في مَراتب الوَلاية وأنا الْمُنقادَة السّميعة، السهلة الْمُطيعَة؛ أرجِع معك عليَّ باللائمة إن قصُرت وأُنصفك من نفسي إن أُحصِرت. ولا نبقَى في مَحلّ الغَبْن والخُسران؛ فإنّك أنا كما أنا أنت، فلستَ غيري ولستُ غيرَك. وما لك عليّ حجّة وقد أعطيتُ يدَ القِياد في التمحيص والاختبار!

فتعجّبت واللهِ مِن نفس تَنقاد لهذا المقدار؛ فبَلَوتُ كلامَها وما جاءت به، فوجدتُها قد اِنطوَت على مَكر وخِداع وأمر هائلٍ لا يُستطاع. وقد شابتْ الأَرْيَ بالشَّرْي وأبطَنت الحربَ في السِّلم، فتعامَيت عنها في ذلك وعمِلت كأني لم أشعُر بخِداعها الْمُهلِك. وجرَّدتُ نفسي معها في الْمُناظَرة ولم أنتَقِ لها من أحوالهم إلاّ ما لم يخطُر لها على بال ولا اتَّصفت به في حال، وعدِلتُ عن كلّ حالٍ رأيتُ لها فيه بعضَ اشتِراك. ولو علِمت أني أجد وليًّا من أولياء الله تعالى لم يَمتَز عنها بحال ألبتَّةَ لم أناظِرها بأحوالهم ولا أخَذتُ في مُناقضتها ابتداءً في سهولة انقيادها وإظهار نصيحتها. فتركتها بتعرُّضها، لِمعرفتي بنَقصها وأنها تعجَز عن ذلك.

انتهى الجزء الأول

فقلت لها: هاتِ، أَخرِجي أسنَى ما تدَّعينه وأعلى ما تَحفَظينه وتَعينَه، وأنا أعرِض عليكِ أوّلا حالَ أهل الصُّفَّة وما كانوا عليه مُجمَلا مِن غير تفصيلهم بأسمائهم، رغبةً في التخلُّص في أسرع حال. فقالت: قل!

قلت لها: حدّثنا محمد بن عيسون قال: حدثنا أبو بكر بن عبد الله قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا أبو الفضل قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا وَكيع قال: حدثنا فُضيل بن غزوان عن أبي حازمٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأيتُ سبعين من أهل الصُّفّة يُصلّون في ثَوب، فمنهم مَن يبلُغ رُكبتَيه ومنهم مَن هو أسفلُ من ذلك؛ فإذا ركع أحدُهم قبَض عليه مَخافةَ أن تبدُوَ عَورتُه.[56] قال بعض علمائنا: واللهِ ما اجتمع لهم ثَوبان ولا حضَر لهم من الأطعمة لَونان.

---

[56] هذا إسناد متَّصل لا غبارَ عليه، كما ترى. وأخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع بسنده المذكور هنا في المصنف ر3211، وأبو نعيم عن أبي بكر بن مالك بسنده المذكور هنا في الحلية، كلاهما بهذا اللفظ. وقد رواه البخاري في الصلاة وابن حبان والطبراني والبيهقي بلفظ: لقد رأيتُ سبعين من أَصحابِ الصُّفَّة؛ ما منهم رجلٌ عليه رداء، إمّا إزارٌ وإما كِساء، قد رَبطُوا في أعناقهم. منها ما يبلُغ نِصف الساقَين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمَعُه بيده، كَراهِيةَ أن تُرَى عَورتُه.

ناشَدتُك اللهَ يا نفس، هل كنتِ قطُّ أفقرَ منكِ الآن في حرم الله تعالى؟ قالت: لا. فقلت لها: الحمد لله، تَرَينَ لكِ قَميصًا وإزارا وسَراويل وجُبّةً وعِمامة ونَعلا وبُردَة، وخُبزًا نقيًّا ولَحما طريّا وحلواء، ويخدُمك الرؤساءُ ويُمتَثل أمرُك؛ تقولين "اِفعل" فيُفعَل، تقولين "لا تَفعل" فلا يفعل. أين أنت منهم؟

ماتوا واللهِ بحوائجهم في صدورهم، لم يستطيعوا لها قَضاء. على ما رُوِيناه من حديث سليمان بن أحمد عن هارون بن ملول عن أبي عبد الرحمن المقرئ عن سعيد بن أبي أيوب عن معروف بن سويد الجِزامي عن أبي عُشّانة الْمَعافِري عن عبد الله بن عَمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهم «فقراءُ المُهاجرين الذين تتَّقى بهم الْمَكارِه؛ يموت أحدُهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء!»[57] أخبر بهذا عن الله عنهم. باللهِ يا نفس، حصَلت في هذا المقام؟ قالت: لا والله. قلت لها: فلست منهم، اِستَحْيي من الله وارجعي على عَقِبك ولا تَطاوَلي لقوم لست منهم في شيء! فقالت: عليّ بغَيرهم، فليس لي هنا قَدم.

قلت لها: فهذا عمّار بن ياسِر، رُوِّينا من حديث أحمد بن جعفر بسنده عن عمّار رضي الله عنه أنه قال وهو يسير على شط الفرات "اللهمَّ لو أعلمُ أن الأرضَى لك عني أن أتردَّى فأسقط؛ فعلت، ولو علِمتُ أن الأرضى لك عني أن

---

[57] أخرجه أحمد في المسنَد ر6650 والبيهقي في الشُّعب وأبو نعيم في الحلية والطبراني في الأوسط والكبير.

أُلقيَ نفسي في هذا الماءِ فأغرَق فيه؛ فعلت!"[58] ناشدتُكِ اللهَ يا نفس، هل خَطر لك هذا قطّ في رِضا الله، لا تَبغِينَ به بدَلا؟ قالت: لا والله، فانتقل بي عن هذا.

قلت لها: نعم هذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رُوينا بالسند المتّصل إليه أنه قال "ألا حبّذا الْمَكرُوهان: الموتُ والفقر! وأَيمُ الله، إن هو إلاّ الغِنى والفقر، وما أبالي بأيِّهما ابتُليت؛ إن كان الغنى إن فيه لَلعَطفَ وإن كان الفقر إنّ فيه لَلصَّبر!"[59] ناشدتُكِ اللهَ يا نفس، هل عامَلتِي الله قطّ مِن عمرك بمعاملةٍ أثمرت لكِ أن تقطَعي على الله بمثل هذا وتأمني مِن الفِتنة في الغِنَى ومن الكفرِ في الفقر؟ قالت: النَّصَف، أما القَطع فلا. انتقِل بي عن هذا فقد أربَى عليّ.

قلت لها: نعم هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، روِّينا بالسَّند المتَّصل إلى جابر عن عمر بن الخطاب، وذكر بدءَ إسلامه. وفيه: لما أسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم «يا عُمر، اُسترُه» فقال رضي الله عنه "والذي بعثَك بالحق لأُعلِنَنَّه كما أعلنتُ الشِّرْك!"[60] ناشدتُك اللهَ يا نفس، هل قُمتِ لي قطّ في دين الله

---

[58] أخرجه أبو نعيم في الحلية حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنا داود بن عمرو والأزرق بن علي، قالا: ثنا حسان بن إبراهيم، ثنا محمد بن سلمة بن كهيل عن سلمة عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى، عن عبد الرحمن بن أبزى، عن عمار. وأحمد في الزهد

[59] أخرجه الطبري في تهذيب الآثار ر2557 والطبراني في الكبير والبيهقي في الشُّعب أبو نعيم في الحلية، وابن المبارك وأبو داود ووكيع كلهم في الزهد

[60] أخرجه ابن أبي شيبة ر30685 وأبو نُعيم في الحلية.

حاميةً عنه بأمر بمعروف تعيَّن عليكِ أو نَهي عن مُنكَر، في مَوطن دونَه السيوف الحِداد وعدمُ الناصِر؛ يغلِب فيه على ظنِّك أنكِ تُقتلين فيه؟ قالت: لا والله، وإنما قاربتُ هذا المقام ولكن بسياسة وطَّنت بها نفوسَ الأعداء، بحيث أنه غلَب على ظني الأمنُ والعافيةُ في دمي. قلت لها: فارجِعي! قالت: نعم، هاتِ غيره.

قلت لها: هذا أبو عبد الله ثَوبانُ مولى نبي الله صلى الله عليه وسلم، رُوِّنا بالسند الصحيح أنه سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول «مَن يتقبَّل لي واحدة، تُقبِّلَت له الجنّة؟» قال "أنا يا رسولَ الله" قال «لا تسألْ أحدًا شيئا» فكان رضي الله عنه ربما سقَط السَّوُط من يده وهو على بَعيره فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه حتى يترل إليه ويأخذه.[61] ناشدتُك الله يا نفس، هل أَقدمت في مُخاطباتِك هذا الإقدامَ على أمرٍ مجهول، ثم لو أقْدمت عليه هل كنتِ تَفين به هذا الوفاءَ ولا تَجنَحي إلى تأويلٍ فيه، لِحُصولك في مقامٍ أنتِ فيه بحكم التخْيِير، فترجِّحين الوفاءَ بدعواك؟ قالت: كلّ ذلك لم يكن مني. قلت لها: فلا مع الأحرار أنت ولا مع المَوالي! فصغُرت وقالت: انتقل بي عن هذا.

قلت: نعم هذا عُثمان بن عَفّان رضي الله عنه، رُوِينا بالسند الصحيح عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يُطعم الناسَ طعامَ الإمارة، ويدخُل بيتَه فيأكل الخبزَ والزيت.[62] ناشَدتُكِ الله يا نفس، هل فعلتِ هذا مع أصحابك قط؛

---

[61] أخرجه أحمد ر22439 وابن ماجه والطبري في التهذيب والبيهقي في الشعب.

[62] لم أجد هذا الأثر فيما عندي من المصادر.

آثرتِهم باللَّطيف واستأثرت بالخَشِن؟ فقالت: لا واللهِ، بل كنت على أحَد وجهَين معهم؛ إن لم يكن لي طعامٌ غير ما جعلتُ بين أيديهم شاركتُهم فيه، وإن كان عندي أرقُّ منه أكلتُ وحدي ذلك، مثل الحَلْواء والخُشْكُنان وغيرِ ذلك. وأقول: هو ألطَفُ غذاءً وألْيَق بي! وألبِّس على نفسي بهذه التُّرَّهات حتى لا نَتنغَّص به عند أكله. وأقول: هؤلاء الإخوان هم في مقام التربية، فينبغي أن لا أزرَع حبَّ الشهَوات في قُلوبهم بإطعامي إياهم مثلَ هذا؛ ومقامي لا يؤثِّر فيه مثلُ هذا الطعام، فلا بأس بتناوُلي إياه! فآكله على هذا الحال وقد عمِيت عن مُطالبة الحقّ لي في مُوازنة المعاشَرة، وأدناها أن أُشاركهم في خُشونتهم لِما أعرِفه مِن تأثير الحقائق. ولا شك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته فنَجِدَ عنه مَندوحة، وإنما فعل هذا بعد التَّمليك.

قلتُ لها: بارك الله فيكِ يا نفسُ إذ أَنصَفتِني! قالت: الحقّ أحقّ أن يُتَّبع، هات غيرَه. قلت لها: نعم هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بابُ مدينة العلم النبوي[63] وصاحبُ الأسرار وإمامها الذي تدَّعينه يا نفس، روينا بالسند المتصل

---

[63] إشارة إلى حديث «أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابُها». وللخبر طرُق عديدة فقد بلغَنا عن علي وابن مسعود وابن عباس وجابر وأبي ذر وأنس وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، فمن ذلك: عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها؛ فمن أراد المدينة فَلْيَأْتِ البابَ» رواه الحاكم بسنده في معرفة الصحابة من المستدرَك ر4637 ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي في التلخيص: بل موضوع. ورواه الطبراني في الكبير والطبري في تهذيب الآثار ر1415 وأعلَّه.

ورواه الحاكم ر4639 بسنده عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب» و لم يُعقّب غليه لا هو ولا الذهبي. وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «أنا دارُ الحِكمة وعليٌّ بابُها». أخرجه الترمذي وقال: هذا حديثٌ غريبٌ منكَر. فقد اختلف المحدّثون في هذا الحديث وأنكره جماعة بل عدّوه موضوعا، ولكن ليس الأمرُ كما يبدو، بل تعدُّد طرقِه يشهد بأنّ له أصلا وإن لم تصحّ الطرق من حيث الأسانيد. قال السخاوي: قال الدراقطني في العلل أنه حديث مضطرب غير ثابت. وقال الترمذي أنه منكر وكذا قال شيخُه البخاري قال أنه ليس له وجه صحيح. وقال ابن مَعين فيما حكاه الخطيب في تاريخ بغداد أنه كذب لا أصل له وقال الحاكم عقب أولهما أنه صحيح الإسناد وأورده ابن الجوزي من هذين الوجهين في الموضوعات ووافقه الذهبي وغيره على ذلك وأشار إلى هذا ابن دقيق العيد بقوله "هذا الحديث لم يثبتوه وقيل أنه باطل" وهو مُشعِرٌ بتَوقّفِه فيما ذهبوا إليه من الحكم بكذبه. بل صرح العلائي بالتوقف في الحكم عليه بذلك فقال "وعندي فيه نظر... مَن حكم على الحديث بالكذب فقد أخطأ... وليس هو من الألفاظ المنكَرة." فليس هذا الحديث بكذب خصوصا وقد أخرج الديلمي عن ابن عمر مرفوعا «علي بن أبي طالب باب حطة؛ فمن دخل فيه كان مؤمنا ومن خرج منه كان كافرا» ومن حديث أبي ذر رفعه «عليّ باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي؛ حُبُّه إيمان وبغضه نفاق... » وأورد صاحب الفردوس وتبعه ابنه المذكور بلا إسناد عن ابن مسعود رفعه «أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفها وعلي بابها» وعن أنس مرفوعا «أنا مدينة العلم وعلي بابها ومعاوية حلقتها». وبالجملة فكلُّها ضعيفة وألفاظ أكثرها ركيكة وأحسنها حديث ابن عباس بل هو حسن. وليس في هذا كله ما يقدح في إجماع أهل السنة من

من حديث ضِرارِ بن ضَمْرَةَ الكِناني قال: أشهد بالله، لقد رأيت عليًّا في بعض مَواقفه وقد أرخى الليلُ سُدولَه وغارت نُجومُه يتميَّل في مِحرابه قابضا على لِحيته، يتمَلمَلُ تَملمُلَ السليم ويبكي بُكاءَ الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول "يا ربَّنا، يا ربنا!" يتضرَّع إليه، ثم يقول للدنيا "أبي تغرَّرتِ، أإلَيّ تشوَّفْتِ؟ هَيهات هيهات، غُرِّي غيري؛ قد بتُّكِ ثلاثا! فعمُرك قَصير ومَجلِسُك حَقير وخطَرُك كثير؛ آهٍ آهْ من قِلّة الزاد وبُعد السفرِ ووَحشة الطريق!"[64]

الصحابة والتابعين فمَن بعدَهم على أن أفضل الصحابة بعد النبي على الإطلاق أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. وقد قال ابن عمر: كنا نقول ورسول الله حي "أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر وعثمان" فيسمع ذلك رسول الله فلا ينكره. بل ثبت عن علي نفسه أنه قال "خير الناس بعد رسول الله أبو بكر ثم عمر ثم رجل آخر" فقال له ابنه محمد ابن الحنفية "ثم أنت يا أبت" فكان يقول "ما أبوك إلا رجل من المسلمين" رضي الله عنهم وعن سائر الصحابة أجمعين. انتهى كلام السخاوي من المقاصد الحسنة، ص169–171، الكتاب العربي. فقد دُرسَ الحديث في القديم والحديث وعندي أنَّه حسن يُحتَجُّ به.

[64] أخرجه أبو نعيم في الحلية والشجري في الأمالي الخميسية. وهو في نهج البلاغة ر77 من خبر ضرار بن حمزة الضبائي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي صالح قال: دخل ضرار بن ضمرة الكِناني على معاوية فقال له: صف لي عليا. فقال: أوَ تُعفيني يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال له: إذ لا بدّ، فإنه واللهِ كان بعيدَ المَدَى شديدَ القُوَى يقول فصلاً ويحكُم عدلا. يتفجر العلم من جوانبه. يستوحش من الدنيا وزهرتِها، يستأنس بالليل وظلمتِه. كان والله غزيرَ العَبرة طويلَ الفِكرة، يُقلِّب كفَّه ويُخاطِب نفسَه. ويُعجبُه من اللباس ما قَصُر ومِن الطعام ما

ورُوينا بالسند الكامل من حديث نوفٍ البِكالي قال: رأيت عليَّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، خرَج فنظر إلى النجوم فقال "يا نَوفُ أراقِدٌ أنت أم رامق؟" قلت "بل رامق يا أمير المؤمنين" فقال "يا نوف، طُوبَى للزاهِدين في الدنيا الراغِبين في الآخرة؛ أولئك قومٌ اِتّخَذوا الأرضَ بِساطا وتُرابَها فِراشا وماءَها طِيبا والدُّعاءَ والقرآن دِثارا وشِعارا. رفَضوا الدنيا على مِنهاج عيسى عليه السلام. يا نوف، إن الله تعالى أوحَى إلى موسى عليه السلام أن «مُرْ بني إسرائيل أن لا يدخُلوا بيتًا من بُيوتي إلا بقلوبٍ طاهرة وأبصارٍ خاشعة وأيدٍ نقيّة؛ فإني لا أستجيب لأحد منهم ولا لأَحدٍ مِن خلقي عنده مَظلَمَة.» يا نَوفُ لا تكونَنَّ شاعرًا ولا عِرّيفا ولا شُرطيًّا ولا جابِيًا ولا عَشّارا؛ فإن داود عليه السلام قام في ساعة من الليل فقال «إنها ساعةٌ لا يدعو فيها عبدٌ إلا استُجيب له. إلا أن يكون عِرّيفا أو شُرطِيًّا أو جابيا أو عشّارا أو صاحبَ عُرطُبَة أو صاحب كوبة»"[65] يا بُحورًا

خَشُن. كان والله كأحَدِنا يُدنينا إذا أتَيناه ويُجيبُنا إذا سألناه. وكان مع تقرُّبه إلينا وقُربِه منا لا نُكلِّمه، هيبَةً له. فإن تبسَّم فعن مِثل اللُّؤلؤ المَنظوم. يُعظِّم أهلَ الدين ويُحبّ المساكينَ. لا يَطمع القويُّ في باطِله ولا ييأَس الضعيفُ مِن عَدله. فأشهَد بالله، لقد رأيتُه في بَعض مَواقفه وقد أرخَى الليل سُدوله... كما ذكره الشيخ هنا. ورواه أيضا ابن أبي الدنيا في مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أن معاوية قال لرجل من كِنانة: صِفْ لي عليًّا... وذكر الأثر.

[65] أخرجه أبو نعيم في الحلية. وقفَ إيرادُ الشيخ للأثر عند قوله "على مِنهاج عيسى". فأحببتُ أن أُتمَّه من الحلية للفائدة. قال أبو نُعيم: العُرطُبَة هي الطنبور والكوبة الطبل.

تحتوي عليها هذه الألفاظُ الرائقة البَليغة، ليس لها سواحل! ناشدتُك الله يا نفس، هذا عليٌّ على تَمكُّنه فيما تدَّعينه من المقام والحال، قد علِم المقامَ وعمِلَه وأَحكمَه. ووَفّى الحقائقَ حقَّها على أتمِّ الوُجوه، ولم يَجنَح إلى تلويح من تَلويحات الأحوال كما فعلت أنتِ وأكثرُ العارفين في زمانك، الذين انبسطوا بعد قبضهم وأنِسوا بعد هَيبتهم وجمَعوا ما قد كانوا رمَوا به؛ فرَجَعوا فرُجِع عنهم، وتَخيَّلوا أنهم في الحاصل وهم في الفائت.

اُنظُري يا نفس إلى تَمكُّنه في المعارف وتبرُّزِه في صُدور المواقِف وضربه بيده إلى صدره فيقول "إن هاهُنا لَعلومًا جَمّة، لو وجدتُ لها حَمَلَة!"[66] وهذا عملُه في

[66] جاء في نهج البلاغة 147: ومن كلام له -أي لعليٍّ كرّم الله وجهَه- لِكُمَيلِ بن زِياد النَّخْعي. قال كُميل بن زياد: أخذ بيَدي أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبان. فلما أَصْحَرَ تنفَّس الصُّعَداءَ ثم قال "يا كُميلُ بن زياد، إنَّ هذه القلوبَ أَوعيَةٌ؛ فخَيرُها أَوعاها. فَاحفَظْ عنّي ما أقول لك. الناس ثلاثة: فعالِمٌ ربّاني ومُتعلِّمٌ على سَبيل نَجاةٍ وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعِقٍ؛ يَميلونَ مع كلِّ ريحٍ. لَم يَستضيئوا بنور العِلم ولَم يَلجَؤوا إلى رُكنٍ وَثيق. يا كُميل، العلمُ خَيرٌ مِن الْمال؛ العِلمُ يَحرُسُك، وأنت تَحرُسُ المالَ، والمالُ تُنقِصُه النَّفَقَةُ والعلمُ يَزكو على الإنفاق، وصنيعُ المالِ يَزول بِزواله. يا كُميل بن زياد، مَعرفَةُ العِلم دينٌ يُدان به؛ به يَكسِب الإنسانُ الطاعةَ في حياته وجميلَ الأُحْدوثَةِ بعد وَفاته. والعلمُ حاكِم والمالُ مَحكومٌ عليه. يا كُميل، هَلكَ خُزّانُ الأموال وهم أحياءُ والعُلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ؛ أعيانُهم مَفقودةٌ وأمثالُهم في القلوبِ مَوجودة. ها إن هاهُنا لَعلمًا جَمًّا" وأشار بيَده إلى صَدره "لو أصبتُ له حَمَلَةً! بلى أَصَبتُ لَقِنًا غيرَ مَأمونٍ عليه

خَلوَته يُخاطب دنياه بلسان مَولاه، توحيدًا مُكمَّلا وتَمييزا مُحققًا. لم يَخلِط بين الحقائق ولا داخَل الرَّقائقَ بعضَها على بعض؛ أحكَم الحالَ والْمَقامَ، وعَلِم أنها ليست بدار مُقام، فعامَلها مُعاملةَ الراحِل فِعلَ الحكيم الحازِم. لم تَحجُبه مُخاطبتُه لدنياه بلسان الهَجْر والقِلَى وتَحسُّرُه على قِلّة الزاد وبُعد الطّريق وذكرُه الوَحشة بعد تحصيل الأُنس وتغبيطُه الدارجين على منهاج مَن وَجد مِن غير شهوة، فلم يَعلَق بقلبِه كونٌ و لم يَحِنّ إلى عين؛ لَم يَحجُبْه ذلك كلُّه عن تَحققُه

مُستَعمِلاً آلةَ الدينِ للدُّنيا، أو مُستَظهِرًا بنعَم الله على عِباده وبحُجَجه على أوليائه، أو مُنقادا لِحَمَلة الحقّ لا بَصيرةَ له في أحنائِه؛ يَنقَدِحُ الشكُّ في قَلبه لأَوَّل عارِضٍ مِن شُبهَة. ألا لا ذا ولا ذاك. أو مَنهومًا باللَّذّة سَلِسَ القِيادِ للشَّهوَة، أو مُغرَمًا بالجَمْع والادِّخار ليسا مِن رُعاةِ الدين في شيء. أقربُ شيءٍ شَبَهًا بهما الأنعامُ السائمَة. كذلك يَموتُ العِلمُ؛ بِمَوتِ حامِليه! اللهمَّ بلى؛ لا تَخلو الأرضُ مِن قائمٍ لِلّه بحُجَّة، إما ظاهِرًا مَشهورًا وإما خائِفًا مَغمورا، لئلاّ تَبطُلَ حُجَجُ الله وبَيِّناتُه. وكم ذا وأين أولَئك؟ أولئك والله الأقلُّون عَدَدًا والأعظَمون عِندَ الله قَدرا. يحفَظ الله بهم حُجَجَه وبيِّناتِه حتى يُودِعوها نُظراءَهم ويَزرَعوها في قلوب أَشباهِهِم. هَجَمَ بهم العلمُ على حَقيقَةِ البَصيرة وباشَروا روحَ اليَقين واستَلانوا ما استَوعَرَه الْمُترَفون وأنِسوا بما استَوحَشَ منه الجاهِلون، وصحِبوا الدنيا بأبَدانٍ أرْواحُها مُعلَّقةٌ بالْمَحلِّ الأعَلَى. أولئك خُلَفاءُ الله في أَرضِه والدُّعاةُ إلى دِينه. آهٍ آه، شَوقًا إلى رُؤيَتِهم! اِنصَرِفْ يا كُمَيلُ إذا شِئت." وهو عند ابن عساكر في التاريخ. وفيه وفي الشريعة للآجرّي عن علي أنه قال: وإن تحت الجَوانح مِنّي لَعِلمًا جَمًّا, سَلوني!

فِي الْمُشاهدة، بل ذلك تَمْكِينٌ على تمكين حيثُ أَعطَى الموطِنَ حقَّه وأنصفَ ربَّه ونفسَه ودنياه وآخرتَه. فبَقيَ حُرّا في وقته لَمّا أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه في نفسه. أَنشُدكِ اللهَ يا نفس، على معرفتك القاصية ومشاهدتك الدانيَة، هل صاحَبتِ هذا الحال استصحابَ هذا الإمام؟ قالت: لا والله إنما هي بَوارقُ تلمَع وأهِلّةٌ تطلُع في أوقات دون أوقات والغالِبُ الشتات، بل ندّعي ومَن رأيتُ من الْمَشيخَة التصرُّفَ فيها والأخذَ من طيِّباتِها مِن جهة حقائق الإيجاد السَّبَبي والاستخلافِ الذي صحّ لي؛ وهو نَقص في الحكمة حيث لم أكن مثلَ عليٍّ بحكم الموطن. واللهِ ما لي شبَهٌ إلا بِمَن غاطَ في المسجد وصلّى في المِرحاض! وهكذا كلُّ مَن وسَّع على نفسه في الدنيا، مِن عالٍ ودُون؛ فالكلُّ واللهِ تافِهٌ وفي بَيداء العَماية تائه! ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون﴾[البقرة 36] ! لولا أنّي أريد أن أقِف على أحْوال هؤلاء السادة لطَويتُ معكَ بِساطَ الْمُناظرة وعدَلْنا عن هذه الْمُحاضرة، فقد رماني واللهِ هذا الإمامُ بداهِيَةٍ ما أرى لها ناهيَة، وقاصِمة ما أرى لها عاصمَة. وقد أَسلمتُ لبُرهان العلم واستسلَمتُ لسُلطان الحُكم. ومَن مثلُ علي وهذا مَقامه، ومَن يُعادِله وهذا كلامه؟! لو لم نُنبَّه لِغفلتنا عن شَرف مَنــزلَته إلا بسكوت الحصى في كَفِّه[67] لكان ذلك تَنبيها لكلِّ قلبٍ فَطِنٍ نبيه؛

---

[67] أخرج الطبراني في مسند الشاميين ر1837 عن ابن حميد أن أبا ذر كان يقول: اِنطلَقتُ ألتمِسُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في بعض حَوائط المدينة فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدًا تحت نخلات... إلى أن قال: ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم حَصَيات

فيا سوءَ ما كنتُ فيه! جَزاكَ الله عني خيرا؛ زِدْني، زادَك الله حِكمةً وإيمانا وحِفظا وبَيانا.

قلت لها: نعم هذا الذي بُشِّرتَ غيرَ مرّة أنّكَ في مَقامه وحاملُ أَلْوِيَته وأعْلامه، أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه. رُوينا من حديث أبي بكر بن خلاد بسنده عن ابن عباس أن أبا بكر رضي الله عنه خرج حين تُوُفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وعمر يُكلِّم الناس، فقال "اِجْلِسْ يا عَمَر!" فأبى عمر أن يجلس فقال "اِجلس يا عمر!" فتشهَّد وقال "أمّا بَعد، فمَن كان منكم يَعبُد محمَّدا، صلى الله عليه وسلم؛ فإن محمدًا قد مات. ومن كان منكم يعبد الله، عز وجل؛ فإنّ الله حيٌّ لا يَموت! وإن الله قال ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل؛ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم؟! وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئا! وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾[آل عمران 144]"[68] فسكّن جأشَهم بالقرآن، وهو لم يزل ساكنَ القلب مع الرحمن.

يُسبِّحْنَ في يَدِه، ثم وَضَعَهُنّ في يد أبي بكر فسبَّحنَ ثم انتَزعَهُنّ منه فناولَهُنّ عُمَرَ فسبَّحن في يده، ثم انتزَعهُنّ منه فناولَهُن عُثمانَ فسَبَّحن في يَده، ثم انتزعهن منه فناولهن عليًّا فلَم يُسبِّحنَ وخَرَسْنَ. وفي الأوسط "ثم أعطاهن عليًّا فوضعهن فخَرَسْنَ". وهو في مسنَد البزار في وفي السنّة لابن أبي عاصم من غير ذكر علي. أمّا فضل علي في هذه القصَّة فهو حكمُ الموطن الذي يقتضي أن الحصى لا يُحْدِثُ صوتًا يُسمَع، وهذا هو المشهور عنه رضي الله عنه، كقولِه: حَدِّثوا الناسَ بما يعرِفون، أَتُحِبّون أن يُكذَّبَ الله ورسولُه؟! أخرجه البخاري.

[68] أخرجه البخاري والنسائي وابن حِبّان وابن ماجه والبيهقي في السنن الكبرى.

ناشدتُك اللهَ يا نفس، هل حصَلتِ بالسِّرّ الذي تدَّعين أنه قد حصل لكِ من الحق، حالا ومَقاما من تعظيم الله، ما علِمتِ به تعظيمَ مَن عظَّمه الله مِن جِهة تعظيم اللهِ إيّاه، ثم وفَّيتِه حقَّه في ذلك بـــ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[القصص 88] مِن غير أن تُسقِطي، باستيلاء سُلطان عَظمة الله، مِن قلبك عظمةَ خيرِ العالَمين إلى مَن دونَه من أهل التعظيم، مَقاما مُستَصحَبا؟

قالت: لا والله يا وليّي، إنما أنا بين فَناء وبقاء وتَلاشٍ وانتِعاش وإقبال وإدْبار ووُصول ورُجوع. وما كنتُ فهِمتُ قطّ هذا مِن هذا الكلام الذي خرَج مِن فَمِ الصدّيق حتى نبّهتَني عليه، ولا سَمِعتُه مِن أحَد مِن أشياخِنا ولا رأيتُه -على أن لنا بَحثًا وأسرارًا في الصحابة وتعظيمِهم ومَكانتهم، ما سُبقتُ إليها- ولا رأيتُ أحدا مِمَّن لَقِيتُ مِن أصحابِنا عثَر على ذلك. إلاّ أنهم يُجَمجمون عليه ويَحومون حولَه، ولم يجِدوا لِتَحصيلِه مَنفَذا. وإنما هو وَهبٌ إلَهيّ لا يُوصَل إليه بعمَل، وهم يَطلبونه بالاستِعداد والْمُجاهدة. ثم قالت لي: اِنتقِلْ بي عن هذا المقام، فقد قَصم ظهري!

قلت لها: نعم هذا سلمان الفارسي رضي الله عنه، دونَكِ في النَّسب الطِّيني وإمامُكِ في النسَب الديني. رُوينا من حديث إبراهيم بن عبد الله بالسند المُتّصل عن رجل من أشجع قال: سمع الناسُ بالمدائن أن سلمان في المسجد فأتَوه، فجَعلوا يَثوبون إليه حتى اجتمعَ إليه نَحوٌ من ألف. فقام فجعل يقول "اِجلِسوا، اجلسوا!" فلما جلَسوا افتَتح سورةَ يوسف يقرَؤها، فجعلوا يتصدَّعون ويَذهَبون

حتى بَقي في نحوٍ من مِائة، فغَضب وقال "الزُّخرُفَ مِن القول أردتم؛ قرأتُ عليكم كتابَ الله فذهبتم!"[69] ناشدتُك الله يا نفس، فهذا مجلس حقّ؛ فاصدُقيني: هل سَمِعت قطُّ كتابَ الله يُتلى فلم تَهتزّي، فلما أُنشِد شِعرٌ اهتزَزت وجُنِنت وأخذَك الحال؟

فقالت: ذلك والله دَيدَني وهِجّيري ودأْبي أبدا، بل واللهِ أزيدُك ما هو أَنحسُ من هذا مِمّا أنا عليه؛ إني أَقرأ القرآنَ ويُدركني العَياءُ وأقول لك "والله لا أقدِر على شيء، وقد ضَعُفتُ وكَلَّ خاطِري!" فتُجيبُني إلى ذلك وتترُك الْمِصحَف مِن يدك أو التلاوة من لِسانك. فما نَلبث أن نبَّهتُك على مَقطوعة من كلامك أو من كلام غيرِك في أيّ فَنّ كانت، فتفتَح فاكَ بها وتُنشِدُها وتَترنَّم فيها وتُرتِّلها مُترَسِّلا على طريقة تَستحسِنها نَشيطًا طَيِّبَ النفس، ما بك مِن كَسَلٍ ولا عَياء. فلو كان ذلك الكسلُ والعياء حقيقةً مِنّي لاستصحبَك، وإنما ثَقُل عليّ القرآن؛ فكنتُ أجعلُك في تِلاوته تَحدُر ولا تُرتِّل عسى نستريح. وكذلك في أوراد العِبادات التي يجِب التثبُّت فيها. وذلك والله كلُّه خَديعةٌ مني بك.

---

[69] أخرجه أبو نُعيم في حلية الأولياء قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا أبو العباس السراج، ثنا قُتيبة بن سعيد، ثنا جرير، عن الأعمش، عن عبيد بن أبي الجعد، عن رجل، من أشجع قال: " سمع الناس، بالمدائن أن سلمان، في المسجد فأتوه. وذكره بتمامه، وقال: كذا رواه الثوري، عن الأعمش، وقال: "الزخرف تريدون؟ آيةً من سورة كذا، وآية من سورة كذا؟!"

أتُرى هكذا هي حالة المؤمن؟ لا والله، بل كلام الله للمؤمن أحبُّ الكلام وألذُّه، وأشوق إلى سماعه من الظمآن للماء الزُّلال فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون﴾[البقرة 46] على نَقص الإيمان، بل والله على ذهابه! يا شؤمَ نفسي ويا حَسرتي ويا أسَفي؛ كَم مرَّةٍ والله سمعتُ آيةً من كلام الله فثَقُلت عليّ ومَجَجتُها، وكم والله رَنّةِ شِعرٍ سمِعتُها فاستَعذبتُها! أخاف واللهِ، يا وليّي، على نفسي وعلى مَن هو مثلي أن يُنقل اسمُه من ديوان المؤمنين إلى ديوان مَن قال فيهم الحقُّ جل وعلا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وقد اِتَّصفتُ بهذا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُون﴾[الزمر 45] وقد اتّصفت بهذا؛ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا!﴾[غافر 12]

يقول القَوّال زُخرُفَ القول وغُروره فأهتَزُّ وأقومُ وأقول "شاباش[70]؛ هذا واللهِ حسَن!" فأُقسِم بالله كاذِبا. ولا يزال الْمَلعون مِن شيطان يُرقِّصُني ويَزفِن بي، كما يفعل صاحب القِرد بقرده. فإذا أخذ حاجتَه مّني صَفعني صفْعةً فأضجَعني، فيقوم مَن قلَّ فلاحُه مِثلي فيُغطِّيني بِرداء حتى يُخلَى سبيلي. وأقوم فأُهنَّأ، وقد عزَّاني الْمَلأُ الأعلى في ديني وفيما مضى مِن عقْلي. فإذا كان آخرَ الليل أنامُ أنا والجماعةُ السَّوءُ مثلي، وقد تعِبنا مِن كثرة ما رقَصنا، فلا نَلحَق نَنام إلا والصُّبحُ قد قام، فنَقوم نتوضّأ أقلَّ ما ينطلِق عليه اسمُ الوُضوء ثم نَجيءُ إلى المسجد.

---

[70] شاباش عبارة تركية بمعنى طلب الاستِزادة من الشيء الذي يُعجِب.

هذا إذا وُفِّقت، وإلا فالأغلبُ على مَن هذه حالتُه أن يصلّيَ في داره بـــ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر 1] والفاتحة كيف ما كانت، والقُنوت ليس بواجب فأتركُه، وأنقُرها مُخفَّفةً جدّا ثم أضطجِع إلى وقت الضُّحى لأستريح. هيهاتَ والله، ما كانت طريقُ الله هكذا! وإن كنتُ مُوفَّقا أكثرَ من غيري، توضَّأت وخرجت إلى المسجد. فإذا دخلت يُقال لي "قد صلّى الناس!" فلا أجِد لذلك حُزنا ولا أكترِث، بل أقيم الصلاةَ وأصلّي وأخرُج وكأنّه ما فاتَني شيء؛ لاهيَ القلبِ مَسرورا. وأقول بلسان الحال: قد حصلَ لي أجرُ الجَماعة بقَصدي وأراحَني الله مِن تَطويل الإمام! وإن أدركتُ الصلاة مع الإمام فأنا في تلك الصلاة على أحَد وجهين، إذا كنتُ مُستريحَ القلب مِن كلّ شيء: إما حاضرٌ في ليلتي البارحة وحُسنِها وما كان أحسنَ ذلك القوّال وشِعرَه! وأقضي صلاتي كلَّها في هذا حتى لا أدري ما صلّى الإمامُ ولا بما صلّى، وإنما رأيتُ الناس يفعلون شيئا ففعلت مثلَهم؛ ركَعوا فركعتُ وسجَدوا فسجدتُ ووقَفوا فوقفت وجلَسوا فجلست. أو يكون النومُ قد أخذ مني، وهي الحالة الثانية، فأترقّب عند ذلك فراغَ الإمام وتثقُل عليّ القراءةُ وأغتاب الإمامَ في نفسي وأمقُته، وأقول: ما أثقلَه، قد اِفتتَح سورةَ الحَشر أو الواقِعة؛ هلاّ كان قنِع بالانفِطار أو الفجر؟! والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قد أمرَنا بالتّخفيف[71]؛ هذا خلاف السنّة! ونُحَوقِل ونُهَلِّل، كلَّ ذلك لغير الله تعالى.

---

[71] كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم شديدَ الحِرص على أن تكون صلاة الجماعة

خفيفةً، والأخبارُ في ذلك كثيرة جدًّا. منها ما بلغنا عن عبد الله بن عمر أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالتَّخفيف. رواه النسائي وابن خزيمة وأحمد. وكان ينهَى أشدّ النهي عن التطويل بالناس في الصلاة، فعن أبي مسعود الأنصاري أنّ رجلا قال "والله يا رسولَ الله إني لأتأخَّر عن صلاة الغَداة مْن أجل فلان: مِمّا يُطيلُ بنا!" قال أبو مسعود: فما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في موعظة أشدَّ غضَبا منه يومئذٍ ثم قال «إنّ منكم مُنفِّرين! فأُيُّكم ما صلى بالناس فَليتَجَوَّز؛ فإنّ فيهم الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة». رواه البخاري في الأذان والدارمي. وعن جابر بن عبد الله أن معاذ بن جبل كان يصلّي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتي قومَه فيصلي بهم الصلاة. فقرأ بهم البقرة، فتجوَّز رجلٌ فصلّى صلاةً خفيفة. فبلغ ذلك مُعاذًا فقال "إنه منافق!" فبلغ ذلك الرجلَ فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسولَ الله إنّا قومٌ نعمَل بأيدينا ونسقي بنواضِحنا، وإنّ مُعاذًا صلّى بنا البارحة فقرأ البقرة؛ فتجوَّزتُ فزَعَمَ أنّي مُنافق" فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا معاذ «أَفَتَّانٌ أنتَ، أفتّانٌ أنت، أفتان أنت؟! اِقرَأْ والشَّمس وضُحاها، وسَبِّح اِسمَ ربِّك الأعلى، ونحوِها». رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فائدة سُنِّـــيَّة سَنيَّة: لا يعني تخفيفُ الصلاة الإخلالَ بها، ولكن أداءَها في سُرعة وتمام. فعن أنس بن مالك أنه قال: ما صلَّيتُ خلف إمام قطُّ أخفَّ صلاةً ولا أَتَمَّ صلاةً مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه الشيخان وغيرهما. وعن ثابت البُناني أن أنس بن مالك كان يقول "إني لا آلُو أن أُصَلِّيَ بكم كما رأيتُ رسولَ صلى الله عليه وسلم يصلي بنا. قال ثابت: فكان أنس يصنَع شيئا لا أَراكم تصنعونه؛ كان إذا رفع رأسَه من الركوع اِنتَصب قائمًا حتى يقول القائل "قد نَسِيَ"، وإذا رفع رأسه من السجدة مكثَ حتى يقول القائل "قد نَسِي". رواه الشيخان وأبو داود. وذلك معنى قولِه "ولا أَتَمَّ صلاةً مِن رسول الله". وفي رواية أبي داود أنه قال: ما صلّيتُ خلفَ رجل أوجزَ صلاةً من رسولِ الله في تَمامٍ، وكان رسولُ

الله صلى الله عليه وسلم إذا قال «سمع الله لِمَن حمده» قام حتى نقول "قد أوهمَ" ثم يُكبِّر ويسجد، وكان يقعد بين السجدتين حتى نقول "قد أوهمَ". وقد بيَّنّا هذا بأدلّته مبسوطًا في باب كيفية الصلاة من كتاب "فَهم الصلاة" حيث قلنا: إنّ صلاةَ النبي كانت سواءً مَوزونةً مُعتدلةً على نَسَق مُنتظِم؛ فقد صحَّ عن حُذيفة أنّه قال: كان قيامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورُكوعه وإذا رفع رأسَه من الركوع وسجودُه وما بين السجدتين قريبا من السَّواء. خرجه أبو داود في الصلاة وباقي الجماعة. وعن البراء بن عازب قال: رَمَقتُ محمدًا صلى الله عليه وسلم في الصلاة فوجدتُ قيامَه كركعَتِه وسَجدتِه، واعتدالَه في الركعة كسجدتِه، وجلستَه بين السجدتين وسجدتَه ما بين التسليم والانصرافِ قريبًا من السواء. خرجه النسائي في الصلاة ومسلم وأبو داود وابن ماجه. لقد جاءت السُّنَّة بتسويَة الصلاة ليكون القيام والركوع والرفع منه والسجود والجلوس سواءً في المدّة؛ فإن كانت مدَّة القيام للقراءة 5 دقائق مثلاً فليكن الركوع لِمدّة 5 دقائق أيضا وكذا الرفع منه وكذا السجود والجلوس منه والسجود الثاني، فيكونَ مجموعُ مدَّة الرَكعة 30 دقيقة. فمَن أراد التخفيف فله ذلك، ولكن عليه أن يُخفِّفَ من مدّة القيام الأوّل ويُتبعه بما يناسِبه من قِصر في سائر الهيئات. ودليلُه ما بلغنا عن حُذيفةَ بنِ اليمان وقد دخل مسجدًا فرأى رجلا يُصلِّي ولا يُتِمُّ الرُّكوعَ ولا السجود، فلمّا اِنصَرفَ قال له "مُنذ كَم هذه صلاتُك؟" قال "منذ أربعين سنة" فقال له "ما صلَّيتَ مُنذُ أربعين سنة؛ ولَو مُتَّ وهذِه صَلاتُك لَمُتَّ على غَير الفِطرَة التي فُطِر عليها مُحمّدٌ صلى الله عليه وسلم!" ثم أقبَل عليه حذيفةُ يُعلِّمُه، فقال "إنّ الرجل لَيُخفِّف في صَلاته، وإنَّه لَيُتِمُّ الرُّكوعَ والسُّجودَ!" خرجه أحمد ح23306 والخلال في السنّة عنه وعبد الرزاق وأبو عبد الله المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن زيد بن وهب بأسانيد صحيحة. فاحرِصْ يا هذا أن تكون في صلاتك مقتَديًا برسول الله صلى الله عليه وسلّم لا بِمَن تراهم يصلّون ولا صلاةَ، واحرِصْ على

أما تستحيي يا نفسُ مِن الله، وقد وقعتِ البارحةَ مَسْخرةً للشيطان وملعَبةً له، ورقبتُك مصفعة وناصيتُك بيده؟! وأنتِ في هذا كله تلتذّين! ثم الداهية العُظمَى، والطامّة الكُبرى والداءُ العُضال والْمُصيبة الآزِفة التي ليس لها من دون الله كاشِفة، أني أقول في تلك الحالة كلِّها أنني كنتُ مع الله وفي الله، وبالله قمتُ وفي الله شطَحت وإلى الله وَصلت، وقلتُ لله وقال لي الله. ونعتِب أولئك الأغمارَ الجُهّال مثلَه فنقول "لِم لَم تسألوني إذْ رجَعتُ مِن حالي؟!"

ولو سُئل لافتَضح، ولو فَرضتَ أنه أجاب فقد يُجيب الكاذِبُ عما يُسأل عنه مثلُ هذا، ويؤيِّده الشيطانُ بخَيالات يَنصِبُها له ويُبديها في سرّه، فيُعبِّر عنها. قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام 121] فهذا وليٌّ للشيطان ينطِق بلِسانه، وهو مُطيع له؛ فانتظَم في أهل الشّرك. فناهيك مِن مَجلس يحوي ويضُمّ المشركين وأولياء الشياطين؛ ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين﴾[الأعراف 197]!

أخبرني شيخي، وكان من أهل الكشف والوُجود، عن رجل أعمى البصَر مِن الصالحين. حضر مَبيتا فيه سَماع، فقال الأعمى "هذا إبليسُ قد دخل على سورة معزي" فرآه يشُمّ الجماعةَ واحدًا واحدا، وقعد الأعمى ينعَت الأوَّلَ فالأول من الجماعة على التتابُع كما هم عليه من الجلوس واللباس والصورة، وهو يقول

إحياء هذه السنَّة تَكنْ مِن الأفذاذ الأفراد، فإنَّها أُميتت منذ زمان،وربُّنا الرحمن الُمستعان وعليه التُّكلان.

"تَرى الملعون يمشي عليهم ناظرًا إليهم" حتى قال "تراه قد ثَبت عند واحد عليه عَباءة حمراء وعِمامة وإحرام؛ اِلتفِتوا إليه!" قال: فالتفتنا إليه فرأيناه يَستجلِب الحالَ، فقال الأعمى "أرى الملعونَ قد وقف عند هذا الرجل، تَراه يريد ينطَحُه بقرْنه" قال: ثم حَمل عليه فطَعنه بقرنه، فإذا بذلك الرجل قد صاح صيحةً وغلبَ عليه الحال وقام يشطَح، فقام أهلُ المجلِس لقيامه وهو بهذه الْمَثابة. ما أحسنَ قولَ الله تعالى إذ قال ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ، وَمَا يَنبَغِي لَه﴾ فناهيك مِن خَصلة لم يرضها لنبيه، وقال ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِين﴾[يس 69]!

بارك الله فيكِ يا نفس، أقررتِ بالحق وخَضَعت له.

فقالت: الحق أحقّ أن يُتّبع، صدق والله سَلمان رضي الله عنه، ورضي عن أبي مَديَن حيث قال "لا يَكون الْمُريدُ مُريدا حتى يَجِد في القرآن كلَّ ما يريد"؛ هذا مَقام المريد، فما ظَنُّك بالعارِف؛ هل يُعرِّج على كلامٍ غيرِ كلام سيِّده؟!

وكل مَن سَمِع من الشيوخ فهو على أحَد أمرَين: إما قبلَ أن تحصُل له مَرتبةُ التَّمكين؛ فالسماعُ عندنا عليه حَرام في ذلك الوقت. أو سَمِع بعد التمكين، بشُروطه المعروفة التي ذكرناها في غير هذا الموضع[72]، ويُعلم مِن هذا أنه قد نزل

[72] يقول الجُنيد البغدادي "السماع يحتاج إلى ثلاث أشياء: الزمان والمكان والإخوان". ويقول أبو علي الدقاق "السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم" ويقول الشيخ عبد الله اليافعي "السماع لا يجوز لكل أحد، بل لمن حدا به حادي الشوق إلى مواطن القرب في الحضرات القدسية، خاليًا عن هوى النفس والصفات الدنية. وإن السماع الحقيقي لأرباب الأحوال السنية

والمقامات العلية والنفوس الزكية والصفات المرضية." ويقول الشيخ في الباب الثالث والثلاثين في معرفة أقطاب النيات وأسرارهم من الفتوحات: إن السامع يكون همه في فهم المعنَى الذي جاءت له فإن بذلك تقع الفائدة ولهذا وجدت في ذلك اللسان على هذا الوضع الخاص ولهذا لا يقول هؤلاء الرجال بالسماع المقيَّد بالنغمات لعلوّ همتهم ويقولون بالسماع المطلَق. فإن السماع المطلق لا يؤثر فيهم إلا فهم المعاني وهو السماع الروحانيّ الإلَهي، وهو سماع الأكابر. والسماع المقيَّد إنما يؤثر في أصحاب النَّغَم وهو السماع الطبيعي. فإذا ادّعى مَن ادّعى أنه يسمع في السماع المقيد بالألحان المعنى ويقول "لولا المعنى ما تحرّكتُ" ويدعي أنه قد خرج عن حكم الطبيعة في ذلك، يعني في السبب المحرِّك؛ فهو غير صادق. وقد رأينا مَن ادّعى ذلك من المتشيِّخين المتطفِّلين على الطريقة. فصاحب هذه الدعوَى إذا لم يكن صادقًا يكون سريعَ الفضيحة؛ وذلك أن هذا المدعي إذا حضر مجلس السماع فاجعل بالَك منه. فإذا أخذ القوّال في القول بتلك النغمات المحرِّكة بالطبع للمَزاج القابل أيضا وسَرَتْ الأحوال في النفوس الحيوانية فحرَّكت الهياكل حركةً دَوريَّة، لِحُكم استِدارة الفَلَك، وهو أعني الدَّور. مما يدلك على أن السماع طبيعيٌّ، لأن اللطيفة الإنسانية ما هي عن الفلك وإنما هي عن الروح المنفوخ منه وهي غير متحيِّزة فهي فوق الفلك؛ فما لها في الجسم تحريكٌ دوريّ ولا غير دوريّ. وإنما ذلك للروح الحيوانيّ الذي هو تحت الطبيعة والفلَك. فلا تكن جاهلاً بنشأتك ولا بمن يحرِّكك! فإذا تحرك هذا المدَّعي وأخذه الحال ودار أو قفز إلى جهة فوق من غير دور وقد غاب عن إحساسه بنفسه وبالمجلس الذي هو فيه فإذا فرغ من حاله ورجع إلى إحساسه فاسأله ما الذي حركه، فيقول "إن القوّال قال كذا وكذا، ففهمتُ منه معنًى كذا وكذا؛ فذلك المعنى حرَّكني" فقل له "ما حركك سوَى حُسن النَّغْمة، والفَهمُ إنما وقع لك في حكم التبعية؛ فالطبعُ حَكَمَ على حَيوانيَّتك. فلا فرق بينك وبين الجَمَل في تأثير النغمة فيك." فيَعِزُّ عليه مثلُ هذا الكلام ويثقُل ويقول لك "ما عرفتني وما عرفت ما

من المقام إلى ما هو أسْفلُ منه وأدنَى لِحظٍّ نَفسيّ. ولهذا قلنا في حقّ بعض مَن لقِيناه من المشايخ، وكان يولَع بالسَّماع وكان قبل ذلك لا يقول به، فسُئلنا عنه فقلنا: الشيخُ مُتمكِّنٌ، ومَقامُ السماعِ نازِلٌ، وحظُّه النفسُ. فما هو الشيخ، واللهُ أعلم، إلا نزَل إلى السماع رحمةً بنفسِه دنيويةً، وجاد على السماع بذلك ليشرُف به السماعُ. فإن السماع يَشرُف بالعارفين ولا يشرف به العارفون؛ فصار نزولُه إليه كنزول الحقّ لعباده «هل مِن تائب فأتوبَ عليه؟ هَل من مُستغفِر فأغفِرَ له؟»[73] فشرَّفنا تعالى بنزوله إلينا و لم يشرُف هو بنا.

حركني" فاسكُت عنه ساعةً ثم اُتلُ عليه آيةً من كتاب الله تتضمَّن ذلك المعنى الذي كان حرَّكه من صوت الْمُغَنِّي وحقِّقْه عنده حتى يتحققه في أخذ من المعرفة بالله؛ فما أشدَّ فضيحته في دعواه. فقل له "يا أخي هذا المعنى بعينه هو الذي ذكرتَ لي أنه حركك في السماع البارحة، لَمّا جاء به القوّال في شعره بنغمته الطيبة، فلأيّ معنى سرى فيك الحال البارحة؟ وهذا المعنى موجود فيما قد صُغتُه لك وسقته بكلام الحق تعالى الذي هو أعلى وأصدق وما رأيتك تهتز مع الاستحسان وحصول الفهم وكنت البارحة يتخبَّطك الشيطان مِن الْمَسّ كما قال الله تعالى، وحجبك عن عين الفهم السماع الطبيعي. فما حصل لك في سماعك إلا الجهل بك." فمن لا يفرق بين فهمه وحركته كيف يُرجى فلاحه؟

[73] أخرجه بهذا اللفظ أحمد والبيهقي في الشُّعب وابن خُزَيمة في التوحيد والطبراني في الدعاء والآجري في الشريعة عن أبي هريرة. وأخرجه البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «يَنزِلُ رَبُّنا كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يبقَى ثُلثُ الليلِ الآخِرِ، فيقول: مَن يَدعُوني فأَستجيبَ له؟ مَن يَسْألُني فأُعْطِيَه؟ مَن يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَه؟»

هذا إذا كان الشيخ عاليا، ولكن يقع منه هذا نادرا، إلا إن أراد الحق أن يُبقيه فيه زمانا طويلا. فيعلم الشيخ، إن كان عارِفا مُتمَكِّنا، أنه مطرودٌ وأن رجوعَه إلى السماع مُستصحبا عقوبةٌ من الله عز وجل لذَنبٍ أتاه. ولذلك عاقبه بالسَّماع؛ فلا يجد حالَه إلا فيه ويفقِدها إذا فقَده، مَكرًا من الله به واستِدراجا. فيبكي على نفسه ويبحث على ما جنته نفسُه فيجد ذَنبا ضرورةً، لا بُدّ من ذلك. واللهُ يُلبِسنا وإياكم رِداءَ العافية ويُحِلُّنا وإياكم المراتِبَ الساميَة العالية، ولا يجعلَنا وإياكم مِمَّن له إلى سَماع الغِناء أُذنٌ واعية، فنكونَ من أهل القلوب اللاَّهية!

يا نفسُ أأَعرِض عليكِ غيرَ هذا؟ قالت: نعم أحوالُ مثلِ هؤلاء هي الشفاء والدواء، إذ ليس لنا سبيلٌ إلى الله تعالى إلا على مَدارجهم ولا ارتِقاءٌ إلا على مَعارجهم، فبأحْوالِهم نتحقَّق، وهي الْمُوصِلةُ إلى الحق. قلت لها: نعم هذا أبو الدرداء، رضي الله عنه. رُوِّينا من حديث أحمد بن جعفر بن حمدان بسنده عن أبي قِلابة قال: قال أبو الدرداء "إنّك لا تفقَه كلَّ الفقه حتى ترى للقرآن وُجوها، وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تَمقُت الناسَ في جَنبِ الله، ثم ترجِع إلى نفسك فتكونُ لها أشدَّ مَقتًا مِنك للناس!"[74] وكان أبو الدَّرْداءِ من الذين أُوتوا العلم.

[74] أخرجه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا إسماعيل ابن علية، ثنا أيوب السَّخْتياني، عن أبي قِلابة، قال: قال أبو الدرداء. وأخرجه عبد الرزاق في المصنَّف ر20473 عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء. وابن أبي شيبة في المصنف ر35726 حدثنا عبد الوهاب الثقفي عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء. وهو عند البيهقي في الإسماء واللغات.

ناشدتك الله يا نفس، هل كنتِ قط على ما أشار إليه أبو الدرداء؟ قالت: كنتُ على بعضِه لا كلِّه. قلت لها: فقد نقَصك مِن الفقه على قدر ما نقصك منه؛ فقد ثبت جهلُك. قالت: صدقتَ ولكن اِشرح لي قولَه، فإن فيه إجمالا. قلت: لها نعم وسمْعًا وطاعة؛ أما قولُه "إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وُجوها" فتحتَ هذا الكلام بحورٌ طامية وأسرار عالية، عِمادُها الذي ترجِع إليه معرفةُ القرآنِ ومنزلتِه وتنَزُّلِه، وليس هذا المكتوب يحتمِله لما بُني عليه من الاختصار.

فأما الوجوه يا نفسُ التي يكون بها فقيها مَن رآها فهي كثيرة، نذكُر منها وجهين أو ثلاثة: فمنها المسألة التي كنا فيها من سَماع الشعر، وذلك أن الإنسان له أحوال كثيرة يجمَعها حالتان مُسمَّيتان بالقبْض والبَسط، وإن شئت الخوف والرجاء، وإن شئت الوحشة والأنس، وإن شئت الهَيبة والتأنُّس، وغير ذلك. فمتى ما اتّصف الإنسان، عارفًا كان أو مُريدا، مُتمكِّنا أو مُتلَوِّنا، بحال من هذه الأحوال؛ فإنه من الْمُحال أن يتّصف بها عبدٌ مِن غير باعثٍ ولا داعٍ إليه. إلا في وقت مّا، هو مقام مُفزِع، من غير باعث، نصّ عليه الشيوخ، وهو أن تجد قبضا أو بسطا وتجهلَ سببَه. فالْمُحقِّقون يخافون مِن ذلك أن يَمكُر الله بهم فيه. فمتى اتّصف الإنسانُ بشيء من هذه الأحوال، فلينظُر مَن داعيه إلى ذلك ومَن سُلطانُه. فإن كانت آيةٌ من كتاب الله تعالى فإنّ حاله اِنبَنَى على أصلٍ صحيح. وبيانُ ذلك أنّ النفس ليست بِمحَلٍّ لِلقرآن الكريم، فإنه يثقُل عليها بطبعها وحقيقتها. وهنا تَفصيل، فإن القرآن يَعُمّ الحقائقَ كلَّها، والنفسُ مِن جُملَتِها،

فلا بُدّ أن يكون لَها فيه نصيب، وما بقيَ إلا تَعيين ذلك النصيبِ مِن غيره... وكنا نذكُره لولا الْمُدَّعي أن يأخذَه، فتركناه لهذا السبَب.

والشيطان أبعدُ من أن يكون له حالٌ فيك، فإن الشيطان ليس له منك مَن يأخذُ منه إلا نفسُك، وهي قد أَبت عن حَمْل القُرآن لضَعفها عنه؛ فمِن الْمُحال أن ينبَعِث مِن القرآن حالٌ من الأحوال مِن الشيطان أو من النفس ألبتَّة. وتعرِف عند ذلك أن الحال في العقل، والعقل في الروح لا في النفس، وأن الروح صاحبُ الْمَلَك، وأن الملَك صاحب العِلم والفِراسة والإلْهام واليَمين والآخرَة والذِّكر والْحَقّ واليَقين. فلا بد أن تكون في حالك، الذي قام بك من القرآن، صاحبَ علم أو شيء مما ذكرناه لك. ولهذا أشار الجُنَيد رضي الله عنه بقوله "عِلمُنا هذا مُقيَّدٌ بالكِتاب والسُّنَّة"[75] ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَاب﴾[الزمر 21] و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾[طه 128] و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾[الرعد 4].

[75] ذكره صلاح الدين الدمشقي العلائي المتوفى 761 هـ عن أبي عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن عبد الله الرازي، سمعت أبا محمد الجريري، سمعت الجنيد رحمه الله يقول: الطُّرُق كلُّها مَسدودةٌ على الخَلق، إلا على مَن اقتفَى أثرَ الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال: مَن لم يحفظ القرآن و لم يكتُب الحديثَ لا يُقتدَى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. 'إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة' ص375، مكتبة العلوم والحكم. وذكره القشيري في الرسالة من غير إسناد.

كما أنه إذا انبنَى الحال مِن الشِّعْر والسماع والصّفْق والألْحان، إنما يتلقّاه مِن الْهَوَى. والهوى في النفس، والنفسُ صاحبة الشيطان الذي الشِّعرُ نَفثُه، على ما أخبرنا به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم[76]. إلا ما تعلّق منه بتوحيدِ الله عزّ

[76] كون الشعر نَفْث الشيطان زيادة جاءت عقِبَ حديثٍ أخرجه ابن حبان في صفة الصلاة من صحيحه ر1779 من طريق عَمرو بن مُرة عن عاصم العنزي عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استفتح الصلاة قال «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان، من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه» قال عمرو: هَمزُه الْمُوتَة، ونفخُه الكِبْر، ونَفثُه الشِّعْر. وأخرجه الدارمي ر1275 قال: أخبرنا زكريا بن عدي، حدثنا جعفر بن سليمان عن علي بن علي عن أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فكبّر قال «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرُك، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفثه ونفخه» ثم يَستَفتِح صلاتَه. قال جعفر: وفسّره مطر: همزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر.اه، وللحديث شواهد عن ابن مسعود وغيره، والحاصل أن "همزُه الموتَة، ونفخُه الكِبر، ونَفثُه الشِّعر" زيادة من الرواة وليست من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم. ولا يعارض هذه الطرقَ الصحيحة ما جاء في مسند أحمد ر16785 من حديث عمرو بن مرة عن رجل عن نافع بن جُبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في التطوُّع "الله أكبر كبيرا، ثلاث مِرار، والحمد لله كثيرا، ثلاث مرار، وسبحان الله بكرة وأصيلا، ثلاث مرار. اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه" قلت: يا رسول الله ما همزه ونفثه ونفخه؟ قال "أما همزه فالموتة التي تأخذ بن آدم وأما نفخه الكبر ونفثه الشعر." أقول: لا يقوم مثلُ هذا الإسناد حجّةً في ردّ ما سبق من أن الزيادة غير ثابتة عن النبي صلى الله

وجل، فهو مَحمودٌ مِن مَحامِد النفس خاصّةً ما دام انبِعاثُه من أصله. وإن الشيطان للنفس بمَترِلَة المَلَك للروح. فكما كان الملك أمينا على الأوصاف التي ذكرْنا بعضَها، كذلك الشيطان في مُقابلته. فصاحِب الجهل في مُقابلة صاحب العلم، والظنُّ في مقابلة الفِراسة، والوسْوَسة في مقابلة الإلهام، والشِّمال في مقابلة اليمين، والدنيا في مقابلة الآخرة، والغفلة في مقابلة الذِّكر، والباطل في مقابلة الحق، والشَّكّ في مقابلة اليقين، والْمَعصية في مقابلة الطاعة، والتشبيه في مقابلة التتريه، والشِّرك على مراتبه في مقابلة التوحيد، وغير ذلك مما تضيق هذه العُجالة عنه؛ فإنه بابٌ واسع هذا أُنموذَجُه.

وكل حال ينبعث عن القرآن فلا بُد أن يعلوَ بصاحبه إلى أحد هذه المنازل على قدر السماع. ومعنى ينبعِث عن القرآن: لا يزول سامعُه عن المعنى الذي نزل له القرآن. لا لِخيال قام به عند تلاوة القرآن في معشوقِه أو المرأة التي اتخذها أُختا في الله على دعْواه، ولكلٍّ هذا شروطٌ. وكل حال ينبعث عن الشعر وعن هذا السماع فلا بد أن يترل بصاحبه إلى إحدى هذه الدرَكات. وسرُّ ذلك أن أصلَ انبعاثِ القرآن كلامُ الله الْمُقدَّس الذي ما اعتراه قطٌّ نقصٌ ولا تدنيس، ولا جاز عليه ذلك؛ فمِن المحال أن يعطي إلا بحسَب طَهارته. وأصل ُانبعاث الشِّعر كلامُ المخلوق الناقص الدَّنِس، الذي ما صحّ له كمالُ طهارةٍ لامتِزاجه. فالغاية

عليه وسلّم، وذلك لجهالة شيخ عمرو بن مُرّة، كما بيّنه الأرنؤوط، قال: حديثٌ حسن لغيره وهذا إسنادٌ ضعيف لضعف الراوي عن نافع بن جبير. والله أعلم.

في الشعر أن يكون مُمتزِجا، لا تكمُل طهارتُه أبدا، ومِن ثَمّ إلى أنزَل في النقص والتدنيس؛ فمن المحال أن يعطي أبدا إلا حالا ناقصا دَنِسا. هذه حالة العارفين المكمَّلين فيه، ومعهم أتكلَّمُ. وكثيرٌ مِن السادة الكبار يعرفون هذا من نُفوسهم. وأما من نزل عنهم من المدَّعين والمريدين؛ فلا كلامَ لنا معهم!

ولهذا قال أبو يزيد البِسطامي في سماع العارفين مطلقا، يحكم على مقام أهل السماع، أنهم أهلُ الكُدية. واستعاذَ بالله منه، كما استعاذ من طَيِّ الأرض والْمَشي على الماء وفي الهواء، وسأل أن يُهيِّئَه الله لشيء من أشيائه، أي سر من أسراره. فلو نيلت هذه الأسرار في السماع لما استعاذ منه مثلُ أبي يزيد! وقال في حق المريد "إذا رأيتَ الْمُريد يميل إلى السماع، فاعلم أن فيه بقيّةً مِن البِطالة"[77] فجعل مَحلَّه للمريدين البِطالة وللرجال الكُدية.

وإنما سقتُ كلامَ أبي يزيد لِما وصلني عن بعض الناس من المقلِّدين في هذه الطريقة أنه قال، لما سمع مني الإنكارَ في السماع، وقد أوضحتُ له حقيقته حتى اعترف بها، فقال "تَقليدٌ بتقليد؛ فالأَولى أن أقلِّد الشيوخَ المتقدِّمين الذين قالوا بالسماع!" فلهذا سُقنا كلامَ أبي يزيد، لكونه من الْمُتَقدِّمين وأن كلامَنا مُوافق

[77] لم أجده عن أبي يزيد، إلا أن القُشيري ساق أثرين. أوّلَهما عن أبي حفص الحدّاد، قال: وقال أبو حفص "إذا رأيتَ المريد يحب السماع فَاعلم أن فيه بقية من البطالة" وقال في الثاني: سمعتُ محمد بن الحسين يقول: سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الرازي يقول: سمعت الجُنَيد يقول "إذا رأيت المريد يُحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة". الرسالة القشيرية ص16 وص154 موقع الوراق.

له. ولقد بلغني من ثِقة عن رجل من الْمُتَشَيِّخين لا من الشيوخ، كان يُلازم مَجلِسَنا فسمِعنا نتكلّم في السماع وإجازته وأنه مُباح، وبيَّنا نَقصَه في المقامات وحدَّه وأين ينتهي بصاحبه، فغضِب وانقطع. فسألتُ عنه وما شأْنُه فقيل أنه قال "قد كان الشيوخ يسمَعون، مثلَ ابنُ الدقّاق وعبد الرزاق وغيرُه".

فلم أدْرِ قَبلُ مِمّ أتعجَّب: من جهلِه في الحُكم على الحق بالرجال، والرجال لا يُعرفون إلا بالحق، لا الحق يُعرَف بهم[78]؛ فهذا جهل محض وتقليد صِرف. ومَن

---

[78] هذا أصلٌ عظيم في التعلُّم والتعليم، إذ أن مُعظم الخلق لا يأخذون إلا عمَّن يثقون بهم، وإن كانوا مُبطلين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم: اِتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ. قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنا! أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ؟!﴾[البقرة 170] قال حجّةُ الإسلام أبو حامد الغزالي: اِعلم أن مَن عَرَف الحق بالرجال حار في مَتاهات الضلال؛ فاعرف الحق تعرف أهلَه إن كنت سالكا طريقَ الحق. وقال: عادةُ ضُعفاءِ العُقول: يَعرفون الحقَّ بالرجال، لا الرجالَ بالحق. والعاقلُ يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه حيث قال "لا تَعرفِ الحقَّ بالرجال؛ اِعرَفْ الحقَّ تَعرِفْ أهلَه!" والعاقل يعرف الحق، ثم ينظُر في نفس القول؛ فإن كان حقًّا قبِلَه، سواءً كان قائلُه مُبطِلاً أو مُحِقّا. بل ربَّما يَحرُص على انتِزاع الحقِّ من أقاويل أهلِ الضَّلال عالِمًا بأن مَعدِن الذَّهَبِ الرّغام. ولا بأس على الصَّرّاف إن أدخل يدَه في كِيس القَلاّب وانتزع الإبريز الخالِصَ مِن الزَّيف والبَهرَج، مهما كان واثقا ببصيرته. فإنما يُزجَر عن معاملة القلاّب القَرَويُّ دون الصَّيرَفِيِّ البصير، ويُمنَع مِن ساحل البحر الأخرقُ دون السبّاح الحاذِق، ويُصَدُّ عن مَسِّ الحَيَّة الصَّبِيُّ دونَ الْمُعزِّم البارع. إحياء علوم الدين، ج1/، 53 دار المعرفة، بيروت. والمنقذ من الضلال، ضمنَ مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ص547، دار الفكر.

هذه حالتُه في العلم، كيف يُرجى فلاحُه في نفسه أو كيف يُتصوَّر أن يُفلح به غيرُه؟! أو أتعجّب أيضا من عدَم تحصيله لما أوردناه في السماع؛ فإنا لم نُحرِّمه. بل أبحنا إنشادَ الشعر والغِناء على القدر الذي جاءت به الشريعة، ثم تكلَّمنا في نَقصه من المقامات وأين منزلَته، والفرقَ بينه وبين غيره[79]. كما نُفرِّقُ بين الْمُتوَكِّل والزاهد. أي الذي ينبَني على معرفة التَّوكُّل ما هو والزهد ومقامُه. فإن الْمُتَّصِف بصفةٍ مّا يكون بحيث مقامُها ويتميّز في أهلها[80].

وقد سمعت من أبي محمد عبد العزيز، الْمَكتوبِ له هذه الرسالة، إشارةً عجيبة لا يعرِفها إلا مُتمكِّنٌ متحقِّق جدّا في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا﴾[الأحزاب 53] فقال رضي الله عنه "سرُّ هذه الآيةِ في قوله تعالى ﴿لِبَشَرٍ﴾ ولا يكون بشَرا إلا من غلَبت عليه البَشريَّة" وفي الآية عندي تفصيل عجيب، وفي نساء يوسف عليه السلام ما يؤيِّد إشارتَه ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيم!﴾[يوسف 31] وعندنا من الدلائل عليه ما لا يُحصَى. فهذا مِن بعض وجوه القرآن التي نبَّه عليها أبو الدرداء رضي الله عنه.

---

[79] أي من تعاليم التصوف ورياضاته. والحق أن السماع ليس من ذي ولا من تلك، وإن تناقلَه المريدون على أيدي المشايخ. بل هو استِجمام وترويح شرعي ينتقل به المريد من مقام القبض إلى البسط.

[80] التصوف رياضة، أي تعلُّم كيفيّة التخلُّص من الإرادة النفسيّة قصدَ الانفِتاح للإرادة الإلَهيّة. وهذا هو الفرق بين الزاهد والْمُتصوِّف. فالأوَّل يعتمد على نفسه والآخر على ربِّه. لذا لَمّا سُئل أبو يزيد البسطامي عمّا يريد قال: أريد أن لا أريد!

ومنها أن يرُدَّك إلى الحق ويصرِفك عن الخلق، في معاشك وما ضُمِن لك، وغير ذلك مما تَحذَرُ وترجُو؛ فإن القرآن يُحرِّضك على هذا. وكذا فعل أبو الدرداءِ بآيةٍ قرأها، قال: فأردتُ أن أجمع بين العِبادة والتجارة، فلم يجتمعا؛ فأخذتُ في العبادة وترَكت التجارة![81] يؤيِّده قولُ الله لِموسَى عليه السلام «اُطلُبْ مني كلَّ شيء؛ حتى المِلحَ تُلقيه في عَجينك!»[82] وهذا الْمَقام هو الذي أخذه سالِمٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدَّم ذِكرُه. وهذا بعضُ ما في كلامه.

---

[81] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف ر35752، قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة قال: قال أبو الدرداءِ "كنتُ تاجرًا قبلَ أن يُبعَث مُحمّدٌ صلى الله عليه وسلم. فلما بُعِث محمد زاوَلتُ التِّجارةَ والعبادَة فلم تجتمعا؛ فأخذتُ العِبادةَ وتَركتُ التجارة. وهو عند أبي نعيم في الحلية وابن عساكر في التاريخ وابن السري في الزهد.

[82] لم أعثر على هذا الخبر. على أن البيهقي روى في شُعب الإيمان ر1082 عن بكر بن عبد الله المُزَني مُرسَلاً، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول «سَلوا اللهَ حَوائجكم؛ حتى الملحَ!» يقول الشيخ قدس سرُّه في الباب الثالث والستون ومائة في معرفة مقام الغِنى وأسراره من الفتوحات المكية: اِلْزم اِستِحضارَه -أي الفقر- في كلّ نفَس وعلى كل حال، وعلّقْ فَقرَك بالله مُطلَقًا مِن غير تعْيِين، فهو أَولَى بك. فإن لَم تقدِر على تحصيلِ عَدم التَّعيين فلا أقلَّ أن تُعلِّقَه بالله تعالى مع التعيين. أوحَى الله تعالى إلى موسُى «يا موسى، لا تجعل غيري مَوضِعَ حاجتِك، وسلني حتى الملحَ تُلقيه في عَجينك!» هذا تعليمُ الله نبيَّه موسى عليه السلام. ولقد رأيتُه سبحانه وتعالى في النوم فقال لي «وَكِّلْني في أمورِك!» فوكَّلتُه، فما رأيتُ إلاّ عِصمَةً مَحضَة. لِلّه الحمدُ على ذلك، جعَلَنا الله تعالى مِن الفُقراء إليه به. فإنما الفقرُ إليه تعالى به هو عين الغِنى، لأنه الغَنِيُّ وأنت به فَقير؛ فأنت الغَنِيّ به عَن العالَمين. فاعلم ذلك.

قالتِ النفسُ: قلتَ الحقّ، وفي هذا غُنيَة لي إن كنتُ عاقِلة؛ فالويل لِمَن يعلَم ولا يعمل سبعَ مرات! وقد بقي لي الكلمتان: "مَقتُ الناس في جَنْبِ الله ومقتُه لنفسِه"، ومقتُ الناس مُشكل!

فقلت لها: يا نفس، ليس الأمرُ كما ظَننتِ، أَرْعيني سَمعَكِ؛ أما قولُه "ولا تفقَهُ كل الفقه حتى تمقُت الناسَ في جنب الله" فاعلَمي أن للإنسان حالتين، لا يخلو؛ إما أن يغلِب عليه ربُّه أو نفسُه. فإن غلب عليه ربه لم يعرِف الناسَ ولا ما هم عليه، وأدّاه ذلك إلى ترْكهم في جنب ما حصل في نفسه من الأُنس بالله. فيمقُتُ هنا بمعنى يترك، فإنّ من مقت شيئا تركَه، فكنّى بالأصل هنا عن الفرع. وأما من غلبت عليه نفسُه، فالْمَقت هنا على بابه وصورتِه.

ومقته للناس: أنّ الغالب على الناس الْمُخالفة والبِطالة؛ فلا يزال يمقت منهم تلك الأفعالَ وينبِّههم عليها ويقرَع أسماعَهم بها وينصَحُهم في دين الله وجَنبِه. فيَثقُل ذلك عليهم ويستخِفُّونَه ويَردُّونه، ويجتنبونه ويَسُدّون الأبواب في وجهه، حتى يتركوه فرْدا وحيدا؛ لا صديقَ له ولا مُعاشِر. كما قال عليه السلام «ما تَركَ الحقُّ لِعُمَرَ مِن صَديق!» فإذا رجَع الناسُ أعداءً لا يُكلِّمونه، رجع بالضرورة إلى نفسه وتفرّغَ إليها في جنب ربّه؛ فمَقتَها بأنواعٍ من التَّوبيخ: مِن قِلّة الصِّدق في العمل وعدَم الإخلاص ودُخول العِلل في الْمُخاطَبات والخَواطِر والنَّصيحة والإشارات. فصار مقتُه لنفسه أشدَّ من مَقته للناس. ولا يقدِر ينفَصِل عن نفسه، ولا تنفَصِل عنه مثلَ الناس؛ فيُفتح له في ذلك من الفقه الإلَهي والعِلم اللَّدُنِّي ما لا يَعرفه إلا

مَن شاهدَه. وحَسْبُكِ يا نفس، فقد أطلتِ عليَّ سؤالَك، فاقنَعي بهذا القَدر. فإن هذه المسألة أعظم وأقوى من أن أبسُط شرحَها في مُجلَّدات! فقالت: قنعتُ وبالله استعنت. فهاتِ غيرَه، فقد واللهِ عرَفتُ وتَحققْتُ أني لا شيء ولا أصلُح لشيء، وأني في وُجودي وفي عَيني كما كنتُ قبلَ وجودي ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئا﴾[مريم 9] و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورا﴾[الإنسان 1] وفي الحقيقة لم يزل كذلك ولا يزال!

قلت لها: نعم، هذا عُثمان بن مَظعون[83]، صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أُوذيَ في الله فرَضي وتعرَّض لذلك حتى مات. دخلَ عليه رسولُ

---

[83] عثمان بن مظعون الجُمَحي القُرَشي، أسلم بعد ثلاثةِ عشَر رجلا وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائب الهجرةَ الأولى. ومن مآثره أنّه حين أنشد لَبيدُ بنُ رَبيعةَ "ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ" قال عثمان بن مظعون "صدقتَ" فقال لبيد "وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائلُ" قال عثمان "كذبتَ، نعيم الجنة لا يزول" فقام سفيهٌ منهم فلطمه في عينَه فاخضرت. كان من أشد الناس اجتهادًا في العبادة، يصوم النهار ويقوم الليل ويجتنِب الشهوات ويعتزل النساء. واستأذَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في التبتُّل والاختصاء فنهاه عن ذلك. وهو مِمّن حرَّم الخمرَ على نفسه وقال "لا أشرَبُ شرابا يُذهبُ عقلي ويُضحِك بي مَن هو أدنَى مني". وهو أوّل رجل مات بالمدينة من المهاجرين، مات سنة اثنتين من الهجرة وهو أوّل مَن دُفن بالبَقيع. ولَمّا توفِيَ إبراهيمُ ابنُ النبي صلى الله عليه وسلم قال «اِلْحَقْ بسَلَفِنا الصالِح: عثمانَ بنِ مظعون». من أُسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج1/ص155. والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة ر5457.

الله صلى الله عليه وسلم حينَ مات، فأَكبَّ عليه ثم رفع رأسَه ثم حنّى الثانيةَ ثم رفع رأسه ثم حنى الثالثة ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرِفوا أنه يبكي، فبكَى القومُ. فقال صلى الله عليه وسلم «اِذهبْ عنها أبا السائب، فقد خَرجتَ منها و لم تَلبَّس منها بشيء!» رُوِّينا هذا من حديث أبي حامد بن جبلة بسنده إلى ابن عباس[84]. ورويناه أيضا من حديث أبي بكر بن مالك بسنده عن عبد ربه بن سعيد المدَني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظْعون وهو في الموت، فأكبّ عليه يقبِّله فقال «رَحِمَك الله يا عُثمان، ما أَصبتَ من الدنيا ولا أصابت منك!»[85] ناشَدتُك الله يا نفس، فنِعمَتِ النفسُ عَهِدتُكِ في الإنصاف مِن نفسك، خبِّريني؛ لو كنتِ في زمان النبي صلى الله عليه وسلم

---

[84] أخرجه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا سفيان بن وكيع، ثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن أبا النضر حدثه عن زياد عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان. ورواه أيضا في معرفة الصحابة. ومعنى قوله «لم تلبَّسْ منها بشيء»: لم تتلبَّس من الدنيا بشيء، أي أنه مات و لم يأخُذ من الدنيا إلا ما كان ضرورةً، والضرورة ليست من الدنيا لقول الله تعالى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة 3].

[85] أخرجه أبو نُعيم في الحلية قال: حدثنا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا سيار بن حاتم، ثنا جعفر –يعني ابن سليمان، ثنا أيوب عن عبد ربِّه بن سعيد المَدَني، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون.

على هذه الحالة التي أنت عليها اليوم وتَموتين، هل كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يفعل بكِ مثلَ هذا؟

قالت: أمَا لو جازاني على ما أنا عليه لَخِفتُ واللهِ أن يقول لأصحابه «صَلُّوا على صاحِبكم[86]!» بل أعتقِد والله في شأني أني أقْرب إلى قول الله ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِه!﴾[التوبة 84] مني إلى قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُم﴾[التوبة 103] هَيهات، كيف أرجو أن يُكِبّ عليّ أو يقبِّلني؛ بل كان يبكي علي شفقةً لِما يراه مِن سُوء حالي وشَرّ ما انقلَبتُ إليه! فيا ليتَه يُؤذَن له، صلى الله عليه وسلم، في الصلاة عليّ.

---

[86]. وذلك لأنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم لم يكن يصلِّي على مَن مات من المسلمين وفي رقبته شيءٌ ممّا لا يَحِقّ له. فعن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤتَى بالرّجُلِ الْمُتوَفَّى وعليه الدَّيْن، فَيَسأل هلْ تَرَك لِدَيْنِه قَضاءً، فإن حُدِّث أنه تركَ وفاءً صلَّى عليه، وإلا قال للمسلمين «صلّوا على صاحِبكُم» قال: فلما فتح الله على رسوله كان يصلي ولا يسأل عن الدَّين، وكان يقول «أَنا أولى بالمؤمنين من أنفُسهم؛ فمن تُوُفِّيَ من المؤمنين فَتَرَكَ دَينا أو كَلاًّ أَو ضَياعا فعليَّ وإِليّ، ومَن ترك مالا فلِوَرَثَتِه» أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي. وعن زيد بن خالد الجُهَني أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تُوُفِّيَ بَخيْبَرَ فذَكَروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «صُلُّوا على صاحبِكم» فتغيَّرت وجوهُ الناس لذلك، فقال «إن صاحبكم غلَّ في سبيل اللّه» ففتَّشنا في مَتاعه فوجدنا خَرَزًا مِن خرَز يهودَ، لا يساوي درهمين. أخرجه مالك وأبو داود والنسائي وأحمد.

غيرَ أن قوله صلى الله عليه وسلم في مَعرَض الثَّناء عليه «ما أصبتَ من الدنيا ولا أصابَت منك» أخاف أن يَكْنِيَ عن حُبّه إياها أنه ما سعَى لها ولا أصابت مِن قلبه تشوُّفًا إليها، ولكنه أتته من غير سَعْي لَها، فقَبِلها وتصرَّف فيها. فلبس منها الرِّقاق وأكل منها الرُّقاق وعَلا مَسكنُه، مع فَراغ القلب من ذلك؛ وهذا في القُدوَة جائِزٌ، مع القُدرَة عليه. ولقد رأيتُ في زماني هذا قومًا مِن أهل التَّمكين والتحقيق والْمَعارف قد فعَلوا مثلَ ذلك: أكَلوا الشهِيَّ من الطعام الغالِيَ ثَمنُه وشرِبوا اللَّذيذ مِن الشَّراب ولَبِسوا الرّفيع من الثياب، ورُبّما شيَّدوا البِناءَ وأَحكَموه ورفَعوا سُقوفَ بيوتِهم إلى حيثُ لا يَحتاجونَه. وذلك عن أمرهم بذلك أو عن استِحسانهم لذلك وسكوتِهم عليه. ولم يعدِلوا، بعدَ المعرِفة والتَّحصيل لِمَقام التمْكين، إلى ما كانوا عليه في بِداياتهم مِن ترْك الأسباب وطَرْح الرِّقاع بعضِها على بعض؛ فأخافُ أن لا يكون هذا كذلك. وقد قيل عنه «ما أصابت الدنيا منك شيئا ولا أصبت منها شيئا» مِن باب السعْي والكَدّ لها. فأوضِحْ لي شأنَه وكيف كان حالُه. وهذه الحالة التي رجَع إليها العارفون، هل هي خيرٌ مما كانوا عليه أم كانوا في حال فَقرِهم وتَقشُّفهم أحسنَ وأثبت؟

فقلت لها: نعم، أما حالُ عثمان بن مظعون هذا وحالة العارفين الذين ذكرتِهم من بَسط الدنيا، فروينا من حديث عبد الله بن أحمد بن إسحاق قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين قال: أخبرنا أبو الربيع الرَّشْدِيني قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن عثمان بن مظعون دخل

يوما المسجد وعليه نمرة قد تخللت فرقعها بقطعة من فروة فرقَّ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورَقّ أصحابُه لرِقّته فقال «كيف أنتم يومَ يغدو أحدُكم في حُلّة ويروح في أخرَى، وتوضَع بين يديه قِصعة وتُرفع أخرى، وسترتُم البيوتَ كما تُستر الكعبة!؟» قالوا "ودِدنا أن ذلك قد كان يا رسول الله، فأصبنا الرَّخاءَ والعَيش!" قال «فإن ذلك لَكائن وأنتم اليوم خير من أولئك!»[87] فهذا الحديث يا نفسُ قد أنبأنا عن الفريقين اللَّذَين سألتِني عنهما: هذا حالُ عثمان على ظاهره فقيرٌ في الدنيا، وهذا حال من توسّع في الدنيا من العارفين. قد جعل الله حالة الضِّيق والشِّدّة خيرًا للإنسان من الرَّخاء والسَّعة. وكأني واللهِ بكِ يا نفسُ

[87] أخرجه أبو نُعيم قال حدثنا أبي –أقول: وأبوه هو عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، الذي ذكره الشيخ الأكبر أوّل السنَد. وللحديث شاهد عند الحاكم ر6640 عن عروة بن الزبير عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا بقُباء ومعه نَفَرٌ، فقام مُصعَبُ بن عُمَيرٍ عليه بُردَةٌ ما تَكاد تُواريه ونَكَسَ القومُ. فجاء فسلّم فرَدُّوا عليه، فقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم خيرًا وأثنَى عليه، ثم قال «لقد رأيتُ هذا عند أبَوَيه بِمكَّةَ يُكرِمانه يُنَعِّمانه، وما فتًى مِن فِتيانِ قُريشٍ مِثلُه، ثم خرجَ مِن ذلك ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ ونُصرَةِ رَسوله. أمَا إنه لا يأتي عليكم إلا كذا وكذَا حتى يُفتَح عليكم فارسُ والرُّوم، فيَغدو أحدُكم في حُلَّة ويَروح في حلة، ويُغدَى عليكم بقَصعَة ويُراح عليكم بقصْعة» قالوا: يا رسول الله، نحن اليومَ خيرٌ أو ذلك اليوم؟ قال «بل أنتم اليومَ خيرٌ منكم ذلك اليوم، أما لو تَعلمون مِن الدنيا ما أعلمُ لاستَراحَت أنفسُكم منها!» وله شواهد غير ذلك عن علي عند الترمذي، وعن ابن مسعود وطلحة النضري.

تقولين: أرى أهلَ هذا المجلس، وهم الصحابة الأخيار، وهم العارِفون بالله الْمُتحقِّقون بحقائقَ الوُجود، لَمّا ذكر لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم صورةَ التنعُّم والترفُّه اهتزَّوا، وسألوا متى ذلك، وفرِحوا بهذا القدْر. فكذلك أنا أيضا أرضَى بهذه المنزلة، وكذلك العارفون الذين وسّعوا على أنفسهم دنياهم.

فقلت لها: ما أعماكِ عن نور مِشكاة النبوَّة الساطعةِ أنوارُها! فقالت: ألا تنظُرُ إلى كلامهم هذا ظاهرًا، لِتعلَمَ أنّ النعيم لا يَحجُب عن الله، ولا الشقاء والبؤس يحجُب عن الله، إذا كان الحقُّ غالبًا على قلب العبد؟! فإنه لا نعيمَ أشدُّ ولا أعظم من نعيم النبيِّين والأولياء في الجنة، في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ومناكحهم ومراكبهم ومُفاكهَتهم. ولا يحجُبهم ذلك عن الله ألبتَّة لسرَّين كبيرين.

قلت لها: فأنا مسلِّمٌ أن ذلك لا يحجُب عن الله، ولكن قال الرسولُ عليه السلام لتلك الجماعةِ، الذين قالوا "ودِدْنا أن ذلك قد كان فأصبنا الرَّخاءَ والعَيش" لِتحقُّقِهم بالله وعِلمهم أن الأحوال لا تحجُب عنه تعالى. وقولُه «إن ذلك لَكائن» يعني بَسْطَ الدنيا عليهم، مُبشِّرًا بفتح مُلك كِسرَى وقَيصرَ[88]، ثم قال لهم «وأنتم اليومَ خيرٌ من أولئك» فأشار بقوله «وأنتم» لعِصمَتهم من الدنيا، وإن فُتِحت في حياتهم، كأبي عُبيدةَ بن الجَرّاح وغيرِه رضي الله عنهم. وفي ذلك

[88] على عكس ما يظنُّه الناس، فإنّ الله سبحانه لم يفتَح الأرضَ للمسلمين، ولكنَّه فتح قلوبَ العالَمين للإسلام. فأهالي المشارق والمغارب تقبَّلوا دينَ الله الحنيف ورحَّبوا بإخوانهم العرب وغيرهم من المسلمين الحاملين لرسالة محمّد وأسكنوهم أراضيهم، بفضل الله ورحمتِه تعالى.

ترجيحُ الفَقر وشَظَف العيش على النعيم. فبيّن لهم هذا المقام ونبّههم على نَقْص ذاك المقام ونقص مَن اتّصف به. وإن أُبقيَت عليه مشاهدتُه ومعرفتُه؛ فإنه نعيمٌ استعجَله في غير مَوطنه وترفُّه استعمَله في غير موضِعه. وضعَ الحكمةَ في غير مَوضعِها، فعادت معرفتُه جهلا وكشْفه حِجابا وحقيقتُه خَيالا. ألم ترَي إلى الذي قال "لو كُشِف الغطاءُ ما ازددتُ يَقينا![89]" لعظيم الكَشْف. وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف اجتنب طيِّبَ الطعام وفهِم من كلام الله ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِها﴾[الأحقاف 20] أنه ينسحِب على كل إنسان من مؤمن وكافر.

أتُريْ يا نفسُ هذا العارف الذي وسِّع عليه في دنياه يكون أفقهَ من عمر بن الخطاب، وهو الذي وافق ربَّه في الأحكام، وقد شهد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أنه ليس من الباطل في شيء[90]؟! أجيبيني يا نفس، فإنك لا تَعدين

---

[89].جاءت هذه المقالة عن علي بن أبي طالب كما صرّح به الشيخ في غير موضع من الفتوحات، وهو الأقرب. ولكنّه نُسب إلى أبي بكر وإلى عمر بن الخطاب وإلى عامر بن عبد قيس وإلى الربيع بن خَيثَم، والله أعلم. ومعناها أن صاحبَها قد بلغ أعلى درجة من اليقين، وهو حق اليقين الذي هو أعلى مِن عين اليقين الذي هو أعلى من علم اليقين. فلا حاجةَ للمشاهدة بالعقل ولا بالعين إذا تمّ الشُّهود في القلب.

[90]. روى الحاكم في المستَدرَك ر6576 بسنده عن الأسود بن سريع التميمي قال: قدِمتُ على نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ "يا نبيَّ الله، قد قُلتُ شِعرًا أثنيتُ فيه على الله تبارك وتعالى ومَدحتُك" فقال «أما ما أثنيتَ على الله تعالى فَهاتِهْ وما مدَحتَني به فدَعْه» فجعلتُ

قَدرَك، لا أنت ولا العارفُ الذي وُسّع عليه! وإذ لا بدَّ من التأسّي، فحالةُ النبي أولَى، فهو الذي عاش في البؤس وضنَك العيش حتى رقّ له عمرُ لَماّ أثَّر شريطُ السرير في جَنبه، صلى الله عليه وسلم، فقال "تذكّرتُ كِسرى وقيصر!" فقال له عليه السلام «أما ترضى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»[91]

أُنشِدُه. فدخل رجل طُوالٌ أقنى فقال لي «أَمسِك» فلما خرج قال «هاتِ» فجعلتُ أنشِده فلم ألبث أن عاد فقال لي «أمسكْ» فلمّا خرج قال «هات» فقلت "من هذا يا نبيَّ الله الذي إذا دخلَ قلتَ «أَمسِكْ» وإذا خرج قلتَ «هات»؟" قال «هذا عمر بن الخطّاب، وليس مِن الباطِل في شيء!» والحديث عند أبي نعيم في الحلية وفي معرفة الصحابة وعند الطبراني في الأوسط والكبير.

[91] أخرج البخاري في تفسير القرآن من صحيحه باب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ، لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم. قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُم؛ وَاللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم﴾[التحريم 1-2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَكثتُ سنةً أُريدُ أن أسألَ عمر بنَ الخطاب عن آية، فما أَستطيعُ أن أسألَه هَيبةً لَه. حتى خَرجَ حاجًّا فخرجتُ معه. فلمّا رجَعنا وكُنّا بِبَعض الطّريق عَدَلَ إلى الأراك لِحاجَةٍ له، فوقَفتُ له حتّى فَرِغ ثم سِرتُ معه فقلت "يا أميرَ المؤمنين، مَن اللّتان تَظاهَرَتا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم مِن أزواجِه؟" فقال "تلك حفصة وعائشة" -وساق البخاريُّ الخبرَ إلى أن أخبر عن عمر كيف بلغَه خبرُ اعتزالِ رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم لأزواجِه- فقال عمَرُ: قلتُ "رَغِمَ أنفُ حفصةَ وعائشة!" فأخذتُ ثَوبي لأخرجَ حتى جئت، فإذا رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم في مَشرُبةٍ له يَرْقى عليها بِعَجَلة، وغلامٌ لرسولِ اللّه على رأس الدَّرَجَة، فقلتُ "قلْ: هذا عمرُ بن الخطاب" فأذِنَ لي رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم، وإِنَّهُ لعلى

أين أنت يا نفسُ من قول سلمان الفارسي على ما رُويناه من حديث أبي أحمد بسنده عن رجل من بني عبْس قال: صحبتُ سلمانَ، فذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى، فقال "إن الذي أعطاكُموه وفتحه عليكم وخوّلكم لَمُمسكٌ خزائنَه! ومحمد صلى الله عليه وسلم حيّ، لقد كانوا يُصبحون وما عندهم دينارٌ ولا مُدّ من الطعام؛ بِمَ ذاك يا أخا بني عبس؟!" ثم مررنا ببيادرَ تُذرَى فقال "إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخوّلكم لَمُمسكٌ خزائنَه! ومحمد صلى الله عليه وسلم حي، لقد كانوا يُصبحون وما عندهم دينار ولا مدّ من الطعام؛ بِم ذاك يا أخا بني عبس؟!"[92] فانظُري يا نفسُ كلامَ هذا الصاحب وشرحَه لحالة النبي صلى الله عليه وسلم وتقريعَه وتقريرَه في قوله "بم ذاك؟!"

ثم إنه لو كانت الدنيا تُنال على حسب المراتب عند الله من الرِّفعة لكانت كلُّها لرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا أرفعَ منه منزلةً عند الله ولا أرفع منه درجة

حصيرٍ ما بينَه وبَينه شيء، وتحت رأسه وِسادةٌ من أَدَم حَشْوُها ليفٌ، وإِنّ عند رِجليْهِ قَرَظًا مَصبورًا وعند رأْسِهِ أَهَبٌ مُعلَّقة، فرأيتُ أَثَرَ الحَصير في جنبِه، فبكَيتُ. فقال «ما يُبكيك؟» فقلتُ "يا رسولَ الله، إن كِسرَى وقَيصرُ فيما هما فيه، وأنت رسولُ الله!" فقال «أَما ترضَى أَن تكونَ لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟!» والحديث عند مسلم والترمذي والنسائي.

[92] قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغِطْريفي ومحمد بن عاصم، قالا ثنا أبو القاسم البَغَوي، ثنا علي بن الجَعْد، أخبرنا شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سمعتُ أبا البَختَري يُحدِّث عن رجل مِن بني عَبْس قال: صَحبت سلمان رضي الله تعالى عنه. وهو في مسند علي بن الجعد البغدادي، ورواه أيضا ابن عساكر في التاريخ من طريق ابن الجعدِ.

ونعيما في الجنة، وهذه حالتُه في دنياه. و لم يَرض لقُرّة عينه بنته فاطمةَ رضي الله عنها أن تَنال فيها راحةً ولا تَوسُّعا، وقد رأى أثرَ حبل القِربة في عنُقها مِن حَمل الماء وأثرَ الرحى من الطحين في يديها، وجاءه السبْيُ فلم يَر أن يُعطيها خادِمًا يَحول بينها وبين ذاك الشقاء الذي نزل بها، وأعطاها بدلَ ذلك تسبيحًا وتحميدا وتكبيرا، وقال «هو خير لكِ!» [93]

فأين أنتِ يا نفس، ويا هذا العارف؟! فلا الحقُّ تعالى رضيَها لنبيِّه ولا هو صلى الله عليه وسلم رضيَها لابنته ووَصيِّه. وإذ لم تقتدي بهذا النبيِّ ولا عرَفت تنزيل الحقِّ للمواطن، فقد خرجتِ عن حَدّ المعرفة بالله تعالى وحُبِّ حالة رسوله صلى الله عليه وسلم واتِّباعِه. ولا فائدةَ ولا تمييز للعارف عن غيره من العامّة إلا باستصحابه في حالتِه حالةَ النبي صلى الله عليه وسلم. وأما العامّة فانهمكت في الْمُباحات؛ فبِم تَميَّزت عنهم في ظاهِرك كما تدّعينه في باطنك؟! ألستِ تدرين يا نفس ليلةَ كنا عند أبي محمد عبد العزيز، المكتوبِ له هذه الرسالة، ونحن على العَشاء فتكلَّمنا في حالة الدنيا إذا أقبلت على العارف وتصرّف فيها، مع تعرِّي

[93] روى البخاري في الدعوات عن علي أن فاطمة عليهما السلام شَكَتْ ما تلقَى في يَدها مِن الرَّحَى، فأتَت النبيَّ صلى الله عليه وسلم تسألُه خادِمًا. فلم تَجده، فذَكرَت ذلك لِعائشةَ. فلما جاءَ أخبرَتْه، فجاءَنا وقد أَخذْنا مَضاجعَنا. فذهبتُ أَقوم فقال «مَكانَك» فجَلس بيننا حتى وجدتُ بَردَ قَدمَيه على صدري فقال «ألا أدُلُّكما على ما هو خيرٌ لكما مِن خادم؟ إذا أَوَيتُما إلى فِراشِكُما أو أَخذتُما مَضاجِعَكما: فكَبِّرا ثَلاثًا وثَلاثين، وسَبِّحا ثَلاثا وثلاثين، وَاحْمَدا ثلاثًا وثلاثين؛ فهذا خيرٌ لكما مِن خادِم» ورواه أيضا الترمذي وابن حبان وأحمد.

قلبِه عن التعلُّق بها، فقال رضي الله عنه "واللهِ ما يَستوي فَراغُ قلب عارفٍ عندَه دِرهَمان وفراغ قلبِ عارف عنده درهم؛ فصاحبُ الدرهم أفرَغُ من صاحب الدِّرهمين!" هذا حكم الشيخ أبي محمد عبد العزيز في هذا الحال، فكيف لو دخل معكِ في باب الْمَقام والأسرار؟! لكان يرميهم خارجا عن المعرفة؛ فإن الحقائق ترميه والموطن يَمجُّه.

حكاية: جاء رجل إلى سيِّدنا أبي مدين فقال له "يا سيدنا إن الشيطان يؤذيني، فعسَى أن تدفَعه عنّي!" فقال له الشيخ "قد شَكا إليّ إبليسُ منك قبلَك!" فقال "وما قال لك؟" قال "قال لي: يا شيخ، لَتعلم أن الدنيا خلقَها لي ربي وجعلها حِبالي وشَرَكي وملَّكنيها. فجاء فلانٌ فتعدَّى عليّ فيها وأخذ لي منها، فعدَوتُ وراءَه أطلُب حقّي منه. و واللهِ ما قصدتُ منهم إنسانا ولا طلبتُ منهم أحدا ولا برِحت من مكاني. أحفَظ عليّ بستاني ومالي، فمَن أخذ لي منه شيئا تبعته أطلُب حقّي. وقد عرفتُ أنّ فلانا يشكوني إليك فسبِقته وأخبرتك بالقصّة. وأنا لا أترك له حقي وأسلُبه مما أقدِر عليه من دينه أو يردّ إليّ متاعي، كما فعل الزُّهّاد والْمُوفَّقون، ولهذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِين﴾[الحجر 42] فما لي عليهم حُجّة ولا حقّ؛ فإنهم تركوا ما هو لي. وهذا تعدّى علي ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم﴾[البقرة 194] " مَن الظالم؟" فقال الرجل "أنا" فقال الشيخ "رُدَّ إليه دنياه يرُدّ إليك آخرتَك!"

هل قنِعت يا نفس؟ قالت: نعم. قلت: هذه عشرةُ شهودٍ كما شرَطتُ لك، قد وفَّيتُ بذكرهم؛ من خير القرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. و لم أجد لكِ قَدما مع أحد منهم، فلِمن اتّبعتِ أو بمن تأسَّيت؟ فقالت: اتبعتُ هَواي وتأسّيتُ بشيطانٍ مُدّعٍ في المعرفة مُكِبٍّ على الدنيا مثلي، فأثمر لي الدعوَى وعرّاني عن ملابس التقوى؛ وأنا أتوب إلى الله الآن وأتضرّع إليه في الوفاء والعدل في الميزان. وكما وفَّيت أنت بشهودك العشَرة ومنَنتَ عليّ بذلك، فقد وفّيتُ لك أيضا بالإنصاف والإقرار بالحق والاعتراف، و لم أُمارِ ولا دافعتُ الحق بل كنتُ سَلِسةَ القِياد، وذلك بتوفيق الله، وعصمني الله ممن قال فيهم ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا "هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" وَجَحَدُوا بِهَا، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم؛ ظُلْمًا وَعُلُوّا﴾[النمل 14] ولو عاندتُ وجحَدت لَما جنَيتُ على أحد إلاّ على نفسي. رزقني الله وإياك مِن تَوحيده والعلمِ به سبحانَه المراتب العليّة والمنازل القُدسيّة، حيث لا دَرَنَ ولا تدنيس ولا جهل ولا تلبيس، إنه عليم حكيم. فاشرع في النمط الثاني، فلقد لقيتَ سامعا مُطيعا!

* * *

فقلت: الحمد لله ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين﴾[الزخرف 13] فقالت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ؛ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقّ﴾[الأحقاف 43]؛ حَمدي يا سيّدي أسلمُ من تَحميدك؛ فإنك في معرَض الفِتنة من جهة التسخير، وحمدي على تحصيل الهداية والتيسير.

فقلت لها: صدقتِ، أَرْعِني سمعَك؛ هذا خيرُ التابعين بشهادة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، أعني أويسَ بن عامرٍ القرَني رضي الله عنه الذي أوصى به النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمرَ وغيرَه وذكره لهم. رُوينا من حديث أبي بكر محمد بن أحمد قال: حدثنا الحسن بن محمد قال: حدثنا عُبيد الله بن عبد الكريم قال: حدثنا سعيد بن أَسيد بن موسى قال: حدثنا ضَمرة بن ربيعة عن أَصبَغ بن زَيدٍ قال: كان أويسٌ القَرَنيُّ إذا أمسَى يقول "هذه ليلةُ الركوع" فيركَع حتى يُصبح. وكان يقول إذا أمسى "هذه ليلة السجود" فيسجُد حتى يصبِح. وكان إذا أمسى تصدَّق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول "اللّهمّ مَن مات جوعا فلا تؤاخذْني به ومن مات عُريانا فلا تُؤاخذني به!"[94].

ناشدتك الله يا نفس، هل اتَّصفت بهذه الحالة: قطعتِ الليل بسجدة واحدة ثم لم ترفعي حتى الفجر، أو ركعتِ فلم ترفعي حتى الفجر، واستصحبت أن لا تبيت إلا مثلَ هذا المبيت كما استصحبَه أُويسٌ وقلتِ لله مثلَ ما قاله؟ قالت: لا والله كل ذلك لم يكن، ولكنّه يلوح لي من وراءِ هذا الكلام بَوارق من الحقائق عسى أن تُنبِّهني عليها.

قلت لها: نعم أويس هذا كان مُتَمَكِّنا في مقامه على بيِّنةٍ مِن ربِّه وعلاَمة، عارفا بحركاته المستأنَفة، على يقين من تحصيل أحواله السالفة. فكانت ليلةُ السجودِ

[94] أخرجه بهذا السند أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن كثير في مسند الفاروق وابن عساكر في التاريخ وابن الجوزي في صفة الصفوة.

عندَه معروفةً وكذلك ليلةُ الركوع وغير ذلك من الأفعال، ومن هنا نعرِف تَمكُّنه. فإن أبا يزيد وهو من الأقطاب ومن كبار الأئمة لم يحصُل له هذا التمييز، فإنه كان يقول "إني أستقبل الليلةَ أطلبُ قطعَها راكعا وساجدا، فأقف في صلاتي فلا أركَع أو أركع فلا أسجد أو أسجد فلا أرفع[95]"، فكم بين مَن يأتي فيُصدّ وبين من يأتي يمشي فيُفتح له. فهذه حالة صلاة أويس.

وأما كونه يتصدَّق بطعامه وثيابه ثم يقول "اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به" فينبِّه على مَقامه الأعلى وقُطْبيَّته الْمُثلَى؛ وهذه حالةُ إمامٍ الوَقت. وصاحبُها على الغاية في المقام، فيعطي ما ملك ويتضرّع لِمَن استخلَفه على عبيده بالرحمة لهم والشفَقة عليهم. قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء 107] ولما دعا على مُضرَ جاءه جبرائيل فأَومَأَ إليه أن اُسكت، فسكت فقال «يا محمد، إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لعانا وإنما بعثك رحمة و لم يبعثك عذابا![96]» والْمُكمَّل مَن سبَقت رحمتُه غضبَه.

---

[95] لم أجده فيما بين يدي.

[96] أخرجه البيهقي في الكبرى وأبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران، قال: بينا رسول الله يدعو على مُضَرٍ إذ جاءه جبريل فأومَأَ إليه أن «اُسكُت!» فسكت، فقال «يا محمد، إن الله لم يَبعَثْك سَبَّابًا ولا لَعّانا، وإنّما بَعثَك رَحمةً و لم يبعثك عَذابا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ!﴾[آل عمران 128] قال: ثم علمه هذا القُنوتَ: «اللهم إنا نَستعينُك ونستغفرك

قالت النفس: يا سيدي اُرفُق عليّ ولا تعجلْ، فقد ظهر لي في مسألة أوَيسٍ هذا أمرٌ خرج الحلاّج فيه فوقَه؛ وذلك أن الحلاج رضي الله عنه قال مُخبرًا عن حالته "إذا قَعَدَ الرجُلُ عِشرين يومًا دونَ غَذاء، ثم جاءه طَعامٌ فعرَف أن في البلَد مَن هو أَحوَجُ منه لذلك الطعام فأكلَه و لم يؤْثِر به ذلك المحتاج؛ فقد سَقَط[97]" وهذا مقامٌ عالٍ كما رأيتَه. وهذا أويس رضي الله عنه ما كان يتصدّق إلا بفَضل طعامه وثِيابِه، فيأخذ حاجتَه أوّلا ثم يعطي ما يفضُل كلَّ ليلة عن قوته وهو يعلم أن ثَمّ جائعا و لم يعطه كما رأيته.

قلت: يا نفس ما أنتِ إلا اِعتَرَضتِ اعتراضَ مَن لا يَفري الحقائقَ، لأنكِ جهِلت المقام، فاسمعي الجوابَ واعلمي أن أُويسا هو الإمام الذي لا يُلحَق. لتعلمي أيّتُها النفس أن العارف إذا كان صاحبَ حال مثلَ الحلاج، فرَّق بين نفسِه وبين نفس غيره، فعاملَ نفسَه بالشِّدة والقهْر والعَذاب، وعامل نفسَ غيرِه بالإيثار والرحمة والشفَقة. وإذا كان العارفُ صاحبَ مقامٍ وتمكين وقوّة صارت نفسُه عنه أجنبيَّةً لا فرقَ عنده بينها وبين نفوس العالَم، فما يلزمه في حق نفوس الغير من الرحمة والشفقة، يلزمه في حق نفسه لكونها صارت عنه أجنبية، وارتفع هو عُلْويّا وبقيَت هي مع أبناءِ جنسها سُفلية؛ فلَزِمَه العَطْفُ عليها كما لزمه

ونؤمن بك ونَخضَع لك ونَخلع ونترك من يكفرك، اللهم إيّاك نَعبُد ولَك نُصلِّي ونَسجُد، وإليك نَسعَى ونَحفِدُ؛ نَرجو رحمتَك ونَخافُ عذابَك الجِدَّ، إنّ عذابَك بالكُفار مُلحِق».

[97] لم أجده.

على غيرها. فإن صاحبَ الصدقةِ العارفَ إذا خرج بصدقته ولقِيَ أوّلَ مسكين يدفع الصدقةَ إليه، فإن تركه ومضى إلى مسكين آخر ولم يدفع فقد انتقل مِن رِضا ربه إلى هوى نفسه وخرج من ديوانهم. فإنها مثلُ الرسالة، لا يَخُصّ بها شَخصًا دون شخْص، أوَّل مَن يلقاه يقول له: قل "لا إله إلا الله".

ولا نشُكّ أن هذا العارف إذا وهبَه الباري رِزقًا يعرِف أنه مرسول به إلى عالَم النفوس الحيَوانية، فيَنزل مِن حضرة عقله إلى أرض النفوس ليؤدِّيَ إليهم ذلك القدرَ الذي وُجّه به. فأول نفس تلقاه نفسُه، لا نفسُ غيره. وسبب ذلك أن نفوسَ الغيرِ غيرُ ملازِمةٍ له ولا مُتعلِّقةٍ به لأنها لا تعرِفه. ونفسُه مُتعلقةٌ به ملازمةٌ لبابه فلا يفتَحه إلاّ عليها، فتطلب أمانتَها منه، فيقدِّمها على غيرها لأنها أوّل سائل. وإلى هذا السر أشار الشارع صلى الله عليه وسلم بقوله «اِبدَأ بنفسك ثم بِمَن تَعول»[98]. و"الأقْرَبون أَولَى بالمعروف"[99] لتعلُّقهم بك ولُزومِهم بابَك،

---

[98] قد جمع الشيخ هنا بين حديثين مستقلّين. قال سراج الدين ابن الملقِّن: هذا الحديث يتكرَّر على ألسنة جماعات من أصاحبنا، كالإمام والغزالي وصاحب المهذب وغيرهم، ولم أره كذلك في حديث واحد؛ نعم في صحيح مسلم من حديث جابر «اِبدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضَل شيءٌ فلأهْلك» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال «أفضلُ الصدقة ما كان عن ظَهر غِنًى، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول». 'البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير' ج5/ص626، دار الهجرة، الرياض. أقول: صحّ الحديث الأوّل عن جابر بن عبد الله عند

والغير لا يتعلّق بك ولا يلازمك ملازمةَ نفسك وأهلك؛ فلما تأخَّروا أُخِّروا. كما هي الأسرار سواءً: تخرج من عند الحق على باب الرَّحمة فأيُّ قلبٍ وُجد مُتعرِّضًا سائلا عند الباب دُفع إليه حظُّه من الأسرار والحكَم، وحظُّه منها على قدْر ما يُرى فيه من التعطُّش والجوع والذِّلة والافتِقار، وهم خاصَّةُ الله. وإلى هذا المقام أشار المشايخ وعليه حرَّضت الشريعة بقولها «تعرّضوا لنفحات الله»[100] و«مَن تأخَّر أُخِّر»[101] ومن نَسي نُسي.[102]

مسلم والنسائي وابن حبان، والثاني عن أبي هريرة عند البخاري وأبي داود والنسائي، وله شواهد عن أبي أُمامة الباهِلي وحكيم بن حزام وغيرهما.

[99] خِلافًا لما يظنُّه كثيرٌ من الناس "الأقربون أولى بالمعروف" ليست قرآنًا ولا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلَّم. إنما هي مقالَة اشتهرت على الألسنة، ولم تأت في دواوين الإسلام لا بسند ولا بغير سند. كما بيَّنه السخاوي والحوت والعجلوني.

[100] روى الطبراني في المعجَم الكبير ر519 عن محمد بن مسلمة الأنصاري، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ لِربِّكم في أيّام دَهرِكم نَفَحاتٍ، فتَعرَّضوا لها لعلَّه أن يُصيبكم نَفحةٌ منها فلا تَشقَون بعدَها أبَدا!». وهو في الأوسط له أيضا وعند الدُّولابي في الكِنَى والأسماء. وقال العراقي في تخريج الإحياء: الترمذي الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة، ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة. واختُلف في إسناده. المغني عن الأسفار ر548.

[101] روى البخاري في العلم عن أبي واقدٍ اللَّيثي أنّه قال : بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد والناسُ معه، إذْ أقبَل ثلاثةُ نفَر. فأقبل اثنان إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد. فَوقَفا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدُهما فرأى

فانظري كَم بين الْمَترِلَتَين: مترلةِ الحَلاّج ومَترلةِ أُويس. وانظري هذا المقام، على علوّه وسُموِّه، كيف اشترك في الظاهر صاحبُه مع أحوال العامَّة. فإن العامة أوّلَ ما تجود، على نفسِها وحينئذ يتعدَّى جودُها إلى غيرها؛ وإنما يتصرَّفون تحت حُكم هذه الحقيقة وهم لا يشعرون. ولَما أُعموا عن هذا السرّ وصاروا مثلَ البهائم، لا يعرفون مواقع أسرار العالَم مع الله تعالى، حُرِّضوا على الإيثار ومُدحوا به. وهو مقام الحلاج الذي ذَكرتِ عنه ورأيتِ أنه غاية. فهكذا فَلْتُغزَل الحقائقُ وتُحاك حُلَلُ الرقائق![103]

قالت النفس: هذا شيءٌ والله ما قرعَ قطُّ سمعي من غيرك؛ وإن هذا للحق المبين ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُون﴾[الصافات 61] ﴿فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون﴾[المطففين

فُرْجَةً في الحَلْقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلسَ خَلْفَهم، وأما الثالث فأدْبَر ذاهِبا. فلما فرِغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال «أَلا أُخبِرُكم عن النَّفَر الثلاثة؟ أمّا أحدُهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخَر فاستَحْيى فاستحيى اللهُ منه، وأما الآخر فأعْرَض فأعرضَ اللهُ عنه». أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ومالك.

[102] إشارةً إلى قول الله تعالى ﴿نسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾[التوبة 67].

[103] هذه إشارةٌ من الشيخ الأكبر مناسِبة لاسم الحلاج ومَقامِه. أمّا اسمُه فمشتقٌّ من صِناعة القُطن الخام، فيُقال: حَلَجَ الحلاَّجُ القُطنَ إذا نقّاه مِن الحَبّ وما علِقَ به ثم ندفَه ونفَشَه. وهذه صَنعة أدنى من الغَزْل، حيث أن الغزّال يجعل من القطن المحلوج خيوطا تصلُح للنسيج والحياكة. وأما مقام الحلاَّج بين العارفين فإنّه كصَنعة الحَلج بالنسبة للغزل والحياكة، فهو أدنى من ذلك. لذا وصفه بأنَّه صاحبُ حال، أي أنه متلوّنٌ غيرُ متمكّن.

26]! لقد شرحتَ صدرًا ورفعت في المعارف قَدْرا. ولكن بقيَتْ عليك في المسألة تَمْشِيَةُ إيضاحِ حقيقةٍ، وهي لعمري دقيقةٌ. وهي قولُك أن الله بعثَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقد اُستُسقيَ فاستَسقَى فسُقِيَ، ثم استُسقيَ في العام الآخر فأَبَى وقال «أغَيثٌ كغيث الكفّار؟!» فاختار لهم الشدَّة على الرَّخاء، وهو من باب بَسْطِ العَذاب وقَبض الآلاء. قلت: صدقتِ يا نفس، قد أثبتُّ ذلك في 'المحجَّة البيضاء'. قالت: فأَودعني إياه في هذه العُجالة الغرّاء.

قلت لها: نعم، خرّج مالك في مُوطَّئه عن شَريك بن عبد الله بن أبي نَمِرٍ عن أنس بن مالك أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسول الله هلكت المواشي وتقطّعت السبُل، فادعُ الله!" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمُطِرنا من الجمعة إلى الجمعة، فجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسولَ الله تهدّمت البيوت وانقطعت السُّبل وهَلكت المواشي!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهمّ ظُهورَ الجبال والآكام وبطونَ الأودية ومَنابتَ الشجر!» قال فانجابت عن المدينة اِنجيابَ الثَّوب[104]. يا أهلَ القلوب المحجوبة عن الاطِّلاع على ما أُودِع في هذه الألفاظ من الغيوب:

لقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا ولكن لا حياةَ لِمَن تُنادي!

أُعطي هذا السَّيِّد العَلَمُ صلى الله عليه وسلم مِفتاحَ الْمَنعِ والعَطاء، والشدَّةِ والرَّخاء؛ فاستسقى واستصحى، وأثبَت ومَحا. ثم لازم الأدب بعد هذا فقال

---

[104] رواه مالك في الاستسقاء من الموطّأ وهو عند البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي.

"أَغَيْثٌ كغَيثِ الكُفّار؟!" فردّ السائلَ بسؤاله، حِكمةً أجراها مُرسلةً ومَرْتبةً أبداها مُكمَّلَة. وأجاب الأولَ على غاية الاستيفاء حتى يكون في المنع كما كان في العطاء. ثم إذا نظرتَ حقيقةَ هذا المنع وجدته عَطاءً. فملَك الوجودَ كما هو عند المِلك وخدَّم في ذلك كل مسخَّر وملَك.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ في قلوبٍ ماتت في صدورها وخْزا فلا أُحسّ منها من أحد ولا أسمع لها رِكْزا! هذا نبيٌّ مُكرّم ورسول مُمَجَّد مُعظَّم قام خَطيبا في شأن أداء فرضِه، وجاء إليه رسولٌ من أهل أرضه، فرغِب إليه في نَقضِ إبرامه لِما تحقّق مِن مرتبته عند علاّمه. فألقَى ظهرَ الكفِّ إلى السماء وَصْفًا في الحالة العمياء لمّا كان الكفُّ مَحلَّ العطاء، ولم يفعل ذلك في الإستصحاء، فأسبَل رِداءَه الجوُّ وتَموَّج من حينه الدَّوّ، فكان نِكاحا مَعنويا، وكان السَّيِّدُ شاهِدًا ووَلِيّا. فلما صحّ الانتِظام ووَقع الالْتِحام، درَّت الضُّروعُ واخضَرّت الزُّروع.

هيهاتَ واللهِ، بعدَ تقطُّب وبَسالة وسُتور مَسدولة دون عين الغزالة، واغبرار وإقتار وخشوع وافتقار كما قال الْمُهَيمِنُ الجبّار ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾[فصلت 39] فأشفقت لها السماءُ لَمّا أبدت مُقلتَها مِن خُشوعها دامعة فلاحت بين الخُشوع والدموع الرَّوضاتُ اليانعة. أين أهلُ الفرَح والدَّعة وأرباب الثروة والسَّعة؟ والله والله، لا نالوا شَمّةً مِن روائح الوُجود ولا اِسْمًا من أسماء الْمَعبود إلا بِبَذْل الْمَجهود وصِحّة المَقصود وتَفطُّرِ الكُبود وخشوع

الجوارِح وتقصُّف الجوانِح، وإقامة المآتم والمَنائح والهَمهَمة في المحارِب بالقرآن والتعرُّض بتوفير الهِمَّة وصِدق التوجُّه للرَّحمن في رِيِّ الظَّمآن!

ناداني الحقُّ في سِرّي «عَبدي وابنَ أَمَتي وعبدي، وعِزَّتي وجَلالي ومَجدي وعَظيمِ سُلطاني وعُلوِّ جَدّي؛ لا نالَ مَعرفتي أحدٌ ولا يَنال ما عندي مِن جَزيل وَعْدي إلا حتى يتَّصِفَ في هذه الدار الدنيا بما اتَّصفَ به أهلُ الشَّقاء في الدار الآخرة، مِن الخُشوع ذِلَّةً وافتِقارا والبُكاءِ دَمعا مِدْرارا والزَّفَرات الْمُتصاعِدَة وتَنضيجِ الجُلود وتَضييق الكُبود وتنغيصِ العَيش النَّكيد. بهذا حلَّيتُ أَوليائي وأنبيائي لِما سَبق لَهم عِندي من السعادَة بعدَ جُهدٍ ومُكابدة وجُوع وشَدِّ الأحْجار على البطن!» قاساه الرسولُ السيدُ المُطيع، حتى فُتح له مع أصحابه في لَبَنٍ وتَمرٍ دون لَحمٍ ولا خُبزِ بُرّ، قال لأصحابه «إنكم لتسألُنّ عن نعيم هذا اليوم!»[105] فنغَّصَ عليهم عَيشَهم على قِلَّتِه وأخْذِهم له على فاقَةٍ.

---

[105] روى مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال «ما أَخرجكُما من بيوتِكما هذه الساعة؟» قالا "الجوعُ يا رسولَ الله" قال «وأَنا، والذي نفسي بيده، لأخرَجَني الذي أخرجكما، قوموا!» فقاموا معه. فأتى رَجُلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأةُ قالت "مَرحبًا وأهلا" فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «أين فلان؟ قالت "ذهبَ يَستعْذِبُ لنا الماءَ" إذْ جاء الأنصاريُّ فنظرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحِبَيْه، ثم قال "الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضْيَافًا مني!" فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتَمرٌ ورُطَب، فقال "كُلوا!" وأخذَ الْمُدْيَةَ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِيَّاكَ والحَلُوبَ!» فذبح لهم، فأَكلوا من

فأحوال الدارَين مَعكوسةٌ وصِفاهما منكوسة، «حُفّت الجنة بالْمَكارِه» وهي ما يُقاسيه المؤمنُ في الدنيا والكافر في العُقبَى «وحُفَّت النار بالشهَوات»[106] وهي ما يلتذّ به الكافر في الدنيا والمؤمنُ في العُقبى. فانظُري في أي حِزب تكونين! "خلقتُ الدنيا وخلقت لها أهلاً وجعلتُ النارَ لهم مَوطِنا، وخلقتُ الآخرةَ وخلقت لها أهلا وجعلت الجنة لهم مَقيلا ومَحلَّ رؤيتي مُستَقَرًّا ومَسكَنا. ملَّكتُ الدنيا مَن سبقَت عليه كلمَتي بغَضبي القاصِم ولَعنتي فطردَتْه السابقةُ من باب رحمتي، وملَّكتُ الآخرةَ كلَّ خاشع أوّاه جدّ في مَسراه وضمَّر بطنه للسباق وخاف من حَسرة الاستباق، فإنه طلْقٌ أنا غايتُه، ورؤيةُ كريمِ وجهي والتنَزُّهُ فيه نهايتُه. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُون﴾[الواقعة 10] تسابَقوا على نُجُب الأعمال وتحقَّقوا بحقائق الْمَقامات والأحْوال، فوَصَلوا إلى مُشاهدَة الجَلال والجَمال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر 10] فهو بُراقه

الشاة ومن ذلك العِذْقِ وشرِبوا، فلما أَن شَبِعوا ورَوُوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر «والذي نفسي بيده، لَتُسْأَلُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة، أَخرجَكم مِن بيوتكم الجوع، ثم لم تَرجِعوا حتى أَصابَكم هذا النعيمُ!» ورواه الترمذي وذكرَه مالك بلاغا من غير إسناد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم من الموطّأ. أقول: هذا الذي وجدتُه، وليس فيه أنّهم ما تناولوا سوى لَبنٍ وتَمر دونَ لَحم ولا خُبز كما ذكره الشيخ، والله أعلم.

[106] عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «حُفّت الجنَّةُ بالْمَكارِهِ، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات» رواه مسلم والترمذي والدارمي وأحمد.

الذي أُخرجُه مِن عندي فإلَيّ يُرجعِه، لأن قولَهم ﴿بَلَى﴾[107] عملٌ مِن الأعمالِ وعندي؛ يَجدونَه إذا رجَعوا مِن غيرِ نَقصٍ ولا اختِلال."

---

[107] روى مالك في القَدَر من الموطّأ عن مسلم بن يسار الجُهَني أنّ عُمرَ بنَ الخطّاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟! قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا! أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين!﴾[الأعراف 172] فقال عمرُ: سمعتُ رسولَ الله يُسألُ عنها فقال صلى الله عليه وسلم «إنّ الله تبارك وتعالى خلق آدمَ، ثم مَسَحَ ظَهرَه بِيَمينه فاستَخرَج منه ذُرِّيَّةً فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون! ثم مسح ظهرَه فاستخرج منه ذريةً فقال خَلقْتُ هَؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون!» فقال رجلٌ "يا رسولَ الله، ففيمَ العملُ؟" قال «إنّ الله إذا خلقَ العبدَ للجنَّةِ اِستَعمَلَه بِعمَلِ أهلِ الجَنة حتى يَموتَ على عَملٍ مِن أعمالِ أهلِ الجنّة فيُدخِلُه به الجنةَ، وإذا خلقَ العبدَ للنارِ استَعمَلَه بعمَل أهلِ النار حتى يَموتَ على عَملٍ مِن أعمالِ أهل النار فيُدخِلُه به النارَ»اه. قال أبو القاسم عبد الكريم بن هَوازن القُشيري في تفسيره: أَخبرَت هذه الآية عن سابق عهده وصادِق وعده وتأكيد عِناجِ وُدِّه بتعريف عبده، فأجابهم بتحقيق العِرفان قبلَ أن يقع لِمخلوق عليهم بَصَرٌ أو ظهر في قلوبهم لِمصنوع أَثَر أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبَر. جمعهم في الخطاب ولكنه فَرَّقهم في الحال: فطائفةٌ خاطَبهم بوصف القُربة، فعرَّفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرْقةٌ أبقاهم في أوطان الغَيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم. لاطَفَ أقوامًا في عين ما كاشَفَهم فأقرُّوا بنَعت التوحيد، وآخرون أبعدَهم في نفس ما أشهدهم فأقرُّوا عن رأس الجُحود. تجلَّى لقوم فتولَّى تعريفَهم فقالوا ﴿بَلَى﴾ عن حاصل يقين، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم في أوطان الجَحْد فقالوا ﴿بَلَى﴾ عن ظنٍّ وتَخْمين. لطائف الإشارات ج2/ص223، موقع التفاسير.

نُكتة بإشاراتها مِن خلف سِتاراتها ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفا﴾[النساء 28]: قام السيِّدُ صلى الله عليه وسلم على أعوادِه ساعةَ إشْهادِه، فقيل له لَما طُلب منه الاِستِصحاءُ "أنعمتَ فأبليتَ، وبالغت في التكحيل لإزالة الرمَد فأعميت!" فاهتز قضيبُ البان عبدُ الله صلى الله عليه وإن شئت قلتَ عبدُ الرحمن، وجال في ميدان الاستخلاف وأراد الجنوح إلى فئة الائتلاف من فئة الاختلاف، ووقف في برزَخ الاعتدال بين وزيرَي الجلالِ والجمال فـــ﴿غِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَت﴾ السفينةَ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾[هود 44] الخاشِعِ حينَ وُصف غيرُه بالْمُتطاوِل لها وهو بالْمُتَواضع، حكمةً أبداها وسَريرة أخفاها. وكيف ولا يُنال ما عنده إلاّ بتطاول الهِمَم وإبرار الْمُقْسِم مِن أَجْل القَسَم؟!

فانجابت حتى صاروا منها في مثلَ الإكليل[108] وهي هالَة، لَمّا كانوا أهلَ وجهٍ واحد في أصل السُّلالة. فلو رأَوا مِن وراء ظهورهم وعن أيماهم وعن شمائلهم

---

[108] قال أبو يعلى الَموصليُّ في مسنَده ر3509: حدثنا زُهير حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أَنَسٍ أن الناس قالوا "يا رسول الله، هلك المال؛ قحِطنا، يا رسول الله، وهلك المالُ. فاستسق لنا!" فقام يومَ الجمعة وهو على المنبر فاستسقَى –ووصف حَمّادٌ بَسْطَ يدَيه حِيالَ صدرِه وبَطنُ كفَّيه مِمّا يلي الأرضَ– وما في السماء قَزَعَةٌ فما انصرفَ حتى أَهَمَّت الشابَّ القويَّ نفسُه أن يَرجِعَ إلى أهلِه. قال: فمُطِرنا إلى الجُمُعة الأخرى. فقالوا "يا رسولَ الله، تَهدَّمَ البُنيانُ وانقَطَع الرُّكبان، فادعُ الله أن يَكشِفَها عنّا!" فضحِك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال «اللَّهُمَّ حَوالَينا ولا عَلينا!» قال: فانجابت حتى كانت المدينة كأنها في إكليل. ورواه أحمد وصححه الأرنؤوط.

مثلَه لرأوها كالهالة أو كالكِلّة. وقد ورد "انجابت انجيابَ الثوب" لإظهار ما في الغيب بانجياب الشَّوب وارتفاع الشكّ والرَّيب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ثم ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح 5]. أوّاه ثم أواهْ على أسرار تَظهر وأقمار تُزهر ولا عيونَ تُبصِر ولا ألبابَ تشعُر![109]

غار صلى الله عليه وسلم أن يُتَّخذ من دون الله رِفْدًا وأن يُصمد إليه في الحوائج صَمْدا، لَماّ كان الحقُّ إلى جميع العبيد أقربَ من حبل الوريد[110]. ثم أسدل بيننا

---

[109] شَكوَى الشيخ تعبِّر عن أسَفه الشديد على غفلَتِنا مع وُضوح الأمر الإلَهي وجَلائه التامّ، ولكن كيف يَظهر الحقُّ لقلوب صَدئة. علينا بصَقلِها لتُصبح قلوبُنا قابلَة للنور الإلَهي.

[110] أي أقرب شيءٍ إلى نفس الإنسان وذلك قولُه تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقيل بأن حبل الوريد وَرِيدان غليظان يكتنفان الحُنجرَة والتي هي مَمرّ الهواء، وكذا المريء والذي هو ممرُّ الطعام، فالوريدان ممرّ الدّم مِن وإلى الدِّماغ، حيث مركَز القَرارات الإراديّة، فهما عن يمين العُنق وعن شمالِه ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ والمتلقِّيان هما الملَكان اللَّذان عن يمين الإنسان وعن شِمالِه، فهما جَليساه اللذان لا يبرحانْه فيتلقَّيان كلَّ ما يقولُه ويكتُبان كلَّ أعمالِه، وذلك قولُه تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾[ق 16-18] ولهذا علاقة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّم» والوَسوسة وإن كانت هنا من النَّفس فمصدرُها الشيطان خاصَّة، ثمّ النفس هي التي تعطي الأمر بالتكلم. فكأنّ الوريدين ألصقُ شيء من الجسد بالنَّفس أو أقرب شيء من الجسد بمحلّ النَّفس. وهناك تفسير آخر لهذه الآيات في ضوء الطب الحديث: وذلك أن حبل الوريد لا يمكن أن يكون عِرقًا دمويًّا في العنُق، لأن الحبل لا يكون مُجوَّفا وبالأحرى

أنبوبا دمويّا. فالذي يبدو أن حبل الوريد إنما هو جِذْعُ الدِّماغ، وهو الكتلة الدماغية الموجودة بين الْمُخّ والنُّخاع الشوكي. أما وظائفُه فكثيرة، منها أنّه محلّ مراكز التنفُّس وتنظيم الضغط الدموي والنَّبض القلبي. وكذا مركز نقل الأوامر من المخ إلى أعضاء الجسم ونقلِ المعلومات الحِسِّية من أعضاء الجسم إلى المخ، فإنه يستلم المعلومات من الأجهزة السمعية والبصرية والشَّمية ثم يورِدها إلى المخ. وله أيضا التحكُّم في وظائف الجسم الإرادية والغير إرادية، ومن وظائفه أيضا المحافظة على الوعي والانتباه والتيقظ والنوم والإحساس بالألم واللّذة. أما الوسوسة فهي الخواطر التي تَرد على الإنسان دون أن يستطيع أن يتحكّم فيها، بل هي ما نسمِّيه حديثَ النفس والذي له علاقة مباشرة بالذِّهن والضمير أي باطن الدماغ الغير مادّي. يعتبر جذع الدماغ حبلاً لأنه يربط نصفَي كرة المخ بالنخاع الشوكي ويصل بين الإرادة واللاّ إرادة. ثم هو وريدٌ لأنّه يورد الخواطر والحوافز والمعلومات من وإلى الدماغ. الحاصل أن جذع الدماغ هو المركز الذي ترِد فيه الخواطر على الإنسان والذي تنشأ فيه الإرادة والذي تصدُر منه الأوامر للجوارح، لتصير أفعالا قوليّة أو عمليّة. فقد أخبرنا الله تعالى بأنّه أقرب إلى الإنسان من هذا المركز. وإن كانت الوسوسة من النفس فلا شكّ أن مصدرها إنما هو الشيطان، ومن ذلك ما بلغنا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافِيَةِ رأسِ أَحدِكُم إذا هوَ نامَ ثلاثَ عُقَد، كلَّ عُقْدَة مكانَها "عَليكَ ليلٌ طويل فارقُد!" فإن اِستَيقَظَ فذكَر الله اِنحلَّت عُقْدةٌ، فإن توَّضأَ انحلَّت عقدة، فإن صلّى انحلَّت عُقَدُه كلُّها؛ فأصبحَ نَشيطًا طَيِّبَ النَّفْس، وإلاّ أصبحَ خبيثَ النفس كَسْلانَ» أخرجه الجماعة إلا الترمذي. وتلك هي الوسوسة في مراحل تَحوُّلِها من خاطر إلى همّ ثم نية ثم عَزم ثم إرادة ثم فعل من حركة أو قول. فهاتان نُبذتان مما في الآيات من إعجاز علمي وبياني. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وبينه حجابَ الرسالة وجعل بيدها مفاتيح الكَفالة، وكتب لهم بها مرسوم الوَكالة، فنظرت القلوب إلى أيديهم وما برِحوا وسطَ ناديهم؛ فإذا انقضت الحوائج أسرعوا في الإدلاج. يا لها من حسرة ويا شؤمَها من فَترة حيث لم يقدُروا قدره!

الواحد ضُمن له همُّه، ومع تصحيحه لذلك فاته يومُه، فعاش على النِّصف من عمُره؛ وبهذا زاد الصدِّيق على عُمَره. والآخر أشرك في تحصيل الأبناء تعميرَ الوِعاء. حتى كأن الجميع ليس لهم خالق وأن هذا الرسول هو الواحد الرازِق. رضي الله عن الصِّدّيق الأكبر، صاحبِ السرّ العلَم الأزهر، في قيامه على منبر الطَّرْفاء يومَ الداهية الدَّهياء بموت سيد الأنبياء، محمد صلى الله عليه وسلم، أمينِ الأُمناء وعلَم الاهتداء، وقد ذَهِلَ مَن كان عندنا أقوَى الأقوياء، فما ظنُّك بالضعفاء؟! وصالَ الرفيقُ الأَسِيف، على مذهب السيدة الحُمَيراء[111] لِما كان

---

[111] السيدة الحُمَيراء هي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. كثيرًا ما كان يُناديها النبيُّ صلى الله عليه وسلّم «يا حُمَيْراءُ» كما يقول العرب "امرأةٌ حمراءُ" ويَعْنون البيضاءَ من النساء. من ذلك ما رواه الحاكمُ ر4610 عن أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قالت: ذَكَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خروجَ بعضِ أمَّهات الْمُؤمنين. فضَحِكَت عائشةُ فقال «اُنظُري يا حُمَيراءُ أن لا تكوني أنتِ!» ثم التفتَ إلى عليٍّ فقال «إن وُلِّيتَ من أمرِها شيئًا فارفُقْ بها!» أما الأسيف فأبو بكرٍ أبوها، والرَّجُل الأَسِيفُ هو الشَّديدُ الحُزن والبُكاءِ مِن الأسَف وهو الحزن. كذلك وصفته ابنتُه عائشة، كما جاء في صحيح البخاري: قالت عائشة: لَمّا مَرِضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مرضَه الذي مات فيه، أتاه بلال يُؤذِنه بالصلاة فقال «مُروا أبا بكر

يظهر عليه من شِدّة التلهُّف والبكاء، فكان أضعفَهم عينا وأقواهم في صَميم السُّوَيداءِ، فقال "أمّا بَعد، فمَن كان منكم يَعبُد محمَّدا؛ فإن محمدًا قد مات! ومن كان منكم يعبد الله؛ فإنّ الله حيٌّ لا يَموت!" ثم تلا استشهادًا على مقالته الزهراء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم؟! وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾[آل عمران 144] ثم أردفها بقوله جل ثناؤه في الآية الغراء ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُون﴾[الزمر 30][112] ثم خاطب جميعَ الخُصَماء.

فَلْيُصَلِّ بالناس!» قلتُ "إن أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ، إن يَقُمْ مَقامَك يَبكي، فلا يَقدِرُ على القِراءَة" فقال «مُروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ!» فقلتُ مِثلَه، فقال في الثالثة أو الرابعة «إنَّكنَّ صَواحِبُ يوسُفَ؛ مُروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ!» فصلّى وخرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُهادَى بين رَجُلَين، كأني أنظُر إليه يَخُطُّ بِرجْلَيه الأرْضَ. فلمّا رآه أبو بكر ذَهَبَ يتأخَّرُ فأشارَ إليه أن «صَلِّ!» فتأخّر أبو بكر رضي الله عنه وقعدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى جَنبِه وأبو بكر يُسْمِعُ الناسَ التَّكبيرَ. والحديث عند مسلم ومالك والترمذي والنسائي.

[112] خرَّج البخاري والنسائي وغيرُهما الحديثَ من دون زيادة الآية 30 من سورة الزمر. ولكنها وردت فيما رواه أبو بكر البزّار في مُسنَده ر74، قال: حدَّثنا عليُّ بن المنذر قال: حدثنا محمد بن فُضيل قال: حدثني أبي عن نافعٍ عن ابن عمرَ قال: لَمّا قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، كان أبو بكرٍ رضي الله عنه في ناحيَة المدينة. فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوَضع فَاهُ على جَبينِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فجَعل يُقبِّلُه ويقول "بأبي أنتَ وأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا ومَيِّتا!" فلما خَرج مَرَّ بِعُمَرَ رحمةُ الله عليه وهو يقول "والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يَموت حتى نقتل المنافقين!" وقد كانوا اِستَبشَروا بِمَوت

فهذه القوّة الإلَهية من زُهده في القُوت[113]، وسَوقه جميعَ ما ملَكته يدُه لله ورسوله[114]، فملّكه مِفتاح التابوت؛ فمن غِيرته عليه وأمانتِه إخفاؤُه إياه إلى يومِ

رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ورفَعوا رؤُوسَهم. فمَرّ به أبو بَكرٍ فقال "أيُّها الرجل، اِرْبَع على نَفسك؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات! ألم تَسمَعِ اللهَ تَبارك وتعالى يقول ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون﴾[الزمر 30]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ؛ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُون؟!﴾[الأنبياء 34]" وأتى الْمِنبَر فصَعَدَ، فحَمِدَ اللهَ وأَثنَى عليه، ثم قال "أيُّها الناس، إن كان محمدٌ إلَهَكم الذي تَعبُدون، فإنّ إلَهَكم قد مات! وإن كان إلَهَكم اللهُ الذي في السَّماء، فإنّ إلَهَكم حَيٌّ لا يَموت!" ثم تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم؟! وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾[آل عمران 144] ثم نَزَلَ وقَدِ اسْتبشَرَ الْمُؤمِنون بذلك واشتَدَّ فَرَحُهم. وأخذَ الْمُنافِقين الكَآبَةُ. قال عبد الله بن عمر: والذي نفسي بيده، لَكأنَّما كانَت على وُجوهِهِم أَغطِيَةٌ فكُشِفَت! انتهى. قال البزّار: وهذا الحديث لا نَعلم رَواه عن نافع عن ابن عمر إلا فُضَيلُ بنَ غَزْوانٍ. قلتُ والحديث عند ابن أبي شيبة في الْمُصنَّف ر38176 قال: حدثنا ابنُ فضيلٍ عن أبيه عن نافع. والفضَيل هو ابن غزوانٍ الكوفي ثقة تُقبَل روايتُه وإن انفرد.

[113] روى أبو نُعيم في حلية الأولياء عن زيد بن أرقم، قال: كان لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مَملوكٌ يَغلّ عليه. فأتاه ليلةً بطعام فتناوَل منه لُقمَة، فقال له المملوك "ما لَك كنتَ تَسألُني كلَّ ليلةٍ ولم تسألْني الليلة؟" قال "حَمَلني على ذلك الجوعُ؛ مِن أين جئتَ بهذا؟" قال "مَررتُ بقوم في الجاهليَّة فرَقيتُ لَهم فوَعَدوني، فلما أن كان اليومَ مررتُ بهم فإذا عُرسٌ لهم فأعطَوني" قال "إن كِدتَ أن تُهلِكَني!" فأدخَلَ يدَه في حَلقِه فجَعلَ يتقيَّأ، وجعلتْ لا تَخرُج. فقيل له "إنّ هذه لا تخرُج إلا بالماء" فدعا بِطِسْتٍ من ماء فجعل يَشرَب

فقْد صاحبِ رسالته. ففتح تابوت صدره وأبدى مكنون سِرّه ونبّه بعلمه على مكانته من الله وقَدره، وأقرّ له الفاروقُ بالشرح لَماّ بدت لعينه أعلامُ الفتح[115].

ويتقيَّأ حتى رمَى بها. فقيل له "يَرحَمْك الله، كل هذا مِن أجل هذه اللقمة؟!" قال "لو لَم تَخرُج إلا مع نَفْسي لأخرَجتُها!" سَمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «كلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِن سُحتٍ فالنّارُ أَولَى به» فخَشِيتُ أن يَنبُت شيءٌ مِن جَسَدي مِن هذه اللُّقمَة". وجاء أصلُ الحديث عن جابر بن عبد الله وكعب بن عُجْرة وعبد الرحمن بن سمُرة وحُذيفة وابن عباس وغيرِهم، وتفرّد أبو نُعيم بالقصّة.

[114] روى البزار في مسنده ر159 قال: حدثنا محمد بن عيسى قال: حدثنا إسحاق بن محمد الفروي قال: حدثنا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال: أمَرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالصَّدَقَة، فوافَقَ ذلك مالاً عِندي، فقلتُ "اليومَ أسبِقُ أبا بكر إن سَبَقتُه يومًا" فجئتُ بنِصفِ مالي. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «ما أَبقَيتَ لأَهلِكَ؟» قلت "مِثلَه". وجاء أبو بكر بِكلِّ مالٍ عندَه، فقال «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟» قال "اللهَ ورسولَه". قلتُ "لا أُسابِقُك إلى شَيءٍ أبَدا!" وأصلُ الحديث عند أبي داود والترمذي والحاكم وصححه، وغيرِهم.

[115] بلغنا عن أبي هريرة أنه قال: لَمّا تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم واستُخْلِفَ أبو بكر بعدَه، وكَفر مَن كفر من العرب، قال عمرُ بن الخطاب لأبي بكر "كيف تُقاتِل الناس، وقد قال رسولُ الله «أُمِرتُ أن أُقاتِل الناس حتى يقولوا 'لا إله إلا الله' فمن قال 'لا إله إلا الله' عَصَمَ منّي مالَه ونفسَه إلا بحَقِّه، وحِسَابُه على الله»؟" فقال أبو بكر "والله لأُقاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بين الصلاةِ والزكاة! فإن الزكاة حقُّ المال. والله لو مَنَعُوني عَنَاقًا كانوا يُؤَدُّونَها إلى رسولِ الله

ولم يزل الصِّديقُ مَفتوحا له قبلَ ذلك، من حين مُلّك المفتاح ورَسم ديوانَ المَمالك. وإنما كان ينتظر رِحلةَ العزيز السيِّد صلى الله عليه وسلم إلى حضرة المحبوب الرفيق الأعلى المالك. فحلاّه بزينته لما شاركه في نوره وطِينته، ثم سلك في الهيِّن واللّين على مَدْرجَته لمّا دعا له أن يكون معه وفي درجته، ثم أبدى له شاهدا بما كان عليه من الكِتمان صوتَ تأنيسه في ليلة الإسراء بالجُثمان، ثم أبان له برهان المُوَافقة بما ذكَره عن نفسه صلى الله عليه وسلم وعنه إلى المقام من المسابقة؛ فسبَق النبيُّ وصلّى الصدِّيق، ولذلك قيل له هناك «قِفْ، إن ربَّك يُصلي!»[116] بصوتِ عَتيق[117]، فاستْأنَس وحنَّ مِن جِهة إحساسِ البَدَن. وقدِ اتضحت أسرارٌ ولَمعت في غلَبة هذا الوجْد بوارقُ الأنوار.

لَقاتَلتُهم على منعها!" قال عمر: فوالله ما هو إلاّ أن رَأيتُ أنّ اللهَ شرحَ صَدْرَ أَبي بكرٍ لِلْقتال فعرفتُ أَنَّهُ الحَق! أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد.

[116] قال إسماعيل حقي: قال بعض الكبار: اِخترق النبيُّ صلى الله عليه وسلم الأفلاكَ من غير أن تَسكُنَ عن تحريكها، كاختراق الماء والهواء، إلى أن وصل سِدرةَ الْمُنتَهى. فقَعدَ على الرَّفْرَف، فاختَرقَ عَوالِمَ الأنْوار إلى أن جازَ مَوضِعَ القَدَمَين إلى العَرش، أي الْمُستوَى المفهوم من قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه 5]. كل ذلك بِجِسْمِه. فعايَن مَحلَّ الاِستِواء. فلمّا فارَق عالَمَ التَّركيب والتَّدبير لَم يَبقَ له أنيسٌ مِن جنسِه فاستَوحَشَ مِن حَيثُ مَركَبُه. فنَودِيَ بِصَوت أبي بكرٍ «قف يا مُحمَّد إنّ ربَّك يُصلّي!» فسَكن وتَلا عليه عِند ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[الأحزاب 43]. تفسير روح البيان ج5/ص92، دار إحياء التراث العربي.

فنرجعِ إلى قيامه صلى الله عليه في اعتداله بين وَزيرَيْ جَماله وجلاله. فأشار إلى وزيره المَوهوب والعَبوس القَطوب أن "قد ظهرتْ سَطوتُك على الأعداء الأغمار بالهَلاك والدَّمار، بين صِياح رُعودٍ ومُرهَّفات بُروق وسِهام أمطار؛ فَامُرِ العَسكرَ الجرّار!" جَنَحَ فقال "لم يهلَك سُلطاني ولكن سَمَح!" فتبسَّم الجمال وقال "صدقَ يا رسولَ الله وصدقتَ، وبالحق نطق صاحبي، صلى الله عليك، وبه نطقتَ؛ فإنا تألّفنا مِن غير شَتاتٍ وحَيينا بلا تَقدُّم مَمات. أنا أُظهِر لك صِدْقَ صاحبي فيما ادَّعاه وأُبدي مُتنَزَّها عجيبا إلى مُقلتك النَّجلاء مما حواه غصنُه ووَعاه!"

فأرسلَهما خَديمَين في العالَم أمينَين خليلَين نديمين، وانصرف السيدُ إلى حضرة العين وغاب بلا كيف حيثُ لا أين. فلذلك لم يرَوا منه صلى الله عليه إلا صورتَه المشهودة والحركةَ المعروفة بينَنا المعهودة. فقلنا ما شُهد به علينا في الأوراق وسارت به الركبانُ والرِّفاق وتُلي في المكاتب والمنابر والمحاريب في جميع الآفاق ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاق؟!﴾[الفرقان 7] عَثرةً لا تُطاق وصيحةً ما لها من فَواق يُعانيها قائلُها عند السِّياق إذا بلغت

[117] أي بصوت أبي بكر. قال القاضي عياض: سُمِّي أبو بكر عتيقا: قيلَ اسْمُه وقيل لِجمالِ وَجهه، والعَتيقُ الحَسَن، وقيل لأنه عَتيقُ اللهِ من النار، وقيل عَتيقٌ قديمٌ في الخير، وقيل لأن أمَّه كان لا يَعيش لها وَلَدٌ فلمّا وَلَدته قالت "اللهمَّ هذا عَتيقُك مِن المَوت، فهبه لي!" وقيل لِشَرفِه وأنه لم يَكن في نَسَبِه عَيب. مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج2/ص66، المكتبة العتيقة ودار التراث.

النفسُ التَّراق[118] وقيل "هل مِن راق؟" ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق﴾[القيامة 29] وأيقن بالفراق. ولكل واحد منا في هذه العشرة حظّ يُراه إذا كان إلى ربه المساق؛ فعليكم بالإيمان الصِّرف، على غاية الجلاء والكشف، وإلا فقد واللهِ نُشِر الميثاق وأُخذتم بضَيِّق الخِناق.

خرّج أبو داود في 'مَراسيله' في هذا الباب عن شَريك، يعني ابن أبي نَمر، عن عَطاء بن يسار أن رجلا مِن نَجدٍ أتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسولَ الله أجدَبنا وهلَكنا إن لم يُدركنا الله منه برحمة؛ فادعُ اللهَ يُغِثْنا!" فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرجَع الرجل وقد مُطِروا، فأحيَوا عامَهم ذلك. ثم رجع رجلٌ بعد عام قابل فقال "يا رسول الله دعوتَ الله لنا فأحيَينا عامَ الأول، فادْع الله لنا!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أغَيثٌ كغَيثِ الكُفّار؟! لا، اِرجِع!»[119] فانظُر ما أعظمَ ما تحويه هذه اللفظة من الأسرار.

---

[118] أي التراقيَ، حذف الياء للسَّجع. وهو من قول الله تعالى ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق؛ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق﴾ [القيامة 26-30]. التراقي جمع تُرقوة وهو العظم ما بين الكتِف والحنجُرة، وهما اثنان، عن يمين وشِمال الرقَبة.

[119] رواه بهذا السند واللفظ بالضبط أبو داود في الْمَراسيل ر70، ص 365، مؤسسة الرسالة، بيروت. وهو في حديث علي بن حجر السعدي عن إسماعيل بن جعفر المدني، ص 458، مكتبة الرشد، الرياض.

لَماّ علم صلّى الله عليه وسلم أنّ تترُّل الأمطار عند الله بمقدار وأن ذلك لم تَجْرِ بنُزولِه الأقدار، رَدَعه بقوله «أغَيثٌ كغيث الكفار؟!» فأدرج له العلمَ في مَوعظة زاجِرة وألصَق استِمرارَ الرخاء والسَّعة بالأُمّة الكافرة، وأن المؤمن يتقلّب في نفسه بين شِدّة ورَخاء وفي قلبه بين خوف ورجاء. ليَهرُبْ إلى التَّقليل والزَّهادة مَن دام عليه في الدنيا في مأكَله ومشربه نَعيمُه، وليتحقَّقْ أن ذلك النعيم عذابُه وجَحيمه. فليفرَحْ الْمُقِلُّ بفاقَته، ويستعمَلْ نفسَه في الشُّكر عليها جُهدَ طاقتِه، ويتنغَّصْ له عيشُ الغنيّ، فيؤجرَ في تنغُّصه ويحرِّضْه على التروُّح بتبديد المال في ذات الله أو تنقُّصِه. فيا لها كلمةً واحدة عمّت القَبضَتَين وانسحبت على الطائفتين؛ لقد أوتِي جوامِعَ الكَلِم وفَصلَ الخطاب والحِكَم![120] استشهادي له في توقُّفه عن الإجابة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾[المؤمنون 18] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ

[120] روى مسلم في المساجد عن أبي هريرة أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحِلّت لِيَ الغنائم، وجُعِلَت لِي الأرضُ طَهوراً ومَسجِدا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلق كافَّةً، وخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّون» وهو عند الترمذي وغيره. وله شواهد عن عمَر وابن عباس وغيرهما. وقوله: وفَصل الخِطاب والحِكَم، يشيرُ إلى قول الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّاب. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاق، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّاب، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَاب﴾[ص 17-20] والحكمة هي البصيرة التي تربِط الأسباب بالمسبَّبات كما ينبغي، وفَصلُ الخطاب هو القولُ المختَصرُ الذي يفصِل الخصومة ويقطع الشُّبهة. فالحِكمة رَبطُ الأمور والفَصل قَطعُها، فاهم.

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر 21] ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾[الشورى 27]. فتأمّل يا وليي، سدَّد الله نَظرَك، ما تنطَوي عليه هذه الإشارات وما تتضمّنه من المعارف والأسرار والمقامات هذه العبارات.

ولما سَمعتْ النفسُ إيرادي لهذه الشذور وإبرازي هؤلاء الأسرارَ المخدَّرات من خلف السُّتور، تيقّنت أنها في تَباب وأن عِلِّيين إنما هي لأُولي الألباب. فألقت يدَ السمع والطاعة على مُلازمة السُّنّة والجماعة والإقرارِ بالفضل والسَّبْق للمُتقدِّم، وأنّ ذاك هو الإمام المعلِّم. وأيقنتْ باقتراب الساعة ونفاد أيامها لظهور أشراطِها وأعلامِها، بقول مَن كرّم هذه الأمةَ وفضّلها «إن مِن أشراط الساعة أن يلعن آخرُ هذه الأمة أوَّلَها!»[121] وقد رأينا في هذه البلاد من هذه الشرائط كثيرا.

---

[121] روى ابن بَطَّة العُكبَري في الإبانة ر14 قال: حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال: ثنا أبو الأحْوص القاضي قال: ثنا وضاح بن يحيى النهشلي، قال: ثنا أبو يحيى طلحة بن يحيى الشيباني، عن محمد بن أبي أيوب، عن القاسم، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تَقومُ الساعةُ حتى يَلعَنَ آخِرُ هذه الأمَّةِ أوَّلَها؛ ألاَ عليهم حَلَّتِ اللَّعنة!» الإبانة الكبرى ج1/ص179، دار الراية، الرياض. وهو عند الحارث في مسنَده مطوَّلا. وروى أبو نعيم في الحلية بسنَده عن حُمَيد بن صالح، يقول: سَمعت أُوَيسًا القَرَني يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم «احفَظوني في أصحابي؛ فإنّ مِن أشراطِ الساعَة أن يَلعَن آخرُ هذه الأمّة أوّلَها. وعند ذلك يَقع الْمَقتُ على الأرضِ وأهلِها. فمن أدرَك ذلك فَلْيَضَع سَيفَه على عاتِقه ثم لِيَلقَ ربَّه تعالى شَهيدًا، فإن لَم يفعلْ فلا يَلومَنَّ إلا نفسَه!» وهو مُرسَل من مراسيل أويس القرني الذي عاصر النبيَّ و لم يرَه.

وليتهم وقَفوا مع سَبّ أوَّلِهم من جنسهم ولا يتعدَّون ذلك إلى ما هو أعظمُ منه. فوالله يا وليي، لقد قرع سمعَ أخيك سَبُّ عيسى عليه السلام وسبّ بعضِ الصحابة الكرام، وسبُّ الله ذي الجلال والإكرام! وأما المدَّعون في هذه الطريقة فقد قاربوا الخروج من الجماعة، بل خرجوا؛ فطائفةٌ بلغني عنهم أنهم قد اِستغنَوا عن شَفاعة الرسول لِما تحقّقوا به مع الحق من حقائق الوِصال. ولو رأيتَ أحوالَهم لرأيت نَقيصةَ الكون وما تسخُن به العين. وقال من تبرَّز فيهم إماما تُحلُّ إليه الحُبا، وهو لا يعرف ما خُلق له ولا يُرتضى، ويدَّعي الكشفَ الأتمَّ مع الحق، قال أنّ الجنّة لم تُخلق. هكذا أعطاه كشفُه الْمَكْشوف وعقلُه السَّخيف المتلوف! وأما وليُّك فسمِع واحدا، وقد عاب عليه بعضُ أصحابه السماع، يقول "لِمثلي يُقال هذا؟ إن جبريلَ لا يُحسن يَسمَعُ مِثلي ولا الملائكةُ!" فقمتُ عليه في ذلك، فتاب واستغفر الله وأناب. أفهذه قلوبُهم الحاضرة ووجوههم الناضرة إلى ربها الناظرة؟! بل والله وجوهٌ باسِرة ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ!﴾[القيامة 25].

ثم أعرِّف وليّي أبقاه الله أن نفسي الخبيثة بِطانةَ السَّوء، لمّا قرع سمعَها أخبارُ هؤلاء السادة والأئمة القادة، وكان لها مِن صِغَرها تعشُّق بحديث أويس، قالت لي: عسى تقصَّ لي من شأنه بعضَ ما وصل إليك، فإنني ألهج بذكره، واطْوِ معي بِساطَ المناظرة وسُدّ بابَ التمثيل والْمُحاضرة، وألقِ ما شئت من أنواع

المجاهدة فإني المُوافِقة المساعِدة. فشكرتُ الله على طلبِها الاختصارَ وترْكِها التطويل، وعلِمتُ أنها تُريد سُلوكَ سَواءِ السَّبيل.

فقلت لها: نعم حدثني أبو محمد بن يحيى قال: حدثني أبو بكر بن أبي منصور قال: حدثنا أبو الفضل عن أحمد بن عبد الله عن أبيه قال: حدثنا حامد بن محمود قال: حدثنا سَلَمةُ بن شَبيبٍ قال: حدثنا أبو الوليد بن إسماعيلَ الحرّاني قال: حدثنا محمدُ بنُ إبراهيم بنِ عُبيد حدثني مُجالِد بنُ يزيد عن نَوفلِ بنِ عبد الله عن الضَّحّاك بنِ مُزاحِمٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حَلْقة من أصحابه إذ قال «لَيُصلِّيَنّ معكم غدًا رجلٌ من أهل الجنة!» قال أبو هريرَة: فطمِعتُ أن أكون أنا ذلك الرجلَ، فغدَوت فصلَّيتُ خلفَ النبي صلى الله عليه وسلم، فأقمتُ في المسجد حتى انصرَفَ الناسُ وبقِيتُ أنا وهو. فبينا نحن كذلك إذ أقبل رجلٌ أسودُ متَّزرٌ بِخرِقة مُرتَدٍ بُرقَعةً، فجاء حتى وَضَعَ يدَه في يَدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال "يا نبيَّ الله، اُدعُ اللهَ لي!" فدعا النبيُّ صلى الله عليه وسلّم له بالشهادة، وإنّا لنجد منه ريحَ المِسك الأذفر! فقلتُ "يا رسولَ الله أهو هو؟" قال «نعم، إنه لَمَملوكٌ لبني فلان» قلت "أفلا تشتَريه فتُعتِقُه يا نبيَّ الله؟" قال «وأنَّى لي ذلك إن كان الله تعالى يُريد أن يجعلَه مِن ملوك الجنة؟ يا أبا هريرة، إن لأهلِ الجنَّة مُلوكًا وسادَة؛ وإنّ هذا الأسودَ أصبحَ مِن ملوك أهل الجنة وسادتهم. يا أبا هريرة، إن الله تعالى يُحبّ مِن خلقه الأتقياءَ الأخفياء الأبرياء الشَّعِثةَ رؤوسُهم المُغبرَّة وجوهُهم الخَمِصةَ بُطونُهم، إلا مِن

كَسبِ الحلال، الذين إذا استَأذَنوا على الأمَراءِ لم يُؤذن لهم وإن خَطَبوا الْمُتنعِّمات لم يُنكَحوا، وإن غابوا لم يُفتَقَدوا وإن حضروا لم يُدعَوا، وإن طلَعوا لم يُفرح بطَلعَتِهم، وإن مرِضوا لم يُعادُوا وإن ماتوا لم يُشهَدوا!»

قالوا "يا رسول الله كيف لنا برَجل منهم؟" قال «ذاك أويس القرَني» قالوا "وما أويس القرني؟" قال «أشهَل ذو صُهوبة بعيدُ ما بين الْمَنكِبَين مُعتدِلُ القامة آدمُ شديدُ الأَدَمةِ، ضاربٌ بذَقنه إلى صدره رامٍ ببَصره إلى مَوضع سُجوده واضعٌ يمينَه على شِماله يَتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طِمرَين لا يُؤبَهُ له مُتَّزر بإزارِ صوفٍ ورِداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء؛ لو أقسمَ على الله لأبرَّ قَسَمَه! ألا وإنّ تحت منكبه الأيسر لُمعَةً بيضاء. ألا وإنه إذا كان يومُ القيامة قيل للعباد "اُدخُلوا الجنّة" ويقال لأويس "قِف فاشْفَع!" فيُشفِّعه الله عزَّ وجَلّ في مِثلِ عَدد رَبيعةَ ومُضَر. يا عُمرُ ويا عليّ إذا أنتما لَقِيتُماه فاطلُبا إليه أن يستغفِرَ لكما يغفرِ الله تعالى لكما!»

قال: فمكثا يطلُبانه عشرَ سنين، لا يقدِران عليه. فلما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر، في ذلك العام قام على أبي قُبيس فنادَى بأعلى صَوته "يا أهلَ الحجيج مِن أهل اليَمَن، أفيكم أويسٌ مِن مُراد؟" فقام شيخٌ كبيرٌ طويلُ اللِّحية فقال "إنّا لا ندري ما أويس، ولكن ابنُ أخ لي يقال له أويس، وهو أخْملُ ذِكرًا وأقلُّ قَدرًا وأهون أَمرًا من أن نرفعَه إليك، وإنه ليرعَى إبِلَنا؛ حقيرٌ بين أظهُرنا!"

فعمَّى عليه عمرُ كأنّه لا يُريده، قال "أين ابنُ أخيك هذا، أبِحرَمنا هو؟" قال "نعم" قال "وأين يُصاب؟" قال "بأَراكِ عرَفات" فركِب عمرُ وعليٌّ سِراعًا إلى عرَفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة والإبلُ حولَه ترعَى، فشدّا حِمارَيهما ثم أقبلا إليه فقالا "السلام عليك ورحمةُ الله!" فخفَّف أويسٌ الصلاةَ ثم قال "السلام عليكما ورحمة الله وبركاتُه" قالا "مَن الرجل؟" قال "راعي إبلٍ وأجيرُ قوم" قالا "لسنا نسألك عن الرِّعاية ولا عن الإجارة، ما اسمُك؟" قال "عبدُ الله" قالا "قد علِمْنا أن أهلَ السموات والأرض كلهم عَبيد الله، فما اسمُك الذي سَمّتك أمُّك؟" قال "يا هَذان ما تُريدان إليّ؟" قالا "وصَفَ لنا محمد صلى الله عليه وسلم أوَيسًا القرَني، فقد عرَفنا الصُّهوبة والشُّهولة، وأخبرَنا أن تحت مَنكِبك الأيسر لُمعةً بيضاءَ، فأوضِحْها لنا؛ فإن كان بك فأنت هو!" فأوضَحَ مَنكِبَه فإذا اللُّمعَة. فابْتَدَراه يُقبِّلانه وقالا "نشهد أنك أويسٌ القَرَنيّ، فاستغفِر لنا يَغفِرِ اللهُ لك!".

قال "ما أخصُّ باستِغفاري نفسي ولا أحدًا مِن ولد آدم، ولكنّ مَن في البر والبحر في المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات. يا هذان قد أشهَرَ الله لكما حالي وعرّفكما أمري؛ فمَن أنتما؟" قال علي "أما هذا فعُمَرُ أميرُ المؤمنين وأما أنا فعَليُّ بنُ أبي طالب" فاستوَى أويسٌ قائمًا وقال "السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته وأنت يا ابنَ أبي طالب، فجَزاكُما الله عن هذه الأمّةِ خيرا!" قالا "وأنت جزاك الله عن نفسِك خيرا" فقال له عمر "مكانَك، يرحمُك الله،

حتى أدخُل مكّةَ فآتيك بنَفَقة من عطائي وفضلِ كِسوة من ثيابي؛ هذا المكانُ ميعادُ بيني وبينِك!" قال "يا أميرَ المؤمنين، لا ميعادَ بيني وبينك، لا أراك بعدَ اليوم تعرفُني؛ ما أصنع بالنفقة، ما أصنع بالكسوة؟ أما ترى عليّ إزارًا من صوف ورِداءً من صوف، متى تراني أخلَقهما؟ أما ترى أن نعليَّ مَخصوفتان، متى تراني أَبليهما؟ أما ترى أني قد أخذتُ من رِعايتي أربعةَ دراهِم، متى تراني آكلها؟ يا أميرَ المؤمنين إن بين يديّ ويديك عقَبةً كَؤُودا لا يُجاوِزها إلا ضامِرٌ مُخفّ مَهزول، فأَخِفَّ يرحمُك الله!" فلما سمع عمر ذلك من كلامه ضرَب بدِرَّته الأرضَ ثم نادَى بأعلى صوته "ألا لَيت أمَّ عُمرَ لم تَلِدْه! يا ليتَها كانت عاقِرا لم تعالِج حَملَها! ألا من يأخذُها بما فيها ولها؟!" ثم قال أويس بأعلى صوته "يا أمير المؤمنين، خُذْ أنت هاهُنا حتى آخُذ أنا هاهنا!" فولَّى عمرُ ناحيةَ مكة وساقَ أويسٌ إبلَه، فوافَى القومَ إبلَهم وخلَّى عن الرِّعاية وأقبل على العبادة حتى لَحِق بالله عز وجل.[122]

قال المُغيرة: كان أويس القرني لَيتصدق بثيابه حتى يجلس عُريانا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة.[123] ومما يؤيِّد هذا ما رُوِّيناه من حديث مُحارب بن دِثار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مِن أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجدَه أو

[122] رواه أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبَهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج2-ص83، دار الكتاب العربي، بيروت. وهو عند ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق آخر عن سلمة بن شبيب بسنده عند أبي نعيم.

[123] رواه أبو نُعيم في الحلية، ج2-ص84.

مُصلاّه من العُرْي، يَحجزُه إيمانُه أن يسأل الناس؛ منهم أويس القرني»[124] وقال عبد الله بن سَلمَةَ: غَزَونا أذْرَبيجان زمنَ عمر بن الخطاب ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرِضَ علينا. فحملناه فلم يَستمسِك فمات، فترلنا فإذا قبرٌ مَحفور وماءٌ مَسكوب وكفَنٌ وحَنوط، فغسَّلناه وكفنّاه وصلَّينا عليه ودفنّاه. فقال بعضنا لبعض "لو رجَعنا فعلَّمنا قبرَه" فرجَعنا فإذا لا قبرٌ ولا أثر![125]

وقال هَرِمُ بن حيّانٍ: قدِمتُ الكوفةَ فلم يكن لي همٌّ إلا أويسٌ أسألُ عنه، فدَفَعتُ إليه وهو بشاطئ الفُرات يتوضّأ ويغسل ثوبَه. فعرفتُه بالنَّعت؛ فإذا رجلٌ آدَمُ مَحلوقُ الرأس كَثُّ اللِّحية مَهيبُ الْمَنظَر. فسلّمتُ عليه ومدَدت إليه يديَ لأُصافِحه فأبى أن يُصافحَني. فخنقتني العَبْرة لِما رأيتُ من حاله فقلت "السلام عليك يا أويس، كيف أنت يا أخي؟" قال "وأنت فحيّاك الله يا هرمَ بنَ حيان، مَن دلّك عليّ؟" قلت "اللهُ عزّ وجل" قال ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا!﴾[الإسراء 108] قلت "يرحمُك الله، مِن أين عرفتَ اسمي واسم أبي؟ فوالله ما رأيتُك قَطُّ ولا رأيتني!" قال "عرفَت روحي روحَك حين كلَّمت نفسي نفسَك، لأن الأرواح لها أنفُسٌ كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل، وإن نأتْ بهم الدار وتفرَّقت بهم الْمَنازل!" قلت "حدِّثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا لأحفظَه عنك" قال "إني لم أُدرك

---

[124] رواه أبو نُعيم في الحلية، ج2-ص84 وزاد «وفُراتُ بنُ حَيّان».

[125] رواه أبو نُعيم في الحلية، ج2-ص83 وابن عسكر في التاريخ وابن كثير في مُسنَد الفاروق.

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم و لم يكن لي معه صُحبة، وقد رأيتُ رجالا رأَوه وقد بلغني مِن حديثه كبعضِ ما يبلَغكم، ولستُ أُحبّ أن أفتَح هذا البابَ على نفسي. لا أحِب أن أكون قاصًّا أو مُفتيا؛ في نفسي شُغل!" قلت "فَاتْلُ عليَّ آيات من كتاب الله أَسمعْهُنّ منك وادْعُ الله لي بدَعَوات وأَوصِني بوصيَّة أَحفَظُها عنك، فإنّي أحِبُّك في الله عزَّ وجلّ!" فأخذَ بيدي وجعل يمشي على شاطئ الفُرات ثم قال "قال ربي، وأحقُّ القولِ قولُ ربي عزَّ وجل، وأصدقُ الحديث حديثُ ربي عز وجل، وأحسن الكلامِ كلام ربي عز وجل: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الدخان 40] وشهق شهقةً فأنا أحسبه قد غُشي عليه ثم قرأ ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم!﴾[الدخان 41-42] ثم نظر إليّ فقال "يا هرمُ بنَ حيان مات أبوك ويوشِك أن تموت ومات أبو حيّان، فإما إلى الجنة وإما إلى النار. ومات آدم وماتت حواء يا ابن حيان، ومات إبراهيم خليل الرحمن يا ابن حيان ومات موسى نَجيُّ الرحمن يا ابن حيان، ومات محمد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين يا ابن حيان، ومات أبو بكر خليفةُ المسلمين ومات أخي وصديقي وصَفِّيي عمر؛ واعُمَراهُ واعُمَراه!" وذلك في آخر خلافة عمر رضي الله عنه، فقلتُ "يرحمُك الله إنّ عمرَ لم يمُت!" قال "بلى إن ربي عز وجل قد نعاه لي وقد علمتُ ما قلت، وأنا وأنت غدا في الموتى!"

ثم دعا بدعوات خفاف ثم قال "هذه وصيّتي لك يا ابن حيان: كتابَ الله عز وجل ونَعيَ الصالحين من المؤمنين ونعْيَ الصالحين من المسلمين، ونعِيتُ لك نفسي ونفسَك! فعليك بذِكر الموت، فإن استطعتَ أن لا يفارق قلبَك طرْفةَ عين فافعلْ. وأنذِر قومَك إذا رجَعت إليهم، واكدَح لنفسك. وإياك أن تُفارِق الجماعة فتفارقَ دينَك وأنت لا تشعُر، فتموتَ فتدخل النار يوم القيامة!" ثم قال "اللهم إن هذا يزعُم أنه يُحبّني فيك وزارني من أجلك، فأدخِلْه عليّ زائرا في الجنة دارِك دارِ السلام وأَرْضِهِ من الدنيا باليسير، وما أعطيتَه من شيء في الدنيا في يسير فاجعله في يُسر وعافية، واجعله لما تُعطيه من أنعُمك من الشاكرين! أستودِعُك الله يا هرمَ بن حيان والسلام عليك. لا أراك بعدَ اليومِ تطلُبني ولا تسأل عني؛ اُذكرْني أذكُرْك وأدعو لك إن شاء الله. اِنطلق هاهُنا حتى أنطلق أنا هاهنا!" فطلبت أن أمشيَ معه ساعةً فأبَى علي وفارقني يبكي وأبكي، ثم دخل في بعض السِّكك. فكم طلبتُه بعدَ ذلك وسألتُ عنه فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء. حدثنا بهذه الحكاية أحمد الشاهد بسنده عن أبي الضَّحّاك الجَرْمي عن هرم بن حيان.[126]

[126] رواه أبو نُعيم في الحلية، ج2–ص83 قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، ثنا محمد بن العبّاس بن أيوب، ثنا يحيى بن محمد بن السَّكَن، ثنا يحيى بن كَثير أبو غسان، ثنا الهَيثم بن جُرْموز عن حَمدان عن سليمان التَّيمي عن أسلم العِجْلي عن أبي الضحاك الجَرْمي عن هرم بن حيان العَبْدي. ورواه ابنُ عسكر في التاريخ وابن كثير في مُسنَد الفاروق.

فهذا يا نفسُ من بعض أخبار أويس الذي أحببته لله وفي الله، ولولا التطويل لأشبعناكِ من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين رضي الله عنهم أجمعين، ولكنّكِ قد قنعت بهذا القدر، فالْتزمي طاعةَ الله وطاعة رسوله! فأسلَمتْ إسلاما جديدا، الله يُثبّتها عليه، وأخذتُ منها العُهود التي أخذ النبيّ عليه السلام على النساء المؤمنات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ، إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة 12] فالتَزمتْ ذلك كلَّه، عارفةً قدرَه وما لها في الوفاء به وما عليها في غَدرِه. فهذا يا وليّي أبقاك الله ما اتّفق بيني وبين نفسي بمكة حرَسها الله.

* * *

ثم أرجِع مع وليي وصَفيّي وأخي في الله تعالى أبي محمد، وفّقنا الله وإياه، فأقول: ثم أما بعد يا أخي، فإنّ أكثرَ الناس خافوا اللهَ على سيِّئات الناس وذُنوبِهم وأوزارهم، وأمِنوه على ذنوبِهم؛ وليس هذا فعل الرجُل الحازم. والله تعالى يقول ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّار!﴾[التوبة 123] وأقربُ عدوٍّ لك وأعداه عليك نفسُك التي بين جنَبَيك[127]، وفيها شُغلٌ شاغِل للعاقل. وهذا الزمان الذي أنت

[127] اشتهر بين الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك" والصوابُ أنّه ليس بحديث. فإنني لم أجده في شيء من دواوين السنة بهذا اللفظ، غير عند الدَّيلمي ولكن من دون إسناد. قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه البيهقي في كتاب

فيه زمانُ شرّ، قلَّت فيه لُقمَةُ الحلال وكثُر فيه الشَّرَه والكَلَبُ في قلوب الناس؛ فلا بَطنَ يشبَعُ ولا نفسَ تقنَع ولا عينَ تدمع ولا دُعاءَ يُسمع. فلمّا قلَّ الحلال، لو وقع التعفُّفُ من الْمُريد وأخذَ الغَذاء عند الاِضطِرار لكان بعضَ شيءٍ يَكفيه.

الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحدُ الوضّاعين. على أني لم أجده في الطبعة التي عندي من شُعب الإيمان. والغالب أنَّه أثرٌ كما ذكره أبو جعفر الطبري قال: إن مِن الشهوة ما إذا لم يركَب صاحبها ما دعته إليه نفسه من المحارم ولم تَتعدَّ إلى ما حُظِر عليها من المآثم، فغير ضائرة بل إلى أن تكون لصاحبها إذا ترك التقدُّم على ما دَعته إليه من المحارم حَذارَ العقاب عليها، إلى رضا الله مَقرُبة أقرب منها إلى أن تكون له من الله مُبعِدةً. لأن إماتتها بتحذير النفس عقاب الله وخوف وَعيده حتى يقمعَها أو يردها عن باعث هواها وما اهتاج فيها إلى تقويمها على أمر الله تعالى ذكره الذي أمرها به، هو الجهاد الأكبر الذي لا جهادَ أعظم منه. وقد كان الحسن يقول "ليس عَدوُّك الذي إن قتلتَه استرَحتَ منه، ولكنَّ عدوَّك نفسُك التي بين جَنبَيك" فقد بيَّن الحسن بقوله هذا أن ردَّ النفس عن بَواعث شهواتِها وقمعَها عن هياج طلباتها المحرَّمِ عليها ركوبُها إلى ما يَحِلُّ لها ويُزيل ذلك عنها هو جهادُ أعدَى الأعداءِ للمرء. وذلك لا شكَّ أعظم أجرا عند الله من جهاد أهل الشِّرك الذين إلى قتلِهم السَّبيلُ. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، ج2/ص813، مطبعة المدني، القاهرة. فالأثر عن الحسن البصري وقيل هو من كلام سفيان الثوري. وقد روى الطبراني في الكبير ر3445 عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ليس عدوُّك الذي إن قتلتَه كان لك نورا وإن قتلكَ دخلتَ الجنة، ولكن أعدَى عدوِّك وَلدُك الذي خَرج مِن صُلبك، ثم أعدى عدوٍّ لك مالُك الذي مَلكتْ يَمينُك».

وأبشّرك يا وليّي، رضي الله عنك، أني جرَّبت أحوالي في هذه الْمَطاعم مِن باب المغرب إلى باب مكة، فما دخلَ في بَطني أخلصُ مِن طعامِك؛ كنتُ أجد له ما لا يُمكن وصفُه! وذلك لطِيب النّفوس وعدَم تعلُّق خاطِرك به، إلا في وقت مّا تعرِفه أنت وابنُ الْمُرابط وتعرِف سببَه، وهذا أعجبُ ما يُسمع في هذا الباب. وله أصلٌ يستنِد إليه في اللَّحم الذي تُصدِّق به على بَريرة، وهو حرام على النبي عليه السلام، فلما أَهدت منه للنَّبي صلى الله عليه وسلّم أكلَه حلالاً مَحضا وقال «هو عليها صَدَقة، ولنا هديَّة!»[128] فألْقِ بالَك يا وليي وأحضِرْ ذِهنَك في هذه المسألة

[128] روى أبو داود عن أنس بن مالك أن النبي أُتِيَ بلَحمٍ قال «ما هذا؟» قالوا "شيء تُصُدِّق به على بَريرَةَ فقال صلى الله عليه وسلم «هو لَها صَدقةٌ ولنا هَدِيَّة» وهو في الصحيحَين. ذلك أن ما أخذته بَريرةُ وإن كان صدقةً عليها، فإنّه فقَد ذلك الوصف لِمُجرَّد أن صار مِلكًا لها فحقّ لها التصرُّفُ فيه كما شاء، لذا لَمّا أهدت منه للنبي صلى الله عليه وسلَّم لم يرُدَّه لأنَّه قبِلَه بصفته هديَّةً؛ فحكمُ الشيء تغيَّر بانتِقال المِلكية، وهذا أصل وقاعدة فقهيّة مهمَّة. أمّا الصدقةُ فإنَّها محرَّمةٌ على الرسول وآله. قال صلى الله عليه وسلّم «إن هذه الصدقات إنما هيَ أوساخُ الناس وإنها لا تحل لِمُحمَّدٍ ولا لآل محمد» رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث. وكما جاء عن أبي هريرة قال: أَخذ الحَسنُ بنُ عليٍّ تَمرةً من تمْر الصدَقة فجعلها في فِيهِ، فقال رسولُ الله «كِخْ كخ، اِرْمِ بها؛ أَما عَلِمْتَ أنّا لا نأكلَ الصدقة؟ وفي رواية «إنّا لا تَحِلُّ لنا الصدقة» وفي الصحيحَين أنّه صلى الله عليه وسلم قال «إنّي لأَنقَلِبُ إلى أهلي فَأجِدُ التمرةَ ساقِطةً على فراشي أَو في بيتي، فأرفعُها لآكلَها ثم أخشَى أن تكونَ صدقةً فأُلقيها. ثم إنّ الشّرعَ قد حثَّ على الهديَّة فيما رواه البخاري في الأدب وغيرُه عن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال «تَهادَوا

فإنها لطيفة، وقد قصدتُك بها مُتحِفا؛ فإنها من أعظم التُّحَف، لأنها تُعطيك مِن أسرار وَضعِ الشرْع مِن عند الله في عَبيده عِلمًا كثيرا.

انتهى الجزء الثاني

تَحابُّوا!» يجبُ قَبول الهديَّة ويُنهى عن ردِّها إلا لعُذر، كأن تكون محرَّمةً كالخمر أو ما هو سُرِق أو ما لا يحلُّ في زمن مّا كالطيب للمحرم، لِما رواه أبو يعلى بسند صحيح عن أبي وائل والبيهقي في الشُّعب عن شقيق، كِلاهما عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تَرُدّوا الهَديَّةَ وأَجيبوا الداعِيَ ولا تَضرِبوا المسلمين»، وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أُهدِيَ إليَّ كُراعٌ لقَبلتُ ولو دُعِيتُ عليه لأَجَبْت».

ولقد لقِينا من الْمَشايخ والإخوان والنساء ما لو دُوِّنت أحوالُهم وسُطرت كما سطِرت أحوالُ مَن تقدَّم لرأيت الحالَ الحالَ والعينَ العين، في الأعمال والجِدّ والإشارات وصِحَّة القصد. فيا وليّي:

تعالَ نُقِمْ مَأتَما للفِراق ونندُب إخوانَنا الظاعِنينا

وأنا أنشُر لك من بعض أحوال مَن لَقيت: فمنهم، وهو أوّل من لقيتُه في طريق الله، أبو العباس أحمد العُرَيبي[129] رضي الله عنه. وصل إلينا إلى إشبيلية في أوّل دخولي إلى

---

[129] قال ابن ناصر الدين: الشيخ أحمَد العُرَيبي، من أهل العلياء من غرب الأندلس، نزل إشبيلية، وله كرامات، أَخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عربي. توضيح المشتبه ج6/ص247، مؤسسة الرسالة، بيروت. يقول الشيخ الأكبر، قدّس سرُّه في الباب الخامس والعشرون في معرفة وتد مخصوص معمر... من الفتوحات المكيّة: جرت بيني وبين شيخِنا أبي العباس العُرَيْبي رحمه الله مسألة في حق شخص كان قد بَشَّر بظهوره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال لي "هو فلانُ ابن فلان" وسَمَّى لي شخصًا أعرِفُه باسمِه، وما رأيتُه ولن رأيتُ ابنَ عمَّته. فرُبّما توقَّفتُ فيه و لم آخُذ بالقَبول، أعني قولَه فيه، لكوني على بَصيرةٍ في أمره. ولا شكَّ أنّ الشيخ رَجَع سَهمُه عليه فتَأذَّى في باطِنه و لم أشعُر بذلك. فإني كنتُ في بدايةِ أمري. فانصرفتُ عنه إلى مَترلي. فكنتُ في الطريق فلَقيَني شَخصٌ لا أعرِفُه فسلَّم عليَّ ابتِداءً سلامَ مَحِبٍّ مُشفِق، وقال لي "يا محمَّد صَدِّق الشيخَ أبا العباس فيما ذَكَرَ لك عن فُلان" وسَمّى الشخصَ الذي ذكره أبو العباس العُرَيبي فقلت له "نعم" وعلِمتُ ما أراد. ورجَعتُ من حيني

معرفة هذه الطريقة الشريفة، فكنتُ مِمّن سارع إليه. فدخلتُ عليه فوجدتُ شخصا مُستهتِرا بالذِّكر، فتسمَّيت له وعرف حاجتي منه فقال لي "عزمتَ على طريق الله تعالى؟" فقلت له "أمّا العبدُ فعازِم والْمَثبِّتُ الله" فقال لي "سُدَّ الباب واقطَعِ الأسبابَ وجالِسِ الوهّاب؛ يكلِّمْك من دون حجاب!" فعمِلت عليها حتى فُتح لي. وكان بَدَويّا أمِّياً لا يكتُب ولا يحسُب، وكان إذا تكلَّم في علم التوحيد

إلى الشيخ لأُعرِّفه بما جرَى. فعِندما دَخلتُ عليه قال لي "يا أبا عبدِ الله، أأَحتاجُ معك إذا ذكرتُ لك مَسألةً، يَقف خاطرُك عن قَبولها، إلى الخَضِرِ يتعرَّضُ إليك، يقول لك: صَدِّقْ فُلانًا فيما ذَكرَه لك؟ ومِن أين يتَّفِقُ لك هذا في كل مسألة تَسمَعُها مني فتَتوقَّف؟!" فقلت "إنّ باب التوبة مفتوح!" فقال "وقَبول التوبَةِ واقِعٌ!" فعَلِمتُ أنَّ ذلك الرَّجُل كان الخَضِر. ولا شك أنّي استفهمتُ الشيخَ عنه "أهو هو؟" قال "نعم هو الخضر!" وقال في الباب السابع والستين: دخلت على شيخنا أبي العباس العُريبيّ من أهل العَليا وكان مستهتراً بذكر الاسم 'الله' لا يزيد عليه شيئًا فقلت له "يا سيدي، لم لا تقول 'لا إلَهَ إلا الله؟" فقال لي "يا ولدي، الأنفاسُ بيَدِ الله ما هي بيَدي، فأخاف أن يَقبِض اللهُ روحي عند ما أقول 'لا إلَه' فأُقبَضَ في وَحْشَةِ النَّفْي!" وقال في الباب ستين وخمسمائة في الوصايا: كن فقيراً من الله كما أنت فقيرٌ إليه. فهو مثل قوله صلى الله عليه وسلم «وأعوذُ بِك مِنك». ومعنى فَقرِك مِن الله أن لا يُشَمَّ منك رائحةٌ مِن رَوائح الرُّبوبيّة، بل العُبوديَّة الْمَحضَة. كما أنّه ليس في جَناب الحقِّ شيءٌ مِن العُبودية. ويستحيل ذلك عليه، فهو رَبٌّ مَحض؛ فكُن أنت عبدًا مَحضًا. فكن مع الله بقِيمَتك لا بعَينِك، فإنَّ عينَك عليه رَوائِحُ الرُّبوبيّة لِما خَلِقَك عليه مِن الصورة بالدَّعوَى. وقيمَتُك ليستُ كذلك. بهذا أوصاني شيخي وأُستاذي أبو العبَّاس العُريبي رحمه الله.

فحَسبُك أن تسمَع. كان يُقيّد الخواطر بِهِمّته ويصدَع الوجودَ بكلمته؛ لا تجدُه أبدا إلا ذاكرا على طهارة مستقبلَ القِبلة، أكثرَ دهرِه صائما.

أَسَرَتْه الإفرَنج وكان قد أُعلم بذلك فقال لأهل القَفْر "في غدٍ يؤخَذ الكلُّ أسرَى!" فصبَّحهم العدوُّ فأخذهم عن آخرهم. فأُكرِم مَثواه ونُظِّفت له دار حسنة وخُدم بها، ثم تقاطع مع العِلْج الذي كان عنده، أظنّ على خمسمائة دينار. فجاء عندنا فقيل له "نجمع لك من شخصين أو ثلاثة" فقال "لا إنما أريدها من أشخاص كثيرة، لو قدِرتُ أن آخُذ من كل إنسان ذَرّةً ذرّة فعلت؛ فإن الله تعالى أخبرني أن: كلّ نسَمة أعطت فيها شيئا عُتقت من النار؛ فأستغنِم الخيرَ لأمة محمد!"

ومن أخباره أنه قيل له وهو بإشبيلية عندنا "إنّ أهلَ قصر كُتامة يحتاجون إلى المطر؛ فسِر إليهم، اِستسقِي لهم حتى أُسقيَهم!" فخرج لذلك وخرج معه خادمُه محمد، وبيننا وبينهم البحرُ وميسرةُ ثمانيةِ أيام، فقال له بعضُ أصحابه "اُدع الله لهم مِن هنا" قال "أُمِرتُ بالخروج إليهم!" فخرج من عندنا. فلما وصل قصرَ كُتامة وأشرفَ عليه مُنع من دخوله، فاستسقَى لهم وهم لا يشعُرون، فسقاهم الله في الحين، فرجَع من ذلك الموضع و لم يدخُل البلدَ حتى وصل إلينا. قال لنا محمد خديمُه الذي مشَى معه: لما سقاهم الله ونزلت الأمطار كان الغَيث يترِل عن يميننا وعن يسارنا وأمامَنا وخلفنا، بحِذائنا ونحن نمشي، لا يصيبُنا منه شيء.

فقلت للشيخ "عزَّ عليّ حيث لم تُصبك رحمةُ الله!" فصاح وقال "فُزتَ بها يا محمد، يا حسرةً؛ لو تذكَّرتَها هُنالِك!"

ودخل عليه رجل ومعه ابنُه، وأنا إلى جانبه جالس، فسلم عليه وقال لابنه "سلم عليه!" وكان الشيخ قد ذهب بصرُه، فقال له الرجل "يا سيّدَنا، إن ابني هذا من حَملة القرآن؛ يَحفَظُه!" فتغيّر الشيخ وصاح وطرأ عليه حالٌ وقال "القديمُ يحمِل الْمُحْدَث؛ القرآنُ يحمل ابنَك ويحمِلنا، ويحفظ ابنك ويحفظنا!" فهذا كان من حُضوره رضي الله عنه. وكان قويّا في دين الله، لا تأخذُه في الله لَومةُ لائم. كنتُ إذا دخلت عليه يقول "مرحبا بالابن البارّ! كلٌّ ولَدي نافَق عليّ وجحَد نِعمتي إلا أنت، فإنك مُقِرٌّ بها مُعترِفٌ بارٌّ بجانبي؛ لا أنساها الله لك!"

سألته ما اتَّفق له مع الله تعالى في أوّل بدايته فقال "كان قُوتُ أهلي في السنة ثَمانيةَ أعدال تِينًا -والعِدل فيه مائة رِطل- فلما جلستُ مع الله في خَلوتي صاحت عليّ المرأة وسبّتني وقالت لي "قُمْ واخدُم وسُقْ ما يقوم بأولادك لعامهم!" فشوَّشت عليّ خاطِري، فقلت "يا ربّ، هذه تَحول بيني وبينَك ولا تزال تَتبَعُني؛ فإن كنتَ تريدُني لِمُجالستَك فأرحْني من همِّها، وإن كنتَ لا تريدُني فعرِّفني!" فناداني الحقُّ في سِرّي "يا أحمد اُقعُد معنا؛ فما يَذهب النهارُ حتى نأتيَك بعشرين عِدلا تيناً، قوتَ عامين ونصف، وأزيَد وأزْيد؛ اِجلسْ معنا ولا تبرَح!" فلم تكن إلا ساعةٌ وإذا بصارِخ وعلى عنُقه عِدلٌ من تين هديّة،

فقال لي الحقّ "هذا واحد من عشرين!" فما غرَبت الشمسُ حتى كمُل عندي عِشرون عِدلا، فسُرّت المرأة والأطفال وشكرتني المرأة ورضيَت عني.

وكان رضي الله عنه ورحِمه كثيرَ التفكُّر، مبسوطا مع الحق في عموم أحواله. دخلت عليه آخِرَ زَورةٍ رأيتُه فيها رحمه الله تعالى ومعي جماعة، فوجدناه قاعدا فسلّمنا عليه، وقد أراد بعضُ الجماعة أن يسأله، فإذا به رضي الله عنه قد رفع رأسَه وقال "خُذوا مسألةً، وقد رميتُك بها يا أبا بكر! -وأشار إليّ-: لَم أزل أتعجَّب من قول أبي العباس بن العَريف "حتى يفنَى مَن لم يكن ويبقى من لم يزَل[130]" ونحن نعلم أن من لم يكن فانٍ ومن لم يزل باق؛ فأيش قال؟ أجيبوا!"

---

[130] ذكره أبو العباس بن العريف الصنهاجي في آخر فصول مَحاسِن المجالس إذ قال: فالإرادةُ والتوبة والزُّهد والتوكّل والصبرُ والحزن والخوفُ والرجاء والشكرُ والمحبّة والشوقُ والأُنس: مَنازلُ أهلِ الشرع السائرين إلى عين الحقيقة. فإذا شهِدوا عينَ الحقيقة اِضمحلَّت فيها أحوال السائرين؛ حتى يفنَى من لم يكن ويبقى من لم يزَل. ووصلوا إلى مقام الفناء عمّا سِواه سبحانَه. فإن ما قبلَه من هذه المقامات مُراد لهذه الغاية، وهي النظر إلى الله تعالى... - إلى أن قال: ألم تر كيف فنِيَ منهم ما لم يكن بدخول الجنان وبقي منهم ما لم يزل؟! اه من طبعة أسين بلاثيوس، مكتبة غوتنر، باريز. يقول الشيخ الأكبر قدس الله سرَّه العزيز في الباب السبعين وثلاث مائة في معرفة منزل المريد وسرّ وسرين من أسرار الوجود والتبدل وهو من الحضرة المحمدية من خزائن الجود: قال بعضُ السادة في هذه الخزائن أنها تتضمن فناء مَن لم يكن وبقاءَ من لم يزل وهذه المسألة تخبَّط فيها من لم يستحكم كشفُه ولا تحقق شهودُه... إن اللّه في كلِّ يومٍ، وهو الزمَنُ الفَرد، في شأن... والخلق جديدٌ حيث كان،

دنيا وآخرةً وبرزخا، فمِن الْمُحال بَقاءُ حالٍ على عَينٍ نفَسين أو زَمانين، لِلاتِّساع الإلَهي ولبقاء الافتقارِ على العالَم إلى اللّه. فالتَّغييرُ له واجبٌ في كل نفَسٍ، واللّه خالقٌ فيه في كلِّ نَفَسٍ. فالأحوالُ مُتجدِّدة مع الأنفاس على الأعْيان، وحُكمُ الأعيان يُعطي في العَين الواحِدةِ بحَسَبِ حَقائقِها... فمن أصحابنا من يرى أن عين الوجود هو الذي يحفَظ عليه أحوال أعيان الْمُمكِنات الثابِتة وأنها لا وجود لها البتة، بل لها الثُّبوت، والحكمُ في العين الظاهرةِ التي هي الوُجود الحقيقي... ومن أصحابنا من يرى أن الأعيان اتصفت بالوجود وَاستَفادَته من الحقِّ تعالى، وأنها واحِدة بالجَوهر وإن تَكثَّرت. وأن الأحوال يكسوها الحقُّ بها مع الأنفاس، إذ لا بقاءَ لها إلا بها. فالحقُّ يُجدِّدُها على الأعيان في كل زمان. فعلى الأوّل يكون قوله "حتى يفنَى من لم يكن" فلا يبقى له أثرٌ في عينِ الوجود، فيكونُ مَسلوبَ النُّعوت؛ وذلك حالُ التنزيه. "ويبقى من لَم يزل" على ما هي عليه عينُه، وهو الغنِيّ عن العالَمين. فإن العالَم ليس سوى الممكنات، وهو تعالى غني عنها. وعلى القول الآخر الذي يرى وجودَ أعيان الممكنات وآثارَ الأسماءِ الإلَهية فيها وإمدادَ الحق لها بتلك الآثار لبقائها، فتفنى تلك الآثار والأعيان القابلة لها عن صاحب هذا الشهود حالاً. والأمر في نفسه موجود على ما هو عليه، لم يفنَ في نفسه كما فني في حق هذا القائل به، فلا يبقى له مشهودٌ إلا اللّه تعالى. وتندرج الموجودات في وجود الحق وتغيب عن نظر صاحب هذا المقام، كما غابت أعيانُ الكواكب عن هذا الناظر بطلوع النيِّر الأعظم الذي هو الشمس؛ فيقول بفناء أعيانِها من الوُجود. وما فَنيَت في نَفس الأمرِ بل هي على حالِها في مَكانها من فلكها على حُكمها وسَيرها. وكلا القولين قد عُلم من الطائفة. ومن أصحابِ هذا العلم من يجعل أمر الخلق مع الحق كالقمر مع الشمس في النور الذي يظهر في القمر. وليس في القمر نورٌ من حيث ذاتُه، ولا الشمسُ فيه ولا نورُها، ولكن البصر كذلك يدركه؛ فالنور الذي في القمر ليس غيرَ الشمس. كذلك الوجودُ الذي للممكنات ليس غيرَ وجود الحق. كالصورة في المرآة، فما

فلم يكن في الجماعة مَن أجابه. فعرَض عليّ الجواب، فحرّضتني نفسي بعُثوري على وجه المسألة دونهم، فلم أتكلم، فإني كنتُ شديدَ القهر لنفسي في الكلام، وعرَف مني الشيخ ذلك فلم يُعِد عليّ.

وكان رضي الله عنه لا يتجرّد من ثوب لنوم ولا يهتزّ في سماع، فإذا سمع القرآنَ تقصَّف واضطرَب وتصدَّعت أركانُه. وصلّيت معه الصبحَ في دار وليي وصفيِّي أبي عبد الله محمد الخياط المعروف بالعَصّاد وأخيه أبي العباس أحمد الحريري، فقرأ الإمام ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُون﴾[النبأ 1] فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادا﴾[النبأ 7] غِبتُ عن قراءة القارئ وما سمعتُ شيئا، ورأيت شيخَنا أبا جعفر المذكور وهو يقول لي "الْمِهاد العالَم والأوتاد المؤمنون، والمِهادُ المؤمنون والأوتاد العارفون، والمهاد العارفون والأوتاد النبيّون، والمهاد النبيّون

هو الشمسُ في القمر وما ذلك النورُ المنبسطُ ليلاً مِن القمر على الأرض بِمَغيب نورِ الشمس غيرُ نورِ الشمسِ، وهو يُضاف إلى القمر كما قيل في كلام اللّه أنه ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم﴾[الحاقة 40] وقيل في قول الرسول صلى اللّه عليه وسلم أنه كلام اللّه تعالى إذا تلاه. وقول كلِّ تالٍ للقرآن ولكل مَقالة وجهٌ من الصحة، والكشف يكون في كل ما ذكرناه. فأهلُ اللّه اختِلافُهم اتِّفاق لأنهم يرمون عن قوس واحِد؛ فالأمرُ مُتردِّد بين فَناء عينٍ وفَناءِ حال. ولا جامِعَ في العالَم بين الضِّدّين إلا أهلُ اللّه خاصَّة، لأن الذي تحقَّقوا به هو الجامِع بين الضِّدَّين وبه عرَف العارفون. فهو ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِن﴾[الحديد 3] مِن عين واحدة ونِسبة واحِدة، لا من نسبتين مُختَلفتَين، ففارَقوا الْمَعقولَ ولم تُقيِّدْهم العُقول، بل هم الإلَهيّون الْمُحققون، حقّقهم الحقُّ بما أشهدهم.

والأوتاد المرسَلون، إيهْ ماذا!.." وذكرَ من الحقائق الأُوَل ما شاءِ الله أن يذكُر، فرُدِدتُ إليَّ والإمام يقرأ ﴿وَقَالَ صَوَابا؛ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾[النبأ 38-39] فلما فرَغنا من الصلاة سألتُه فوجدتُه قد خطَرَ له في تلك الآية ما شهِدتُه.

وأضجعه إنسانٌ ليذبَحه، والسِّكّينُ في يده والشيخ يَمدُّ له عُنقَه، وهَمّ به أصحابُه ليأخذوه فقال "اُتركوه يفعلْ ما يؤمَرُ به!" فكان يأخُذ السكين ليُمِرَّ بِحَدّه على حُلقومه فيحوِّله الله في يده، حتى رمَى به وترامى بين يديه تائبا! ولولا التطويل لأظهَرْنا من أمره، وأمر غيره ممّن لم نذكره، عجائب من إشاراته وما وقع بيننا وبينه من المسائل الإلَهيّة في المواقف وغيرِها، ولنا فيه أبياتٌ لا أذكرها الآن.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم شيخُنا وإمامنا أبو يعقوب يوسف بن يَخلَف الكوميّ القيسي[131] رضي الله عنه. صحِب أبا مَدْيَنَ ولقي رجالا بهذه البلاد. سكن ديار

[131] قال الشيخ في الباب الحادي والسبعون في أسرار الصوم من الفتوحات: شيخُنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي. ما راضَني أحدٌ مِن مشايِخي سِواهُ فانتفَعتُ به في الرِّياضَة، وانتفَع بنا في مَواجيدِه؛ فكان لي تِلميذاً وأُستاذاً وكنتُ له مَثلَ ذلك. وكان الناس يَتعجَّبون مِن ذلك، ولا يَعرِف واحدٌ منهم سَبَبَ ذلك. وذلك سنةَ سِتٍّ وثَمانين وخمسمِائة، فإنه كان قد تقدَّم فَتْحِي على رِياضتَي، وهو مَقامُ خَطَرٍ. فأفاءَ الله عليّ بتَحصيل الرِّياضة على يَد هذا الشيخِ، جزاه الله عنّي كلَّ خير. ويقول الشيخ في الباب الحادي عشر وثلاثمائة في معرفة مترل النواشئ الاختصاصية الغيبية من الفتوحات: ولقد كنتُ انقطعتُ في القُبور مُدَّة، مُنفرِدًا بنفسي. فبَلَغني أنَّ شيخنا يوسفَ بنَ يَخلَف الكومي

مصر مُدّةً وتأهّل بمدينة الإسكندرية. رغِب في مُصاهرته الحافظ أبو طاهر السِّلَفي. عُرضت عليه وِلاية فاس فأَبَى. له في الطريق قدمٌ راسخة. كان أبو مدين، لسانُ هذه الطريقة ومُحييها ببلاد المغرب، يقول في هذا أبي يعقوب "هو مثل الْمَرسَى القويّ للسفينة!" كان جَزْلا كثيرَ الإرفاد، يُخفي صدقتَه، يُكرِم الفقيرَ ويُذِلّ الغنيَّ ويُسارِع في قَضاء حاجة الفقير بنفسه. دخلتُ تحت أمره فربَّى وأدّب، فنِعم الْمُؤدِّبُ ونعمَ المربِّي! رآه صاحبُنا بدرٌ الحَبَشي[132] وبات عنده.

قال "إنّ فلانًا، وسَمّاني، ترك مُجالَسةَ الأحياء وراحَ يُجالِس الأموات!" فبعثتُ إليه "لو جئتَني لرأيتَ مَن أُجالِس!" فصلّى الضُّحى وأقبل إليّ وحدَه فطلبَ عليَّ فوَجَدَني بين القُبورِ قاعِدًا مُطْرِقًا وأنا أتكلَّمُ على مَن حَضَرَني مِن الأرواح. فجَلس إلى جانِبي بأَدَب قليلاً قليلا، فنظرتُ إليه فرأَيْتُه قد تَغيَّر لَونُه وضاقَ نَفَسُه. فكان لا يَقدِر يَرفَع رَأسَه مِن الثِّقَل الذي نَزَل عليه. وأنا أنظُر إليه وأَتبَسَّم، فلا يَقدِرُ أن يتبسَّم لِما هو فيه مِن الكَرْب. فلما فَرغتُ مِن الكَلام وصَدَرَ الوارِد، خُفِّفَ عن الشيخ واستَراح، ورَدَّ وجهه إليَّ فقبَّل بين عينَيَّ. فقلتُ له "يا أُستاذ، مَن يُجالِسُ الْمَوتَى؛ أنا أو أنت؟!" قال "لا واللهِ، بل أنا أُجالِسُ الموتَى. واللهِ، لو تَمادَى عليَّ الحالُ فَطِسْتُ!" وَانصَرَفَ وتركَني. فكان يقول "مَن أرادَ أن يَعتَزِلَ عن الناس فَلْيَعتَزِلْ مثلَ فلان!"

[132] هو أنجب تلاميذ الشيخ الأكبر وأوفاهم وأحبُّهم إليه. وقد ذكره في العديد من كتبه، فمن ذلك قوله في مقدّمة الفتوحات المكية: رفيقي ضياء خالص ونور صِرف، حبشي اسْمُه عبد الله بدر، لا يلحقه خَسف. يعرف الحق لأهله فيؤديه ويوقفه عليهم ولا يعدّيه قد نال درجة التمييز وتخلّص عند السَّبك كالذهب الإبريز، كلامه حق ووعده صدق... حبيبنا الولي وأخونا الزكي وولدنا الرضي عبد الله بدر الحبشي اليمني، معتَق أبي الغنائم ابن أبي

سمعته يقول "إذا شاء الشيخ أخذَ بيد المريد من أسفل سافلين وألقاه في علّيين في لَحظة واحدة!" كان كبيرَ الهِمّة، الغالبُ عليه طريق الْمَلاميّة. قلّما تلْقاه إلا مُقطَّبَ الوجه، فإذا أبصرَ فقيرا تَبرُق أساريرُ وجهه. رأيته يُدني الفقيرَ من نفسه حتى يُجلِسه على فخِذه، يَخدُم أصحابَه بنفسه. رأيتُه في النوم، وقد انشقّ صدرُه وفيه مِصباح يضيء كأنه الشمس، يقول "يا محمّد هات!" فآتيه بجفانٍ بِيضٍ كِبار فيَتقيَّأ فيها لَبنًا حتى يَملأُها ثم يقول "اِشرَب!" فأشرُب جَفنةً ما دام يَملأ أُخرى. جُلّ ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد الَمَوروري، وسيأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى.

أوَّلُ مسألة ألقاها عليّ في أول ساعة رأيتُه فيها، وقد أقبل عليَّ بكُلِّيته، أن قال "ما الذنبُ الذي يأتيه الْمارُّ بين يدي الْمُصلي حتى يوَدّ أن يقِف أربعين خريفا؟[133]" فأجبتُه على ذلك على حدّ ما وقع له، فسُرّ بذلك. وكنتُ إذا قعدتُ بين يديه وبين يدَي غيره من شيوخنا أرعَد مثلَ الورقة في يوم الريح الشديدة، ويتعثَّر نُطقي وتَنحَدِر جَوارحي حتى يُعرفُ ذلك في حالي، فيؤنِّسني

الفتوح الحراني.اه توفّيَ ببيت الشيخ الأكبر بمَلطية سنة 618 وصلى عليه الشيخ في جماعة، وروى في الفتوحات والدرّة الفاخرة أنه فتح عينيه وتكلّم بعد موته غير ذلك من الكرامات.

[133] عن أَبي جُهيْم قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «لو يعلم الْمَارُّ بين يَدَي الْمُصلِّي ماذا عليه؛ لكان أن يَقِفَ أربعين خَيرًا له مِن أن يَمُرَّ بين يديه!» قال أبو النَّضْر أحدُ الرواة، وهو شيخ مالك بن أنس الإمام: لا أدري أقال: أربعين يومًا أو شهرا أو سنة؟ أخرجه مالك والبخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد.

ويطمع أن يُــباسِطَني، فلا يزيدُني ذلك إلا مهابةً وإجلالا. وكان رضي الله عنه يحبُّني ولا يُظهر ذلك لي، ويقرِّب غيري ويطرُدني، ويصوِّب كلامَ غيري، ويوبِّخني في المحافل والمجالس. ويشتُمني حتى كان أصحابي الذين كانوا معي يَنسُبونني إلى قِلّة الهِمّة، وهم معي تحت نظره وفي خدمته. فما برع من تلك الجماعة غيري ولله الحمد، وكان الشيخ رضي الله عنه يقول ذلك.

ومما شاهدتُه منه رضي الله عنه، ولم أكن قطّ رأيت 'رسالة القُشَيري' ولا غيرَها ولا كنتُ أعرِف أن لأحد في هذه الطريقة تَصانيفَ ولا كنتُ أدري لفظةَ 'التَّصوُّف' على ماذا تنطلِق، فركِب يوما فرَسه وأمرني وآخرَ من أصحابه أن نخرُج إلى الْمُنتبار، وهو جبل عالٍ على فرسخ من إشبيلية. فخرجت أنا وصاحبي عند فتْح باب المدينة وفي يد صاحبي 'رسالة القشيري' وأنا لا أعرف ما القُشيري وما رسالتُه. فصعِدنا الجبل فوجدناه قد سبَقنا وغُلامه مُمسكٌ فرسَه. فدخلنا مسجدا في أعلى ذلك الجبل فصلينا، واستدبَر القِبلةَ وأعطاني الرسالة وقال لي "اِقرأ!" فلم أقدِر أن أضُمّ كلمة إلى أخرى والكتابُ يسقُط من يدي من الهَيبة، فقال لصاحبي "اقرأ" فأخذَه صاحبي وقرأه، وتكلّم عليه الشيخ. فلم يزل كذلك حتى صلَّينا العصر، فقال الشيخ "نترِل إلى المدينة". فركِب فرسَه وأَلزمتُ يديَ رِكابَه، فجعل يحدِّثني بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته، وأنا قد فنِيت في كلامه فلا أُحِسُّ بنفسي، وأرفع إليه وجهي في أكثر الأوقات فأراه ينظُر إلي ويتبسّم، ويَهمِز فرسَه فيُسرع وأسرِعُ معه. ثم وقف وقال لي "اُنظر ما

تركتَ خلفَك!" فنظرتُ فرأيت الطريقَ الذي مشيت عليه كلَّه شَوكًا يَصل إلى مَعقِد الإزار وشوكا آخر منبسِطًا في الأرض، قال "انظرْ إلى قدمَيك" فنظرتُ إلى قدميّ فلم أرَ بهما أثرًا، قال "انظر إلى ثوبك" فنظرت فلم أر أثرا، قال "هذا مِن بركة ذكرِنا أبا مدين؛ اِلزَمِ الطريقَ يا بُنَيّ تُفلِح!" وهَمَز فرسَه وتركني.

أخذت منه مسائلَ كثيرةً ورأيت عنده ما لم أر من غيره؛ إذا أَعطى الْمُجاهدة للمريد يعمَلُها معه، وكذلك للاِثنَين والثلاثة. يعمل مع هذا ومع هذا، فتراه لا يَفتُر. قعَدت معه مرة بعد العصر فرآني أتقلّق للخروج، فقال لي "ما شأنُك؟" فقلت "عليَّ أربعُ حوائجَ أريد أن أقضيَها ولي أيّام أروم قضاءها وأتعمَّل فيها، ولا أجِد الأشخاصَ الذين الحوائجُ بأيديهم!" فتبسّم وقال لي "إن تركتني ومشيتَ، ما تنقضي لك منها حاجة! فاقعُد معي أَذكُرُ لك مِن أحوال أبي مدين، وأنا أضمَن قضاءها" فقعدت. فلما حان وقتُ المغرب قال لي "اُخرجِ الساعةَ إلى مترلك، فإنك لا تصلّي المغرب حتى تنقضي الحوائجُ كلُّها!" فخرجتُ والشمس قد غرَبت فوصلت إلى مترلي ومؤذِّن المغرب يؤذّن؛ فواللهِ ما أحرمتُ بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي! وكان من صِدْقي في صُحبته أني أتمنّاه بالليل في بيتي لِمَسألةٍ تَخطُر لي، فأراه أمامي فأسألُه ويُجيبني ثم ينصرِف، فأُخبره بذلك بُكرة. ويتّفق لي معه هذا بالنهار في مترلي إن اشتهيتُه. ومناقبُه وكراماته وإشاراته أكثرُ من أن تُحصى، فلنضرِبْ عنها في هذه الرسالة صَفحا. ومن شعري فيه حين فارقته وأنا متوجِّه إلى مَرّاكُش وهو بسَلا قاطِن:

إن قيل مَن في الوجود أشرف؟	سيدُنا يوسف بن يَخلفْ
ربُّ الْمعالِي قَلب الْمعانِي	أرقُّ شخصٍ قلبا وألطَفْ
أكرم مَن في الوجود كَفًّا	أعظمُهم رأفَةً وأعطفْ
أثبَتُهم في النِّزال جأشًا	أشدُّهم سطْوةً وأعنَفْ
أكبَرُهم هِمَّة وحالا	أشهدُهم للعُلا وأكشفْ
أوسَعُهم في العلوم باعا	أشرحُهم باطِنًا وأعرفْ
أكملُهم نِسبَةً ونَعتا	أرفعُهم نِصبة وأشرفْ
أطُولُهم في العُلا ذِراعًا	أعلاهم غايةً وأوقَفْ
ألطفُهم في الغُيوب مَعنًى	أوضحُهم حِكمةً وأَوصفْ
قد يُكسَف البَدرُ في عُلاه	وبدرُ مَولاي ليس يُكسفْ

والقصيدة طويلة أودعتُها كتابَ 'إنزال الغيوب على مراتب القلوب' فيما لنا في هذه الطريقة من نَظم ونثر خاصّة.

أفادني شيخنا هذا مسألة الوِصال[134] و«أنا سيّد ولدِ آدم» و «آدمُ فمَن دونه تحت لوائي»[135] و«التدبير نصف العيش»[136] و«إذا أحبّ الله العبد ابتلاه»[137]

---

[134] الوِصال هو وَصْلُ صومِ بلا انقِطاع يومَين أو أكثر، دونَ فِطْر ولا سَحور. وقد نَهى الشارعُ عنه. فعن عبد الله بن عمر أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال، قالوا : إنكَ تُوَاصِل! قال «إني لستُ مثلكم —وفي رواية «كَهَيئتِكم» إني أبيتُ عند ربي يُطعِمُني ويَسقيني». خرّجه البزّار ر9008 وابن رأهَوَيه بهذا اللفظ، وأصلُه عند البخاري في الصَّوم ومسلم وأبو داود ومالك، وغيرِهم.

و«قلبُ القرآن يس»[138]، و لم يسبِقه أحدٌ إلى هذه المسألة في بلادنا، وغيرُ ذلك مما لا أذكره الآن.

---

[135] أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخُدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أنا سَيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة ولا فَخْرَ، وبيَدي لِواءُ الحَمْدِ ولا فَخر، وما مِن نَبيٍّ يومَئذ، آدمُ فمَن سواه، إلا تَحت لِوائي، وأنا أوَّلُ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ ولا فخر». وهو عند مسلم وأبي داود عن أبي هريرة.

[136] عن عليٍّ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال «التّدبيرُ نِصْفُ العَيشِ والتَّودُّدُ نِصفُ العَقل والْهَمُّ نِصف الهَرَم وقِلَّة العِيال أَحَدُ اليسارَين» أخرجه القُضاعي في مسند الشهاب والديلمي في الفردوس عن أنس بن مالك.

[137] أخرج البيهقي في شُعب الإيمان ر9786 بسنده إلى هشام الدستوائي عن حماد عن أبي وائل عن ابن مسعود أو غيره من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم، شكَّ هشامٌ، أنه قال «إذا أحبَّ الله عبدًا اِبتلاه، فمِن حُبِّه إيّاه يُمِسُّه البَلاءَ حتى يَدعُوَه فيَسمعَ دُعاءَه». ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، وله شواهد عند الطبراني وغيره عن علي وأبي قَتادة وأنس وأبي عتبة الخولاني.

[138] عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ لكل شيء قلبًا، وإنّ قلبَ القرآن يس؛ مَن قرأَها فكأنَّما قرأَ القُرآن عَشرَ مرّات» أخرجه الدارمي في سننه والبيهقي في الشُّعب والقُضاعي في مسند الفردوس. وعن مَعقل بن يَسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «البقرة سَنامُ القرآن وذِروته، نزَل مع كلِّ آيةٍ منها ثَمانون مَلَكا واستخرجت ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم﴾[البقرة 255] من تحت العرش، فوُصلت بها. يس قلب

ومنهم رضي الله عنهم صالح البربَري[139]. كان بالله عارفا ومع الله في كل حالة واقفا، تاليا لكتابه العزيز آناءِ الليل وأطراف النهار. لم يتّخذ مسكَنا قط ولا تَداوَى قط؛ كان يعمل على مقام السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب[140]. كان لا يُكلِّم أحدا ولا يجالسه. يأتي عليه أوقاتٌ يدخل في صلاة

القرآن، لا يقرؤها رجل يريدُ الله تبارك وتعالى والدار الآخرة، إلا غفر له. واقرؤوها على مَوتاكم». أخرجه أحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة.

[139] وفي المطبوعات أنّ صالح العَدوي، وكذلك جاء اسمُه في الفتوحات: صالح البربري. و لم أقف له على ترجمة، ولعل هذا من كرامتِه عند الله تعالى. ألا ترى أنَّ وصف الشيخ له يدلُّ على خُمولِ ذِكرِه في الناس، شبّهه بأويس الذي كان يفرّ من كلّ مَن عرفَه.

[140] روى البخاري في الطب عن عبد الله ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِضَت عليّ الأُمَمُ فجَعَل النَّبيُّ والنبيّان يَمُرُّون معهم الرَّهْط، والنبيُّ ليس معه أَحدٌ. حتى رُفِعَ لي سَوادٌ عَظيم، قلتُ: ما هذا، أمّتِي هذه؟ قيل: بل هذا موسَى وقومُه، اُنظُر إلى الأُفُق. فإذا سَوادٌ يَملأُ الأُفُقَ. ثم قيل لي: اُنظُر ها هُنا وها هُنا في آفاقِ السَّماء. فإذا سَوَادٌ قد مَلأَ الأفقَ. قيل: هذه أمَّتُك، ويدخُل الجنَّةَ مِن هَؤلاء سبعون ألفًا بغَير حِساب» ثم دَخَلَ صلى الله عليه وسلَّم و لم يُبيِّن لهم. فأفاض القومُ وقالوا "نحن الذين آمنّا بالله واتَّبعنا رسولَه، فنحن هم أوْ أولادُنا الذين وُلِدوا في الإسلام، فإنّا وُلِدْنا في الجاهليّة" فبلغَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فخرج فقال «هُمُ الَّذين لا يَستَرْقون ولا يَتَطيَّرون ولا يَكْتَوُون وعلى ربِّهم يَتوَكَّلون» فقال عُكّاشة بن مُحْصِن "أمِنهم أنا، يا رسول الله؟" قال «نعم» فقام آخر فقال "أمنهم أنا؟" قال «سَبَقَك بها عُكَّاشَة!» والحديث عند مسلم والترمذي وغيرهما عن عمران

سُبحة الضحى، فلا يزال واقِفًا في الركعة الأولى حتى يقال له "قد زالتِ الشمس!" كان إذا قام إلى الصلاة في اليوم الشديد البرد يُلقي عنه ثيابَه حتى يَبقى في قَميص واحد وسراويل وعَرَقُه يتصبَّب كأنما هو في ديماس. له في صلاته زَئير وهَمهمة لا يُفقه ما يقول. لا يدَّخر شيئا لغد ألبتَّة ولا يقبَل ما لا يَحتاج إليه لا لنفسه ولا لغيره. كان يأوي ليلَه إلى مسجد أبي عامر الرُّطُندالي المقرئ. صاحبتُه سنين، أكاد أعُدّ كلامه معي من قِلّته.

كان في بعض السنين يُفقَد من البلد إذا قرُب عيد الأضحَى، فأخبَرني فقيهٌ شاهِدٌ مِن شُهود البلَد أنه يحضُر الْمَوسِم بعرفات؛ أخبره بذلك مَن شاهده. كان له بِنا تعلُّقٌ وإلى جهتِنا تأمُّل، انتفعنا به. أخبرني بأمور في حقي مما يتَّفق لي في المستقبَل، فرأيتُها كلَّها، ما غادرت منها كلمة واحدة! خدَمه أبو علي الشكّاز في مرضه. لم يزل بإشبيلية على هذه الحالة أربعين سنة حتى مات بها، فغسَّلناه ليلا وحملناه على رِقابنا إلى مقبرته، وتَركناه وانفصلنا عنه حتى صُلّي عليه ودَفنه الناس. لم أر بعده على حاله مثلَه، كانت حالتُه تُشبِه حالةَ أويس، وله أخبار كثيرة يطول ذكرُها.

* * *

بن حُصين وأبي هريرة وأبي أُمامة وغيرهم. والحديث يحثُّ على تركِ الأسباب العادية مثل التداوي والرُّقية والجِراحة عندَ المرَض، توكُّلاً على الله تعالى.

ومنهم أبو عبد الله محمد الشَّرَفي[141] رضي الله عنه. كان يُلازم الصلوات الخمس بجامع العَدَبَّس[142] بإشبيلية. كان يعيش من الأفيون، يخرُج إليه في وقته فيجمَعه، فيشتريه منه قومٌ مَعلومون بالورَع وأنّ المال الذي بأيديهم حلال. تورَّمت قدماه من طُول القيام، كان إذا وقف في الصلاة تتحدَّر دموعُه على بَياض لِحْيته كأنها اللُّؤلؤ. سكَنَ مَوضِعًا نحوًا من أربعين سنة ما أوقد فيه سِراجا ولا نارا؛ بالغ في العبادة جهدَه. لقيَني يوما وأنا واقف على مَعتوه عندَنا في جملة الناس، فلم نشعُر به حتى أخذ بأُذني وأخرجني من الحلقة وقال لي "أنت تفعلُ هذا؟!" فخجِلتُ ودخلت معه الجامع. كان يخبرني بالشيء قبل كَونه فيكون كما يخبرني. لم يتّخذ قط في المسجد موضِعا مُعيَّنا ولا صلّى قط في موضع واحد من المسجد صلاتين.

لا يَجرؤُ أحد عليه أن يقول له "اُدعُ لي!" فالذي يريد أن ينتفع بدعائه يُراقبه إذا دخل المسجد أين يصلي منه، فيُحرِم بالصلاة إلى جانبه. فإذا قعَد، يدعو صاحبُ الحاجة بما يريده ويُعلن، فيقول الشيخ "آمين" خاصّة؛ هكذا كانت دَعْوتُه. وسألته أنا في الدعاء فدعا لي. وقد بدأني بالدعاء، ولله الحمد وكلَّمني قبلَ أن أُكلمه، فإني كنت أهابُه. وانتفعت به وعاينت من بركاته. إنه لما

---

[141] لم أجد له ترجمة غير أن الشيخ ذكره في جملة الملاميَّة في الفتوحات المكيّة.

[142] مسجد إشبيلية الجامع. بني عام 830 بإشراف قاضي المدينة عمر ابن العَدَبَّس وبأمر من الملك الأموي عبد الرحمن الثاني.

اقترب موتُه أخلَى مسكنَه وقال "أريد سَفرا" فخرج إلى القرية التي كان منها في الشَّرَف على فرسخَين، فلما وصل إليها مات بها رحمه الله تعالى.

ونظَر يوما إلى غُلام صغير على رأسه مِكْتَل فيه رازيانج، ورآه متحيِّرا فأشفق عليه. فاستدْعاه والناسُ يرَونه فقال "ما شأنُك يا ولدي؟" قال "يا عمّ مات أبي وترك أولادًا صغارا، وليس لنا شيء؛ فأصبحنا يومَنا هذا وما عندنا ما نأكُل! وكان عند والدتي هذا الرازيانج فقالت: يا بُنَيّ خُذْه وبِعه وسُق لنا به قوتَ اليوم إن كفى" فبكَى الشيخ، وأدخل يدَه في المِكْتل وأخذ منه حبّات وقال "هذا شيء طيِّب! يا صَبي، قُل لأمِّك: عمّي الشرَفي أخذ منه قليلا. تجعلْني منه في حِلّ!" فأخذ بعضُ التُّجّار المكتل بالرازيانج من الصبي وقال "شيءٌ أخذ منه هذا الشيخُ حَلَّت فيه البرَكة!" فمشَى إلى أم الصبي ودفع لها في المكتل سبعين دينارا مؤمِنيّة. وإنما قصد الشيخ هذا رحمةً بهم رضي الله عنه.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو يحيى الصِّنهاجي[143]. كان قد عمِيَ وقد أَسَنّ. كان يرتُب بمسجد الزبيدي حتى مات، ودفناه بالْمُنتبار وبِتنا عليه. عاشَرتُه فرأيته مجتهدا في العبادة، وله قَدمٌ راسخة في الرياضات والإشارات. كبيرُ الشأن. ما رأيتُه قط يقعُد إلا على كرسيٍّ صغير. مات عندنا بإشبيلية رحمه الله، وظهرَت له كراماتٌ بعد موته؛ فإن الجبل الذي دفناه فيه عالٍ لا يَخلو عن الريح أبدا،

[143] لم أجد له ترجمة، وذكره الشيخ في جملة الأقطاب المدبرين، وأنّه من الملاميّة.

فسكَّن الله الريحَ في ذلك اليوم، واستبشر الناسُ وباتوا على قبره يقرؤون عليه القرآن. فلما نزل الناس هبَّت الريحُ على عادتِها. كانت صُحبتي إياه شهورًا قبل موته. كان من أهل السِّياحات مُلازما للسواحل مؤْثرا للخَلوة.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو الحَجّاج يوسُف الشُّبُربَلي[144]، من شُبُرْبَل قريةٍ بالشرَف على فرسخين من إشبيلية، كان أكثرَ إقامته بالبادية. صحِب أبا عبد الله بن المجاهد. كان يعيش من عمل يده. دخل الطريقَ قبل الحُلُم و لم يزل عليها حتى مات. كان ابن المجاهد، إمامُ هذه الطريقة ببلادنا، يقول "اِلتمسوا الدُّعاءَ من أبي الحجاج الشُّبُربَلي!" وكان يُكْبِره إذا زاره. أخبرني أبو الحجاج هذا بنفسه قال: كانت زيارتي لابن المجاهد شيخِنا كلَّ يوم جمعة، فجئتُه أزوره يومَ جمعة على عادَتي فوجدتُه واقِفا على البناء، يبني حائطَ داره التي يسكُن بها وكان قد تَهدّم، فبناه ليستُر عِيالَه. فسلَّمتُ عليه فقال لي "خالفتَ عادتَك يا أبا الحجّاج، جئتَ يوم الخميس!" فقلت له "بل هو الجمعة" فضرب يدًا على يد وصاح "أوّاه، هذا ما فعل الضروريُّ الذي لا بُدّ منه؛ فكيف لو زِدْنا؟!" وناح وبكَى على نفسه وتحسَّر على وقته. فكان أبو الحجاج متى ذكر لي هذه الحكاية يبكي ويقول "هكذا تكون الرجال؛ ينوحون على فَواتِ حُظوظهم مِن الحضور مع الله!"

---

[144] لم أجد له ترجمة. وذكره الشيخ، في الباب الحادي والخمسون من الفتوحات، في جملة الرجال من أهل الورع الذين تحققوا بمنزل نَفَس الرحمَن.

كان شيخنا هذا أبو الحجاج كبيرَ الشأن، لم يزل يأكُلُ مِن عمل يده حتى ضعُف عن العمل، فصار يأكل من الفَتْح. وكان لما أسنَّ وثقُل عن الحركة يبكي ويقول "يا بُنَيّ، فتح الله عليّ بابَ قصْد الناس إليّ وزيارتِهم، وعرَّض بي للفِتَن؛ ومَن أنا؟! ويا ليتني سلِمت. ووددِتُ أني أجِد قوّةً حتى أزورَ الناسَ في ديارهم، ولا يجيئون إليّ!" وكان رحمةً للعالَم. كان إذا دخل عليه عُمّال السلطان يقول لي "يا بُنَيّ هؤلاء هم أعْوان الحق المشتغِلون بأسباب العالَم، ينبغي للناس أن يتفرَّغوا للدعاء لهم أن يُجريَ الله الحق على أيديهم ويُعينَهم!" وكان يَقبَل مِن السلطان. ما دخل عليه أحد قطّ وعنده في بيته ما يؤكل إلا يجعله أمامَ الداخلين، كثُروا أو قَلّوا وكثر الطعام أو قلّ، لا يترُك شيئا يكون له ألبتَّة. ولقد رأيتُه ودخل عليه جماعةٌ فقال لي "يا بُني أنزِل إليهم الْمِكتَل!" فأنزلتُه فلم أجِد فيه غيرَ مِلْءِ الكفِّ حُمُّصا، فجعلته بين أيديهم فتناوَلوا منه. رأيتُ له بركات كثيرة؛ كان مِمّن يمشي على الماء.

كان له بداره بالقرية بئر يستقي منها لوُضوئه، فرأينا بجانب البئر شجرةَ زيتون قد علت وأورَقت وحَملت، جِسمُها غَليظ، فقال صاحبي "يا سيدنا لِم غرَستَ هذه الزيتونة في هذا الموضع وضيَّقت بها على البئر؟" فالتفت إلينا ونظر، وكان قد انحَنى ظهرُه من الكبَر، فقال "إني رُبِّيتُ في هذه الدار من صِغري، ووَالله ما رأيت قطُّ هذه الزيتونة إلا الآن!" فكان بهذه الْمَثابة من الاشتغال بقلبه. ما

دخلت قطُّ عليه، لا أنا ولا غيري، إلا وجدتُه قارئا في المُصحَف؛ لم يُمسك كتابا غيرَ المصحف حتى مات.

وكانت له هِرّةٌ سَوداء، لا يستطيع أحدٌ أن يُمسِكها ولا يُلقي يدَه عليها، وكانت ترقُد في حَجْره. فكان يقول لي "جعل الله لي في هذه الهرة تمييزًا للأولياء؛ فهذا الفِرار الذي ترى فيها ما هو سُدًى جملة، فقد جعلها الله تأنَس بالأولياء!" فشاهدتُها مِرارًا عنده؛ يدخل إنسانٌ فتَحُكّ خدَّها على رِجْلِه وتَتعلَّق به، ويدخُل آخرُ فتَفِرُّ منه. ولقد دخل عليه شيخُنا أوّلَ ما دخل عليه، نعني أبا العباس العُريبِي رحمه الله تعالى الذي ذكرتُه أوّلا، وكانت الهِرة في البيت الآخَر، فخرجَت من البيت ونظرتْ إلى شيخنا أبي جعفر قبلَ أن يجلس، وشيخُنا أبو الحجاج يقول له "اِجلس!" فوثَبت وثبةً إلى صدر الشيخ أبي جعفر وفتحت يدَيها على عُنقه، فعانقته ومرّغت وجهَها على لِحْيته. فقام إليه أبو الحجاج حتى أَجْلَسَه ولم يقل له شيئا، فلم تزل عنده حتى خرج من عنده. فأخبرني أبو الحجّاج أن ذلك الفعل ما رآها فعلته قطُّ مع غيره.

وجاءه رجل وأنا عنده في جماعة، وفي عينَيه وجَعٌ شديد، يَصيح منه مثلَ النُّفَساء. فدخل عليه وقد شقَّ على الناس صِياحُه، فاصفرّ الشيخ وارتعد. فرفع يدَه المباركَة ووضعها على عينيه، فسكن الوجعُ مِن حينه واضطجع الشخص كأنه الميِّت. ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس. وكان له صاحِبٌ من صالِحي مؤمِني الجِنّ يُلازمه أبدا، لا يبرَح من عنده.

دخلت عليه يوما مع شيخنا أبي محمد الْمَوروري رضي الله عنهما، فقلت "يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين" فتبسّم الشيخ وقال "عَجَبا، أمسِ كان عندنا أبو مدين، رضي الله عنه؛ نِعْمَ الشيخ!" وأبو مدين إذْ ذاك ببِجاية، وبينهما مسيرةُ خمسةٍ وأربعين يوما؛ فكان كَشْفا بينهما. وكانت هذه الحالة تتّفق لي كثيرا مع أبي يعقوب، فإن أبا مدين كان قد سكَن عن الحركة. وأحفظُ من أخباره مما شاهدته وسمعته كثيرا، تضيق هذه العُجالة عنه؛ وهكذا كلٌّ من أذكره، وإنما أذكره ليُعلم أن الزمان لا يَخلو من الرجال.

* * *

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قَسّوم[145] رضي الله. صحِب ابنَ الْمُجاهد وقرأ عليه حتى مات، واستخلفه في موضعه؛ فجرى على حالته وزاد. جمع بين العلم

[145] قال أبو عبد الله القضاعي: محمد بن قسوم بن عبد الله بن قسوم بن عبد الله الفهمي الزاهد. من أهل إشبيلية، يكنّى أبا عبد الله. صحِب أبا عبد الله بن المجاهد واختصّ به، وهو كان مُؤذِّنَه في مسجده أيامَ حياته، والذي خلفَه فيه بعد وفاته. وسمع منه الموطَّأ وحدَّث به ومُسنَد ابنِ أبي شَيبةَ ورسالةَ ابنِ أبي زَيد وغير ذلك. وكان فَقيهًا وَرِعًا مُنقَبِضًا عن الناس، نَحويًّا ماهِرا، صاحبَ علم وعمل. وُلد مُنتصَفَ شعبان سنةَ إحدى وعشرين وخمسمائة وتُوفِّي بعد العصر من يوم الأربعاء الخامس والعشرين لربيع الآخِر سنةَ ستٍّ وستِّمائة، ودُفن يومَ الخميس بمقبَرة النخيل وصُلِّي عليه على شَفير قبره عندَ دخول وقت العصر وهو ابن خمس وثمانين سنة. حدث عنه صاحبُنا أبو بكر بن سيد الناس. التكملة لكتاب الصلة، ج2/ص93-94، الفكر.

والعمَل وكان مالكيَّ المذهب، قائلا بشرَف العلم ومَرتبَتِه. صحِبتُه وقرأت عليه ما يصلُح لي في طهارة وصلاة، وسمعت عليه.

كان دعاؤه في خاتِمة مَجلِسه أبدا: اللَّهُمّ أَسْمِعنا خَيرًا وأطِلعنا خيرا، وارزُقنا اللهمّ العافيةَ وأدِمها لنا، واجمع اللهمَّ قلوبَنا على التقوى ووفّقنا لما تحبه وترضاه ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ؛ وَاعْفُ عنا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا! أَنتَ مَوْلاَنَا؛ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين!﴾[البقرة 286] وهو الدعاء الذي اِلْتزَمناه في خَواتم مَجلسنا. ورأيت النبيَّ عليه السلام في المنام بالحرَم وقارئٌ يقرأ عليه 'صحيحَ البخاري' فلما فرَغ دعا بهذا الدعاء فزدتُ عليه غِبْطة.

كان رضي الله عنه من أهل الجِدّ والاجتِهاد غاية، وكان مُعتدلَ العبادة. اِلتزم وظائفَ عمَّر بها أوقاتَه، لم يزل مُحافِظًا عليها حتى الآن. له زِمامٌ يُقيِّده كلّ يوم حتى الليل، يحاسب به نفسَه، فلا ينام إلا عن مُحاسَبة. فإذا وَجد خيرا يحمَدُ الله، وإذا وجد غيرَ ذلك يقابله بما يجب له من الاستغفار والتوبة وما يجري مَجرَى ذلك؛ هكذا كلَّ ليلة.

كان يعيش من خياطة القَلَنسِيات. فقعد يوما وقد فرَغت نفَقتُه فأخذ الْمِقصّ وأسبابَ شُغله، فسمِع الباب قد فُتح ثم أُغلِق. فخرج فلم يجد أحدا، وقد رُمي له بستَّة دَنانير. فأخذها ودخل ورمَى بالمقصّ في البئر وقال "الله يُدبِّر عَيشي

وأنا أدبِّره وأتعنَّى فيما ضُمِن لي؟! الرِّزقُ يطلُبك لا أنت تطلبه!" فلازم بابَ الفتْح وترك الحِرفة إلى الآن.

قسَّم ليلَه ونهارَه على ما أقول لك: إذا صلّى الصُّبح قعد يذكُر الله حتى تطلُع الشمس، فيركَع ركعتين. ويدخُل منزله، فيأخذ كُتبَه ويخرُج إلى الطلَبة فيقرؤون عليه العلمَ إلى ارتفاع النهار، ويدخل منزله. فإن لم يكن صائما أخذ شيئا من الغَذاء وصلى ضُحاه ونام يسيرا، ثم يقوم فيُسبغ الوضوء، فإن كان له تقييدٌ قيَّده وإلا ذكَر الله. فإذا جاء وقتُ الظهر فتح المسجد وأذَّن، ودخل منزِله يتنفّل ويذكر الله تعالى إلى دُخول وقت الصلاة متمكِّنا، فيخرج إلى المسجد يقيم الصلاة ولا يتنفّل. يتمايل في مِحرابه تَمايُلَ النَّشوانِ مما يجد في باطنه من الوَجْد بكلام الله تعالى، فإذا سلّم خرج وتنفّل راتبةَ الظهر وأخذ الْمصحَف ففتحه على رُكبته ومشَى بيديه على حروفه، وعيناه في المصحف، يرتِّل القرآن بحَنانٍ وتدبُّر حتى يُتِمّ خمسةَ أحزاب وقد حان العصر. فخرج فأذّن ودخل منزله يتنفل حتى تجتمع الجماعة، فيُصلّي بهم ثم يدخُل منزلَه يذكر الله فيه حتى يحين المغرب. فيخرج ويؤذّن ويصلي ويدخل بيتَه فيُحْيِي بين العِشائين، حتى يحين وقتُ العتَمة أو قُربَها أسرج القناديلَ في المسجد وأذّن ودخل منزله يتنفّل حتى تجتمع الجماعة فيخرج ويصلي بهم. ثم يُغلق بابَ المسجد ويدخُل منزلَه ويُحضِر زِمامه، فيُحاسب نفسَه في حرَكاته وألفاظه وجَميعِ ما يعلم أن الْمَلَك يُقيِّده عليه؛

فتكون حالته على حسَب ما يجده في صحيفته. ثم يقوم إلى سَريره فينام، فإذا مضى من الليل جزءٌ قام.

فإن كان أصاب أهلَه اغتسل ودخل مُصلاّه، يترنَّم بالقرآن ويتلذَّذ به؛ تارةً في حضرة التوحيد وتارة في الجنّة وتارة في الاعتِبار وتارة في الأحكام، بحسَب ما تُعطيه الآية، حتى يُصبح. فيخرج من صلاته وقد اِطّلع على علوم كثيرة في تلاوته مِن الله تعالى لم تكن عندَه، فهَّمه الله إيّاها من القرآن؛ قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه!﴾[البقرة 282] فإذا طلَع الفجر فتح المسجد وأذّن وأسرَج، ودخل منزلَه فركع سُنّةَ الفجر وقعد في منزله يذكُر الله حتى يُسفِر، فإذا أَسفر خرج فصلّى بالناس. هكذا دَيدَنُه ودأْبه. لا يأتَدِمْ في الجمعة إلا مرّتين: ليلةَ الاثنين وليلةَ الجمعة. سُنِّيُّ الحال والمقام كبيرُ المعرفة، قلّ أن يُرى مثله. جَمعتُ بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي، وصلّى خلفَه.

* * *

ومنهم أبو عمران موسى بن عِمرانَ الْمِيرْتُلي[146]. أنشدني لنفسه في شعر مُجنَّس، يخاطب نفسَه:

---

[146] قال شمس الدين الذّهبي: موسى بن الحسين بن موسى بن عمران القيسي، أبو عمران الميرتلي، الزاهد نزيل إشبيلية. صحِب أبا عبد الله ابن الزاهد، واختصَّ به ولازمه. قال الأبّار: كان منقطِعَ القرين في الزُّهد والعبادة والورع والعُزلة، مشارًا إليه بإجابة الدعوة، لا يُعدَلُ به أحد. وله في ذلك آثار معروفة، مع الحظ الوافر من الأدب والتقدُّم في قَرْض الشِّعر، وذلك في الزهد والتخويف وقد دوَّن. وكان مُلازمًا لِمَسجده بإشبيلية يُقرِئُ

فأنت ابنُ عِمرانَ موسى الْمُسيءُ   ولستَ ابنَ عِمران موسى الكَليما!

كان رضي الله عنه قد أخذ نفسَه بالشدائد؛ لزِمَ بيته مُنذ ستين عاما لا يخرج إلى الآن. جرَى على طريقة الحارث بن أسد الْمُحاسِبِي، لا يقبَل من أحد شيئا ولا يطلُب حاجةً لنفسه ولا لغيره.

رأيت له رؤيا تدلُّ على انتقاله من مَقامه إلى ما هو أعلى منه، فقال لي "بشَّرتَني، بشّرك الله بالجنة!" فلم يكن إلا يَسيرًا ونال المقام الذي رأيتُ له.

ويُعلِّم. ولم يتزوج قط. تاريخ الإسلام ج43/ص164، دار الكتاب العربي، بيروت. وأصله من ثغر ميرتُلة وسكن إشبيلية. توفي سنة أربع وستمائة. من مليح شعره:

وللنفوسِ وإن كانت على وَجَلٍ   من الْمَنِـيَّة آمـالٌ تُـقوِّيها

فالْمَرءُ يَبسُطُها والدَّهرُ يَقبِضُها   والنّفسُ تَنشُرُها والْمَوتُ يطويها

لذا تبادل معه الشيخ القصائد في الزهد والمعارف، ومن ذلك قوله:

إلى كَم أقولُ ولا أفعلُ   وكم ذا أحومُ ولا أنـزِلُ

وأزجُرُ نَفْسي فلا تَرْعوي   وأنصح نَفسي فلا تَـقبَلُ

وكم ذا تُعلِّل لي وَيْحَها   بِعَلَّ وسَوفَ وكَم تُمطِلُ

وكم ذا أُؤمِّل طُولَ البَقاءُ   وأغفُلُ والْموتُ لا يَغفُلُ

فيا ليتَ شعريَ بعد السّؤال   وطول الْمَقام لِما أُنقَـلُ

وكان يؤثر العُزلة ويفرُّ من الخلق ليصفُوَ له الحال ويتجرّد لربِّه، فمن ذلك قوله:

إلْمامُ كلِّ ثَقيلٍ قد أضرَّ بنا   يزيدُ بعضهمُ والشيءُ يزدادُ

ومَن يَخِفُّ علينا لا يلمُّ بنا   وللثقيل مع السَّاعاتِ تردادُ

انتهى مما نقله ابن الأبّار في تحفة القادم ص30، موقع الوراق.

فدخلت عليه في اليوم الذي حصَل فيه والسرورُ بادٍ على وجهه، فقام إليّ وعانَقني، فقلت له "﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾[يوسف 100] وبقَيتْ دعوتُك أن يبشِّرني الله بالجنة!" فقال "يكون إن شاءِ الله!" فما تَمّ الشهر حتى بشّرني الله بالجنة، بإيجاد آية منه إليّ ظهرت لي مُصدِّقةً لدعوَى الْمُبشِّر عنه تعالى، تحدّى بها على صِدق بُشراه لي بالجنة. فأنا أقطَع بها ولا أشُكّ ألبتّةَ في أني من أهل الجنة، كما لا أَشكُّ في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. غيرَ أنه لا أدري أتَمسُّني النارُ أم لا. عافانا الله تعالى وإياكم. وأرجو مِن كَرمِه أن لا يفعل!

ولهذا الشيخ شأنٌ كبير ومعرفة تامّة وأدبٌ عظيم؛ مَقبوض في عُموم أحوالِه، حسَنُ البَشاشة لزُوّاره. لنا معه مواطنُ عجيبة. كانت هِمَّته متعلِّقة بالله في حفظِنا وعِصمتنا من الفتَن والرُّجوع، فقضى حاجتَه في ذلك وشهِد لي بها وبشَّرني. وقال لي منه إليّ بمَحضَر صاحبي عبدِ الله بدرٍ الحَبَشي "كنتُ أتخوَّف عليك جدًّا لصِغر سِنّك وعدَم الْمُعين وفَساد الزمان، وما ظهر لي في أهل هذه الطريقة من الفساد، وهم الذين ألْزموني بيتي لِما عاينتُ من فَساد الأحوال؛ فالحمد لله الذي أقرَّ عيني بك!"

أنشدَني من شِعره كثيرا، وطلب مني أن أقيِّد له من شعري، ففعلتُ وقرأتُه عليه وسُرّ به. فممّا كتبتُ له أبياتا استحسَنها جِدّا ووقعَت منه بموقِع، فكان منها:

تركتُ هوايَ في هواه فلا هَــوى وكلُّ مُــحبٍّ لم يَكُــنه فقد هَوى

وأجريتُ طَرْف الأُنس في حَلَبة الفَنا وجُزت بحار الشوق في مَركب القُوَى

وألقيت مَرسَى الوَصل في ساحِلِ الرضا ونادانِي الْحقُّ الْمُــبين من الــهَوا:

ألا فاكتُبوا عبدي من العارفين بِي! وهذا نداءُ الْحَــقّ في موقف الاستوا

فراجعتُه لــمّا ســمِعت نــداءَه بأن: ليس لِي همٌّ ولا بُغية سِوى

وِصالِك يا مولًى أُلــوذ بقُربــه؛ فإنّي أخافُ سَطْوةَ البَين والنَّوى!

فآمَنَــني من كل شيء وقال لي: ظنونَك حسِّن، إنّ للمرء ما نوى!

ولا أذكر من القصيدة اليومَ إلا هذا، وخرجت عني منها أبيات ذكرتها في كتاب 'إنزال الغيوب'. ومن ذلك أيضا:

مُذ حلّ كاتبُ حُبِّ الله في خلَدي وخطَّ سَطرا من الأشواق في كبِدي

ذُبت اشتياقًا ووَجْدا في مــحبَّته فآهٍ من طول شوقي آه من كمَدي!

يا غايةَ السُّؤل والمأمول، يا سنَدي شوقــي إليك شديدٌ لا إلى أحدِ

يدِي وضعتُ على قلبي مَخافةَ أن يُشَقّ صدري لــمّا خانني جَلَدي

ما زال يرفعُها طَورًا ويــخفِضها حتى جعلتُ يديَ الأخرى تشُدّ يدي

مَرَّ الفؤادُ عن الْجُثمان مُرتــحِلاً إلى الحبيب الذي يُغني وليس يدي

ما زلتُ أطلُــبه وَجدا وأنــدُبه بعَــبْرةٍ حيَّرتــها وَفْرةُ الــعِددِ

حتى سَمعتُ نداءَ الحق من قِبَلي: مَن كان عِندي لم ينظُر إلى أحدِ؛

فمُت بوَجدك أو مُت إن تشأْ طرَباً فإنّ قلبك لا يَــلوي على الْجَسدِ!

فقمتُ والحبُّ يطويني ويــنشُرني وصِحت من شِدّة الأفراح: واكَبدي!

لَمّا شهِــدتُك يا مَن لا شــبيهَ له لا فرْقَ عندي بين الفَــرْد والعَدَدِ

فالنفسُ تَـــعرِفه عِلمًا وتُـــبصِره عَينًا وتَـــشهدُه في الوقت والأبدِ
مَن عاين الذاتَ لم ينظُر إلى صِفة، فإن فيها حجابَ الضَّيف بالصَّفَدِ!

دخلت على هذا الشيخ فقال لي "يا بُنَيّ عليك بنفسك" فقلت له "إن شيخنا أحمد العُرَيبي دخلت عليه فقال لي: يا بني عليك بالله؛ فمِمَّن أسمع؟" فقال "يا بني أنا مع نفسي وأحمد مع ربّه، وكل واحد منا دلَّك على ما يقتضيه حالُه؛ فبارك الله لأبي العباس وأوصلَني إليه!" فهذا ما عاينتُه من إنصافه.[147] كان يُباسطني غايةَ البَسط، فلا يزيدني ذلك إلا مَهابة منه وتعظيما، فكان يتعجّب من

[147] يقول الشيخ في الباب الثاني والتسعون في معرفة مقام ترك الورع من الفتوحات: اِتّفق لي في بدايتي –وما ثَمّ إلا بدايةٌ وأمّا النِّهاية فمَقولةٌ غيرُ معقولة– دخلتُ على شيخنا أبي العباس العُرَيبي وقد تكدَّر عليّ وقتي لِما أرى الناسَ فيه من مُخالَفةِ الحقّ فقال لي صاحبي "عليك بالله" فخرجتُ مِن عنده ودخلت على شيخنا أبي عمران الميرتُلي وأنا على تلك الحالة فقال لي "عليك بنفسك" فقلت له "يا سيدنا، قد حِرتُ بينكما؛ هذا أبو عباس يقول: عليك بالله. وأنت تقول: عليك بنفسك. وأنتُما إمامان دالاّن على الحقّ؟!" فبكى أبو عِمرانَ وقال لي "يا حبيبي، الذي دلّك عليه أبو العباس هو الحقُّ وإليه الرُّجوع، وكلٌّ واحدٍ منّا دلَّك على ما يَقتضيه حالُه. وأرجو إن شاء اللهُ أن يُلحِقَني بالمَقام الذي أشار إليه أبو العباس. فاسمَع منه فهو أَولَى بي وبك." فما أحسنَ إنصافَ القوم. فرجَعت إلى أبي العباس وذكرتُ له مَقالة أبي عمران فقال لي "أحسن في قوله. هو دلّك على الطريق وأنا دَللْتُك على الرَّفيق. فاعمَل بما قال لك وبما قلتُه لك، فتجمعَ بين الرفيق والطريق."

حِفظي للأدَب معه في حينِ بَسطه معي، فيرجِع من الْمُباسطة إلى باب العُبودية فحينئذ أباسطه لسرِّ عجيب، إن تأمّلتَه يا وليي وقفتَ عليه إن شاء الله تعالى.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم الأخَوانِ الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط[148] وأبو العباس أحمد الحرّار الإشبيليّان، رضي الله عنهما. صاحبتُهما زمانا بإشبيلية حتى إلى عام تسعين وخمسمائة. خرجا يريدان الحج، وهو العام الذي رحَلت إليك فيه يا وليي، ووصلا مكّة. فأما أحمد فجاور بها سنةً وخرج إلى مِصرَ ودخل طريق الْمَلامِيّة[149]، وأما محمد فجاور بها خمسةَ أعوام ولَحِق بأخيه بمصر. لما

---

[148] لم أجد لأبي عبد الله هذا ترجمة.

[149] قال الشيخ في الباب السابع والسبعين من الفتوحات: الْمَلامية، وقد يقولون الملامتية، وهي لغة ضعيفة. وهم سادات أهلُ طريق الله وأئمَّتهم. وسيُّد العالَم فيهم ومنهم، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم الحُكماء الذين وَضَعوا الأمورَ مَواضِعَها وأَحكموها، وأقَرُّوا الأَسْباب في أماكنِها ونفَوها في الْمَواضع التي ينبَغي أن تُنفَى عنها. ولا أَخَلُّوا بشيء مما رتَّبه الله في خَلقِه على حَسب ما رتَّبوه، فما تَقتضيه الدارُ الأولى تَرَكوه للدَّار الأولَى وما تقتضيه الدارُ الآخرَة تركوه للدار الآخرة. فنَظَروا في الأشياء بالعَين التي نظرَ اللهُ إليها، لم يَخلِطوا بين الحقائق. فإنه مَن رفعَ السَّببَ في المَوضِع الذي وَضعَه فيه واضِعُه، وهو الحقّ، فقد سَفَّه واضِعَه وجَهِلَ قَدرَه. ومَن اعتَمَد عليه فقد أَشرَكَ وأَلْحَد، وإلى أرضِ الطَّبيعة أَخلَد. فالْمَلاميّة أقرَّت الأسبابَ و لم تَعتَمِدْ عليها. فتلامذة الملاميّة الصادِقون يتقلَّبون في أَطْوار الرُّجوليَّة، وتَلامِذةُ غيرِهم يَتقلَّبون في أطوار الرُّعوناتِ النَّفسية. فالملامِيّة مَجهولَةٌ أقدارُهم، لا

رحلت من عندكم سنة ثمان وتسعين وجدهما بمصر، فأقمتُ معهما، وبأبي عبد الله زَمانَة، فصُمت معهما رمضانَ وخرجت إلى القُدْس ومشيتُ إلى مكّة وأقمت بها إلى الآن، وفي قلبي من فِراقهما لهيب.

أما أبو عبد الله فإنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمان طويل، وكانت له والدة وكان بارًّا بها رضي الله عنه، لزم خِدمتَها حتى ماتت. غلب عليه الخوفُ كان إذا صلى يسمع في صدره دَويٌّ على بُعد، سريعُ الدمعة غزيرُها. طويلُ الصمت، دائمُ الحزن كثير الفكرة شديد التأوُّه. ما رأيت قط أخشعَ منه، لا تراه أبدا إلا

يعرفهم إلا سيدهم الذي حَباهم وخصَّهم بهذا المقام. ويقول في الباب التاسع وثلاثمائة في معرفة منزل الْمَلاميَّة: واختَصُّوا بهذا الاسم لأمرَين: الواحِد يُطلَق على تَلامِذَتِهم لكَونهم لا يَزالون يَلومون أنفسَهم في جَنب الله، ولا يَخصُّون لها عملاً تَفرَح به، تربيةً لهم. لأن الفرَح بالأعمال لا يكون إلا بعد القَبول، وهذا غائبٌ عَن التلامذة. وأما الأكابِر فيُطلَق عليهم في سِتر أحوالِهم ومكانَتِهم مِن الله، حين رَأَوا الناسَ إنما وَقعوا في ذم الأفعال واللَّوم فيما بينهم فيها، لكونهم لم يَروا الأفعالَ من الله وإنما يرونها ممن ظهرت على يده؛ فناطوا اللومَ والذَّمَّ بها. فلو كُشِفَ الغِطاءُ ورأَوا أنّ الأفعال لله لَما تعلَّق اللومُ بمن ظَهرتْ على يدِه. وصارَت الأفعالُ عندهم في هذه الحالَة كلِّها شَريفةً حسنة. وكذلك هذه الطائفة لو ظهرتْ مَكانتُهم من الله للناس، لاتَّخَذوهم آلهةً. فلمّا احتجَبوا عن العامّة بالعادَة، اِنطلَق عليهم في العامة ما يَنطلق على العامَّة من الْمَلام فيما يَظهَر عنها مما يُوجِب ذلك. وكأنّ الْمَكانة تَلومُهم حيثُ لم يُظهِروا عِزّتَها وسُلطانَها. فهذا سَببُ إطلاقِ هذا اللَّفظ في الاصطِلاح عليهم، وهي طَريقةٌ مَخصوصة لا يَعرِفُها كلُّ أحدٍ انفَرَدَ بها أهلُ الله.

مُطرقا ضاربا بعينيه الأرض، لا يُمازح أحدا ولا يعاشره. بريءٌ من المداهنة قويٌّ في المُناصحة، لا يستحيي في الحق من أحد ولا تأخذه في الله لَومةُ لائم، لا يُداري ولا يُماري. ابتُليَ بالفقر والضرّاء فصبر؛ له شأن عجيب وهِمّة رفيعة.

كنت أتعشَّق به وأنا صغيرٌ عند الذي كنت أقرأ عليه القرآن، وكان جارا لنا. كان إذا دخل المسجد هابه كل من رآه، ما عاينته قط يكلِّم أحدا مبتدئا ولا يجيب إذا كُلم إلا في ضرورة، يحفظ دينَه حفظا. ما تمنيت من كل مَن رأيت أن أكون مثلَه إلا هو! وَاخَيْتُه لَما رجعتُ إلى هذه الطريقة وفرِح بي، ولازَمته مُلازمةً وانتفعتُ بآدابه وأخذت من خُلقه؛ كان يحتمل الأذى ويكف جَفاءه. صدوقُ الرؤيا كثير النجوَى، ليلَه قائمٌ ونهارَه صائم، لا تجده فارِغًا قط، يحبُّ العلم وأهلَه. كنا قد اجتمعنا أربعة: أنا وهو وأخوه ورابعٌ لنا، على السواء في كل ما يُفتح به علينا؛ فلم أر أيّاما قط في عمري أحسنَ من تلك الأيام.

رأيت من همته رضي الله عنه أن كان بين منزلي ومنزلِهم بُعدٌ كثير، فأُذِّن بالعتَمة وقد وجدتُ في خاطري الانزِعاجَ إلى الوصولِ إليه والرجوعِ إلى منزلي؛ وتحرَّك الخاطِران معا؛ فحِرت كيف أجمع بين الخاطرين. وكنت أعمل على أوَّل خاطر، فاشتددتُ إليه عَدْوًا إلى أن دخلت عليه، فوجدتُه واقفا في وسط الدار مستقبلَ القبلةَ وأخوه أحمد يتنفَّل. فسلّمت عليه وتبسّم فقال لي "ما الذي أبطأ بك؟ قلبي مُتعلِّق بك؛ عندك شيء؟" وكان في جَيبي خمسةُ دراهمَ سِكّةً فدفعتُها له فقال "جاءنا فقير يقال له علي السَّلاوي وما عندنا شيء!" ورجَعت

أشتدُّ إلى موضعي. كان يخدُم الفقراء بنفسه ويؤْثِرهم بالطعام واللباس، وكان رحيما شفيقا عطوفا رفيقا، رؤوفا رقيقا، يرحم الصغير ويعرِف شرفَ الكبير، يُعطي كل أحد حقَّه، له الحق على الناس وليس لأحد عليه حقٌّ إلا الله تعالى. على هذا فارقتُه وعلى هذا وجدته الآن وعليه تركته، فالله يجمع بيني وبينه في عافية بلا مِحنة بِمنِّه وكرَمه.

وأما أخوه أبو العباس أحمد[150]؛ وما أدراك ما أحمد؟! جمع الفضائلَ واجتنب الرذائل، عرف الحقَّ فلزِمه وكُشِف له عن السرّ فكتمه؛ هو ممن ينادَى من وراء

---

[150] المعروف بالحرّار والحريري وابن العصّاد. سكن مصرَ وصار بها شيخًا ذا صيت، وبقي بينه وبين الشيخ محيي الدين تواصُل ومُكاتبات. وقد سمع هذه الرسالة على الشيخ بمحضر من بدر الحبشي وابن سَودَكين ببيت الشيخ محيي الدين بمصرَ عام 602، كما هو ظاهر آخرَ مخطوطة جامعة إسطنبول رقم (A79). عاش بعد أخيه إلى حين استقرَّ الشيخ الأكبر بدمشق أواخرَ حياته. تُوفِّيَ بمصرَ ودُفن بالقَرافة الكبرى. فقد جاء هناك بأنّه الشيخ العارف أبو العباس أحمد بن أبي بكر العصّاد الحريري. جاء في تنبئة الغبي للسيوطي قال: قال الشيخ العارف صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته: رأيتُ بدمشق الشيخ الإمام الوحيد العالم العامل، مُحْيِي الدين بن عربي... كتب الشيخ محيي الدين كتابا من دمشق إلى أبي العباس الحرَّار قال فيه " يا أخي أخبرني بما تجده لك من الفتح" فقال لي الشيخ "اكتُبْ: جرت أمور غريبة النظر، عجيبة الخبر" فكتب إليه ابن عربي "توجَّه إليَّ بها بباطنك أُجبْك عنها بباطني" فعزَّ ذلك على الشيخ منه، وقال لي "اُكتُب له: أُشْهدتُ الأولياء دائرةً مستديرة في وسطها اثنان: أحدهما الشيخ أبو الحسن بن الصباغ والآخر رجل أندلسي. فقيل لي "أحد هاذين هو الغَوث" فرفع الأندلسي رأسَه أوَّلا. فتحقَّقته فوقفت إليه، وسألتُه سؤالا بغير حرف ولا صوت، فأجابني

حجاب. قويّ المُشاهدة كثير المساعدة وطيءُ الأكناف حسَن المعاشرة، سَمْح الخليقة موافِق فيما يُرضي الله، نزيه الجانب مُخالف لما لم يرض الله. لزم الاسمَ فسما وعمَّر ذكرُه كلَّ أرض وسما. تراه كأنه ذاهِل، سريعُ الحركة كأنه مطلوب بثأر، يخضع تحت سلطان وارد الأسرار، كثير المكاشفة. كنا إذا أخذنا في مسألة غُيِّب عنا ثم يرجِع فيُخبرنا بوجه من وجوه ما نحن فيه، هذا الحال له مستمرٌّ إلى الآن. لزِم خِدمةَ أخيه لم يخدُم غيرَه، فكل ما هو فيه من برَكة أخيه. لقيَ شيخَنا العُريبي وأبا عبد الله محمد بن جُنيد وجماعةً من أصحابنا. أراد صُحبتَنا إلى مكّة لولا مرضُ أخيه، ولو كان صحيحا رحَلنا بجُملتنا.

حلَّت بمصرَ هذه الْمَسغَبَةُ والوَباءُ الذي هلَك فيه أهلُها[151]. فمشى يوما فرأى الأطفالَ الصِّغارَ الرُّضَّعَ يموتون جوعا فقال "يا ربِّ، ما هذا؟!" فغُيِّبَ فنودي

بنَفْثَةٍ نفثَها، فأخذتُ منه جوابي، وسِرت لسائر دائرةِ الأولياء، أخذ منها كلٌّ ولي بقسطه. فإن كنتَ يا أخي بهذه المثابة، تحدَّثت معك من مصر." فلم يَعُد يَكتُب له مِن ذلك شيئا. انتهى.

[151] يقول ابن كثير في البداية ج13/ص32 : ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة فيها اشتدَّ الغلاء بأرض مصر جدا، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه وباءٌ عظيم. حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل: أن العادل كفَّن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحوا من مائتي ألف، وعشرين ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوي الضعيف فذبحه وأكله، وكان الرجل يحتال على الفقير فيأتي به ليطعمه أو ليعطيه شيئا، ثم يذبحه ويأكله،

"يا عبدي، هل ضيَّعتك قَطّ؟" قال "لا" قال "فلا تعترِض! هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم أولادُ الزِّنا، وهؤلاء الكبار هم قوم عطّلوا حدودي فأقمت عليهم حدودي؛ فلا يكن في نفسك من ذلك!" ثم سُرِّيَ عنه فبقي راضيا بتلك الحالة للخلق. وعنده من هذه الْمُخاطبات كثير. وأما الإيثار وتوسِعَتُهما على الخلق وتضْيِـــيقهما على أنفسهما، فلا أحدَ فوقَهما في ذلك. جمع الله بيني وبينهما في عافية ولا فرَّق بيني وبينهما بعد ذلك!

* * *

ومنهم أبو عبد الله محمد ابن جمهور[152]، رضي الله عنه. كان من أقران أبي علي الشكّاز وأبي عبد الله الخياط، الذي ذكرناه، في السن والحال، وكان مجتهدا في العبادة. كان يقرئ القرآن والعربية، لم يقرئ شعرا قط. أخبرني أبو الحسن العُثماني قال: كنت وأنا صغير أقرأ عليه القرآنَ، فسمِع دُفًّا يُضرب فجعل أصابعَه في أذنَيه ثم قال لي "هَدَأَ هذا الدّفُّ أم لا؟" فقلت "لا" فلما استمرّ ذلك قام على نفسه وأصابعُه قد سدَّ بها أذُنيه وانصرف إلى داره، وأرسل إليّ فجئت

وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضا. ووجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فكانوا يذبحون ويؤكلون، كان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله...

[152] هكذا ولعلّ الصواب أبو محمد عبد الله ابن جمهور الْمُقرئ، من أقران ابن بشكوال والسُّهيلي وعبد الحق الإشبيلي وطبقتهم. والله أعلم.

إليه ودخلت عليه وأتممت عليه حِزبي. كان رحمه الله إذا سمع مَن يقرأ عُشرا في المسجد ليسألَ به أو يَسمع سائلا في المسجد يسُدّ أذنَيه.

كان مِن الراكعين الساجدين حتى قبِضه الله تعالى إليه. كان قويَّ القلب ضعيفَ البدَن مُصفرَّ اللون شديدا على نفسه، يقال له "اُرفُقْ بها" فيقول "للرِّفق أَجهَد!" كان يقوم إلى حزبه من الليل، فيقوم حتى يسقُط من قامته. يضع خدَّه لينام فيقول:

يا خَدُّ إنك إن تُوَسَّد لَــيِّناً؛ وُسِّدتَ بعدَ الموت صُمَّ الْجَندَلِ!

فيَثِب إلى مُصلاّه كأنّ أفعًى قد لَدَغته، فلا يزال هكذا إلى أن يصبح. فلقد مات، رحمه الله، وأنا في خدمة أبي يعقوب الكومي. فلما أُلقِي في القبر رأيت أُعجوبة: سبَّب الله، لا أدري مِن أين، جَندلاً كبيرا حَصل معه في القبر، فصاح بعضُ الناس، فأخذه الذي أنزله في القبر وجعل الجندلَ تحت خدِّه؛ فعلمتُ أن الله صدَّقه في قوله:

يا خدّ إنك إن توَسّدْ لــيّنا وُسّدت بعد الموت صمّ الجندلِ

كان رحمه الله كثيرَ النفور من الخَلق، يُحب الوَحدة والعُزلة، ورِعا زاهدا عارفا بالله واقفا مع الله، شديدَ المعاملة طلَبا للمواصلة، يحب أهلَ الله؛ أهلَ القرآن. توَفّاه الله صغيرَ السنّ في عُنفوان شبابه ونارِ اجتهاده يقول لنفسه "لا زال دأْبي ودأْبُكِ هذا حتى أموت!" ما فاقه أحد في العبادة.

* * *

ومنهم أبو علي حَسن الشَّكَّاز[153] رضي الله عنه. كان عندنا بإشبيلية وبها مات، هو الذي خدم صالحا البربري شيخَنا حتى مات. كان كثيرَ الدمعة لا تزال عينُه تَهطُل أبدا. كان لي عمٌّ، أخو والدي، وكان من أهل الله وخاصّته وكان أبو علي يلازمه، فكنت أبيتُ معه فأُلقي الحَصيرَ الجديد له يصلِّي عليه فتجري دموعُه فتسقُط على الحصير، فأَقلَعُه في اليوم الثاني وموضِع دموعِه قد تعفَّن كلُّه وانتثَر. عاشرتُه من وقت دخولي في هذه الطريقة حتى مات.

كان مُولَعا بالنِّكاح جدّا لا يستغني عنه، فأراد شيخُنا الشُّبَرْبُلي يأخذه لابنة أُخته، فمشت إليه أمُّ الزَّهراء فقالت له "يا أبا علي، إن الشيخ أبا الحجّاج يحب أن يعطيك بنتَ أختِه" وكان هذا يومَ الأحد، فأطرق ساعةً إلى الأرض كأنه يُحدَّث، ثم قام وقال "أنا كنت أحبَّ الناس في مُصاهرةِ شيخنا أبي الحجاج. ولكن قد تزوَّجت، وبعدَ خمسةِ أيام من يومي هذا أدخُل بزَوجتي عَروسا" فقالت له "بنتَ مَن تَزوَّجت؟" قال "سترَين ذلك اليوم!" وانصرف إلى منزله ولزم فِراشَه حتى انقضت خمسةُ أيام، فمات رحمه الله تعالى.

كان يَمُدّ يدَه إلى ما وَجد من نَبات الأرض مِن أعظمه مَرارةً فيُطعِمك إيّاه كأنه حَلْواء! رأيتُ له بركاتٍ كثيرة، انتفعت بصُحبته، كان قد عمل على 'الأربعين السُّهَيلِيَّة' وكان شُجاعًا يعيش من عمل يده. رآه أخوه بعد موته فقال "ما فعل الله بك؟" فقال "يُعطيني في كلِّ يوم عمل ثمانيةِ أيام!" كان دائمَ

---

[153] لم أجد له ذكرًا في ما بين يدَي. وذلك لما كان عليه من الخمول وخاصَّة لحرفته.

الصيام والمواصلة، كثيرَ القيام، مُنقبِضًا عن الناس غيرَ مجالس لهم ألبتَّة، يَحِنّ إلى جِنسه. كان مَليحَ الدَّعابَة يَمزَح ولا يقول إلا حقّا، وكان يُعجِبه الْمَزْح بالحق ويكره الكذِب وأهلَه ولا يحتمله.

خرج يوما إلى دُور بني صالح بجلود له فأنقَعها في النهر وبَسطها في الشمس، فمرت به امرأةٌ من أهل إشبيلية، وفيهم وفي نسائهم حَلاوةٌ وظَرافة، فقالت لصاحبتها "تعالَي يا أختي نُمازح هذا الرجلَ فإنه شكاز!"

والشكّازُ عندنا: المشتغلُ بهذه الجلود الرِّقاق على نوعٍ مَّا؛ يُبيِّضُها ويُليِّنها كثيرا بعدَ شِدَّتِها. فاتَّخذ أهلُ البلدة هذه اللفظةَ، لفظةَ الشكاز، لقَباً للرَّجل الذي لا يقومُ بالنساء. يقال للرجل الذي لا يقوم بالنساء شكّازًا، أي لَيِّن العُضْو مثلَ الجِلد الذي يَعمله. فوقفَت عليه المرأةُ وهو يذكُر الله تعالى، وكان هو كثيرَ الذِّكر لا يفتُر، فقالت "السلام عليك يا أخي" فقال "وعليكِ السلام" ورجع إلى ذكْره، فقالت له "ما صنعتُك وما حِرفتك؟" فقال لها "خَلِّي عنكِ هذا!" وعلِم ما تريد، فقالت له "لا بُدّ من هذا!" فتبسّم وقال لها "أنا رجلٌ أَبُلُّ اليابِسَ وأُلَيِّن الشديدَ وأَنتُف الْمُشعَّر!" فولّت وهي تضحَكُ وقالت "أردنا أن نرمِيَه فرمانا!"

وكان جليلَ الشأن سليمَ الصدر، ما أضمر شَحناءَ لأحد قط، لا يعلم ما الناسُ فيه وما يتخيَّل أن في الوجود مَن يعصي الله تعالى.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي، وهو عمّي شَقيقُ والدي. دخل هذا الطريقَ في آخر عمُره على يد صبِيٍّ صغير، لم يدر قط هذا الطريق ما هو؛ دخله وهو في عَشر الثمانين، فلازم الْمُجاهدة والسَّواحِل حتى برَع فيه. كانت له في كل يوم خَتمة لازِمة، يَهَبُ نِصفَها لذلك الصبي الذي رجع على يديه؛ بصَّره ذلك الصبي بالطريق!

كان رحمه الله يجلِس في البيت فيقول "قد طلَع الفجر" فسألته "من أين تعرِف ذلك؟" فقال "يا بُني إن الله تعالى يُوَجِّه ريحا مِن تحتِ العَرش تَهُبّ في الجنة فتخرُج بريحها عند طُلوع الفجر، يشمُّها كلُّ مؤمن في كل يوم!"

أصابته أُدْرَة كبيرة فكان يجعلها أمامَه مثلَ الْمِخَدَّة. وكان له ولدٌ خَلْفٌ قد أقْرح قلبَه، فدعا عليه فمرِض، وكان يسأل الله أن يُقدِّمه أمامَه وحينئذ يموت، فمات ابنُه قبلَه. فلما دفنه قال "الحمد لله! إني أعيش بعدَه أربعةً وأربعين يوما وأموت" فعاش كما قال ومات. ولما كانت ليلةُ وفاتِه قعَدنا عنده بعد صلاة العَتمة، وهو مستقبلٌ القبلةَ، فوجد بعضَ راحة، وأُدْرَتُه قد عظُمت فقال لنا "استَريحوا وارقُدوا" فأخذنا مضاجِعنا. فقمتُ إليه في السحَر فوجدته قد فاضت نفسُه رحمه الله وما شَهِد أحدٌ موتَه، وطلبنا تلك الأُدْرة فلم نجد منها شيئا فقلنا "لعلّها كانت ريَاحًا وبقيَ الجِلد!" فإذا به مثلَ جميع الناس ما عنده شيء؛ فعجِبت أن سترَه الله وأخفاه.

كان يُخبرنا بعجائبَ، كان عمرُه من وقت رجوعه إلى هذا الطريق إلى أن مات ثلاثةَ أعوام خاصّة، مات قبلَ أن أدخل هذا الطريق.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن الأستاذ الْمَوروري[154]. خدم الشيخ أبا مدين وكان الشيخ يسمّيه الحاجّ المبرور. حجّ صُحبةَ عبد الرزاق، وصاحب بمكة أبا عبد الله بن حسان. طلب ابنُ حسان أن يعطيه ابنتَه رغبةً فيه فأبى أن يأخذها مخافةَ أن لا يقوم بحقها.

[154] مع أنَّ هذا الشيخ كبير الشأن كما سترى، إلاّ أني لم أجد له ترجمة ولا ذِكرا. وقد ذكره الشيخ في الفتوحات على أنّه ولِيٌّ من أهل الله وأنّه قُطب التوكُّل في وَقتِه، وذكرَ أيضا في مقدِّمة كتابه 'التدبيرات الإلَهيَّة' والذي ألَّفه حوالي سنة 593، بأنّ هذا الشيخ هو الذي أمره بكتابتِه، يقول: كان سببُ تأليفِنا لهذا الكتاب، أنه لما زُرتُ الشيخ الصالح أبا محمد الموروري بمدينة مَورور، وجدتُ عنده كتاب 'سِرُّ الأسرار'؛ صنَّفه الحكيمُ لذي القرنين لَمَّا ضَعُفَ عن المَشْي معه، فقال لي أبو محمد "هذا المؤلّف قد نظر في تدبير هذه المَملَكة الدنيوية، وكنتُ أريد منك أن تُقابله بسياسة المملكة الإنسانية، التي فيها سَعادتُنا" فأجبتُه وأودَعت في هذا الكتاب من معاني تدبير المُلك أكثرَ من الذي أودعه الحكيم، وبيَّنتُ فيه أشياءَ أغفلها الحكيم في تدبير الملك الكبير. وعلَّقتُه في دون الأربعة أيام بمدينة مَورور، ويكون جرم كتاب الحكيم في الرُّبع أو الثلُث من جرم هذا الكتاب. فهذا الكتاب ينتفِع به خادِمُ الْمُلوك في خدمته، وصاحبُ طريقِ الآخرة في نَفسِه؛ وكُلٌّ يُحشَرُ على نِيَّتِه وقَصدِه. 'التدبيرات الإلَهيَّة في إصلاح المملكة الإنسانيَّة' ص20، الكتب العلمية بيروت.

كان الشيخ أبو مدين يُحبّه جدّا. قال له يوما "يا عبد الله، كَبُر عليّ دُعائي الناسَ إلى الله ولا أحدَ يُجيب. وأريد أن أصطفيَك لنفسي؛ تخرُج معي إلى بعض هذه الجبال فألزَم مغارةً تصحبُني فيها إلى أن أموت!" قال: ففرِحت بذلك وعلِمت أن لي عند الله مَكانة، فلما كان الليل نِمتُ فرأيت الشيخَ في النوم إذا تكلّم على الناس صارَ شمسا وإذا سكت صار قمرا. فقصصتُها عليه بُكرةً فتبسّم وقال "الحمد لله يا ولدي، شمسًا أريدُ أن أكون؛ فإن الشمس تنفي كلَّ ظُلمة وتكشِف كلَّ كُربة!" كان هذا عبد الله له هِمّة[155] فَعّالة وصِدقٌ

---

[155] الهِمَّة في اللغة هي العزم والإرادة. وفيها للشيخ الأكبر كلام نفيسٌ جدّا، فيه تفصيل تامّ على في غاية الإيجاز. ذلك في الباب التاسع والعشرين ومائتين في حال الهمة. ولنَسُقْه بتمامه لأهميَّته، يقول الشيخ، قدس الله سرَّه العزيز: اِعلم أن الهمَّة يطلقها القومُ بإزاء تجريد القلب للمنى ويطلقونها بإزاء أوَّل صدق المريد ويطلقونها بإزاء جمع الهِمم بصفاء الإلهام. فيقولون: الهمة على ثلاث مراتب همة تنبه وهمة إرادة وهمة حقيقة. فاعلم أن همة التنبه هي تيقُّظ القلب لما تعطيه حقيقة الإنسان مما يتعلق به التمني سواء كان محالاً أو ممكنا، فهي تجرُّد القلب للمُنى. فتجعله هذه الهمة أن ينظر فيما يتمناه ما حُكمه؛ فيكون بحسب ما يعطيه العلم بحكمه. فإن أعطاه الرجوع عن ذلك رجع وإن أعطاه العزيمة فيه عزم. فيحتاج صاحب هذه الهمة إلى عِلم ما تَمنّاه. وأما همة الإرادة وهي أول صِدْق الُمريد، فهي همة جمعية لا يقوم لها شيءٌ. وهذه الهمة توجَد كثيرًا في قوم يُسمَّون بإفريقية العَزّابيَّة، يقتلون بها من يشاؤون. فإن النفس إذا اجتمعت أثَّرت في أجرام العالَم وأحواله، ولا يعتاصُ عليها شيء. حتى أدّى مَن علِم ذلك، مِمَّن ليس عنده كشف ولا قوةُ إيمان، أن الآيات الظاهرة في العالَم على أيدي بعض الناس إنما ذلك راجع إلى هذه الهمة. ولها من القوة بحيث أن لها

إذا قامت بالمريد أثراً في الشيوخ الكُمَّل، فيتصرَّفون فيهم بها. وقد يُفتح على الشيخ، في علمٍ ليس عنده ولا هو مرادٌ به، بِهمة هذا المريد الذي يرَى أن ذلك عند هذا الشيخ. فيحصُل ذلك العلم في الوقت للشيخ بحُكم العَرَض ليُوصِلَه إلى هذا الطالب صاحبِ الهمة؛ إذ لا يقبَلُه إلا منه. وذلك لأن هذا المريد جمع همته على هذا الشيخ في هذه المسألة. والحكايات في ذلك مشهورات مذكورة. وأثر هذه الهمة في الإلَهيات قول الله تعالى «أنا عند ظَنِّ عَبْدي بي؛ فَلَيَظُنَّ بي خيرا». فمن جَمعَ هِمَّته على ربه أنه لا يَغفِرُ الذنبَ إلاّ هو وأن رحمتَه وسِعت كلَّ شيء كان مرحومًا بلا شك ولا ريب قال تعالى ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ. أَرْدَاكُمْ؛ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِين!﴾[فصلت 23] لأنهم ظنُّوا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون. فلهذا قلنا أنه لا بُدّ مِن علمٍ ما تَتعلَّق به هذه الهمة؛ فإن تعلقت بِمُحال لم يقع، عاد وَبالُها على صاحبها، فأثَّر في نفسه بهمته. وأن تعلَّقت بما ليس بمحال وقع ولا بُدّ. وهنا مِن هذه الطائفة تعلقت بالمحال، وهو نفيُ العلمِ عن الله ببعضِ أعمالِ العباد؛ فعذّبَهم اللهُ بأعمالهم، فظنُّهم أَرْداهم... وأما همة الحقيقة التي هي جمع الهِمَم بصفاء الإلهام، فتلك همم الشيوخ الأكابر من أهل الله الذين جمعوا هممهم على الحق وصيَّروها واحدة لأحَدِيَّة المتعلَّق. هربًا من الكثرة وطلبًا لتوحيد الكثرة، أو للتوحيد. فإن العارفين أنِفوا من الكثرة لا من أَحَدِيَّتها؛ في الصفات كانت أو في النِّسب أو في الأسماء. وهم متميَّزون في ذلك، أي هم على طبقات مختلفة. وإن الله يعاملهم بحسب ما هم عليه، لا يردهم عن ذلك، إذ لكل مقام وجه إلى الحق. وإنما يفعل ذلك ليتميَّز الكثيرُ الاختِصاصِ بالله الذي اصطَنَعه اللهُ لنفسهِ من عباد الله، عن غيره من العبيد. فإن الله أنزل العالَم بحسَب الْمَراتب لتعمير المراتِب. فلو لم يقع التفاضُل في العالَم لكان بعضُ المراتب مُعطَّلاً غيرَ عامر. وما في الوجود شيءٌ مُعطَّل، بل هو مَعمورٌ كلُّه فلا بُدَّ لِكل مَرتبة من عامرٍ يكون حُكمُه بحسَب مَرتَبتِه. ولذلك فضُل العالَمُ بعضُه بعضًا، وأصله في الإلَهيات الأسماء الإلَهية. أين إحاطة 'العالِم' من إحاطة 'المُريد'

عجيب. سافر مِن عند الشيخ أبي مدين إلى الأندلُس بسبب والِدته، فأَودَعه الشيخ أبو مدين سلامَه إلى أبي عبد الله الشيخ المُسِنّ بمدينة الْمَرِيَّة، المعروف بالغزّال -من أصحاب ابن العَرِيف، من أقران أبي مدين وأبي الربيع الكَفيف الذي كان بمصر وعبد الرحيم الذي كان بقنا وأبي النّجا الذي كان بجزيرة الذهب، رحمهم الله تعالى. فلما وصل إلى المريّة قصدَ إلى الشيخ أبي عبد الله فوجد أصحابَه قُعودًا فقال لهم "اِستَأذِنوا لي على الشيخ!" فقالوا "الشيخ نائمٌ في هذه الساعة" و لم يُقبِلوا عليه. فعزَّ عليه ما هم فيه من كَثافة الحجاب، حيثُ لم يعرِفوه. فقال لهم "إن كنتُ جئت إليه في الله، فالله يُوقِظه الساعةَ!" فإذا الباب قد فُتح والشيخ قد خرج يَمسح النومَ عن عينيه فقال "أين هذا الذي جاء؟" فسلم عليه وأكرم نُزُلَه. وكان الغالبَ على أبي محمد البَسط، وكان أصحاب

من إحاطة 'القادر'؛ فتميّز 'العالم' عن 'المريد' و'المريد' عن 'القادر' بمرتبة المتعلّق. فالعالِم أعمُّ إحاطة، فقد زاد وفضُل على 'المريد' و'القادر' بشيء لا يكون للمريد ولا للقادر من حيث أنه مريد وقادر. فإنه يعلم نفسَه تعالى ولا يتَّصف بالقُدرة على نفسه ولا بالإرادة لوجوده، إذ مِن حقيقة الإرادة أن لا تتعلَّق ألا بمعدوم، والله موجودٌ. ومِن شأن القدرة أن لا تتعلق إلا بممكِن أو واجب بالغَيرِ، وهو واجِبُ الوُجود بنَفسه تعالى؛ فمن هناك ظهرَ التفاضُلُ في العالَم لِتَفاضُل الْمَراتِب. فلا بُدَّ من تفاضل العامِرين لَها. فلا بُد من التفاضُل في العالَم، إذ هو العامِرُ لها الظاهرُ بها. وهذا مما لا يُدرَك إلا بصفاء الإلهام، فيكشِف الُمكاشَف عِمارةَ المراتب بكشفِه للعامِرين لها. ولا يعلم التفاضل إلا بصفاء الإلهام الإلَهي. فقد نبَّهناك على معرفة الهِمَّة بكلام مبسوط في إيجاز. فافهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الشيخ مقبوضين. فعندما وادَعهم وانصرَف قال له أصحابُ الشيخ "لو انقبضتَ يا أبا محمد من هذا البَسط الذي أنت فيه؟!" فقال لهم "البسْط ما هو؟" فقالوا "رحمة" قال "والقبْض ما هو؟" قالوا "عذاب" فقال "اللهم لا تَنقُلني من رحمتك إلى عذابك!" فخجِلوا وانصرَف عنهم.[156]

ومن أخباره رضي الله عنه أنه لَمّا وصل إلى إغْرَناطة نزل عند الشيخ أبي مروان، من أصحاب الشيخ أبي مدين، وكان قد عرفه عند أبي مدين. وقد رأى أبو مروان من أصحاب الشيخ أبا مدين في حقِّ رجل مرِض منهم فأخَذوا عنه مرضَه وحَملوه فاستراحَ مِن حينه، فأخبر أصحابَه بذلك بإغْرَناطة.

---

[156] يقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[البقرة 245] أي يوسِّع ويضيِّق، فالقبض هو شعور الإنسان بالشدَّة والضّيق والبسط شعوره بالرخاء والسَّعة. وقد تكون أسباب ذلك ماديَّة أو نفسيَّة أو روحيَّة. يقول أبو القاسم عبد الكريم بن هَوازِن القُشَيري: القبض والبسط، هما حالتان، بعد ترقيِّ العبد عن حالة الخوف والرجاء؛ فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمُستأنِف. والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. والفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أنّ الخوف يكون من شيء في المستقبل، وكذلك الرجاء إنما يكون بتأميل محبوب في المستقبل. وأما القبض فلمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء: تعلق قلبه في حالتيه بآجِله. وصاحب القبض والبسط تحت واردٍ غلب عليه في عاجله... وقد عدّ أهلُ التحقيق حالتَي القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه، لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه في الحقيقة نقص. وفوقهما الهيبة والأنس وهما في الشهود أقرب. انتهى من الرسالة القشيرية بتصرُّف. وقوله المُستأنِفُ يعني المُبتدئَ.

فلما وصل شيخنا عبد الله الموروري إلى أبي مروان، اجتمع الناسُ من أجله في الدار وقد جُعلت بين أيديهم مائدةُ وعليها مُجبَّنات بعسَل، وكان ابنُ صاحب الدار قد مَشَى في السحَر إلى قرية له قريبَةٍ من البلدة، فتأسّف أهلُ المجلس لَمّا لم يحضُر معهم الطعامَ ابنُ صاحب الدار. فقال لهم أبو محمد الموروري، بعدما أكَل وشبِع وأكل الناسُ "إن شئتم أكلتُ عنه هنا، ويشبَع هو في قريَته من هذا الطعام بعينه!" فارتابوا في كلامه وتوقّفوا في ظاهرِهم، وباطنُهم يُحيل ذلك جُملة. فقال له أبو مروان "بالله يا أبا محمد، اِفعلْ ذلك!" فقال "بسم الله" وابتدأ يأكل كأنه ما أكل شيئا، حتى وقف وقال "قد شبِع، إن زدتُ عليه أكثرَ من ذلك يهلَك!" فبُهت أهلُ المجلس وعزَموا أن لا يبرَح أحدٌ منهم حتى يصِل ذلك الرجل الذي أُكِلَ عنه.

فلما كان عشيَّةَ ذلك اليوم دخل هو عليهم من القرية، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا "نراك جئتَ بزادك الذي حملته معك؛ ما أكلت منه شيئا!" فقال لهم "يا إخوتي، اتَّفق لي اليومَ شيءٌ عجيب؛ أنا عندما وصلتُ إلى القرية وقعَدت فإذا أنا أُحِسّ بمُجَبَّنات بعسل تنزِلُ في حَلْقي فتستقِرّ في مَعِدتي حتى شَبِعت، ولو زادت عليَّ أهلكتني، وأنا حتى الآن شابِعٌ منها أتَجشَّؤها!" فتعجّب القوم وفرِحوا أن رأَوا رجلا أَخبر بالمسألة كيف جرت. أخبرني بها، بدار عبد الله الشكاز الباغي، الشخصُ الذي أُكل عنه فشبِع، ومعي صاحبي عبد الله بدرٌ ونحن في جماعة. وتأسّف وقال "مَن مثلُ عبد الله المورُوري؟ ما رأينا مثلَه!" ولقد أطلعني الله عز

وجل ليلةً على المقامات ومشَى بي عليها حتى وصلتُ مقامَ التوكُّل، فرأيت شيخَنا عبد الله الموروري في وسَط ذلك المقامِ. والمقامُ يدور عليه كدَوَران الرحَى على قُطبِها، وهو ثابت لا يتزَلزل؛ فكتبتُ إليه بذلك. عاشرتُه معاشرةً وانتفعت به. وله امرأةٌ في غايةٍ من الجمال، صغيرةُ السنّ، أحسنُ منه وأقوى.

كان سيدنا هذا عند شمسٍ أمِّ الفقراء بِمَرْشانَة الزّيتون في يوم أربعاء فقالت العجوز "تَمنَّيت أن يأتيَنا غدًا أبو الحسن بن قَيطون[157]، فاكتُبوا إليه اليومَ عسى يصِلَ غدا!" وكان في بلَد قَرْمونة، بينهما سبعةُ فراسخ[158]. وكان هذا أبو الحسن يعلّم الصبيان القرآنَ بقَرمونَة ويعطِّل الخميس والجمعة، فقال أبو محمد سيدنا رضي الله عنه "هكذا تعمل العامّة!" فقالت له العجوز "فماذا نفعل؟" قال "نسوقه بِهِمَّتي!" فقالت له "اِفعل" فقال "قد حرّكتُ الساعةَ خاطرَه بالوصول إلينا غدًا إن شاء الله تعالى"

فلما أصبح قالت له "نراه ما جاء!" قال "غفَلتُ عنه ولكني أُخرِجه لكم الساعة!" فأرسَل هِمّتَه إليه. فلما كان قُبيل الظُّهر دخل عليهم على غَفلةٍ أبو

[157] ذكره المراكشي في الذيل والتكملة، قال: علي بن محمد بن خلف بن قيطون، أبو الحسن؛ روى عنه أبو بكر بن أحمد بن سيد الناس الإشبيلي.

[158] الفرسخ مسافةٌ قديمة فارسية الأصل، أقل بقليل من الخمسة كيلومِترات. فما بين مَرْشانة وقَرْمونة 30 كلم حسب ما قاله الشيخ هنا، وهي المسافة حاليا عبر الطريق المعبّد. والمدينتان قريبتان من إشبيلية من جهة الشمال الغربي تُجاه قُرطبة.

الحسن المذكور، فتعجَّبوا. فقال الموروري "سلوه: ما الذي أمسكَك عنّا إلى هذا الوقت وكيف خطرَ لك ومتى نَويت الوُصول إلينا؟"

قال: أمسِ وقتَ العصر، وجدتُ في باطني قائلا يقول "مُرَّ غدًا إلى العجوز بِمَرشانَة!" فقلت لصِبيان المكتَب "لا يجِئْ أحدٌ منكم غدا!" فلما أصبحتُ فترَ عني ذلك" وهو الوقت الذي غفل فيه سيدُنا محمد عنه. قيل له "إيهْ!" قال "فوجَّهتُ إلى الصِّبيان ووصلوا وأخذوا ألواحَهم ليكتُبوا، فأنا كذلك إذْ وجدت قلبي قد انقبض وشُدَّ عليه وقيل لي "اُخرجِ الساعةَ إلى مَرشانة لزيارة العَجوز!" فقلت للصبيان "سيروا إلى منازلكم!" وهو كان خروجي إليكم؛ فهذا الذي أبطأني. فقالوا له أنه اتَّفق من الأمر كذا وكذا ووصفوا له الحال، فتعجّب وقال "هذا، واللهِ العظيم، كان!" فكان بعد ذلك ينظُره بعين التعظيم. واهتزّ وأخذ في الرِّحلة، أبو الحسن المذكور، إلى المريَّة إلى شيخ كان بها يقال له أبو عبد الله الغزّال رحمه الله تعالى، من أصحاب ابن العَريف، من أقران أبي الربيع الكفيف وأبي النجا وعبد الرحيم وهذه الطبقة، ورآه وانتفع به. ثم عاد إلى قَرْمونة فلم يزل يخدُم الفقراء ويضيِّفهم ويتواضَع لهم، وكنت أستحسن منه ذلك. فأشهد: لقد رأيتُه قد وصل إلى إشبيلية فصاحبَ الفُقهاء وجالَس الطَّلبةَ الْمُكِبِّين على الدنيا وقرأ الفِقه وأصولَه وعِلمَ الكَلام، وسكَن إشبيلية يُعلِّم بها القرآنَ. فأدّاه صُحبَة أولئك إلى تجهيل الفقراء، الصادقين في أحوالهم، ونَبذِهم. وإيّاكَ يا أخي، عافاك الله مِن قيام الظنِّ السَّوء بك، أن تظُنّ فِيَّ أني أذُمّ الفقهاء مِن أجل أنهم فقهاء أو

لتعلُّمِهم الفقه[159]؛ لا ينبغي أن يُظنّ هذا بمسلم! فإنّ شرف الفِقه وعلم الشرع لا خَفاء به. ولكن أذمّ من الفُقهاء الصِّنفَ الذي تكالَب على الدنيا وطلبَ

[159] في العبارة مُداراةٌ ولِين وأدب كبير من جهة الشيخ، وإلاّ فالصَّراحة تقضي بأنّ فقهاء المذاهب قد حادوا عن جادَّة الصواب منذ عهد تابعي التابعين كما بيَّنه الشيخ أبو حامد الغزالي حيث يقول: اِعلم أن مَنشَأ الْتِباسِ العُلوم الْمَذمومةِ بالعُلوم الشَّرعية تحريفُ الأسامي المحمودة وتبديلُها ونَقلُها، بالأغراض الفاسدة، إلى معانٍ غير ما أرادَه السَّلَفُ الصالِح والقَرنُ الأوّل. وهي خمسة ألفاظ: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. فهذه أسامٍ محمودة، والْمُتَّصِفون بها أربابُ المَناصب في الدين. ولكنَّها نُقلَت الآن إلى مَعانٍ مَذمومَة، فصارَت القُلوبُ تَنفِر عن مَذمَّة مَن يتَّصِف بمعانيها لشُيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم. اللفظ الأوّل: الفقه. فقد تصرَّفوا فيه بالتَّخصيص، لا بالنَّقل والتحويل. إذْ خصَّصوه بمعرفَة الفُروعِ الغَريبة في الفتاوَى، والوُقوفِ على دقائق عِلَلِها واستِكثارِ الكلام فيها، وحِفظِ المَقالات المتعلِّقةِ بها. فمَن كان أشدَّ تَعمُّقًا فيها وأكثرَ اشتغالاً بها يُقال: هو الأَفقَهُ. ولقد كان اسمُ الفقه في العَصر الأوَّل مُطلَقًا على عِلْمِ طَريق الآخرة ومَعرفَةِ دَقائقِ آفات النُّفوس ومُفسِدات الأعمال، وعلى قوَّةِ الإحاطَة بحَقارَةِ الدُّنيا وشِدَّة التَّطلُّع إلى نعيم الآخرة، وعلى استيلاءِ الخوف على القلب. ويدلُّك عليه قول الله عزَّ وجلّ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ؛ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾[التوبة 122] وما يحصُل به الإنذارُ والتخويفُ هو هذا الفقه، دون تفريعات الطَّلاق والعِتاق واللِّعان والسَّلَم والإجارة؛ فذلك لا يحصُل به إنذارٌ ولا تخويف. بل التجرد له على الدوام يُقَسِّي القَلبَ ويَنْزِعُ الخَشيَةَ منه، كما نُشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف 179] وأراد به معانيَ الإيمان دون الفتاوَى؛ ولَعَمْري إنّ الفِقْهَ والفَهْمَ في اللغة اسمان بمعنًى واحِد! وإنما يُتكلّم في عادةِ

الفقه للرياء والسُّمعة وابتغَى به نظرَ الناس إليه لِيُقال، ولازم الْمِراءَ والجِدال، وأخذ يردُّ على أبناء الآخرة الذين اتَّقَوا الله فعلَّمهم مِن لَدُنهُ عِلما.

فأخَذتِ الفُقهاء، أعني هذا الصنفَ منهم، في الردّ عليهم في علمٍ لا يعلمونَه ولا عرَفوا أصولَه. ولو سئل أحدُهم عن شرحِ لفظةٍ مما اصطلَح عليه علماءُ الآخرة ما عرفَه، وكفى به جهلا! ولو نظر في قول الله تعالى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ؛ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْم؟!﴾[آل عمران 66] لاعتبَر ورَجع وتاب. وقد ذمَّ النبيُّ عليه السلام العلماءَ الذين طَلَبوا العلم لغير الله وتصرّفوا به في غير مَرضاة الله، لا لكونهم عِلموا[160]. كما مُدِح الصِّنفُ الآخرَ

الاستعمال به قديما وحديثا. قال تعالى ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّه؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون!﴾[الحشر 13] فأحال قِلَّةَ خَوفِهم مِن الله وَاستِعظامَهم سطوةَ الخَلق على قِلَّة الفقه. فانظُرْ إن كان ذلك نَتيجةَ عَدَمِ الحِفظ لِتَفريعاتِ الفَتاوَى أو هو نتيجةُ عَدم ما ذكرناه من العلوم؟... فبان من هذا التخصيص تلبيسٌ بَعَثَ الناسَ على التَّجرُّد له والإعراض عَن عِلم الآخرَة وأحكامِ القُلوب. ووَجَدوا على ذلك مُعينًا من الطَّبع؛ فإنّ عِلمَ الباطِن غامِضٌ والعَمَل به عَسيرٌ والتَّوصُّل به إلى طَلَب الوِلايةِ والقَضاء والجَاهِ والمالِ مُتَعَذِّر. فوَجدَ الشيطانُ مَجالاً لِتَحسينِ ذلك في القُلوب بواسِطَة تَخصيص اِسْمِ الفِقْه الذي هو اسمٌ مَحمودٌ في الشَّرع. إحياء علوم الدين، ج1/ص31-33، دار المعرفة، بيروت.

160 روى مسلم في الإمارة والنَّسائي في الجهاد عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنَّ أوّلَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه: رجلٌ اُستُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَه فعرَفَها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ. فقال: كذبتَ،

من العلماء بالخشْية وغير ذلك[161]. كما أنيّ قد ذمَمتُ الصوفيّةَ في كتابي هذا، ولم أُرد بهم الصادقين. وإنما أعني الصنف الذي تزيَّا بزيّهم عند الناس وباطنُه مع الله بخلاف ذلك؛ قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مَا فِي قَلْبِه وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[البقرة 204].

فلا أُنكِر مَرْتبةَ الفقه وقد سمِعتُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قولَه «مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُفقِّههُ في الدين»[162] ولكن لما كان هذا الصِّنف من الفقهاء غلَبت عليهم نفوسُهم وشهَواتُهم، واستولَى عليهم الشيطان، وعلى أيديهم جرَى الضَّرَرُ على

ولكنّكَ قاتلتَ لأن يقالَ 'جَرِيءٌ'، فقد قيل. ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلقيَ في النَّار. ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وقرأَ القرآن، فَأُتِيَ به فعرَّفهُ نعَمَهُ فَعرفَهَا. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعلَّمْتُ العِلْمَ وعلَّمتُه، وقرأْتُ فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمْتَ العلمَ ليقال 'عالمٌ' وقرأتَ القرآن ليقال 'هو قارئ'، فقد قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النَّار. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأَعطَاهُ من أَصنافِ المال كُلِّهِ، فأُتِيَ بِهِ فعرَّفهَ نعَمَه فعرفها. قال: فما عَمِلْت فيها؟ قال: ما تَركتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَق فيها إلاّ أَنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنّكَ فعلتَ لِيُقَال 'هو جَوادٌ'، فقد قيل. ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه ثم أُلقيَ في النّار».

[161] قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر 28] قال ابن عباس: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال ابن مسعود: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب. ذكرها ابن كثير في تفسيره.

[162] رواه البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان والترمذي وأحمد عن عبد الله بن عباس.

أهل الله وبشهادتهم هلَكوا، كما سيأتي في آخر الكتاب هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما العلماء العامِلون الْمُنصِفون الرّاسخون في العلم، فهم الأئمّة الذين هداهم الله؛ فهم مصابيح الهدَى وأعلام التُّقى، وارِثُو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في العلم والعمل والحال والوصف الذي صح لهم به نسبُ التقوى[163]. فإذا سمعتَني أذُمّ الفقهاء في هذا الكتاب، فإنّما أَعني به هذا الصنفَ الْمُدْبِر الذي اتَّبع شهوتَه وغرَضَ نفسهِ الأمّارة بالسُّوء. وكذلك ذمّي للصوفيّة، إنما أذم

[163] فالذي يطلبُ نصَّ ما جاءَ من قرآنٍ وسنَّة وفهمَه قصدَ العمل به لتقوَى الله، فإنّما هو طالبٌ تَرِكَةَ النبي صلى الله عليه وسلَّم كما بيَّنه ما بلغنا عن قَيس بن كَثير قال: كنتُ جالسًا مع أبي الدَّرْدَاءِ في مسجد دِمَشْقَ، فجاءه رجل فقال "يا أبا الدرداء، إنّي جئْتُكَ من مدينَةِ الرَّسولِ، لحديث بلغني أَنَّكَ تُحَدِّثُه عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتُ لِحاجة" قال أبو الدَّرداء: فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول «مَن سَلَكَ طريقًا يَطلُبُ فيه عِلمًا، سَلَكَ الله بِهِ طريقًا مِن طُرُقِ الجنَّة. وإنّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنحَتَها رِضًا لِطالبِ العلم، وإنّ العالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ والحِيتَانُ في جَوفِ الماء. وإن فَضْلَ العالِمِ على العَابِدِ كَفضل القَمَرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكَواكِب. وإنَّ العُلماءَ وَرَثَةُ الأنبِيَاء. وَإنّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهما؛ وَرَّثُوا العلمَ، فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظّ وَافِر!» أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان وأحمد. وهذا حديثٌ عظيم يدلُّ على شرف العلم وحملتِه، حتى أن الملائكة لتضع أجنحتَها من شدّة رضاها بطالب العلم النافع الذي ينوي به وجهَ الله تعالى، وقيل أنّ معناه أنَّها تكُفُّ عن الطيران لشهوده، وكفى بهذا شرفًا للعلماء الصادقين.

الصنفَ الذي ذكرت، فإن الحُلُولِيَّة والإباحِيَّة[164] وغيرَهم مِن هذا الطريق ظهروا وتظاهروا، وبالدعاوَى اتّصفوا؛ فهم قُرَناء الشيطان وحُلَفاء الخُسران. نوَّر الله

[164] الحُلوليَّة أو الحلوليّون: اسم مُشتقّ من الحُلول أي النُّزول بالْمَحَلّ. وهم قومٌ يزعُمون أن الله عزّ وجل يَحِلُّ بذاته في أجسام المخلوقات، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرا. وهو مذهَب قديم مَوجود في مُعظَم الدِّيَانات السابقة التي لا تقول بالتوحيد، وهو مذهَب بعضِ الشيعة والْمُتصوِّفة ممَّن ينتسِب إلى الإسلام. وأما الإباحيَّة أو الإباحيّون: فمُشتقٌّ من الإباحة وهي السَّماحُ وعَدَمُ الاِعتِراض. والمقصود هنا جماعة عطَّلوا الشَّرعَ وادَّعَوا الانحِلالَ عنه، فترَكوا المأمورات وارتكبُوا الْمَنهيَّات، ظنًّا أو زَعمًا منهم أنَّهم تجاوَزوا طَورَ التكليف لأنَّهم بلغوا الكمالَ، وأن التَّكليف إنّما يعني عامَّةَ الخلق لا الخاصَّة مثلَهم. وهذا قولٌ باطل، فما ترك نبيٌّ ولا رسولٌ ولا ملَكٌ كريم العبادةَ وما كلَّف الله به كُلاًّ حسبَ طبيعته وفِطرته، بل العبادة هي شِعار الخاصَّة مِن خلق الله. ألا ترى أنّ الحيوان والصبي والمجنون والسَّكران لا يخاطِبُهم الشرعُ؟ وذلك لعدم كَمالِهم. وممّا يدلُّ على شرف العبادة أن اسمَ عبد الله أشرف الأسماء بعد اسم محمّد كما بلغنا عن خيثمة بن عبد الرحمن بن سبرة أن أباه عبد الرحمن ذهب مع جده إلى رسول الله فقال له صلى الله عليه وسلم «ما اسمُ ابْنِك؟» قال "عَزيز" فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «لا تُسَمِّه 'عَزيزًا' ولكنْ سَمِّه 'عبدَ الرحمن'؛ إنّ خيرَ الأسماء 'عبدُ الله' و'عبدُ الرحمن' و'الحارث'». رواه أحمد ر17643 بسند صحيح. والحارث معناه العامِل الذي لا يمَلُّ. فالعبادةُ عند مَن يفهمُ تشريفٌ وتخفيف لا حظٌّ وتكليف، وإلى هذا المعنى أشارَ مَن قال:

يا عَمْـــرُو نادِ عَبدَ زَهْـــراءَ يَعرِفُه السامِـــعُ والرائي

ولا تَصِفْني بالهوَى عـــندها فعندَها تَحْـــقيقُ أنبائي

لا تَدعُني إلا بـــ: يا عَبدَها؛ فإنَّه أشرفُ أسْـــمائي!

بَصائرنا وبصائرهم، وأصلَح سرائرَنا وسرائرهم وأَوقَفَهم على عُيوبِهم، لعلهم يرجِعون!

نرجِع إلى كلامنا فنقول: أشهد لقد وصل إلينا هذا السيِّدُ عبدُ الله الموروري، الذي رِيئت له تلك البركات، فخرج إليه، أي إلى أبي الحسن الفقيه المذكور، ليزورَه في داره، وأنا معه وصاحبي عبدُ الله بدر الحبشي. فلما طرَق عليه الشيخُ البابَ قال "من بالباب؟" قال "عبدُ الله الموروري؛ جاءِ ليَراك!" فسكت ساعة، ثم خرج إليه ابنُه وقال له "مَشغولٌ هُو" ثم قال "ما هو هنا" ولم يرَ مكانتَه! إلى هذا انتهَى بَغضُه في الفقراء. وهذا إنما حصل له من شؤم الفقهاء؛ حال الله بيننا وبين كل مَن يقطع بنا عن الله وعن أهله وخاصته! وكان إذا لَقيَني يَعتِبُني على صُحبتهم ويقول لي "مِثلُك مَن يَصحَبهم؟!" فأقول "مثلي لا يصلُح أن يَخدِمهم؛ فإنهم السادَة!" وإنما كان يَحِنّ إليّ لِمُشاركتي له في علمه الذي قرأه، لا لكوني في طريق القوم ولا لِمَحبّتي فيهم؛ فتركتُه في ذاتِ الله تعالى وتركت مُعاشرتَه.

وصار اليومَ حُكمه حكمَ الفقهاء في الوَلاية أنها "معقولة متوَهَّمة ولا يُعرَف صاحِبُها". ثم إذا وَصف الفقيهُ أفعالَ الأولياء، أقيِّدها عليه ثم أُريه تلك الأفعالَ في شخصٍ مّا، فإذا رآه يقول "إيهْ، مَن قال أنه أخلَص فيها؟ لو كان مُخلصا ما اطَّلعتَ أنت ولا أنا على عمله؛ إنما هو نَصَب هذا لِحيلة مّا!" فلا تَراه يُحسن الظنَّ بأحد قط! ولم أزل أبدًا، والحمد لله، أُجاهد الفُقهاءَ في حق الفقراء السادة

حقَّ الجهاد، وأذُبّ عنهم وأحْمِي؛ وبهذا فُتِحَ لي! ومَن تعرّض لذمِّهم والأخذ فيهم على التعْيين، وحَمل مَن لم يُعاشر على من عاشر؛ فإنه لا خَفاءِ بجهله ولا يُفلح أبدا!

ولقد تكلّم معي بحرَم مكَّةَ فقيهٌ يقال له القاضي عبد الوهاب الأزدي من أهل إسكندرية، قد استحوَذ الشيطانُ على قلبه بحيثُ صيَّره يعتقِد أنّ الزمان فارغٌ من جميع المراتب في كل فنّ، وأنّما هي تَلفيقات وخُرافات. فسألتُه كم بلدٍ في مَعمور الأرض للمسلمين، فقال "كثير" فقلت له "كم دخلتَ منها؟" فذكر سِتّةَ بلادٍ أو سبعة، قلت له "كم خَلْقٍ فيها؟" قال "كثير" فقلت له "مَن أكثرُ: الذي رأيتَ أم الذي لم تَرَ؟" قال "الذي لم أرَ" فضحِكتُ وقلت له "حَدُّ الْمَعتوه الأحْمَق: الذي يَرَى الكثيرَ ويبقَى له القليل، فيَقيسُ القليلَ على الكثير ويَحمِله عليه في الحُكم بما يراه." وأما المؤمن الناصح نفسَه فإنه يقول: ولعلّ في ذلك القليل، ولو كان واحدا و لم أره، لعلّه ذلك السعيد! كيف ومَن يقول: إني ما رأيتُ إلا القليل، لا من البلاد ولا من الناس، ثم يعتقِد ذلك؟! فلا خفاء بجهله! ثم إنه لا يُطلِعُ الله مثلَ هذا إلاّ على نقائص العالَم، لا على فضائله، حتى يحكُم على الغائب بما رآه؛ فيشقَى بذلك عند الله. وأين هو من قول الله تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عن سَبِيلِ اللَّه!﴾[الأنعام 116] فكثَّرهم، وقال ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، وَقَلِيلٌ مَّا هُم!﴾[ص 24] فقلَّلهم.

ثم إنّ في المسألة ما هو أعجبُ من هذا كلّه: إني سمعته يقول ما يُناقض أصلَه من جهة علمه، فقال "الناسُ على قِسمين: ذكيٌّ وغيرُ ذكي؛ فغير الذكي لا كلامَ معه، يعني لنقصه، والذكِي لا يسلَم من الغلَط. فما ثَمّ شيء!" فانظُر نظرَه إلى باب العيب والنقص لِشَقاوته، وتركَه النظر في أحوالهم إلى باب الفضل. هلاّ قال عند هذا التقسيم: فغيرُ الذكي يأتي إلى العالِم فيأخذُ منه العلم تقليدا، لعدَم ذكائه وفِطنته؛ فيوفَّق ويُرجى أن يُعلِّمه الله. والذّكي الغالبُ عليه الإصابةُ في عموم أحواله، وهذا لا يقنَع في الأشياء إلا بالبرهان من نفسه لذكائه؛ فمهما غلِط، وإن استمرّ في غلطه بعدَ اجتهاده، فمَعفُوٌّ عنه[165] أو قد يرجع عن ذلك.

---

[165] بل هو مأجورٌ ما دام مجتَهدًا لقول النبي صلى الله عليه وسلَّم «إذا حَكمَ الحاكِمُ فاجتَهَدَ ثم أصابَ فله أجران، وإذا حَكم فاجتهد ثم أَخطَأ فله أجر» خرجه البخاري في الاعتصام ومسلم وأبو داود وأحمد عن عمرو بن العاص. ثم لا ينقطِع الاجتهاد أبدًا، فإن هو بلغَه نصٌّ يُخالِف ما عندَه ويبيِّن له سبيل الرشاد فحينئذ يجب عليه الرجوع والكف عمّا أدّاه إليه اجتهادُه الأوَّل، وهذا الاجتهادُ الثاني يؤجَر عليه مرَّتين إن هو أصاب ومرّةً إن أخطأ. وهو ما بيَّنَه الشيخ، قدَّس الله سرَّه، فيما جاء في الفقرة التالية، من أنّ كلَّ مجتهد مصيب ما دام يقوم بشرطَي الاجتِهاد واللّذان هما إعطاء الجهد ابتِغاءَ استِخراج حكم الشَّرع في مسألَة مّا على ضوء ما معه مِن علم بنصوص الشَّرع، ليس إلاّ. وهذا في مَقدور كلّ عاقلٍ، وليس حِكرًا على الموصوفين بالفقه والاجتهاد مِن آحاد العلماء. بل ما من إنسان إلاّ وهو مجتَهدٌ في كلّ لَحظة من عمرِه، فإمّا أن يكون مجتَهدا في إطار الشريعة كما مرَّ بيانُه، وإمّا أن يكون مجتَهدًا خارِجَها. وهذا الأخير مَوزور إن أدّاه اجتهادُه إلى الإضرار بالغير. والله أعلم.

وأما نقضُ أصله فيها فقولُ النبي عليه السلام في الحاكم إذا اجتَهد «فإنْ أصاب فله أجْران وإن أخطأ فله أجر»؛ كلُّ مُجتهدٍ مُصيب! فتراه مأجورا في الحالتَين، لا وِزرَ عليه ألبتَّةَ. هو مُصيب لحُكمِ الله في المسألة، لأنه تُعُبِّد باجتهاده، فتعبَّد نتيجةً لذلك؛ وذاك حكمُ الله في المسألة. فرأيتُ هذا الفقيهَ أجهلَ الجاهلين والحمد لله رب العالمين.

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله الباغي الشكَّاز رضي الله عنه، من حِصن باغة، سكن إغْرَناطة وهو بها حتى الآن[166]. اجتمعتُ به في منزله مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي، وكانت عادتي إذا دخلت على مَن دخلت عليه من شيخ أو فقير أَدفَعُ إليه كلَّ درهمٍ يكون عندي، لا أُمسِك شيئًا ألبتَّة؛ فلم يكن عندي سِوى درهمٍ واحد في ذلك اليوم فدفعته إليه.

كان رضي الله عنه من أهل الجِدِّ والاجتهاد، الغالبَ عليه الحزن والبكاء، يَكرَه الْمَعصية كما يكره الكُفر، ويكره الصغيرةَ كما يكره الكبيرة[167]. تحقَّقَ في مقام

---

[166] يعني في سنة ستمائة حين كتب هذه الرسالة بمكَّة، وإلا فقد وتُوفِّي الشكازُ بِمَراكش سنةَ إحدى وستمائة، أي أقلَّ من عام بعد ذلك. وكان أبو عبد الله بن الشكاز من حملَة العلم، فقد أخذ عن محمد بن خلف المَعافري المَيورقي وروى عنه علي بن أحمد العبدري المَيورقي. انتهى نقلا من التكملة وذيلها.

[167] أي من المعاصي، لأنَّ الذنوب تنقسم إلى صغيرة وكبيرة، كما قال ربُّنا تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، إِلاَّ اللَّمَمَ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[النجم 32] قال أبو جعفر الطبري: ما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا والعذاب

الْمُحافظة؛ يكاد يكون مَعصوما، كما قال أبو عقال قال: صحبت شيخي هارون فلم أرَ له كبيرَ عمل؛ كان ينام الليل كلَّه. فوقع في نفسي من قِلة اجتهاده. فهتف بي هاتِف ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّـيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات؛ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُون!﴾[الأنعام 136] فأتيتُه فقلت له "يا سيدنا، هل أتيتَ كبيرةً قط؟" قال "لا ولا صغيرةً عن تعمُّد!"

كان الشكّاز هذا رضي الله عنه ليلَه قائمٌ ونهارَه صائم، لم يقدِر مُريدٌ قط على صحبته لأنه كان يُطالِبه باجتهاده فيفِرّ منه. عاش وحيدًا فريدا ليس عنده ولا له، شديدا على نفسه؛ يقال له عن رحمة الصحابة بأنفسهم فيقول "لو لم يكن لهم إلا الصُّحبة؛ متى نلحَق بهم؟!" لم أرَ له شبيها إلا أبا مسلم الخَوْلاني التابعيَّ رضي الله عنه، كان قد أخذ في الجِدّ والاجتِهاد؛ يقطع القُضبان، فإذا كسَل عن الوقوف في الصلاة، ضرب بالقضيب ساقَيه ويقول "أنتِ أحقّ بالضرب من

في الآخرة، فإنّ ذلك معفوٌّ لهم عنه، وذلك نظير قوله جلّ ثناؤه ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْه، نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيما﴾[النساء 31] فوعد جلّ ثناؤه باجتناب الكبائر العفوَ عما دونَها من السيئات [أقول: أي التي ليس فيها عقوباتٌ] وهو اللَّمَم، وذلك هو العَفْوُ من الله في الدنيا عن عقوبة العبد عليه. والله جلّ ثناؤه أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه. جامع البيان في تأويل القرآن، ج22/ص538، مؤسسة الرسالة.

دابَّتي!" حتى تنكسرِ القُضبان كلُّها ثم يقول "أيظنُّ أصحابُ محمد أن يفوزوا بمحمد دوننا؟! والله لأُزاحِمنَّهم عليه حتى يعلموا أنهم خلّفوا بعدَهم رجالا!"[168]

كان الشكاز مليحَ الْمُقابلة حَسَنَ الْمُعاشَرة كثيرَ التلهُّف، يَحِنّ إلى الإشارات. سمعته يقول "انظروا في هذه الأربعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب 23] ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[النور 37] ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[الأعراف 46] ﴿يَأْتُوكَ رِجَالا﴾[الحج 27] رضي الله عنه.[169]

---

[168] أبو مسلم الخَولاني، وهو عبد الله بن ثوب؛ غلبت عليه كُنيَتُه. مُخَضرَم من كبار التابعين، أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم و لم يره. أصلُه من اليَمَن، قدِم المدينةَ وقد قُبِض النبيُّ صلى الله عليه وسلم واستُخلِف أبو بكر، ثم صعدَ نحو الشام وأقامَ بداريَّا قُرب دمشق؛ فأَصبح قارئَ أهل الشام. كان فاضلاً فقيها زاهدا عابدا ناسِكا حكيما ومن حِكمِه قولُه "أرأيتُم نَفسًا إنْ أنا أكرمتُها ونعَّمتُها ووَدَّعتُها، ذمَّتني غدًا عند الله. وإن أنا أَسخَطتُها وأَنصَبتُها وأَعْمَلتُها، رَضِيَت عنِّي غدا؟! روى عن عمر وأبي ذَرّ وأبي عُبَيدة ومُعاذ، وروى عنه أبو إدريس الخَولاني وشُرَحبيل بن مسلم ومَكحول. توفي أبو مسلم بأرض الروم غازيا أيامَ معاوية. اه من أسْد الغابة والحلية وتاريخ دمشق. أمّا الأثر عنه فقد روى أوَّلَه أبو داود في الزهد وابن أبي الدنيا في التهجُّد، وذكره بتمامه أبو حامد في الإحياء والشيخ في الفتوحات.

[169] يقول الشيخ في الباب الخامس والعشرين في معرفة أسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم من الفتوحات: دخلتُ على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز من أهل باغة بإغرناطة سنةَ خمس وتسعين وخمسمائة، وهو من أكبر مَن لَقِيتُه في هذا الطريق لم أرَ في طريقه مثلَه في الاجتهاد. فقال لي "الرِّجالُ أربعة: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب 23] وهم رجال الظاهِر. و ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَّلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ

اللَّه﴾[النور 37] وهم رجال الباطن جُلساء الحقِّ تعالى، ولهم الْمَشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحدّ، قال الله تعالى ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[الأعراف 46] هم أهل الشَّمِّ والتَّمييز والسَّراح عن الأوصاف، فلا صِفَةَ لهم، كان منهم أبو يزيد البِسطامي. ورجالٌ إذا دعاهم الحقُّ إليه يأتونه رجالاً لسرعة الإجابة لا يَركَبون ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا﴾[الحج 27] وهم رجال الْمطلع. فرجال الظاهرِ هم الذين لهم التصرُّف في عالَم الْمُلك والشهادة... وأما رجال الباطن فهم الذين لهم التصرف في عالَم الغيب والمَلَكوت، فيستنزِلون الأرواحَ العُلويَّة بِهِمَمِهم فيما يريدونه، وأعني أرواحَ الكواكب لا أرواحَ الملائكة، وإنما كان ذلك لِمانع إلَهي قويّ يقتضيه مَقام الأملاك... فإن ذات الكواكب لا تبرح من السماء مكانَها ولكن قد جعل الله لِمطارح شُعاعاتها في عالم الكون والفساد تأثيرات مُعتادة عند العارفين بذلك كالريِّ عند شرب الماء والشبع عند الأكل ونبات الحبة عند دخول الفصل بنزول المطر والصحو حكمةً أودعها العليمُ الحكيم جل وعز. فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم، اختصاصًا إلَهيّا. وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرُّف في عالَم الأرواح الناريَّة، عالَم البَرزَخ والجَبَروت، فإنه تحت الجَبْر. ألا تراه مَقهورًا تحت سُلطان ذَوات الأذْناب، وهم طائفة منهم من الشُّهُب الثَّواقِب، فما قهرهم إلا بجنسهم. فعند هؤلاء الرجال استنزال أرواحها وإحضارها، وهم رجال الأعراف. والأعراف سورٌ حاجزٌ بين الجنَّةِ والنار، بَرزَخٌ ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[الحديد 13] فهو حدٌّ بين دار السُّعَداء ودار الأشقياء، دارِ أهلِ الرُّؤية ودار الحِجاب. وهؤلاء الرجال أسعَدُ الناس بِمَعرفَة هذا السُّور، ولهم شُهودُ الخُطوط الْمُتوهَّمة بين كلِّ نَقيضَين مثل قوله ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَان﴾[الرحمن 20] فلا يتعدَّون الحدودَ، وهم رجال الرَّحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء﴾[الأعراف 156] فلَهم في

ومنهم أبو محمد عبد الله القطّان[170] المفتوح عليه في القرآن. كان يصدَع بالأمر، لا تأخذه في الله لَومةُ لائم، يردُّ كلام السلاطين في وجوههم أقبحَ الردّ، له صَولة؛ يرمي بالحق مَن يشاء ولا يُبالي. عرَّض بنفسه للقتل من كثرة سبِّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة: له مجالس معهم يضيق الوقت عن ذكرها. لا يتكلّم إلا بالقرآن ولا يرى غيرَه، لم يكتسِب كتابا. سمعته يقول بمدينة قرطبة في جماعة "مساكين أصحاب المصنَّفات والتواليف؛ ما أطول حسابَهم غدا! أليس في كتاب الله وفي حديث رسول الله مَقنع؟!" كان يُحافظ على صلاته وعلى صيامه لم يتنعّم قط ولا جمع بين درهمين.

وجّه السلطان فيه ليَقتله فأخذه الأعوانُ ودخلوا به على الوزير، فأُقعد بين يديه فقال "يا ظالِم، يا عدوَّ الله وعدُوّ نفسه؛ في ماذا وَجَّهت؟" فقال "قد أمكن الله منك، ما تعيش بعد هذا اليوم!" فقال له الشيخ "إنك لا تُقرِّب أجَلا ولا تدفع مقدورا، كل ذلك لا يكون؛ أنا الذي واللهِ أشهد جَنازتك!" فقال الوزير لوزَعته

كل حضرة دخولٌ واستشراف، وهم العارفون بالصِّفات التي يقع بها الامتياز لكل مَوجود عن غيره من الموجودات العقليّةِ والحِسِّية. وأمّا رجال المطلع فهم الذين لهم التَّصرُّف في الأسماء الإلَهيّة، فيَستَنْزِلون بها منها ما شاء الله، وهذا ليس لغيرهم. ويستَترلون بها كلَّ ما هو تحت تَصريفِ الرِّجال الثلاثَة: رجالِ الحدِّ والباطِن والظاهِر. وهم أعظَمُ الرِّجال وهم الْمَلاميَّة. هذا في قُوَّتِهم، وما يظهَرُ عليهم مِن ذلك شيء.

[170] لم أجد له ترجمة، وقد ذكره الشيخ في الفتوحات في جملة الملاميّة.

"أُسجُنوه حتى أُشاوِر السلطانَ في قَتْلِه" فسُجِن تلك الليلة وانصرف وهو يقول "عجَبا، لم يزل المؤمن في سجن؛ وإنما هذا بيت من بيوت السجن!"[171]

فلما كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزيرُ بقصّة الشيخ وكلامِه، فأمر به فأُحضِرَ بين يدَيه. فرأى رجلا دَميم الخِلقة، لا يؤبَه له وما أحدٌ من أهل الدنيا يريد له خيرا. وهذا كلُّه لقوله الحق وإظهارِه مَعايِبهم وما هم عليه من الجَور والفَساد. فقال له السلطان بعد ما سأله عن اسمه ونسبه "أتحفَظُ توحيدَك؟" فتلاه عليه من القرآن بتَقاسيمه، فتعجّب المِلكُ وانبسط له، إلى أن دخل معه في المَملكة وشأنِها. فقال له السلطان "ما تقول في مُلكي هذا؟" فضحِك، فقال "مِمَّ تضحَك؟" قال "منك؛ تُسمّي الهذَيان الذي أنت فيه 'مُلكًا' وتُسَمي نفسَك 'مَلِكا'؟! أنت كمن قال الله فيه ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبا﴾[الكهف 29] ؛ وإنما كان المِلك الّذي يُصْلَى اليوم بنارها ويجزَى بها. وأما أنت فرجلٌ عُجنت له خُبزة وقيل له: كُلْهَا!" ثم أَغلَظَ عليه في القول بكلّ ما

[171] ودليلُه قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم «الدنيا سِجنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافر». رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، وجاء أيضا عن ابن عُمرَ وابن عَمرٍو. وذلك أن المؤمن مَسجون في دُنياه لِمدَّة محدودة لا تنتهي إلاّ بَموتِه، فهو فيها ممنوعٌ من الشهوات المحرَّمة ومن الخوض في المُباحات، مُجبَرٌ على فعل الطاعات وإن كلَّفته الجهدَ المتواصل والتعبَ. وأما الكافر، فإنّه لا يرَى بعد دنياه عَيشًا فاغتنَمها للراحة والسعادة والشهوات ما استطاعَ إلى ذلك سبيلا. لأنّها في عينه ليست سوى أرحامٍ تَدفَعُ وأرضٍ تَبلَع، فالذي ماتَ فات؛ أَحْيِني اليومَ واقتُلني غدا! فالمؤمِن في قَلَق وحَيرة والكافر مطمئنٌّ يتمتَّع.

يَكرَهه ويَغيظُه، وفي المجلس الوزراءُ والفقهاء. فسكت السلطان وخَجِل وقال "هذا رجلٌ مُوَفَّق؛ يا عبدَ الله اِجلِسْ مَجلِسنا!" قال "لا فإنّ مجلسَك مغصوب ودارَك التي تسكُنها أخذتموها بغير حقّ، ولولا أني مجبور ما دخلتُ هنا؛ حال الله بيني وبينَك وبين أمثالِك!" فأمرَ له بأُعطيَة وعافاه في نفسه، فردَّ الأعطية وقبِل العفْو وخرج. فأمر السلطان أن تُدفع إلى أهله. وما مضى زمنٌ قليل إلا والوزيرُ قد مات، وخرج أبو محمد وحضَر جنازتَه وقال "برَرتُ في قَسَمي!"

كان يَصيح ويرفع صوتَه أمام أرباب الدولة ويقول "هؤلاء الفُجّار بغَوا في الأرض؛ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا؛ لاَ يُخَفَّفُ عنهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُون!﴾[البقرة 162]"

صاحبتُ هذا الرجلَ وكان يُحبُّني كثيرا. اِستدعيتُه ليلةً ليَبيت عندي، فلمّا أخذ مجلْسه جاء والِدي رحمه الله، وكان من أصحاب السلطان. فلما دخل سلّم عليه، وكان والدي قد شاب وأنقَى. فلما صلّينا العِشاء قدّمتُ له الطعام وقعَدت آكُل، وانضمّ والِدي يغتنِم برَكتَه. فردّ إليه وجهَه رضي الله عنه وقال له "يا شَيبةً منحوسة، أما آنَ لك أن تستحْييَ من الله، إلى متى تصحَب هؤلاء الظلَمة؟! ما أقلَّ حياءَك! أأمِنت من الموت أن يأتيَك وأنت على شرِّ حالة، أما لك في ابنك هذا –وأشار إليّ– مَوعظة؟! شابٌّ صغير في شَهوته، قمَع هواه وطرد شيطانَه وعدَل إلى الله يُصاحب أهلَ الله؛ وأنت شيخ سَوء على شَفا حُفرة من النار!" فبكى والدي واعترف وأنا في ذلك كلِّه أتعجّب.

أخبارُه كثيرة وشأنه عجيب. جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله الحَبَشي بقُرطبة ومشِينا معه إلى منزله رضي الله عنه. سمعته يوما يقول "عجبت لِمن يطلُب ما يركَب وهو لم يشرَع في شُكر ما أكل وما لبِس!" كان لا يزيد على الحاجة شيئا في مَأكله وملبَسه، كان قاصما للجبّارين ما تفوتُه قطٌّ غَزوةٌ في الروم راجِلاً بغير زاد.

* * *

ومنهم عبد الله بن جَعدون بن محمد بن زكريا الحِنّاوي[172]، مات بفاس سنةَ سبع وتسعين وخمسمائة. جمعتُ بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي. كان رضي الله عنه واحدًا من الأربعة الأوتاد[173] الذين يُمسك الله العالَم بهم. سأل

[172] لم أجد لهذا الشيخ ترجمةً، ولا غَرو فقد كان مستورا بستر الله وإن كان وتدًا، وقد سأل الشيخ الأكبر هذا السترَ في ديوانه قائلا:

سألـــتُكَ ربِّي أن تَجودَ لعَبدِكُم ... بأن يَكُ مَستورًا إلى آخرِ الدَّهْرِ

كمِثل ابنِ جَعدونَ وقد كان سيِّدًا ... إمامًا فلم يَبرَح مِنَ الله في سِتْرِ

سألْتُكَ ربِّي عِصمَةَ السِّترِ إنّهُ ... على سُنَّة الْحِنَّاوي سُنَّتُنا تَسري

[173] يقول الشيخ في الباب الثلاثون، في معرفة الطبقة الأولى والثانية من الأقطاب الركبان: الفُرسان رُكّابُ الخَيل، والرُّكبانُ رُكّاب الإبِل. فالأفراس في المعروف تركبها جميع الطوائف من عجم وعرب والهجن لا يستعملها إلا العرب والعرب أرباب الفصاحة والحماسة والكرم ولما كانت هذه الصفات غالبة على هذه الطائفة سميناهم بالركبان فمنهم من يركب نُجُبَ الهِمم ومنهم من يركب نُجب الأعمال؛ فلذلك جعلناهم طبقتَين: أولى وثانية. وهؤلاء أصحابُ الركبان هم الأفراد في هذه الطريقة، فإنهم رضي الله عنهم على طبقات: فمنهم

اللهَ تعالى أن يُسقِط حُرمتَه من قلوب العالَم، فكان إذا غاب لم يُفتقَد وإذا حضر لم يُستَشَر وإذا جاء لا يُوَسَّع له وإذا تكلّم بين قوم ضُرب وسُخِّف.

كان سببُ اجتماعي به ما أذكره الآن: وذلك أني لما وصلتُ إلى مدينة فاس، وكان ذِكري قد بلغ مَن بلغ، فأحبَّ مَن بَلَغَه ذلك الاجتماعَ بي. فكنتُ أفِرُّ من الدار إلى الجامع فلا أوجدَ في الدار، فنُطلَبُ في الجامع وأنا أراهم. فيأتونَني فيسألون عني فأقول لهم "اُطلُبوه حتى تجدوه!" فبينما أنا قاعدٌ وعليّ ثيابٌ رفيعةٌ جِدّا، وإذا بهذا الشيخ قد قعَد بين يديَّ ولم أكن أعرِفه قبلَ ذلك فقال لي

الأقطابُ ومنهم الأئمة ومنهم الأوتاد ومنهم الأبدال ومنهم النُّقَباء ومنهم النُّجَباء ومنهم الرَّجَبيُّون ومنهم الأفراد. وما منهم طائفة إلا وقد رأيتُ منهم وعاشرتُهم ببلاد المغرب وببلاد الحجاز والشرق. ويقول في مترل التقريب من الباب الثاني والعشرين في معرفة علم مترل المنازل وترتيب جميع العلوم الكونية: النُّقباء اثنا عشر والأبدال سبعة وهؤلاء السبعة منهم الأوتاد أربعة والإمامان اثنان والقطب واحد. ويقول في الباب السادس عشر في معرفة المنازل السفلية: اعلم أن الأوتاد الذين يحفَظ الله بهم العالَم أربعةٌ لا خامسَ لهم. وهم أخصُّ من الأبدال، والإمامان أخص منهم، والقطب هو أخصُّ الجماعةِ. ويقول في الباب السادس عشر: وهؤلاء الأوتاد الأربعة منهم من هو على قلب آدم والآخر على قلب إبراهيم والآخر على قلب عيسى والآخر على قلب محمد عليهم السلام. فمنهم من تمده روحانية إسرافيل وآخر روحانية ميكائيل وآخر روحانية جبريل وآخر روحانية عزرائيل. ولكل وَتَدٍ رُكنٌ من أركان البيت، فالذي على قلب آدم عليه السلام له الرُّكن الشامي، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقي، والذي على قلب عيسى عليه السلام له الركن اليماني، والذي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله.

"السلام عليك ورحمة الله" فردَدت عليه، ففتح كتاب 'شرح المعرفة'[174] للمُحاسبي فقرأ منه كلماتٍ ثم قال "لي اشرح لي وبّين ما قال!" فخُوطبتُ

[174] وهو كتاب في غاية الأهمّيّة في فنّ التصوُّف، وهو مناسبٌ للقاء الشيخ الأكبر وذاك القُطب، موافقٌ للنصيحة التي هي صورةُ هذه الرسالة التي نحن بصدد دراستِها ومعناها، وسبب وضعها وفَحواها. فها أنا ذا أُهديك شذرات من هذا الكتاب، فاشكُر ربَّك العزيز الوهّاب. يقول الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي في مقدّمته: ما استعان أحدٌ على نفسه وإحراز دينه بمثل الْمُراقبة لله عز وجل، وبها نالوا الحياء من الله تعالى. وهي باب المعرفة، وهي أربع خصال. هي فرضٌ من الله عز وجلّ، وقد ضُيِّعَت، وهي موجودةٌ في كتاب الله الْمُنَزَّل. بها يبلُغ العبدُ شرَفَ الدنيا والآخرة وبها يَحظَى عند الله تعالى وعند الخلق. وهي أصول الطاعات كلِّها وفروعُها: أوَّلُها وآخرها؛ مأمورٌ بها المؤمنون كلُّهم، الذَّكَر والأُنثَى، العالِمُ والجاهل، والخلق أجمعون. فلو أنّ عَبدًا عبَد الله ألفَ سنةٍ ثم ألف سنة، ولم يعرِفْها ولم يعمَل عليها، لم يَزدَدْ بعَمَله من الله إلاّ بُعدًا ولم يزدد قلبُه إلا قَسوَةً ودينُه إلا انتِقاصا. ولو أن عبدا عَرفَها ثم لَزِمها وعمِل بها لَبَلَغ درَجَةَ الْمُخلِصين الصادقين، وسَلك مَسلَك الخائفين الوَرِعين، ونال مَنالَ أهلِ الحياء مِن الله عزَّ وجل. ولا يكون العبدُ مُخلِصًا ولا وَرِعًا ولا وَجلا ولا صادِقا ولا خائِفًا ولا زاهِدا ولا ناسِكا إلاّ بعِلمِها والعَمَل بها. ولا تَثبُت هذه الخِصالُ في قلبه إلا بالنِّية الجيِّدة واليَقين الرابِح والعَقلِ الكامِل، وبالتَّمسُّك بها ولُزومِها في المواطن كلّها. في كلِّ طَرْفَةٍ عين، بل في كلِّ لَحْظَة ولَمْحة، فإنَّها رأسُ مالِ العارفين وطريقُ الصادِقين ومَسلَكُ الخائفين وسَبيلُ الْمَحزونين وراحَةُ الزاهِدين وعِزُّ الْمُتَّقين ورِفعَةُ العامِلين. فَاعمَلْ بها أيُّها العبد، فإني قد نَصحتُك. وهي غايَةُ النّصيحة؛ فإنّها دينُ الله وتَصديقُ كِتابه وتمامُ حِكمتِه ومِلاكُ دينه ومَعرفَةُ فرائضِه عزَّ وجلّ. اِسمَع رَحِمَك الله وَاستَعِن بالله عزّ وجلَّ مع الصبر في

بأحواله ومَن هو ومقامُه وأنه من الأوتاد الأربعة وأن ابنَه يرِث مقامَه، فقلتُ له "عرفتُك؛ أنت فلان" فأغلق كتابَه وقام واقفًا وقال "السِّترَ السترْ! إني أحبُّك فأحببتُ أن أتعرَّف إليك؛ فقد صحّ المقصود" ثم انصرف. لم أكن أجالِسُه قطُّ إلا إذا لم يكن معنا أحد.

وكان مَعقودَ اللِّسان لا يتكلَّم إلا عن مَشقَّة، فإذا تَلا القرآنَ كان مِن أحسنِ الناس صوتًا وأبرَعِهم مَساقا. كان كثير الاجتهاد وكان يَنخُل الحِنّاءَ بالأُجرة، قلَّما تراه إلا مكحولَ العينين، أشعثَ أغبَر، وإنما كان يكحِّل عينيه من أجل غبار الحِناء. أخبرني ابنه الحسن عن أبيه أن وارثه في مقامه ابنُه الصغير محمد. ومات ابن جعدون

الحالات كلِّها: فإنّ أوَّلَها مَعرِفَةُ الله تبارك وتعالى، والثانية معرِفَةُ إبليسَ العَدوِّ، والثالثة معرفةُ نَفسِك الأمّارةِ بالسُّوء، والرابعة معرفة العمَل لِلَّهِ تبارك وتعالى. ولو أنَّ عَبدًا عاشَ دَهرَه كلَّه مُجتَهِدًا في العِبادة، ولَم يَعرف الْمُراقبةَ ولم يعمل عليها، ثم صار إلى الله عز وجلّ على الجَهلِ بها، لم يَنتَفِع بشَيءٍ مِن ذلك. إلاّ أن يتفضَّل الجليلُ جلَّ ثَناؤُه... [ثم ختم الكتاب بقوله:] فالحذرَ الحذر مِن أهلِ زَمانك، ثم الحذرَ مِن نفسك خاصّة فإنها عدوٌّ خفيٌّ، واحذَرْ إبليسَ وأعوانَه، وكُن مُتَيقِّظًا في أمورِك كلِّها. واحذَر فُتورَ العَزْم، فإنّك عِندها يَطلُبُك العَدوُّ؛ فإذا فترَ عَزمُك فلا تَستَرِحْ، واستَعِن بالله. فإنّه ليس مِن عابدٍ إلاّ وله فَترَةٌ: فإمّا إلى سُنَّةٍ وإما إلى بِدعة. أعاذَنا الله وإيّاك مِن البِدَع، ما ظَهَرَ منها وما بَطَن. واعلَم أنّي لم أدَع النُّصحَ إن أعطيتَ الْمَجهودَ في طلَبِ النَّصيحة، ولا خير في قوم لا يكونون ناصحين ولا يحبون الناصحين. انتهى النقل من مخطوطة رقم 218 ش. م، مكتبة جامعة الرياض. وهناك طبعة شديدة المفارقة لهذه المخطوطة، نشرتها دار الصحابة بطنطا عام 1413 هـ.

ولولدِه محمد أربعُ سنين، كذا ذكر لي أخوه الكبير الحسن، وفقه الله، بدمشق وأخوه محمد حاضر بمنزلي بها في شهر صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة.[175]

* * *

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد بن أشرف الرُّندي[176]. من الأبدال، شيخ السواحل والجبال. انقطع بها فلا يأوي إلى مَعمور قريبا من ثلاثين سنة. كان قويَّ الفِراسة كثيرَ البُكاء طويل القيام دائمَ الصمت، كثيرا ما ينكُت بأصبعه في الأرض مُطرِقا متفكِّرا. يرفع رأسَه فيتنفَّس الصُّعَداء، لصدره أزيز، شديدُ الوجْد غَزيرُ الدمعة. صاحَبته وعاشرتُه زمانا، كان إذا وقعت عينُه عليَّ فرِح بي واستبشر. خرج عن مال كثير وافِر، كان مِن أعْيَن مَن في مَوضعه.

خرجتُ وقتا من مدينة شِدونة أُريد الساحل في طلب الرجال، فتبعِني شابٌّ لا نَبات بعارضَيه يُريد صُحبتي، فأخذتُه معي. فقام أمامي شخصان، الواحد أسمرُ

---

[175] يدلّ هذا التاريخ على أنّه لا تصحُّ نسبة هذه النُّسَخ المنشورة إلى بدر الحَبَشي، وذلك لأنه مات حوالي سنة 618 بمَلَطْية. وهذا الشيخ الأكبر يخبرُنا بما يُثبتُ أن الرسالة لم تزل موضِع التّدريس وقيدَ الزيادات إلى سنة 634 أي لأربع سنين قبل وفاته. وإلا فأصل الرسالة وُضع بمكّةَ عام 600 وبقي الشيخ يدرِّسُها طوالَ عمره لعظيم أهمِّيَتها عنده.

[176] لم أجد له ترجمة، وقد ذكره الشيخ في الدرة الفاخرة قال: لم يأوِ إلى معمور أربعًا وعشرين سنة. صلَّيتُ معه بخارج مرشانة الزيتون فتمارينا في القِبلة فقال بإصبعه: كذا، وقال "هذه الكعبة، فصلُّوا!" فرأيتُ لبيتَ والطائفين به، حتى رأيت طائفًا به مَن أرِفه من المجاورين بها، فصلَّينا على يقين. فلمّا فرَغنا من الصلاة حُجب البيت عنّا.

طويلٌ يقال له عبد السلام السائح، يجول في الأرض لا يقَرّ له قَرار، ومعه آخر يقال له محمد بن الحاجّ، مِن بَني جواد. وكانا يمشيان مشيا سريعا، فلحِقتهما وكان بيني وبينهما خمسة أميال، فمررتُ عليهما مستعجلا. وكان يومُ جُمعة، فأوَيت إلى قرية يقال لها رُوطَة من أجل صلاة الجمعة. فدخلت مسجد الجماعة وركعتُ ركعتين، وهو موضع يَطرُقه الصالِحون؛ رِباطٌ حسَن له بركات مشهودة. فاتّفق لي بها قِصّة. فلم ألبَث أن جاء هذا أبو عبد الله بن أشرف، فلما دخل قام إليه ذلك السائحُ وصاحبُه فسلّما عليه وعرَفاه، وأنا مضطجِع في الجامع أضرِب بيَدي على صدري وأُغنّي:

ضاحِكٌ عن جُـــمانٍ	سافِـــرٌ عن بَـــدرِ
ضاقَ عنه الـــزمانُ	وحَـــواه صَدري

فجاء إليّ وأقامني وقال "أتريد أن تَستُر نفسَك؟" فقلت له "وكذلك تفعلُ أنت!" وكان كما قلتُه. فأقبل إليّ شيخُ القرية ورغِب أن أُفطر عندَه أنا ومَن شئت، فقال لي ابن أشرف "لا تأكُل مِن هذا الطعام شيئا، واحمِل جميعَ الفقراء، فإذا أكلوا تأتي وتُفطر معي!" فكان كذلك. وأخبرني بأمور كثيرة ووعَدني أن ألقاه بإشبيلية، فأقمتُ عنده ثلاثة أيام وانصرفت. أخبرني بكل ما يتَّفق لي بعد مُفارقته حرفًا حرفا، فكان كذلك.

فلما وصلتُ إلى إشبيلية أقام الله بخاطري الرِّحلةَ إليك لأراك وأنتفع بك، وكان ذلك يومَ الثلاثاء، فشاورت الوالدة في السفر فأذِنت. فلما كان في غدٍ قرَع إنسان

عليَّ الباب، فخرَجتُ فوجدت إنسانا من البادية فقال "أنت محمد بن العربي؟" فقلت له "نعم" قال "كنتُ أمشي بين بلجانة ومَرشانة بالأمس، اثني عشر فرسخا من إشبيلية، فلقيَني رجل له هَيبة وهِمّة فقال "أنت تسير إلى إشبيلية؟" قلت "نعم" قال "سَل عن دار محمد ابن العربي واجتمع معه، وقل له: صاحبُك الرُّندي يُقرئك السلام، وهذا كان طريقَه إليك، ولكن خطر لك الساعةَ أن ترحَل إلى تونس؛ فسِرْ مسلَّما، عافاك الله! واجتِماعُنا إن شاء الله إذا وصلتَ إشبيلية" فكان كما قال. ورحِلتُ أنا في اليوم الثاني لزيارتكم وغِبت عن موضعي. ويومَ وصولي أو ثانيَه اجتمع بي وبِتُّ معه في دار أبي عبد الله القَسطيلي.

وكان سبب شُهرته رضي الله عنه أنه كان كثيرًا ما يقعُد في جبل شامِخ على مَورور. فمشى بعضُ الناس فيه بليلٍ لحاجة، فرأى عَمودا من نور قائما يتشَعشع، لا يستطيع النظرَ إليه. فقصده فوَجد ذلك النور صاحبَنا أبا عبد الله وهو قائم يصلي؛ فأشهره. كان يحترِف بجمع الباميا في الجبال ويأتي بها إلى المصر يبيعها وينصرِف. له غرائب وعجائب عاينتُها. لقيَه القُطّاع وهو على عين قاعد فقالوا له "ألقِ ما عليك من الثياب أو تموت!" فبكَى وقال "والله لا أحسنتُ عَونَكم على معصيَة؛ إن أُمِرتُم بشيء فافعَلوه!" ثم أخذته غَيرةٌ في دين الله، فنظَر إليهم نظرتَه المشهورة ففرُّوا!

سألَني يوما بالساحل عن قوله تعالى ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْق﴾[البقرة 60] فلم أُجبه وتركتُه. فاجتمعت به بعد ذلك بأربع سنين فقلت له "يا أبا عبدِ الله" قال "نعم"

قلت "خُذ جوابَك" قال "هاتِ، بعدَ أربع سنين؛ وصلَ الوقت!" فأجبته فيها وتعجَّبت من حضوره فيها.

كنت أتمنّى أبدا أن يراه صاحبي عبد الله بدرٌ الحَبَشي، فلما دخلت الأندلس معه نزلنا برُندة فصلّينا على جَنازة، فإذا بأبي عبد الله أمامي فقلت لصاحبي عبد الله "هذا فلان" فسُرّ بعضُنا ببعض، ودخلت به الموضع الذي نزلت به فقال صاحبي عبد الله "ودِدت أن أرى مِن كراماته شيئا!" فلما جاء المغرب وصلّينا أبطأ الذي نزلنا عنده بالمصباح، فقال صاحبي عبد الله الحبشي "أريد المصباح!" فقال أبو عبد الله "نعم" ثم أخذ بيده قبضةً من حشيش من البيت الذي كنا فيه، ونحن ننظُر ما يصنع، فضربها بأصبعه المسبِّحة وقال "هذه نار!" فاشتعَل الحشيشُ نارا، فأسرجنا المِصباح. وكان يغترف النار بيده من الكانون لحاجة مّا، فيُمسكها ما شاء الله ولا تعدو عليه. كان من الأمِّيّين. سألته عن بُكائه يوما فقال "آليتُ أن لا أدعُوَ على أحد، فأغاظني رجلٌ فدعَوت عليه فهلَك؛ فندِمت على ذلك إلى الآن!" كان رضي الله عنه رحمةً للعالم، وأخبارُه كثيرة يضيق وقتنا عن شرحِها.

* * *

ومنهم موسى أبو عمران السدراني، من أحواز تلمسان. كان من الأبدال وكان محمولا، له عجائب وغرائب. كان سبب اجتماعي به أني قعَدتُ بعد صلاة المغرب بمنزلي بإشبيلية، في حياة الشيخ أبي مدين، وتمنّيت أن لو اجتمعت به، والشيخ في ذلك الزمن ببجاية، مسيرةَ خمسة وأربعين يوما. فلما صلّيتُ المغرب

تنفّلت ركعتين خفيفتين، فلما سلّمت دخل عليّ هذا أبو عِمران وسلَّم، فأَجلَسْتُه إلى جانبي وقلت "من أين؟" قال "من عند الشيخ أبي مدين، من بجاية!" قلت "متى عهدُك به؟" قال "صلّيتُ معه هذا المغرب؛ فردَّ وجهه إليّ وقال لي: إن محمد بن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا؛ فسِر إليه الساعةَ وأجِبْه عني بكذا وكذا.." وذكر لي ما خطَر لي من رغبتي في لِقاء الشيخ، وقال لي "يقول لك: أما الاجتماع بالأرواح فقد صحّ بيني وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك؛ فسكِّن خاطرك، والموعدُ بيني وبينك عند الله في مستقَر رحمته!" وذكر كلاما خلافَ هذا، ورجَع إليه.

كان هذا موسى رضي الله عنه من أهل السَّعة في الدنيا فخرج عنها ففتح الله عليه، في ثمانية عشر يوما اِلْتَحقَ بالأبدال، كان يتبوَّأ من الأرض حيث يشاء. وُشيَ به إلى السلطان فأمر بتثقيفه فقُيّد بالحديد وسِير به إليه، فلما قرُب من فاس أُلقي في بعض المنازل في بيت وأُقفل عليه وبات عليه الحرَس، فلما أصبح فُتح الباب فوجدوا الحديدَ الذي كان عليه مطروحًا وما وجَدوا أحدا. دخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب، فقرع عليه الباب فخرج الشيخُ بنفسه وقال له "مَن أنت؟" قال "أنا موسى" قال له الشيخ "وأنا شُعيب؛ اُدخل ﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ!﴾[القصص 25]"[177].

---

[177] إشارةً إلى ما قالَه النُّبيُّ شعيبُ لِلنَّبيِّ موسى، عليهما السلام، لَمّا فرَّ من مصرَ. فقد آواه وزوَّجه إحدى ابنتَيه على أن يَمكُث عندَه ثمانيَ سنين. كما قصَّ الله علينا من أمره في

أخبَرني شيخي أبو يعقوب الكومي عنه أنه وصل جبل قاف[178] المحيط بالأرض فصلّى الضُّحى بأسفَله وصلى العصر على ذِروته، سئل عن ارتفاعه في الهواء

سورة القَصص وفي سورة طه حيث قال تعالى لموسى ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾[طه 40] فاعتَبر!

[178] لقد أنكر مُعظَم العلماء وُجودَ جَبل قاف وصرَّحوا بأنّه من خُرافات الإسرائيليات. وإن كان قد جاءت بذكره الآثار، فعُقول المدَّعين لعلم كل شيء تُحيلُه. قالوا: كيف يكون حولَ الأرض جبلٌ يحيطُ بها، ونحن لا نرى بيننا وبين السماء شيئًا من هذا؟ هذا مُستحيل، ودليلُه أننا نرى الشمس والنجومَ، ولو كان بيننا وبين ذلك جبلٌ يحيط بكوكبنا لما وصلَنا نورُ الشَّمس ولا أبصَرنا النجومَ التي في السماء! فاعلَم أوَّلاً أن الأرض ليست الصعيد الذي نمشي عليه، بل هي الكوكب برُمَّته، أي بما في ذلك جوُّ الأرض. أي الأرض كنظام متكوِّن من الصعيد الذي هو التراب والبحار والأودية التي هي الماء والبراكين التي هي النار والسماء التي هي الهواء. لذا جاء قول الله تعالى ﴿فِي الأَرْضِ﴾ 170 مرّة بيد أنه لم يجئ ﴿على الأَرْضِ﴾ سوى أربع مرات. فإنّنا إذًا مَوجودون في الأرض لا فوقَها. لذا استحالَ علينا الخروجُ من أقطار الأرض أي من فَلَك الأرض. ثم اعلَم أن كون الشيء هواءً أو سيّالاً أو جمادًا ليس وقفًا على عين الشيء بل هو حال من أحوالِه، فالماءُ السائلُ عادةً قد يكون بُخارًا تارةً وجليدًا تارة أخرى. وكذلك الحديد فقد يذوب وتتصاعدُ أبخِرتُه في الجوّ. فإذا كان المَعدن على شكل بُخار لم يحجِب الشَّمسَ ولا منع النجوم من أن تظهَر. ولا يخفى أنّ في جوِّ السماء من معادن الأرض ما لا حصرَ له كمًّا وكيفا، وأوضحُ دليل على ذلك الرياح الرَّمليّة التي تحمل كميّات هائلة في طبقات الجوّ فتيسر بها من قارَّة إلى قارَّة، كما لاحظ ذلك علماء الرَّصد الجوّي وصرَّحوا بأن مليارات

الأطنان من رمال الصحراء تعبُر المحيط الأطلسي لتترلَ على غابات أمازونيا. فهذه الرِّمالُ تتنقَّل في السماء وكأنَّها سُحُب، وذلك قول الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[النور 43] فدلَّنا تعالى على أنّ في السماء جبالاً من ماء أو غيره، وأنّها موجودةٌ ولكن على شَكْلِ بُخار وغُبار مُتلاش، أي أنَّ ذرّاتِه مُتباعدة، فإذا جمعها الله وألَّف بينها تكاثفَت وتصلَّبت وأصبحت جبالاً مُتراكِمة، فوقعت على صعيد الأرض. وعلى العكس من ذلك فالجبال التي نراها حولَنا فإنَّها في حقيقة أمرِها متباعدَة الذَّرّات كالسحاب الذي في السماء والذي لم يؤلِّف الله بين ذرَّاته، وذلك قولُه تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ؛ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النور 43] هكذا فقد أخبرَنا الله تعالى بأنّ في السماء جبالاً وأن جبال الأرض كالسَّحاب. إذا فهمتَ هذا علَمت أنّ الأمورَ على غير ما تبدو للإنسان الذي لا يُجري فِكْرَه في خَلْق الله، ولو فعلَ لرأى عجائبَ لا حصرَ لها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُم؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم 22] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل 69] فالتَّفكُّر في الكَون مَطلوبٌ منّا، وهو سبيلٌ لتقوية الإيمان وبلوغ درجة اليقين الذي يورثُ العلم والخشيةَ والتَّقوى التي ينبعِث منها الكلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالِح ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُها، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ؟! إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ!﴾[فاطر 27-28] فهؤلاء هم العلماءُ في الأصل، الذين يَعبُرون من الظواهر الكونيّة إلى الحقائق التّوحيديّة التي تورِثُ العلمَ بعَظمَته عزَّ وجلّ. الحاصلُ أنَّه ليس من الضروري أن يكون جبلُ قاف أن يكون كثيفًا فنراه بأعيننا ولا أن يحجب عنّا الشمس. روى أبو الشيخ الأصبَهاني بسنده عن

مقاتل بن حيان عن عِكرمة عن ابن عباس، رضي الله عنهما في قوله عز وجل ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد﴾[ق 1] قال: أَنبَتَ اللهُ عزَّ وجل مِن الياقوتَة جَبَلا، فأحاط بالأرَضين السبعَ؛ على مِثلِ خَلْقِ الياقوتةِ في حُسْنِها وخُضرتِها وصَفائها. فصارت الأرَضون السبعُ في ذلك الجبل كالأُصبُع في الخاتَم، وارتَفَع بإذن الله في الجوِّ حتى لَم يَبقَ بينَه وبين السماء إلا ثَمانُونَ فَرسَخا، وما بين السماءِ والأرض مَسيرةُ خُمسِمائة عامٍ للراكب الْمُسْرِع. ثم أنبتَ اللهُ هذه الجِبال التي على وَجْه الأرض في بَرِّها وبَحرِها من ذلك الجبَل؛ فهي عُروقُ ذلك الجبل، مُتشَعِّبةٌ في الأَرَضين السَّبعِ. فذلك قولُ الله ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادا﴾[النبأ 7] وقولُه تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَات﴾[المرسلات 27] فالرَّواسي: الثابتاتُ الأُصول إلى الأرض السابعة، والشامِخات: العالِيَاتُ الفُروعِ فَوقَ هذه الأرض. فإذا أرادَ الله عزّ وجلَّ أن يُزَلزِلَ قَريَةً، أَوحَى إلى ذلك الجبل أن يُحرِّكَ منه عِرْقَ كذا وكذا، فإذا حرَّكه خَسَفَ اللهُ بالقرية. ولذلك الجَبَلِ رَأسٌ كرَأس الرَّجُل ووَجْهٌ كوجهِ الرجل، وقَلبٌ على قُلوب الْمَلائكَةِ في الْمَعرفَة لِلَّهِ والخشية والطاعة له سبحانه وتعالى. فذلك قوله جل ذكره ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد﴾ فـ'قاف' ذلك الجبلُ وهو اسْمُه، وهو أقطارُ السموات والأرض التي يقول الله عز وجل ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض...﴾[الرحمن 33]. وخَلقَ الله في عُروق ذلك الجبل ألوانَ المِياه التي تَجري في البُحور، مِن البَياض والخُضرة والسَّواد والصُّفرة والحُمْرة، والكُدْرَة والعَذْب والمالِح والْمُنتِن والزُّعاق. فخُضرة السماء من ذلك الجبل، وخضرة ذلك الجبل من تلك الصخرة؛ قضى ذلك الرحمنُ تبارك وتعالى... كتاب: العظمة ج4/ص1484، دار العاصمة، الرياض. وواضحٌ أن بين سورة ق وجبل قاف علاقة، فمن ذلك قول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[ق 6-7] ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق 22]

فقال: مسيرةَ ثلاثمائة سنة! وأخبر أن الله قد طوّق هذا الجبل بحَيَّة اجتمع رأسُها بذنَبها؛ من أعظم المخلوقات! فقال له صاحبُه الذي كان معه "سلِّم على هذه الحية تردّ عليك!" قال موسى: فسلمت عليها فقالت "وعليك السلام يا أبا عِمران، كيف حال الشيخ أبي مدين؟" فقلت لها "وأنّى لك بمعرفة أبي مدين؟!" فقالت "عجبا؛ وهل على وجه الأرض من يجهل حال أبا مدين؟! إن الله مُذ أنزل حُبّه إلى الأرض ونادى به عرفتُه أنا وغيري؛ فلا شيءَ مِن رَطْب ولا يابس إلا ويعرفُه ويُحبُّه!"[179]

[179] فائدة جليلة: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «إنّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إني أحبُّ فلانا فأحِبَّه! فيُحِبُّه جبريلُ ثم ينادي في السماءِ فيقول: إنَّ اللهَ يحبُّ فُلانًا فأحِبُّوه! فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضَعُ له القَبُولُ في الأرض. وإذا أَبْغَضَ اللهُ عبدًا دعا جبريلَ فيقول: إنّي أُبْغِضُ فُلانا فَأَبْغِضْه! فَيُبْغِضُه جبريلُ ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فلانا فأَبغضوه! فيُبغِضونَه ثم تُوضَعُ له البغضاءُ في الأرض» أخرجه مسلم والبخاري ومالك والترمذي عن أبي هريرة. يقول الشيخ في الباب الرابع والثلاثين وثلاثمائة في معرفة منزل تجديد المعدوم، وهو من الحضرة الموسوية من الفتوحات: فلما سمعتُ منه هذه الحكاية قلت "أينَ هذا الأمرُ مِن كتاب الله؟" قال "لا أدري" قلتُ له "لَمّا خلق الله آدمَ الإنسانَ الكامِلَ على الصورة [أقول وأنا أبو حامد صخر بن محمد الهادي: يعني بالصورة صورة الرَّحمن التي خلقَ الله الإنسانَ عليها، وها هو الحقُّ وإن أنكرَه جمهور العلماء، إنكارًا للحقِّ واعتداءً لحدود الله التي حدَّها وحَجرًا عليه تعالى، والأدلَّة على ذلك ما بلغَنا من أحاديث ثابتة النِّسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم. فمنها الذي بلغنا عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا تُقبِّحوا الوَجْهَ, فإنَّ ابنَ آدمَ خُلِقَ على صُورَةِ الرَّحْمَن عزَّ وجَلّ»

رواه محمد بن الحسين الآجُرّي في الشريعة ر725، ثم قال رحمه الله: هذه من السُّنن التي يجب على المسلمين الإيمانُ بها, ولا يقال فيها: كيفَ؟ ولِمَ؟ بل تُستَقبَلُ بالتَّسليم والتَّصْديقِ وتَرْكِ النَّظَر, كما قال مَن تَقدَّمَ مِن أئِمَّةِ المسلمين. فقد صدق الأجُرّيُّ ونصح ولكنّ القومَ تأوَّلوا الخبر حين لم يستطيعوا ردَّه لصحَّة سنَده لأنَّ الحديث ثابتٌ عن جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وأبو سعيد وابن عباس. ومن ذلك ما فعلَه ابنُ خُزَيمةَ في 'كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل' حيث خالَف اسمَ كتابه و لم يُثبت صِفةَ الربّ كما جاءت في هذا الخبر بل تأوَّله، قال: «خلق آدم على صورته» الهاء في هذا الموضع كِناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب لأن وجه آدم شبيه بوجوه بنيه؛ فتفهَّموا رَحِمَكم الله معنى الخبرَ ولا تَغلَطوا ولا تُغالطوا فتَضلُّوا عن سواءِ السبيل، وتَحمِلوا على القول بالتَّشبيه الذي هو ضَلال.انتهى كلامُ ابن خزيمة الذي ردَّ الخبرَ خوفًا من التشبيه، حيث لا تشبيه. وقد ردَّ عليه الذهبي قال: ولابن خُزيمة عَظمَةٌ في النُّفوس وجَلالةٌ في القلوب، لِعلمِه ودينِه واتِّباعِه السُّنَّة. وكتابه في التوحيد مجلَّد كبير، وقد تأوَّل في ذلك حديثَ 'الصورة' فَليُعذَر مِن تَأَوُّل بعضِ الصِّفات. وأمّا السَّلَف، فما خاضُوا في التأويل، بل آمَنوا وكَفُّوا، وفَوَّضوا عِلمَ ذلك إلى الله ورسولِه. ولو أنّ كلَّ مَن أخطأ في اجْتِهاده مَع صِحَّة إيمانه وتَوخِّيه اتِّباعَ الحقِّ أَهدَرْناه وبَدَّعناه، لقَلَّ مَن يَسلَمُ مِن الأئِمَّة مَعنا. رَحِمَ اللهُ الجميع بِمَنِّه وكَرَمه. انتهى من سير أعلام النبلاء، ج14/ص374-376، مصدر الكتاب : موقع يعسوب. فنقول بعد هذا: إنّنا لا ندَّعي أنّ الرحمن يُشبِه الإنسانَ ولكنّنا نقبَل ما قاله رسولُ الله كما قالَه صلى الله عليه وسلَّم، وهو أنّ الإنسان مخلوقٌ على صورة الرحمن. وهذا هو المعنى من قول النبيِّ «إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته» فالضمير يعود على الخالِق لا المخلوق، لذا نهى الشارع عن ضرب وجه بني آدمَ كما رواه الإمامُ أحمد بن حَنبَل في مُسنَده ر7319 قال: حدّثَنا سُفيان عن أبي الزِّنادِ عَن الأَعرَج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا ضرب أحدُكم فلْيَجْتَنبِ الوجْهَ، فإنَّ الله تعالى خلق آدمَ على صورته» قال الأرنؤوط: إسنادُه صحيح على شرط الشيخين. قلتُ وهو عند مسلِم وابن حِبّان.

وأَوَضحُ وأصرح من هذا كلِّه قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن قاتَلَ فَليجْتَنب الوَجهَ، فإنَّ صورَةَ وَجْهِ الإنسانِ على صورَة وَجه الرَّحْمَن» ضعَّفه الألباني حينَ لَم يحتمِل معناه، وقد ردَّ عليه عبد الله الدويش، في تنبيه القارئ على تقوية ما ضعّفه الألباني، ر215 قال: الحديثُ صحَّحه إسحاق بن راهَوَيْه وأحمدُ بن حنبل كما نقله عنهما الحافظ ابن حَجَر في فتح الباري، آخرَ كتاب العتق، ولم يتعقَّبْه بل قال: رِجالُه ثِقاتٌ. وكذلك الحافظُ الذهبي نقلَ تصحيحَه في ميزان الاعتدال وسيَر أعلام النُّبَلاء في ترجمة أبي الزِّناد ولم يتعقَّبه بل قال بمُوجبه، وكذلك قوَّاه ابنُ تيميّة في رَدِّه على الرّازي. والأمرُ كما قال هؤلاء الأئمَّة، فإن الحديث رجاله ثقاتٌ وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه ابنُ أبي عاصم وعبد الله بن أحمد في كتاب السنة وغيرهما من طريق ابن لَهيعَة عن أبي يونس سُليم بن جُبير عن أبي هريرة. قلتُ: وقد أخرجه الطبراني وابن أبي عاصم عن ابن عمر بسند رجالُه ثقاةٌ. ولنرجع إلى كلام الشيخ قدَّس الله سرَّه، حيث قال: "لَمّا خلق الله آدمَ الإنسانَ الكامِلَ على الصورةِ] أعطاه حُكمَها في العالَم حتى تَصِحَّ النِّسبةُ والنَّسَب، فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ فأطلق ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ فعمَّ الأمَّهات والْمُوَلَّدات وما ترك شيئًا من أصناف المخلوقات، فلما وصل بالتفصيل إلى ذكر الناس قال ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[الحج 18] ولم يقل "كلُّهم". فجعل عبدَه الصالِحَ المحبوبَ في الحُكم على صورته؛ فأحبَّه بِحُبِّ اللهِ جميعَ مَن في السموات ومَن في الأرض على هذا التفصيل. وكثيرٌ مِن الناس لا كلُّهم، فكَفَروه كما كَفَروا بالله، وشَتَموه كما شَتَموا اللهَ تعالى، وكذَّبوه كما كذَّبوا الله. وقد ورد في الحديث الصحيح الإلهي أن الله يقول «كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك. فأَمَّا تكذِيبه إيّاي، فقولُه "لن يُعيدَني كما بَدَأني" وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهوَنَ عَلَيَّ من إعَادتِه. وأمَّا شَتْمُهُ إيّاي، فقوله "اِتَّخذَ اللّهُ وَلَدا" وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفُوا أَحَدٌ. [قلتُ: أخرجه

البخاري والنسائي وابن حِبّان عن أبي هريرة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال «يقول اللّه عزّ وجل]. فإذا وَجد الإنسانُ مِن نفسه هذه الصِّفة التي ذَكرناها عند التِّلاوة أو استِحضار القرآنِ، عَلِمَ أنّ القرآن العظيم أتاه مِن ربِّه في ذلك الوقت. وإذا جلّى الله له سبحانه وكشف له عن شَرَفِ نَفسه بخَلقِه على صورةِ رَبِّه وما أعطاه اللهُ مِن ظُهورِه بالأسماء الإلَهيَّة وما فَضَّلَه الله به مِن حيثُ أنّه جَعلَه العَينَ الْمَقصودَةَ ووَسَّعَ قَلبَه حتى وَسِع عِلمًا بما تجلَّى له وكُشِف له عن مَترلتِه عندَه وقَبولِه لِزيادَة العلم به دائمًا، وتَأهُّلِه للتَّرَقِّي في ذلك إلى غير نِهايةٍ؛ دُنيا وآخرةً. وما سخَّر في حقّه مِمّا في السُّموات وما في الأرض جميعًا، ونَظَرَ إلى نَظرِ كلِّ جُزءٍ من العالَم إليه بِعَين التعظيمِ والشُّغوفِ عليه، ورأى كلَّ العالَم في خِدمَتِه كما هو في تَسبيح ربِّه، لِظُهوره عندهم في صورة ربِّه. ويَظهَر هذا كلُّه لِهَذا الشَّخص عند التِّلاوة للقُرآن لا غَير، عَلِمَ عند ذلك أنّه يَتلُو القُرآنَ الْمَجيدَ، وأنّه الذي نُزِّل عليه وأتاه مِن ربِّه. ولهذا كُشِف له مترلتُه وشرَفُه ومَجْدُه؛ فاستوَى مَجيدٌ على مجيد. وإذا جلّى الله له سبحانه وكَشف له عن كَرَم نَفسِه بما يُؤثر به على نفسه مع وُجود الحاجة لِما آثَرَ به وسعَى في قَضاء حوائج الناس، مِن مُؤمنٍ وغيرِ مؤمن. ونَظَر جَميعَ العالَم بِعَين الرحمة، فرَحِمَه ولم يَخُصَّ بذلك شخصًا من شَخص، ولا عالَمًا مِن عالم، بل بَذَل الوُسْعَ في إيصال الرحمة إليهم. وقَبِل أَعذارَهم وتَحمَّل أَعباءَهم وجَهْلَهم وأَذاهُم، وجازاهم بالإساءَةِ إحسانًا وبالذّنبِ عَفوًا وعن الإساءة تَجاوُزًا، وسعَى في كلِّ ما فيه مِن راحة لْمَن سعَى له. وذلك كلُّه في حالِ تِلاوَتِه؛ عَلِم قَطْعًا أنّه يَتلو القرآنَ الكريمَ. فإنّ هذه صِفتُه وأنّه القرآن الذي أتاهُ مِن رَبِّه، وأنّ الله يُعامِلُه بمِثلِ ما عامَل به. وأعظمُ ما يَتكرَّم به العَبدُ ما يتكرَّمُ به علَى الحَقِّ بطاعَتِه وَامتِثالِ أَمرِه، فإنَّ الله يَفرَحُ بتَوبَة عَبدِه. فإذا تكرَّم على اللهِ بِمثلِ هذا، فقَد أَغاظَ عَدُوَّ الله وهذا أعظمُ الكَرَم. انتهى كلام الشيخ، قدِّس سرُّه وجزاه الله عنا بما هو أهلُه. قلت: لا تتعجَّبْ، فإنّ الله يفرح، وما أَشدَّ

دخل هذا موسى أرضًا[180] رأى النَّمل فيها على قَدْر الْمَعِز، عجيبةَ الخلق. لَقي عَجوزًا خُراسانيّة بالبَحر واقفةً على البحر والأمواج تصطَفِق بين ساقَيها، وهي تُسبِّح الله وتقدِّسه. شأنُه عجيبٌ وحديثه طويل، رحمه الله تعالى.

فرَحَه تعالى بتَوبةُ عبده! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَلّهُ أشدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبده، حين يَتُوبُ إليه مِن أَحَدِكم: كان على راحِلَتِه بأَرضٍ فَلاةٍ فَانفَلَتتْ منه وعليها طَعامُه وشرابهُ. فَأَيِسَ منها، فأتَى شَجرةً فاضطَجَع في ظِلِّها، قد أيسَ من راحلته. فبينا هو كذلك، إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأخذ بخِطامِها ثم قال من شِدَّة الفَرَح: اللَّهُمَّ أنت عَبْدي وأنا ربُّكَ! أَخطَأَ مِن شِدَّة الفَرَح.» أخرجه مسلم عن أنس بن مالك. وله شواهد عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن مسعود عند البخاري وغيره.

[180] ليست هذه المواضع في الأرض التي نعرِفُها ولا مَن العالَم الذي نعيش فيه، فإنّما هي أرضُ الحقيقة. وهي مَظهَرُ تَجلّي صفةِ القُدرة الإلَهيّة الذي مَجالُها عالَمُ الخيال أو عالَم الجَبَروت، وهو عالم الأسماء والصفات الإلهية والحقائق الكونية في العلم الأَزَلي، والذي لا يدخُله الإنسانُ إلاّ بالروح دونَ الجِسم، وهو عالَمُ القُدرة الذي يتجاوَز ويحوي عالَمَنا الذي هو عالَم الُملك والشهادة أو عالَم الحِكمة، أي عالَم الأجسام والطبيعة والأسباب والمسبَّبات، وهناك عالَمٌ آخَر وهو عالَم الْمَلَكوت الذي هو عالَم الأمر، أي عالَم الملائكة. إن هذه الأرض لِكونها فَضْلَةً مِن طِينَة آدَم، عليه السلام، اِكسبت صفات القُدرة الإلَهيَّة التي لا حدَّ لها، فاتَّسعت لكل العوالِم من مُمكنات ومُستحيلات عقليّة. وذلك لأن نشأة جسم آدم من طين سوَّاه الحق عز وجل بيدَيه، فحلَّ فيه القِدمُ والعَدَم، والربوبيّة والعُبوديَّة، والحُرّيّة والاضطِرار، الجَبرُ والاختيار، والشقاء والسعادة، والجلال والجمال، وما إلى ذاك من أضداد. لذا جمعت أرضُ الحقيقة الأضدادَ والْمُحالات العقلية؛ كوُجود جسم وعدمِه في آنٍ واحد، وكوُجود جسم

واحد في مكانين في نفس الوَقت، ومن ذلك كونُ الجِرْم متناهيًا في الصغَر وفي الحين نفسه كبيرا بلا نهاية، ومن ذلك أنَّ هذه الأرض بحَجْم السِّمْسِمة في الصِّغَر إلا أنّ العرش والكرسي والسماوات والأرضون السَّبع كلها فيها كحلقة صغيرَة في صحراءِ شاسِعة. يقول الشيخ في الثامن في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام وهي أرض الحقيقة وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب من الفتوحات: اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام الذي هو أول جسم إنساني تكون وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية وفضلت من خميرة طينته فضلة خلق منها النخلة فهي أخت لآدم عليه السلام وهي لنا عمة وسماها الشرع عمة وشبهها بالمؤمن ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسمة في الخفاء فمد الله في تلك الفضلة أرضًا واسعة الفضاء إذا جعل العرش وما حواه والكرسي والسموات والأرضون وما تحت الثَّرَى والجنات كلها والنار في هذه الأرض كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض. وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمرُه. وفي كل نفس خلق الله فيها عوالِم يسبحون الليل والنهارَ لا يفترون. وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله وعظمت عند المشاهد لها قدرته. وكثير من المحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله، وفيها يجولون. وخلق الله من جملة عوالمها عالَمًا على صورنا إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها. وقد أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما روى عنه في حديث: هذه الكعبة وأنها بيت واحد من أربعة عشر بيتا، وأنّ في كل أرض من السبع الأرضين خلقًا مثلنا، حتى أن فيهم ابن عباس مثلي. وصدقت هذه الرواية عند أهل الكشف. فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها وكثرة عالمها المخلوقين فيها ومنها ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية أخبر بعض العارفين بأمر عرفه شهودًا قال "دخلت فيها يومًا مجلسًا يسمى مجلس الرحمة، لم أر مجلسًا قطّ أعجبَ منه. فبينا أنا فيه إذ ظهر لي تجلٍّ إلَهي لم يأخذني عني بل أبقاني معي" –وهذا من خاصية هذه الأرض فإن التجليات الواردة على

العارفين في هذه الدار في هذه الهياكل تأخذهم عنهم وتفنيهم عن شهودهم من الأنبياء والأولياء وكل من وقع له ذلك، وكذلك عالم السموات العلى والكرسي الأزهى وعالم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجل إلهي أخذهم عنهم وصعِقوا. وهذه الأرض إذا حصل فيها صاحبُ الكشف العارف ووقع له تجل، لم يُفنه عن شهوده ولا اختطفه عن وجوده، وجمع له بين الرؤية والكلام- قال "واتفق لي في هذا المجلس أمور وأسرار لا يسعني ذكرُها." لغموض مَعانيها وعدم وصول الإدراكات قبلَ أن يشهد مثل هذه المشاهِد لها. وفيها من البساتين والجنات والحيوان والمعادن ما لا يعلم قدرَ ذلك إلا الله تعالى وكلّ ما فيها مِن هذا كله حيٌّ ناطق كحَياة كل حي ناطق، ما هو مثل ما هي الأشياء في الدنيا. وهي باقية لا تفنَى ولا تتبدَّل ولا يموت عالَمُها، وليست تقبل هذه الأرض شيئًا من الأجسام الطبيعية الطينية البشرية، سوى عالَمَها أو عالم الأرواح منا بالخاصيّة. وإذا دخلها العارفون إنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم فيتركون هياكِلَهم في هذه الأرض الدنيا ويتجرَّدون. وفي تلك الأرض صوَرٌ عجيبة النَّشء بديعةُ الخَلق قائمون على أفواه السِّكك المُشْرِفة على هذا العالَم الذي نحن فيه مِن الأرض والسماء والجنة والنار. فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض، من العارفين من أي نوع كان من أنس أو جن أو ملك أو أهل الجنة بشرط المعرفة وتجرد عن هيكله، وجد تلك الصورَ على أفواه السِّكك قائمين مُوَكَّلين بها قد نصَبَهم الله سبحانه لذلك الشغل. فيُبادر واحِدٌ منهم إلى هذا الداخل فيخلع عليه حُلَّة على قَدر مقامه، ويأخذ بيده ويجول به في تلك الأرض ويتبوّأ منها حيثُ يشاء، ويَعتَبِرُ في مصنوعات الله. ولا يَمُرُّ بحَجَرٍ ولا شَجَر ولا مَدَر ولا شيءٍ ويُريد أن يَكلِّمه إلا كلَّمه، كما يكلم الرجلُ صاحِبَه، ولهم لغاتٌ مُختَلفة. وتُعطي هذه الأرضُ بالخاصِّيّة لكل مَن دخلها الفهمَ بجميع ما فيها مِن الألسنة. فإذا قضى منها وَطَرَه وأراد الرجوعَ إلى مَوضِعِه، مشَى معه رَفيقُه إلى أن يُوصِلَه إلى الموضع الذي دخل منه؛ يُوادِعُه ويَخلَع عنه تلك الحُلة التي كساه وينصرف عنه، وقد حصَّل علوما جَمَّةً ودَلائل، وزادَ في عِلمِه بالله ما لم يكن عنده مشاهدةً. وما رأيت الفهم ينفُذُ أسرعَ مما يَنفُذُ إذا حَصَل في هذه الأرض. وقد ظهر عندنا في هذه الدار وهذه النشأة ما يعضُد هذا القول. فمِن ذلك ما شاهدناه ولا أَذكُرُه، ومنها ما حدَّثني أَوحَد الدين حامِدُ بنَ أبي الفخر الكرماني وفقه

الله، قال "كنت أخدُم شيخًا وأنا شابّ، فمَرِضَ الشيخ وكان في محارة وقد أخذه البطن فلما وصلنا تَكريت قلت له: يا سيدي، اُتركني أطلُب لك دواءً مُمسِكًا مِن صاحب مارِستان سِنجار من السبيل فلما رأى احتراقي قال لي "رُح إليه" قال: فرحت إلي صاحب السبيل وهو في خيمته جالس ورجالُه بين يديه قائمون والشنعة بين يديه وكان لا يعرفني ولا أعرفه، فرآني واقفًا بين الجماعة فقام إليّ وأخذ بيدي وأكرمني وسألني "ما حاجتك؟" فذكرت له حالَ الشيخ فاستحضر الدواء وأعطاني إياه وخرج معي في خدمتي، والخادِمُ بالشمعة بين يديه. فخِفت أن يراه الشيخ فيُحرَج، فحَلِفتُ عليه أن يَرجِع، فرجع. فجئت الشيخ وأعطيتُه الدواء وذكرتُ له كرامَة الأمير صاحب السبيل بي فتبسَّم الشيخُ وقال لي "يا وَلَدي، إني أَشفَقتُ عليك لِما رأيتُ مِن احتِراقك مِن أجلي، فأَذِنتُ لك. فلمّا مَشيتَ خِفتُ أن يُخجلَك الأميرُ بعَدَم إقبالِه عليك، فتَجرَّدتُ عن هَيكلي هذا ودَخلُت في هَيكَل ذلك الأميرِ، وقعدتُ في مَوضِعه. فلما جئتَ أكرمتُك وفَعلتُ مَعك ما رأيتَ، ثم عُدتُ إلى هيكلي هذا. ولا حاجةَ لي في هذا الدواءِ وما أستَعمِلُه" فهذا شخص قد ظهر في صورة غيره، فكيف أهلُ تلك الأرض؟! قال لي بعضُ العارفين: لَمّا دخلت هذه الأرض رأيتُ فيها أرضًا كلَّها مسك عطِر، لو شَمَّه أحدٌ منّا في هذه الدنيا لَهَلك لقوّة رائحته، تَمتَدُّ ما شاء الله أن تمتد. ودخلتُ في هذه الأرض أرضًا مِن الذهب الأحمر اللَّيِّن فيها أشجارٌ كلها ذهب وثمرها ذهب. فيأخذ التُّفّاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفُها واصف؛ تَقصُر فاكِهَةُ الجنّة عنها، فكيف فاكهة الدنيا؟! والجسم والشكل والصورة ذهب، والصورة والشكل كصورة الثَّمَرة وشكلها عندنا، وتختلف في الطَّعم. وفي الثمَرة من النقش البديع والزينة الحسنة ما لا تتوَهَّمُه نفس، فأحرى أن تشهده عين. ورأيت مِن كِبَر ثَمَرها بحيث لو جُعلت الثمَرة بين السماء والأرض لَحجَبَت أهلَ الأرض عن رؤيةِ السماء، ولو جعلت على الأرض لفَضُلت عليها أضعافًا. وإذا قَبض عليها الذي يريد أكلَها بهذه اليَد المَعهودة في القَدر عمَّها بِقبضَته لنِعمَتها ألطف من الهواء، يطبِّق عليها يده مع هذا العظم. وهذا مما تحيله العقول هنا في نظرها. ولما شاهدها ذو النون المصري نطق بما حُكيَ عنه من إيراد الكبير على الصغير من غير أن يصغُر الكبير أو يكبر الصغير أو يوسَّع الضيق أو يضيقَ الواسع.

فالعِظَم في التُّفاحة على ما ذكرته باقٍ والقبْض عليها باليد الصغيرة والإحاطة بها موجودٌ والكيفية مَشهودةٌ مَجهولة لا يعرِفها إلا الله. وهذا العلم مما انفرد الحق به. واليومُ الواحد الزَّماني عندنا هو عِدّة سنين عندهم، وأزمنة تلك الأرض مختلفة... وما رأيت عالَمًا من عالم كل أرض أبسط نفوسًا منهم ولا أكثر بشاشة بالوارِد عليهم يتلقَّونه بالتَّرحيب والتأهيل... وإذا نظرت إلى نسائها ترى أن النساء الكائنين في الجنة من الحور بالنسبة إليهن كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحور في الجنان وأما مجامعتهن فلا يشبه لذتها لذة وأهلها؛ أعشق الخلق فيمن يرد عليهم. وليس عندهم تكليف بل هم مَجبولون على تعظيم الحق وإجلالِه تعالى لو راموا خِلاف ذلك ما استطاعوا. وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات من غير تناسل بل يتكونون من أرضها تكون الحشرات عندنا. ولا ينعقد من مائهم في نكاحهم ولد وإن نكاحهم إنما هو لمجرد الشهوة والنعيم... وخَلقُها مُتفاوتون في الأحوال؛ ففيهم مَن تَغلِبُ عليهم الشهَواتُ وفيهم مَن يغلب عليهم تَعظيمُ جَنابِ الحَقّ. ورأيتُ فيها ألوانًا لا أعرِفُها في ألوان الدنيا. ورأيت في هذه الأرض بحرًا من تراب يجري مثل ما يجري الماء ورأيت حجارة صغارًا وكبارًا يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس ليس في قوته أن يمتنع فإذا ترك وطبعه جرت بعضها إلى بعض على مقدار من المساحة مخصوص فتضم هذه الحجارة بعضها إلى بعض فينشأ منها صورة سفينة ورأيت منها مركبًا صغيرًا وشينبين فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون من البلاد. غير أن قاع السفينة من رمل أو تراب يلصُق بعضه ببعض لُصوقَ الخاصية فما رأيت فيما رأيت أعجب من جريان هذه السفن في ذلك البحر وصورة الإنشاء في المراكب سواء غير أن لهم في جناحي السفينة مما يلي مؤخرها اسطوانتين عظيمتين تعلو المركب أكثر من القامة وأرض المركب من جهة مؤخره ما بين الأسطوانتين مفتوح متساو مع البحر ولا يدخل فيه من رمل ذلك البحر شيء أصلاً بالخاصية... ورأيت منهم من العجائب مما يرجع إلى ما عندهم من تعظيم الله ما لو سطرناه لأعيَى الكاتب والسامع... وكل ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض مُمكنًا قد وقع، وإن الله على كل شيء قدير. فعلمنا أن العقول قاصرة وأن الله قادر على جمع الضدين ووجود الجسم في مكانين وقيام العرَض بنفسه

ومنهم أبو محمد مخلوف القبائلي، سكن قُرطبة، عن إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات. حَملتُ إليه والدي رحمه الله فدعا له وأمسكَنا عنده من غُدوة حتى صلّينا العصر، وأكلنا طعامه. كنتَ إذا دخلت بيته أخذك الحال قبل أن تراه، فإذا رأيته رأيتَ منظرا عظيما. عليه ثوبُ صوف، كان ذاكرا على الدوام خلافَ أوراده، كان له كل يوم خلاف ذكره كذا وكذا ألف تسبيحة وكذلك التكبير والتحميد والتهليل. كان يعُمُّ بدعائه أهلَ السموات وأهل الأرض، حتى الحِيتان في البحر. كان سريع العَبرة دائم العِبرة.

أراد أن يحفِر بئرا في داره فسيق له عِلْج مأسور ليحفِرَه فقال رضي الله عنه "إن هذا العلج قد خدَمنا فنسأل الله في إسلامه!" فخَلا بنفسه ليلتَه يسأل الله فيه، فلما أصبح أقبل العلج لشُغله وهو قد أسلم، فسئل عن سبب ذلك فقال "رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وأمرني أن أومن به فآمنت وقال: بشفاعة أبي محمد مخلوف فيك قبِلتُك!" أو كلام هذا معناه.

تركتُه في عافية وانصرفت إلى مَنزلي، فلما جاء الليل وأخذت مضجَعي رأيت في المنام كأني بأرض واسعة وسحاب يدنو، فيها صهيل الخيل وقَعقعةُ اللُّجم، فأرى أشخاصا رُكبانا وعلى أقدامهم، فيتزلون في ذلك الفضاء، حتى امتلأ بهم

وانتقاله وقيام المعنى بالمعنى وكل حديث وآية وردت عندنا مما صرفها العقل عن ظاهرها وجدناها على ظاهرها في هذه الأرض وكل جسد يتشكل فيه الروحاني من ملك وجن وكل صورة يرى الإنسان فيها نفسه في النوم فمن أجساد هذه الأرض لها من هذه الأرض موضع مخصوص... وقد بسطنا القول في عجائب هذه الأرض وما يتعلق بها من المعارف في كتاب كبير لنا فيها خاصة.

الفضاء؛ ما رأيت قط أحسنَ وجوها منهم ولا أنقى ثيابا ولا أحسن من خيلهم. وكنت أرى فيهم رجلا طويلا في الرجال عظيمَ اللحية أشْيَبَ، يدُه إلى خده، واسعَ الوجه أوجنَ، فكنتُ أخاطبه من بين الجماعة كلِّها، أقول له "أخبرني ما هذا الجَمّ الغفير؟" فيقول لي "هؤلاء جميع النبيِّين، من آدم إلى محمد عليهم السلام؛ ما بقي أحدٌ منهم إلا نزل!" فقلت "مَن أنت فيهم؟" فقال "أنا هودٌ صاحبُ عاد[181]" فكنت أقول له "فيم جئتم؟" فيقول "جئنا عُوَّادًا زائرين

---

[181] فائدة: يظهرُ لي، والله أعلَم، أنّ سبَب مُخاطبة الشيخ للنبيّ هود دونَ سواه من الرُّسل والأنبياء، يرجع إلى صِدقِ الرُّؤيا ووُضوح تأويلِها. فهود عليه السلام من قوم عاد ﴿وَ﴾أرسلنا﴿إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودا﴾[الأعراف 65]. وعاد يعود عيادةً معناه في اللُّغة زار يزور زيارةً، وهي لفظة خاصّة بزيارة المرضَى، كما جاء في الحديث القُدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يومَ القيامة: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني...» أي: لَم تَزُرني في مَرَضي. فناسبَ أن يكونَ هودٌ أصدقَ مَن يقول "جئنا عُوَّادًا زائرين". وذلك من باب أخذ المعاني من أسمائها للمناسبة بين الاسم والْمُسَمَّى، فإنَّ بين الاسم والْمُسَمَّى مُناسبةً وإن لَم يعلَمْها أكثرُ الناسُ. ومن ذلك قولُ الشاعر:

سَمَّوه بَدْراً وذاك لَمَّا ... أن فاقَ في حُسْنِه وتَمَّا

وأجْمَع الناسُ مذ رَأَوْهُ ... بأَنَّهُ اسمٌ على مُسَمَّى

ولقد حصل لي أن سألتني إحدى بنات عمومَتي عن رؤيا رأَتها وهي مريضة جدّا، قالت لي "رأيتُ زوجي –وكان زوجُها اسْمُه بَدْرٌ، وكان قد مات منذ سنين عديدة– فسألني أن آتيَه بسبّاطِه –هكذا بالدارجة– فما معنى هذا المَنام؟" فقلتُ لها "خير، إن شاء الله" وأنا على يقين بأنّ رؤياها دلَّت على قُرب موتِها بغتَةً، وذلك مِن اسمِ زوجها بدر، أي من المبادرة، وهي

إلى أبي محمد مَخلوف!" ثم استيقظت، فسألت عن أبي محمد مخلوف فوجدتُه قد مرِض من تلك الليلة، فلبِث أيّاما ومات رحمه الله تعالى.

ومنهم صالح الخرّاز. كان بإشبيلية من أهل الورَع والجِد في العبادة والاجتهاد؛ أقبل على العبادة وهو ابن سَبع سنين أو دونها. كان مبهوتا أبدا، ما لعِب قطّ مع الغلمان ولا كلمهم. تعلّم الخرْز من أجل ورعه حتى يأكلَ من عمل يده، كان له والدة وكان بَرًّا بها. نسخ بيده على صغر سنه كتابَ ابن العسال[182] الكبير، ولازم العُزلة.

سرعَة الحادِث. ثم من السَّبّاط وهو الحِذاء. فقول الْمَيِّت لها إنّما هو "إيتِ بحذائي" أي بقُربي، أي في عالَم الأموات، وذلك عاجلاً نسبةً إلى اسمه. فتُوُفِّيت بعد أيّام قليلة، رحمها الله. قال ابن قُتيبة: قد يكون تأويلُ الرؤيا مرةً من لفظ الاسم ومرة من معناه ومرة من ضده ومرة من كتاب الله تعالى ومرة من الحديث ومرة من المثل السائر والبيت المشهور... فأما التأويل بالأسماء فتحمله على ظاهر اللفظ؛ كرَجُلٍ يُسمَّى الفَضْلَ تتأوَّلُه إفضالاً، ورجُل سالِمًا تتأوله السَّلامةَ، وأشباه هذا كثيرة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «رأيتُ اللَّيْلَةَ كأنَّا في دارِ عُقْبَةَ بنِ رافعٍ، وأُتينا برُطَبٍ من رُطَبِ ابنِ طَابٍ. فأوَّلْتُ أنَّ الرِّفْعَةَ لنَا في الدُّنيا، والعاقبةَ في الآخرةِ، وأنَّ دينَنا قد طابَ». -قلت: رواه مسلم وأبو داود عن أنس بن مالك- فأخذَ مِن رافع الرِّفعةَ وأخذ مِن رُطَب ابن طاب طِيبَ الدين. -قلتُ: وأخذ من عُقبة العاقبة-. انتهى من منتخب الكلام في تفسير الأحلام، ص 388، دار الفكر، بيروت.

[182] قال ابن بشكوال في الصلة ج1/ص90: هو عبد الله بن فرج بن غزلون اليَحصُبي: يعرف، بابن العسال من أهل طليطلة، يكنى: أبا محمد... كان متفننا فصيحا لسنا، وكان الأغلب عليه حفظ الحديث والأنحاء واللغة والآداب. وكان عارفا بالتفسير، شاعرا مفلقا، وكان سنيا، وكان له مجلس حفل يقرأ عليه في التفسير. وكان يتكلم عليه وينص من حفظه أحاديثَ

كان طويلَ الصمت، يقول أصحابُه الذين كانوا معه: ما كلّمنا قط إلا فيما لا بدّ منه! عاشرته وأحببته وأحبّني. كان إذا قال قولا لا يرجِع عنه، لأنه لا يقول إلا عن صِدق. لا يقضي حاجة أبدا ولا يعمل شغلا قط لمن يعرف منه أنه يراه بعين التعظيم. أكثرُ شغله إنما كان مع الغُرباء الذين يَطرُقون المدينة لا يعرفونه ولا يعرفهم. قصد إليه بعضُ أصحابنا بنَعله، وقد قطعه عمْدا، ليجد سبيلا إلى مُكالمته. فسلم عليه فردّ عليه السلام فقال له "هذا نعلي اخرُزه!" فقال له "إن هذا النعل بيدي أُصلح شأنه لصاحبه وقد دفع إليّ أجرَه" -وأنا واقف بحيث لا يراني- فقال له "أَمسِكْه عندك حتى تَفرُغ من هذا النعل وتصلحه" فقال "لعلّي أموتُ قبل ذلك! ترى غيري دون شغل، اِدفعه له" فقال "ما أريد أن يصلحه أحدٌ إلا أنت!" قال "قد قلتُ لك ما سمِعت!" واشتغلَ بذِكره، قال له "تراني أقعد هنا ونعلي عندي حتى تُتمّه وتصلحه!" قال "ذلك لك إن شئت، ولكن حتى أعرِّفك بأجري عليه" قال له "قل" قال "أجري عليه ثُمن درهم" قال له الرجل "أنا أدفع لك رُبع درهم" قال "ما يساوي!" قال له الرجل "ذلك مني مسامحة" قال "غيري أحوج إليه مني إن كنت

كثيرة. وكان منقبضا متصاوِّنا يلزم بيته. ذكره ابن مطاهرن أخبرنا عنه جماعة من شيوخنا. وتوفي سنة سبع وثمانين وأربع مئة وقد نيَّف على الثمانين رحمه الله. ، موقع الوراق. يقول في قصيدة يرثي فيها الأندلس بعد سقوط طليطلة عام 478:

يا أَهْلَ أَندَلُسَ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ　　فَمَا الْمُقَامُ بِــهَا إِلاَّ مِنَ الغَلَــطِ
الثَّوْبُ يَنسَلُّ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى　　ثَوْبَ الجَزِيرَةِ مَنسُولاً مِنَ الوَسَطِ

تعطي لله، فإني قد أخذت قوتَ اليوم!" قال "لا بُدّ من ذلك!" قال له "قد صدّعتني يا إنسان، سِرْ عني؛ لا أعمل لك شُغلا!!" وأقبل على ذكره وشغله.

فرجع الرجل إليّ منكسرَ القلب، فقلت له "لقد طوَّلتَ عليه؛ اِرجع إليه مرة أخرى وقل له: اُحرزه لي ابتغاءَ ثواب الله، لا أدفع لك عليه شيئا!" فرجع إليه فقال له ذلك فنظر إليه ساعة وقال له "أنت مَرسول!" ثم التفت وأبصرني فقال له "اُترك نعلَك وانصرِف عني، فإذا كان العصر فأتِني، فإن وجدتني حيًّا دفعتُه لك وإن وجدتني مَيتا فتراني أوصي لك به هذا الجار" ثم الْتفتَ وأشار إليّ فأقبلتُ إليه فقال "هكذا تفعل الأصحاب؛ يقابلون إخوانهم بما يسوؤهم؟! لا تَعُد لِمثلها؛ ولولا ما جعل الله لك في قلبي من الأُلفة ما رأيتُك! ولكن اُستُر عليّ!" فلم أعرِّف بعدَ ذلك أحدا بحاله رضي الله عنه. اِنتقَل إلى سُكنَى البادية بأحواز رُندَة، يبتغي الاِنفراد والعُزلة.

* * *

ومنهم عبد الله الخياط، أو القراق، لا أدري. اجتمعت به بجامع العَدَبَّس بإشبيلية، وهو ابن عشر سنين أو إحدى عشرة سنة، وهو ذو طِمرين منتقِع اللون كثيرُ الفكر شديدُ الوجْد والتولُّه. كنتُ قد فُتح لي في هذا الطريق وما علم بي أحد، فأردت الموازنة معه. فنظرتُ إليه فتبسّم ونظر إليّ، وأشرت إليه وأشار إليّ؛ فوالله ما رأيت نفسي بين يديه إلا كدرهم زائف! وقال لي "الجِدَّ الجدّ، طوبى لمن عرَف ما خُلق له" وصلى معي العصر وأخذ نعلَه وسلم علي

وانصرف. فذهبت أَتبعه أعرِفَ منزله فلم أجد له أثرا، فسألت عنه فلم أجد أحدا يخبرُني عنه، فما بقيتُ في راحة دونَه، و لم أره بعد ذلك ولا سمعت به إلى الآن؛ فمنهم صغير ومنهم كبير.

* * *

ومهم أبو العباس أحمد بن همّام، من أهل إشبيلية. ألهمه الله رُشْدَ نفسهِ فأقبل على العبادة قبل أن يبلُغ الحلُم، وكان ذا جِدّ يبكي أبدا على نفسه كأنه الثّكلى على وحيدها. كان له والِد يحول بينه وبين طريق الله، فلما اشتدّ ذلك عليه قال لي "يا أخي اشتد عليّ الأمر وقد طردني أبي وقال لي: سِر حيث شئت! وأنا أريد الخروجَ إلى ثُغور المسلمين تُجاه العدوّ؛ أُرابط بموضع منها حتى أموت" فمشى إلى ثغر منها يقال له جَلُمانيَة و لم يزل بها حتى الآن. وصل إلى إشبيلية بعد ذلك ليأخُذ أسبابا يحتاج إليها ورجع يرابط بها. كان أبدا ملازما في دار أبي عبد الله الخياط الذي تقدم ذكره، رضي الله عن جميعهم وعنا.

ومنهم أبو أحمد السلاوي، وصل إلينا إلى إشبيلية وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب. كان هذا أبو أحمد رحمه الله قويَّ الحال، صحِب أبا مدين ثماني عشرة سنة، كان كثير الاجتهاد والعبادة شديدَ البكاء. بِتُّ معه شهرا كاملا بمسجد ابن جراد، فقمت ليلةً أريد أن أصلّي فتوضأت وجئتُ إلى مُسقَّف المسجد، فرأيته نائما عند باب المسقف والأنوار متَّصلة منه إلى السماء، وبقيتُ واقفا أنظر؛ فلا أدري أمِن السماء نزلت عليه تلك الأنوار حتى اتّصلت به أو منه

انبعثت حتى اتصلت بالسماء. فلم أزل واقفا عليه أتعجَّب من ذلك حتى استيقظَ وتوضّأ وقام يصلي. كان إذا بكى آخذ الدموع إذا سقطت من عينيه على الأرض، فأمسح بها وجهي فأجِد فيها رائحةَ المِسْك، فأتخذها طِيبا يشمُّها الناس عليّ فيقولون "هذا المسك عظيم؛ أين اشتريتَه؟"

* * *

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن طريف القيسي الجَزيري[183]، شيخ أبي عبد الله القرشي الذي كان بديار مصر، رضي الله عنهما. كان سَمْح الخُلق لينَ الجانب قائلا بالحق لا تأخذه في الله لومةُ لائم، من أهل الجِد والاجتهاد. كان يحِنّ إلى العُزلة ولا يقدِر عليها من أجل الحِرفة، كان يبيع الفَخّار. قيَّد كثيرا من كتب الطريق. كانت المعاملة غالبةً عليه، يُحِبُّ المعارف ويحن إليها.

---

[183] يقول الشيخ في الباب الحادي والسبعين من الفتوحات: شيخنا أبو إسحاق بن طريف، وهو من أكبر مَن لقيته. لقد سمعت هذا الشيخ يوما وأنا عنده بمنزله بالجزيرة الخضراء سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقال لي "يا أخي والله ما أرى الناس في حقي إلا أولياء عن آخرهم مِمَّن يعرفني" قلت له "كيف تقول يا أبا إسحاق؟" فقال "إن الناس الذين رأوني أو سمعوا بي، إمّا أن يقولوا في حقي خيرًا أو يقولوا ضدَّ ذلك: فمَن قال في حقي خيرًا وأثنَى عليَّ، فما وصفني إلا بصفتِه. فلولا ما هو أهلٌ ومَحلٌّ لتلك الصفة ما وَصفَني بها؛ فهذا عندي من أولياء الله تعالى. ومن قال فيّ شرًّا فهو عندي وليٌّ أطلَعه الله على حالي، فإنه صاحبُ فِراسةٍ وكَشْف، ناظِرٌ بنور الله؛ فهو عندي وليّ. فلا أرى يا أخي إلا وليًّا لله!"... فهذا ما بلغ مِن حُسن اعتقاده. وكان من الشيوخ الذين تُحسَب عليهم أنفاسُهم ويُعاقَبون على غفلاتهم، ومات في عقوبة غفلة.

كان سبب موته أن رجلا مَرّ به فقال له "يا سيدي مرّ عليك فلان؟" يسأله عن إنسان من أهل البلد، وكان ذلك قد اِبتَلاه الله في عنُقه بداءِ نُسمّيه عندنا نُغنغة. فلم يعرفه الشيخ جيِّدا، فألحّ عليه الرجل في السؤال فقال له "أراك، واللهُ أعلم، تَسأل عن ذلك الرجل صاحب النغنُغة في عنقه؟" قال الرجل "عنه أسأل" قال الشيخ: فناداني الحقُّ في سِرّي «يا إبراهيم، ما تعرِف عبادنا إلا بما نَبتَليهم به، ما كان له اسمٌ تذكُره به؟! لأُميتنَّك بها!» فأصبحَ وقد خرجت له في عُنُقه فقاساها يَسيرا ثم مات رحمه الله تعالى. أخبرني بهذه الحكاية ابنُه محمد بالحرَم وقال لي: قال لي أبي "واللهِ ما غلِطتُ في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة!" قصدتُه في بلده مرَّتين وكان يُحبُّني، واجتمعت به مع صاحبي عبد الله بدرٍ الحبشي في سبتة وفي بلده رضي الله عنه ونفع به.

* * *

ومنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالَقي الفخار، عُرِف بالقلفاط[184]. صحِب أبا الربيع الكفيف وغيرَه، وكان صديقا لإبراهيم بن طريف. كان هذا عبد الله

---

[184] ذكره الشيخ في الباب السبعين في أسرار الزكاة من الفتوحات، قال: حدثني عبد الله القَلفاط بجزيرة طَريف سنة تسعين وخمسمائة، وقد جرى بيننا الكلام على المفاضلة بين الغنيّ والفقير، أعني الغنيّ الشاكر والفقير الصابر. وهي مسألة طويلة، وانجرَّ في ذلك حالُ الفقر والغِنَى. فقال لي: حضرتُ عند بعض المشايخ -أو حكاها لي عن أبي الربيع الكَفيف المالَقيّ، تلميذ أبي العباس بن العريف الصِّنهاجيّ- قال "إنّ رجلين كان عند كلٍّ واحد منهما عشرةُ دنانير، فتصدَّق أحدُهُما مِن العشرة بدينارٍ واحد، وتَصدّق الآخَرُ بتِسعة دنانير

يعمل على طريق الفِتيان، ولَعمري لقد ظهر فيه وبدت عليه أعلامه[185]: ما تراه يَمشي قَطّ إلاّ في حق غيره، لا يَلتَفِتُ لنفسه ولا لِحقِّها. يقصِد إلى البلد والحكّام في حوائج الناس، دارُه للفقراء مباحة. مُحافِظٌ للشَّريعة والآداب،

مِن العَشَرة التي عنده؛ أيُّهما أَفضَلُ؟" فقال الحاضرون "الذي تَصدّق بالتِّسعة" فقال "بماذا فضَّلتموه؟" فقالوا "لأنّه تصدَّق بأكثَرَ مما تصدّق به صاحبُه" فقال حَسَن، ولكن نَقَصكم روحُ المسألة، وغاب عنكم" قيل "وما هو؟" قال "فرَضْناهُما على التَّساوي في المال، فالذي تَصدَّق بالأكثرِ كان دُخولُه إلى الفَقر أَكثَرَ مِن صاحبه؛ ففُضِّل بسَبَقِه إلى جانِب الفقر." وهذا لا يُنكِرُه مَن يعرف المَقامات والأحوال؛ فإنّ القومَ ما وَقَفوا مع الأجور، وإنما وقفوا مع الحَقائق والأحْوال وما يُعطيه الكَشْف. وبهذا فَضُلوا على عُلماءِ الرسوم.

[185] أي أمارات مقامِ الفُتوَّة، كما فسَّره فيما بعد. ويقول الشيخ الأكبر في موضع آخر: الفَتَى هو الْماشي في الأمور بأَمْر غَيره لا بأمر نفسه وفي حقِّ غيره لا في حق نفسه، لكن بأمرِ ربِّه. ويقول الشيخ عبد الله الهروي في منازل السائرين: الفُتُوَّة أن لا تشهَد لك فَضْلا ولا ترى لك حقًّا. وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى تَركُ الخُصومَة والتَّغافُل عن الزَّلّة ونِسيانُ الأَذِيَّة، والدرجة الثانية أن تُقرِّبَ مَن يُقْصيكَ وتُكرِمَ مَن يُؤذيك وتَعتَذِر إلى مَن يَجني عليك سَماحًا لا كَظْمًا وبَراحًا لا مُصابرة، والدرجة الثالثة أن لا تَتعلّق في الْمَسير بدَليلٍ ولا تَشُوبَ إجابتَك بعِوَض ولا تَقِف في شُهودك على رَسم. واعلم أنّ مَن أَحوَجَ عَدُوَّه إلى شَفاعَةٍ ولَم يَخجَل مِن الْمَعذِرةِ إليه، لَم يَشُمَّ رائحةَ الفُتوَّة. ثم في عِلمِ الخُصوص: مَن طَلَب نورَ الحقيقةِ على قَدَمِ الاِستِدلال لَم يَحلَّ له دَعوَى الفُتوَّة أبدا. وقلب الفُتوّةِ وإنسانُ عَينها أن تَفنَى بشَهادَةِ نَقصِك وعَيبك عن فَضلِك، وتَغيبَ بشهادَة حُقوقِ الخَلْق عليك عن شَهادة حُقوقِك عَليهم.

مَشروحُ الصدر أكثر من إبراهيم بن طريف، كان ابن طَريف عنده جُمود. اجتمعت به مِرارا عديدة وكان يَميل إلى جانبي كثيرا.

اِتَّفق لي يوما بمدينة سَبتة، وهو بها مع ابن طريف، أن وجَّه إلي السلطان أبو العلاء[186]، وفّقه الله، مائدتَين و لم أكن حاضرا. فأخذهما الفقراءُ الذين كانوا قد وصلوا إلى الموضع مِن أجْلي وأكَلوا، وانقبضَ خواصٌّ أصحابي عنها. فلمّا كان في الليلة الثانية وجَّه إلينا كذلك مائدتين، فلم أقبَل و لم أرُدّ، وكانوا قد أتَوا إلينا فقراءُ بالقصد من أجل الطعام لَماّ سمِعوا أن السلطان يبعثُ إلينا. فأقمتُ صلاة العشاء فصلَّيت. فقال بعضُ الفقراء ممن يدَّعي التشيُّخ «لا صلاةَ بحضرة

[186] أبو العلاء المأمون إدريس بن المنصور (581 – 630 هـ) خليفة موحدي حكم بلاد المغرب والأندلس بين 1227 - 1232. ولد بمدينة مالقة سنة 581 هـ (1185 م)، وأمه حرة هي صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش، وكان المأمون صنو أبيه المنصور في صفاته العلمية. فقد كان فقيهاً حافظاً، ضابطاً للرواية، متمكناً من علوم الدين، إماماً في اللغة، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير، كاتباً بليغاً، متين البيان، وشاعراً محسناً، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخاري، وكتاب الموطأ، وسنن أبي داود. وكان فوق ذلك حاكماً مقتدراً، بارعاً في الإدارة ومعالجة الشئون، ذكياً وافر الهمة والعزم. ويجمل ابن الخطيب صفاته في قوله: " كان رحمه الله شهماً، شجاعاً جريئاً، بعيد الهمة، نافذ العزيمة، قوي الشكيمة، لبيباً، كاتباً أديباً، فصيحاً، بليغاً، أبياً، جواداً حازما ". دولة الإسلام في الأندلس ج4 ص385، الإحاطة (1956) ج 1 ص 418.

الطعام»[187] فسكتُّ عنه. فغضِب حيث لم أُجِبْهُ فقلت "أنا لم أقبَل ذلك الطعام ولا أرى أن آكُلَه، فإنّه عندي حرام، ولا يتمكّن لي أن آمُرَكم بأكله؛ فإني أُحِبُّ لكم ما أحب لنفسي!" ثم بيّنت وجهَ الحرام فيه ثم قلت "هذا طعامٌ حاضِر؛ مَن استحلَّه أكلَه ومن لم يستحله تَرَكَه!" ودخلتُ إلى البيت الذي كنتُ فيه وأَدخلت معي خواصَّ أصحابي.

فلما أصبح مشى ذلك ووَشَى عند الوزير بأني أقول فيهم أنهم أهلُ حرام وغير ذلك. فاغتاظ الوزير وقال "إن السيِّد، واللهِ، هو الذي يَتناول توجيهَ ذلك الطعام بنفسه، ولا يبرَح حتى يُحمل أمامَه!" وقام لذلك وقعد. فوصلت المسألة إلى السلطان، وكان عاقِلا، فقال "نحن ما قصدنا إلا الخير، وهو أعرف بحاله؛ لا نُدخِل عليه مَضرّةً ولا ما يَسوؤُه!" وقبَضَ ذلك عنّي.

فبلغ ذلك صاحبَنا القَلفاط، فاجتمع بي. وقد خاف عليّ وعلى أصحابي مما يَعرِفُ مِن البلاد. وعاتَبني على ذلك وقال "يا فُلان، هذا في حقِّ نفسك حسن، غيرَ أن الْمَضرَّة تنسَحِب فيه على الطائفَة. وهؤلاء القومُ لا يحتمِلون مثلَ هذا؛ وقد قال بعضُهم: ذلّ مَن ليس له ظالم يعضُده وضلَّ من ليس له عالم يُرشِده!" فلما رأيتُ أنّ الرحمة قد غلَبت عليه في حقِّ الناس وتسديدِ الأمور والأخذ بالأرجح في المصلحة الدنيوية قلتُ له "بِئسَ العبدُ لله مَن يَستنِد إلى عدوِّ الله! لا

---

[187] من حديث عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «لا صلاةَ بحضرةِ الطعام، ولا وهو يُدافِعُه الأَخبَثان». أخرجه مسلم وأبو داود وغيرُهما.

رعَى الله العالَم إذا لم يرعَوا حقَّ الله؛ حقُّ اللهِ أحقّ!" ونَفضتُ يَدي وقمتُ وانصرفَ. فلقِيتُ ابنَ طَريفٍ والخبرُ عندَه فقال لي "السِّياسَة أَولَى" فقلتُ له "ما دام رأسُ الْمالِ مَحفوظًا فلا بأس!" فسكت رضي الله عنه.

* * *

ولولا التطويلُ لذكرناهم عن آخرهم، ولَكن اقتصرتُ على هذا المِقدار رغبة في الإيجاز والاختِصار. وقد أَفرَدتُ لذِكْرِهم كِتابًا سَمَّيْتُه ʼالدرة الفاخِرة في ذِكر مَن اِنتفَعتُ به في طريق الآخِرةʻ ذكرتُ فيه مثلَ عبد الله بن تاخمست، يعدّه أهلُ إشبيلية من الأبدال. وآخر يقال له السخان كان من الأبدال، فترل وبقي حزينا لا يكلّم أحدا؛ كنتُ إذا لقيته رحمته لِما أراه فيه من الكرْب الشديد.

ومنهم الشيخ العارف السائح الْمُتجرِّد المنقطِع الصادق الصالح الْمُسِنّ أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي، من أهل المعارف والإشارات والتمكين، قلّ أن يُلقى مثلُه. بيني وبينَه مسائِلُ في الحقائق كثيرة يَضيق الوقتُ عن ذكرها، أَلَّفتُ مِن أجله كتابَ ʼعنقاء مُغرِب في معرفة خَتْم الأولياء وشمس الْمَغربʻ. ومنهم أبو العباس بن تاجة مِن أهل إشبيلية، من المجتهدين لم يزل المِصحَف بين عينيه حتى مات رحمه الله. ومنهم أبو عبد الله بن بِسطام الباغي من أهل باغة، كان من أهل القرآن بالليل. ومنهم يوسف بن تعزّا بقرمونة من التالين لكتاب الله، لا يتركه القرآن أن يتحدّث مع أحد، صوَّاما قواما. ومنهم أبو الحسن القنوني بمدينة رُندة، من أهل الفتوّة والمعارف السبعة. ومنهم ʼاللهمَّ صَلِّ على محمدʻ الحدّاد بمدينة

إشبيلية، كان مُستَهتِرًا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دائما لا يفتُر. ومنهم أبو إسحاق القُرطبي ببِجاية من أصحاب أبي مدين، كان من الموحِّدين. ومنهم أبو عبد الله المهدَوي بمدينة فاس، بقيَ نيِّفا وستين سنة ما استدبَر القِبلة حتى مات. ومنهم علي بن موسى بن النقرات[188] بمدينة فاس، كان مجهولا لا يُعرف بهذه الطريقة غامِضا للناس فيها، وكان لديه معرفة تامّة وكانت له فيها فِراسة. كان قلّما يجد من يستريح إليه في هذه الطريقة حتى مات. وكان عند الناس مشهورا بالقِراءات والروايات رحمه الله تعالى. ومنهم أبو الحسين[189] يحيى بن الصائغ بسبتة، من الْمُحدِّثين وهو صوفي. وهذا من الأُعجوبات: مُحدِّث

---

[188] قال الذهبي: علي بن موسى أبو الحسن بن النقرات الأنصاري السالِمي الجياني، نزيل فاس ومُقرئُها، كان صالحا ورعا توفي سنة بضع وتسعين وخمس مائة وقد قارب الثمانين. غاية النهاية في طبقات القُراء ج2/ص601، الرسالة. وقال ابن الجزري: نزيل فاس وخَطيبها. إمامٌ كبير وأديب بليغ. وُلِد سنةَ 515، وأخذ القِراءات عن أبي العباس أحمد بن الحطية بمصر وعبد الله بن محمد الفِهري والحسن بن محمد بن غريب. قرأ عليه أبو عبد الله القرطبي.اه غاية النهاية. وذكره ابن حجر في لسان الميزان وقال: كان عدلا فاضلا وإنه ولم يكن ضابطا، حدَّث بالموطَّأ بسماعه. ويُنسب إليه كتاب شذور الذهب في الكيمياء.

[189] أو أبو الحسن. محدِّث لم أعثر على ترجمة تخصُّه، وقد روى عنه جماعة: منهم عبد الرحمن بن يخلفتن الفازّازي وبسام بن أحمد الجياني وأبو الحسن ابن قطرال ومحمد بن إسماعيل ابن خلفون الأزدي ومحمد بن يحيى الجزري ويونس بن يوسف الجذامي. هذا حاصلُ ما وجدتُه عنه في الإحاطة والتكملة وغيرهما في تراجم عَصره ومِصره، والله أعلم.

صوفي؛ كبريتٌ أحمر! له بركات كثيرة، عاشرته كثيرا وروَيت عنه وقرأت عليه، كان زاهدا متجرِّدا. ومنهم ابن العاص أبو عبد الله الباجي بإشبيلية رحمه الله، كان فقيها زاهدا. وهذا أيضا غريب: فقيهٌ زاهد؟! لا يوجد!

ومنهم أبو عبد الله بن زين اليابري[190] بإشبيلية، كان من أفضل الناس. كثير الجد والاجتهاد والتقشُّف، كان يقرئ القرآنَ والنحو بجامع العَدَبَّس بإشبيلية، لا يؤبه له غامضا في الناس. اِعتَكف على كُتب أبي حامِد؛ قرأ ليلة تأليف أبي القاسم ابن حَمدين في الردّ على أبي حامد الغزالي فعَمي. فسجد لله من حينه وتضرّع وأقسَم أنه لا يقرؤه أبدًا ويُذهبه، فردّ الله عليه بصرَه. كان من فُضلاء الناس. لقيتُ أيضا أخاه مثلَه، نودي به عند موته "جنّتين اثنتَين لابْني زَين!" ومنهم أبو عبد الله القزاز، إمامُ أهل البَلاء بقرطبة، قلّ أن يُلقى مثله. سألتُه كيف يطيب عيشُه معهم فقال "لا أشمُّ منهم إلا رائحةَ مِسْك!" أحفَظ من أحواله عجائب. ومنهم أبو زكريّا يحيى بن حسن الحسني[191] بمدينة بِجاية، من

---

[190] قال في الإحاطة: أخذ عنه أحمد ابن أبي الخليل مُفَرِّج الإشبيلي.

[191] قال أبو العباس الغِبْرِيني: الشيخ الفقيه الصالح العابد الولي الزاهد على التحقيق، المتوجه إلى الله بكل وجهة وطريق، أبو زكرياء يحيى بن أبي علي المشتهر بالزواوي. وهو عندما يكتب اسمه يكتب الحَسني، نسبةُ إلى بني حسن، من أقطار بجاية، والناس ينسُبون فيه الحَسْناوي. ولد في بني عيسى من قبائل زواوة، وقرأ رضي الله عنه أوَّل أمره بقلعة بني حَمّاد على الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخرّاط وغيره. ثم ارتحل إلى المشرق ولقي الفُضلاء والأخيار والمشائخ من الفقهاء والمتصوِّفة وأهل طريق الحق. وكان رحمه الله منذ

العُلماءِ العامِلين السادة، صاحِب زهد وورع ونصيحة. خلَوت به يوما عن إذنه فسألتُه وسألني، فرأيت رجلا الغالبَ عليه الخوف، له أخبار عجيبة في تقشُّفه وأكلِه. لقِيته مرارا وقرأت عليه من بعض تآليفه.

ومنهم عبد السلام الأسود السائح. لا أدخُل قرية إلا قيل لي "مِن هنا مرَّ فُلان" لا يقَرّ له قَرار. سألته عن عدم قَراره فقال "أجِد حالة طيبة في الحركة". ومنهم أبو عبد الله القسطيلي بمدينة إشبيلية. من أهل الفضل والجد والاجتهاد والغِيرة في دين الله تعالى؛ إذا دخلتَ عليه في موضعه تنشُط للعبادة. ومنهم أبو العباس أحمد بن

ظهرَ بانيًا على ترك الدنيا والانقِطاع إلى الدار الآخرة. ولم يكن أحد أجلَدَ منه على القيام والصيام. وما كان عيشه رضي الله عنه إلا من المباح كالبُقول المطروحة وما جرى مَجراها، وإذا اشتهى اللحمَ يترل إلى البحر فيَصيد السِّماك على الأحجار، وهي لَحمُه. وكراماتُه رضي الله عنه أكثر من أن تحصى، ولو كُتِبت لكانَت مُجلَّدات. استوطن بجايةَ بعد رجوعه من المشرق، وجلس بها لنشر العلم وبَثِّه والدعاء إلى الله تعالى، فانتفع الخلقُ على يديْه وظهرت عليهم بركتُه وفعلت فيهم سريرتُه الصالحة ونيتُه. وكان يجلس لعلوم الحديث ولعلوم الفقه ولعلوم التذكير. ولقد رأيتُ فصلاً فيه ذكر وفاته بخط الشيخ المُقرئ أبي العباس ابن الخرَّاط وأنا أذكُره بنصِّه، قال رحمه الله: إن وفاته كانت بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، الرابع عشر من شهر رمضان المعظَّم من عام أحد عشر وستمائة... تُوُفِّي في عصر ذلك اليوم فجأةً من غير تقدُّم مَرَض، وقد علِم ذلك بُكرةً فاستعدّ للقاء ربِّه وأوصى الناس وذكَّرهم. قُبض طاهرًا صائما صامتا مُعتكِفا في الجامع الأعظم، صحيحا سويًّا دون مرض ولا ألم، قدّس الله روحه. وكان لموته مشهد عظيم بجامع بجاية. باختصار من عنوان الدّراية في علماء بجايَة، ص127-128، دار الآفاق، بيروت.

المنذر بمدينة إشبيلية، من أهل القرآن والعربية والفقه، جيدا في مذهب مالك. من كراماته إذا اعتاصت عليه مسألة في المذهب يرى مالكا يَحلُّها له. يتعرّض إليه في داره الروحانيُّون والرجال؛ يسلّمون عليه. يضيق عليه الحال فتُلقى الدراهم بين يديه فيأبى أن يَقبَلها ويردُّها، فترفع عنه. غلَب عليه الورع، مباركا صالِحا. ومنهم موسى بن أبي عبد الله المعلم بمدينة فاس، وهو من قلعة بني سعيد من نُظراء إغْرَناطة. وابنه عبد الله نشأ صالحا لا يعرِف المعصية؛ هو الشاب التائب لا تُعرف له صَبْوة، حافظ لكتاب الله تعالى. ومنهم أبو العباس الخرّاز. لقيته بمكة. صحِب عبد الله المغاوري ويحكي عنه. انتفعت بدعائه ورأيت له بركة، رحمه الله تعالى.

* * *

ومنهم الحاج أبو محمد عبد الله البرّجاني، صاحبُك وصديقك، رضي الله عنه. يحبُّ السنة وأهلَها. كان صالحا جليلَ القدر كثير السكون. سمعته يوما يقول في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾[البقرة 121] "لِمَ تلَوه هؤلاء حقّ تلاوته؟" فقلت له "قُل يا أبا محمد؛ السؤال منك والجواب منك!" فتبسّم وقال "لأنه آتاهم، فسبقت لهم العناية؛ فلما أُعطوا أُعينوا" وهذه إشارةٌ بديعة تحتها بحور تزخَر لِمَن نظر وتفكّر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الإمارة «إن أُعطِيتها أُعِنت عليها، وإن طلبتَها لَم تُعن عليها!»[192]

[192] بلغنا عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أنّه قال: قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «يَا عَبدَ الرَّحمن، لا تَسألِ الإمارَةَ، فَإنّكَ إن أُوتيتَها عَن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إليها، وإن

ومنهم أبو عبد الله محمد النابُلي، الساكن بدار القير[193]، خديمك الذي فتح الله له على يدَيك. بركاتُك عليه كانت ظاهرة. رأيت له أمورا عجيبة كنتُ أُسرُّ بها، لا يتّسع الوقتُ لذِكرها. ومنهم أبو عبد الله المُرابط، من أهل القرآن والليل. ظهرت عليه أنوارُك، جيّدُ الذّهن سريع الفهم. ومنهم أبو وكيل ميمون بن التونسي، كان يجمع القِرمز يعيش منه. مرض عندنا بإشبيلية فأخذَته الصالحة زينب امرأةُ ابن عَطاءِ الله لتُمرِّضه في دارها بنفسها، فلما انتقل عندها مات مِن ليلته. كان من رجال الله

أُعْطيتَها مِن غَيرِ مَسألَة أُعِنْتَ عَليها. وإذا حَلَفْتَ على يَمينٍ فرَأيتَ غَيرهَا خيرًا مِنها، فَأْتِ الّذي هو خيرٌ وكفِّر عن يَمينِك» صحيح، أخرجه الستّةُ إلاّ ابنَ ماجه. اعلَم أنّ الله متى أهَّلَ أحدَ خلقِه لأمرٍ مّا أعطاه الطاقةَ على حملِه والقيام به كما ينبَغي، فمن ذلك قولُه تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى؛ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُون﴾[الأنبياء 101] ولم يقل تعالى "مُتباعِدونَ" لأنَّهم لا يسَعُهم غيرُ ذلك، فهم مستورون ناجون من النار، وذلك لأنَّ الله هو الذي شاء وأراد لهم السعادةَ. فأبعَدَهم من النار بُمقتضَى سَبَقِ عِنايته تعالى لهم ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُون: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ: هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُون!﴾[الأنبياء 102-103] والذي وعَدهم إنما هو الله تعالى ﴿وَعْدَ اللَّهِ؛ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَه، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون﴾[الروم 6] ﴿سُبْحَانَ رَبِّنا؛ إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولا!﴾[الإسراء 108]

[193] القير هو القار وهو القطران، أي الزفت. وقيَّرت السفينة أي طليتها بالقار لكيلا يتسلَّل الماء بين ألواحها. والظاهر أن دار القار مصنع بقرب الميناء يعتني بتصليح السُّفن. ولا ننسَ أن المهدوي وأصحابُه كانوا يسكنون بالمرسى على ضفاف البحر قريبا من تونس العاصمة.

تعالى. ومنهم أبو محمد عبد الله بن خُميِّس الكتاني[194]، جرائحي بمدينة تونس. لقيته بمحرسِه كما تعرِف، وزرته فيه حافيًا على قدمَي في شدّة الحر تأسِّيًا بشيخَّي أبي يعقوب الكومي وأبي محمد المورروري؛ قالا لي أنهما زاراه على هذه الحالة. له بركاتٌ، وحَسبِي عِلمُك بحالِه.

* * *

ولقيت بمكة الأشخاص السبعة[195]، نفع الله المسلمين بهم، جالستُهم بين حَطيم الحنابلة وصُفّة زَمزم. وهم خاصّة الله حقّا؛ لا يطرَفون، قد علتهم السكينةُ والْهَيبة.

---

[194] ذكره الشيخ في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات، قال: اتَّفق لي أني كنتُ بمَرسى تونس بالحُفرة، في مركب في البحر. فأخذني وجعٌ في بطني، وأهلُ المركب قد ناموا. فقمتُ إلى جانِب السَّفينة وتطلَّعتُ إلى البَحر، فرأيتُ شخصًا على بُعدٍ في ضوءِ القمَر، وكانت ليلةَ البدر. وهو يأتي على وجه الماءِ حتى وَصلَ إليّ، فوقَف معي ورَفع قدمَه الواحِدة واعتمدَ على الأُخرَى، فرأيتُ باطِنَها وما أصابَها بَلَلٌ. ثم اعتمد عليها ورفعَ الأخرى، فكانت كذلك. ثم تكلَّم معي بِكلام كان عِنده، ثمّ سلّم وانصرف يَطلُب الْمَنارةَ على شاطئِ البحر، على تَلٍّ بيننا وبينَه مَسافةٌ تزيد على ميلَين. فقَطعَ تلك المسافةَ في خُطوَتين أو ثلاث. فسمِعتُ صوتَه وهو على ظَهر المنارَة يُسبِّح الله تعالى. وربَّما مَشى إلى شيخِنا جَرَّاح بن خُميِّس الكتّاني، وكان مِن سادات القَوم، مُرابِطًا بمَرسى عَيدون. وكنت جئتُ من عنده بالأمس من ليلتي تلك، فلما جئت المدينة لقيت رجلاً صالِحًا فقال لي "كيف كانت ليلتُك البارِحَة في المَركَب مع الخَضِر؛ ما قال لك وما قلتَ له؟"

[195] هم الأبدال السّبعة الذين يلون الأوتاد الأربعة الذين يلون الإمامَين اللّذين يَلِيانِ القُطب. يقول الشيخ في الباب الثامن والتسعين ومائة في معرفة النفَس من الفتوحات: واجتمعت بهؤلاء

لقيتهم وهم في حال المُشاهدة[196]، فلم تقع بيني وبينهم مُكالمة في معرفة. ولقد رأيتُ من سُكونهم ما لا يُتصوّر أن يسكُنه أحد.

الأبدال السبعة بحرم مكة خلف حَطيم الحنابلة. وجدهم يركعون هناك فسلَّمت عليهم وسلموا علينا وتحدثت معهم فما رأيت أحسن سمتًا منهم ولا أكثر شغلاً منهم بالله، ما رأيت مثلهم ألا سقيط الرفرف ابن ساقط العرش بقونية وكان فارسيًا.اه أقول ولا خرف بين هنا وقوله في روح القدس أنّه ما تكلم معهم. ويقول في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات: وسُمُّوا هؤلاءِ أبدالاً لكَونهم إذا فارَقوا مَوضِعًا ويُريدون أن يُخلِّفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع، لأمرٍ يَرَونه مَصلحةً وقُربة، ترَكوا به شخصًا على صورتهم. لا يَشُكُّ أحدٌ مِمَّن أدركَ رُؤيةَ ذلك الشَّخص أنه عينُ ذلك الرجُل، وليس هو، بل هو شخصٌ روحانيّ يَترُكُه بَدَلَه بالقَصْد على عِلمٍ منه. فكل مَن له هذه القوّة فهو البَدَل، ومَن يُقيمُ الله عنه بدلاً في مَوضِعٍ ما ولا عِلمَ له بذلك، فليسَ مِن الأبدال المذكورين. وقد يتَّفِقُ ذلك كثيرًا؛ عايَنّاه ورأيناه. ورأينا هَؤلاءِ السَّبعةَ الأبدال بِمكَّة، لَقيناهم خلفَ حَطيم الحَنابلة، وهناك اِجتَمعنا بهم؛ فما رأَيتُ أحسنَ سَمْتًا منهم. وكُنّا قد رأينا منهم موسى السَّدراني بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصل إلينا بالقصد واجتمع بنا. ورأينا منهم شيخ الجبال محمد بن أشرف الرُّندي. ولقيَ منهم صاحبُنا عبد المجيد بن سلمة شخصًا اسمُه مُعاذ بن أَشْرَس، كان من كبارهم، وبلَّغَني سلامَه علينا. سأله عبد المجيد هذا عن الأبدال، بماذا كانت لهم هذه المنزلة. فقال "بالأربعة التي ذكرها أبو طالب المكي" يعني الجُوع والسَّهَر والصَّمت والعُزْلة.

[196] حال المشاهدة ذُهولٌ تامّ عن الأكوان، وهو تحقُّق العبد بمقام الإحسان وهو قولُ النبي صلى الله عليه وسلَّم «أن تَعبُد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنّه يراك». فأوَّلُه شهادةُ رؤيةِ الله إيَّاك وتمامُه شهودك اللهَ دون سواه. فتغيب في ذاته تعالى عن ذاتك حتى لا تشهَد

ومنهم شمس أمّ الفقراء، بِمَرشانَة الزيتون. اختلفت إليها مِرارا، ما لقيت في الرجال مثلَها في الحمل على نفسِها. كبيرةُ الشأن في المعاملات والمكاشفات، قويّةُ القلب، لها همة شريفة، لها التمييز. تستُر حالَها جدّا، كانت تُبدي منه في السرّ أشياءَ لي لِما حصل عندها منّي من المَكانة، وكنتُ أفرح بذلك. لها بركات كثيرة ظاهرة، اختبرتُها مرارا في باب الكشْف فوجدتُها متمكِّنة. الغالب عليها الخوف والرضا، وتحصيل هاذَين المقامين في وقت واحد عندنا عجيب يكاد لا يُتصوّر.

وكذلك لقيت نُونَة فاطمة بنت أبي الْمُثَنَّى[197] بإشبيلية، أدركتُها في عَشر التسعين، قد أسنّت. لا تأكُل إلا مِمّا يطرَح الناسُ على أبوابهم من الأطعمة،

شيئًا إلاّ هو عزّ وجلّ، فتَفنى عن المكان والزمان وعن نفسِك وحسِّك حتى لا يبقى لك مَشهود سوى الحقّ سُبحانَه. يقول الهَرَوي في منازل السائرين: المشاهدة سُقوط الحِجاب بَتًّا، وهي وَلاية العين والذات. وهي على ثلاث درجات: الدرجةُ الأولى مشاهدةُ معرفة، تجري فوقَ حدود العِلم في لوائح نور الوجود، مُنيخة بفِناء الجَمع. والدرجة الثانية مشاهدةُ معاينة، تقطَع حِبالَ الشَّواهد وتُلبِسُ نُعوتَ القُدُس وتُخرِس ألسنةَ الإشارات. والدرجةُ الثالثة مشاهدةُ جمعٍ تَجذِبُ إلى عين الجمْع.

[197] ذكرها الشيخ في الباب الثامن والسبعين ومائة في معرفة مقام المحبة من الفتوحات، قال: وخدمت أنا بنفسي اِمرأةً مِن الْمُحِبّات العارفات بأشبيلية، يقال لها فاطمة بنت ابن الْمُثَنَّى القُرطُبي. خدمتُها سنينَ، وهي تزيد في وقتِ خدمتي إيّاها على خمسٍ وتسعين سنة. وكنتُ أستحْيي أن أنظُر إلى وجهها، وهي في هذا السنِّ، مِن حُمْرَةِ خَدَّيها وحُسن نَعمَتِها وجَمالِها؛ تَحسِبُها بنتَ

أربعَ عَشْرةَ سنة، مِن نَعمَتِها ولَطافَتها. وكان لها حال مع الله، وكانت تُؤْثِرُني على كلِّ مَن يَخدُمُها مِن أمثالي، وتقول "ما رأيتُ مثلَ فَلان، إذا دَخلَ عليَّ دخل بكُلِّه، لا يَترُك منه خارجًا عنّي شيئا، وإذا خَرج مِن عندي خرج بكلِّه، لا يترك عندي منه شيئا!" وسمعتها تقول "عَجبتُ لْمَن يقول أنّه يُحِبُّ الله، ولا يَفرَح به وهو مَشهودُه؛ عينُه إليه ناظرَةٌ في كلِّ عين، لا يَغيب عنه طَرْفَةَ عين. وهؤلاء البَكّاؤُون، كيف يَدَّعون مَحبَّته ويَبكون؛ أما يَستَحْيون؟! إذا كان قُرْبه مُضاعفًا مِن قُرْبِ الْمُتقرِّبين إليه، والْمُحِبُّ أعظمُ الناسِ قُربَةً إليه، فهو مَشهوده؛ فعلى مَن يَبكي؟! إنّ هذه لَأُعْجوبَة! ثم تقول لي "يا وَلدي، ما تقول فيما أقول؟" فأقول لها "يا أُمِّي، القولُ قَولُك" قالت "إنّي والله مُتعجِّبة، لقد أَعطاني حَبيبي فاتِحَةَ الكِتاب: تَخدمني؛ فوالله ما شَغَلَتْني عنه!" فذلك اليومُ عَرفتُ مَقامَ هذه المرأة. لَمّا قالت أنّ فاتِحَةَ الكِتاب تَخدُمُها. فبَينا نحن قُعودٌ إذْ دخلَت اِمرَأَةٌ فقالت لي "يا أخي، إنّ زَوجي في شَريش شِدونة. أُخبِرْتُ أنّه يتزوَّج بها؛ فماذا تَرَى؟" قلت لها "وتُريدين أن يَصِلِ؟" قالت "نعم" فرَدِدتُ وَجهي إلى العجوز وقلتُ لها "يا أمَّ، ألا تَسمَعينَ ما تقول هذه المرأة؟" قالت "وما تُريد، يا ولَدي؟" قلت "قَضاءَ حاجَتِها في هذا الوقت، وحاجَتي أن يأتِيَ زَوجُها" فقالت "السَّمع والطاعة، إنّي أبعَثُ إليه بفاتِحَةِ الكِتاب وأُوصِيها أن تَجيءَ بزَوج هذه الْمَرأة" وأَنشأَت فاتحةَ الكتاب فقَرَأَتْها وقرأتُ معها، فعلِمتُ مَقامَها عند قِراءَتِها الفاتِحة. وذلك أنّها تُنشِئُها بقراءَتِها صُورةً مُجَسَّدةً هَوائيَّة، فتَبعَثُها عند ذلك. فلمّا أَنشَأَتْها صورةً سَمِعتُها تقول لها "يا فاتِحةَ الكِتاب، تروحي إلى شَريش وتَجِي بزَوج هذه المرأة، ولا تَتركيه حتى تجيبيه!" فلم يَلبَث إلاّ قَدرَ مَسافَة الطريق مِن مَجيئِه، فوَصل إلى أهلِه. وكانت تَضرِب بالدُّفّ وتَفرَح. فكنتُ أقول لها في ذلك فتقول لي "إني أَفرَح به حيثُ اعتَنَى بي وجَعلَني مِن أَوليائِه واصطَنَعني لِنفسه؛ ومَن أنا حتَّى يَختارَني هذا السَّيِّدُ على أبناءِ جنسي؟! وعِزَّةِ صاحِبِي، لقد يَغار عليَّ غَيرَةً ما أَصِفُها؛ ما أَلتفِتُ إلى شيءٍ باعتِمادٍ عليه عَن غَفلة، إلاّ أصابني بِبَلاءٍ في ذلك الذي الْتَفتُّ إليه!" ثم أرتني عَجائِب مِن ذلك. فما زِلتُ أَخدُمُها بنفسي، وبَنَيتُ لَها بيتًا مِن قَصَبٍ بِيَدي على قَدرِ

قليلةُ الأكل جدًّا. كنتُ إذا قَعَدتُ معها تحدِّثني، أستحْيِي أن أنظر إلى وجهها مِن عَظيم تَوَرُّد وَجنتَيها ونَعمتها، وهي في عَشر التِّسعين سنة! كانت سورتها من القرآن 'الفاتحة'، قالت لي "أُعطِيت الفاتحة أَصرِفُها في كلِّ أمر شِئتُه!" بنَيت لها بيدي، وصاحبان لي، بيتًا مِن قصَب تسكُنه. كانت تقول "لا يُعجبني أحدٌ مِمَّن يَدخُل عَليَّ غير فُلان!" تَعني إيّايَ، فيقال لها "بِمَ ذلك؟" فتقول "ما منكم أحدٌ يدخل علي إلا بِبَعضه ويَترُك بَعضَه في أغراضِه مِن دارِه وأَهلِه، إلاَّ مُحمَّد بن العَرَبي، ولَدي وقرّةُ عيني. إذا دَخَلَ عليّ دخل بِكُلِّه وإذا قامَ قام بكُلّه وإذا قعدَ قَعَد بكلّه، لا يترُك خلفَه من نفسه شيئا. وهكذا يَنبَغي أن يكونَ الطَّريق!" عَرَضَ الله عليها مُلكه، فلَم تَقِف مع شيء منه. إنّما تقول "أنتَ أنت؛ كلُّ شيء دونَك مَشؤُوم عليّ!" كانت والِهةً في الله تعالى؛ مَن رآها يقول عنها حَمْقاء، فتقول "الأحْمَقُ مَن لا يعرِف ربَّه!" كانت رحمةً للعالَم. ضربَها أبو عامر الْمُؤذِّنُ بالدِّرَّة في الجامع ليلةَ العيد، فنَظرَت إليه وَانصَرفت مُتغيِّرةَ النَّفس عليه. فباتَت تلك الليلة. فلما كان السحَرَ سَمعَت ذلك الْمُؤذِّنَ يُؤَذِّن فقالت "يا ربِّ لا تُؤاخِذْني، تغيَّرت نفسي على رجلٍ يَذكُرُك في دَياجي اللَّيل والناسُ نيام! هذا ذِكرُ حَبيبي يَجري على لِسانه؛ اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذْه بتَغيُّري عليه!" فلمّا أَصبَح دخلَ فُقهاءِ البَلَد بعدَ صَلاة العيد على السلطان يُسلِّمون عليه، فدَخل ذلك المؤذِّنُ في

قامَتِها، فما زالَت فيه حتى دَرَجَت. وكانت تقولُ لي "أنا أمُّك الإلَهيَّة، ونُورٌ أُمُّك التُّرابيّة" وإذا جاءت والدتي لِزيارَتها تقول لها "يا نور، هذا وَلَدي، وهو أبوكِ؛ فبرِّيه ولا تَعُقِّيه!"

جُملتِهم رَغبةً في الدُّنيا. فقال السلطان "مَن يكون هذا؟" قيل "مُؤذِّن الجامِع" فقال "ومَن أَمرَه بالدُّخول مع الفُقهاء؛ أَخرِجوه!" فصُفِع وأُخرج. فشُفِع فيه عند السُّلطان فخَلَّى سَبيلَه بعدَما أراد أن يُعاقبه. فقيل لها "اِتَّفق لِفُلان مع السُّلطان كذا وكذا" فقالت "علِمت، ولولا أنّي سألتُ التَّخفيفَ عنه لقُتِل!" شأنُها عَجيب. ماتت رحِمَها الله تعالى. فهذا يا نفسي، قد قَصصتُ عليكِ حالةَ مَن تقدَّم وحالَ بعضِ مَن لقيتُه مِن رجال ونساء، وسكتُّ لكِ عن كثير مِمَّن لقيت. وما وجدتُ لك قدَمًا معهم؛ ففي أيِّ نَمَط تتميَّزين؟!

انتهى الجزء الثالث

ثم أرجع إليك، يا وليّي يا أبا محمد، فإني إنما ذكرت لك هؤلاء فرَحًا أنّ الزمانَ، والحمدُ لله، لَم يَخْلُ مِن الرِّجال الجارِين على أُسلوبِ الْمُتقدِّمين باختِلاف أَحْوالِهم. فقد ذكرنا منهم ما حَصلَ به المقصودُ مِن الفائدةِ والاختِصار. وأما أنت فلا يَتمكَّن لي أن أخاطبك بأحوالك.[198]

ومقصودي بهذه الرسالة إبرازُ مَعرفةٍ نَفسانيَّة وربَّانيّة تُحرِّض على الكَلِم الطَّيِّب والعَمَل الصالِح[199]، فإنّ الرَّجُلَ عِندنا، كلَّ الرَّجُل، إنّما هو العالِمُ بالله

---

[198] وقد ألّف الشيخُ كتابًا خاصًّا به سمّاه 'فضائل الشيخ عبد العزيز بن أبي بكر القُرَشي المهدَوي' ذكره عثمان يحيى في مؤلفات ابن عربي ونسبه إلى نفح الطيب و لم أعثر عليه.

[199] إشارةً إلى قول الله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعا. إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه. وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد. وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر 10] فمَن كان يريد العِزّة فلْيعلَم أَنّ العزةَ كلَّها لله تعالى وأنه ليس للمخلوق شيءٌ من العِزَّة أصلا. فمَن أراد العِزَّةَ لنفسه أذلَّه الله، ومَن طلبها لله أعزَّه الله تعالى بعزَّته ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم﴾[محمد 7]. لذا قال الشيخ بعدها أن الرَّجل الذي تحقَّقت فيه الرُّجوليَّة عَزيزُ الوُجود، وأنّه لَم يبلُغ تلك المرتبة إلا بذكر الله الذي هو الكلم الطيب وبالعمل الصالح الموافق لسنَّة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم.

الكادِح[200]. فأخاطبُك يا وليِّي، وأريدُ والله نفسي، وأُنبِّهُك وأريد أبناءَ جِنسي، وعنّي أَكْني. فلا تغترَّ النفسُ عن الذكرَى فإنها الذَّليلة، ولا تعمَى عن حظِّها الإلَهي بتصامُمها عن هذه الفضيلة؛ فمِن ذلك ﴿وَذَكِّرْ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِين﴾[الذاريات 55][201] و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِين﴾[الروم 22]. لتعلم أن الله تعالى خلق كل ما سِوى الإنسان باليد الواحدة، وقد جاء التنبيه في مواضع من الشريعة في جنة عدْن أنها خلقها بيده.[202]

---

[200] كما قال صلى اله عليه وسلَّم أصدق الأسماء حارث وهمّام، وذلك لأنّ الإنسان لا يخلو من التَّفكُّر والسَّعي، فمَن كان تفكُّرُه وسعيُه في الله وله تعالى فقد أفلَح ومن كان في الدنيا فقد ضيَّع عمرَه في لا شيء.

[201] انتَبه إلى أنّ موضوع التّذكير إنما هو ما جاء في هذا السياق وهو قول الله تبارك وتعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِين﴾ أي ذكِّرهم بأنّني أنا ربُّهم الذي أردتُ إيجادهم والقائمُ على وُجودهم ﴿وَ﴾ أنّي ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ؛ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَّمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين!﴾[الذاريات 56-58]

[202] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خلق الله جنةَ عَدْنٍ بيده ودَلَّى فيها ثِمارها وشقَّ فيها أنهارَها، ثم نَظَرَ إليها فقال لها: تكلَّمي! فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾[المؤمنون 1] فقال: وعِزَّتي وجَلالي، لا يُجاوِرُني فيكِ بَخيل!» رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وحسَّن المذري أحد أسانيده، ورواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والأصبهاني في الحلية والآجري في الشريعة وابن بطة في الإبانة. ولأصل الحديث عدد من الشواهد، بعضُها مرفوع عن أبي سعيد في الحلية وأنس في صفة الجنة والإبانة وبعضها مَوقوف عن ابن عمر وعن كعب الأحبار وعن مجاهد وعن عن حكيم بن جابر.

وهنا بحر طامِس: خلقَ الأسبابَ كلَّها بيده وخلق المسبَّبات كلَّها أيضا بيده، لكنِ الأسباب الأُوَل ليست في المرتبة كالأسباب الثواني، إلى آخر سبب. فقال في خلقِه الأسبابَ والْمُسبَّبات[203] ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرِ﴾[الأعراف 54] وقال في

[203] إن السَّبَبَ والْمُسبَّب أو العِلَّة والْمَعلول أو الْمُوجِب والْمُوجَب أو العمَل والنتيجة أو السَّعي والجزاء أو الوسيلة والغاية: كل ذلك من الأمور التي قدَّرها الله وشاءَها وجعلَها تعالى لينتظِمَ الكون، فالله هو مُسبِّب الأسباب. سواء في ذلك الأمور الكونية كالنكاح للتناسُل، والسعي لِجلب المال، وبذل المال لاقتناء الغذاء وطَهي الغذاءِ لتناوُله، وغير ذلك من الأمور العاديّة التي لا تحتاج إلى برهان. وكذا الأمور التي تخرُج عن العادة الطبيعية كالدعاء مثلاً، فإنّه عِلّة ومُوجِب ووسيلة وسبب مِن الأسباب كما يؤكِّده قولُه تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُم: اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم﴾[غافر 60] فالدعاء سبب، ولكنّه يأتي بعد الإخبار بهذه الحقيقة وبعد الحاجة إلى الدعاء، ثم تأتي الاستجابَةُ كنتيجةٍ لِتلك الأسباب كلّها، ثم الاستجابة سببٌ آخَر لوجود المطلوب. وكذلك الشأن في السعادة الأخرويّة، فإنّها مبنية على الأسباب والمسبَّبات ولكن لا ينسى العبد أنّ الله هو مُسبِّبُ الأسباب وأن الاعتماد عليه تعالى ضروري من جهة الشَّرع، وذلك ما لا مفرَّ منه في الحقيقة الكونيّة؛ لأنّ الأسباب لا نهايةَ لها سوى الله، فإنّ الأسباب تنتقل من درجة إلى درجة في مراحل الوُجود إلى أن ننتهيَ إلى السبب الأوَّل والذي هو الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون﴾[النحل 53] أي ترفَعون إليه أصواتَكم بالدعاء ليكشِف عنكم ما يسوؤُكم. فالأخذ بالأسباب ضروريّ ولكن مَن علمَ ذلك أخذ بالأسباب وهو عالِم بأنّ السبب الأوَّل إنّما هو الله تعالى، فوجب عليه شرعًا وكَونًا أن يتوكَّل على ربِّه ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْء: فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَّأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى

الأسباب وحدَها ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون 14] فذكر الخلق دون الأمر، وقال في المسبّبات وحدَها ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ: كُن! فَيَكُون﴾[النحل 40] فذكر الأمر دون الخلق. فألْقِ بالَك لِكلامي هذا فإنه عَويص، وأنا غَيورٌ أُحِبُّ أن أوَضِّح وأحب أن أَستُر.

فخلق المَلَك والجنة وما يتعلّق بهذا الجِنس من الشرف والرفعة بجانب الطور الأيمن؛ فافهم ما أومأنا إليه مِن صِفة الجمال. وخلق إبليس والنارَ وما يتعلّق بهذا

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون﴾[الشورى 36]. واعلَم أن الله، مع كونه السبب الأوَّل، فإنه تعالى الغايةُ الآخِرة التي ليس بعدها غاية وذلك قولُه ﴿اُشْكُرْ لِي﴾ فقدّم نفسَه تعالى لِيُعرِّفك أنه السبب الأول ثم عطفَ فقال ﴿وَلِوَالِدَيْك﴾ وهما السبب القريب في وُجودِك ثم ختم فقال ﴿إِلَيَّ الْمَصِير﴾[لقمان 14] ليدُلّك على أنّك إليه تصير في نهاية المطاف لا محالةَ، وذلك لأنّه ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[الحديد 3] فالدعاء والشكر والسعي ليس في الحقيقة إلا من الله وبه وفيه وإليه تبارك وتعالى؛ لذا قال النبي صلى الله عليه وسلّم «مَن لَم يَشكُرِ النّاسَ لَم يشْكُر اللّه» رواه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة، وذلك لأنّهم أسباب قدَّرها الله وسخَّرها لعباده، فشكرُهم شُكرُه تعالى. وهذا كلُّه معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «الحمْدُ لله الذي خَلَقَ كلَّ شَيءٍ كما يَنبَغي، الذي لا يَعْجَلُ شَيْءٌ أَناهُ وقدَرَه. حَسبيَ اللهُ وكَفى، سَمِعَ اللهُ لِمَن دَعا، لَيسَ وَراءَ اللهِ مَرْمًى». ذكرَه مالك في القدَر من الموطَّأ ولم يُسنِده، ورواه البزار ر1053 عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عَوذَةٌ كان إبراهيم يَعوذ بها إسحاقَ وإسماعيل، وأنا أعوذ بها الحسَنَ والحُسين: سَمِع الله داعيًا لِمَن دعا، ما وراءَ الله مَرمًى لِمَن رمَى» أي أنَّه ليس بعد الله مطلوبٌ ولا غاية ولا شيء. وقوله: لا يعجَل شيءٌ أناه وقدَرَه، أي لا يسبِق أجلَه الذي وَقَّته الله له.

الجنس من الوَضاعة والسُّفْل بالجانب الغربِيِّ مِن «كلتا يديه يمين»[204]؛ فافهم ما أومأنا إليه من صفة الجلال. وتَمهَّدت المملكة باليدين وظهر وجودُها في العين على التوحيد المطلَق، من حيث أن كل واحد منهم يرجِع خَلقُه إلى يد واحدة؛ فعبَد ربَّه من حقيقته واشتغل بطريقته، فلم تُتَصوَّر معصيةٌ ولا مخالفة.

إلى أن خلق الإنسان بيدَيه وهداه نَجديْه وأوضح سبيلَيه وأظهر به كلمتَيه وأبان به عن قَبضتيه[205]. فنظر إلى العالَم ونظر إليه العالَمُ في مَملكتَيه، الكُبرَى

---

[204] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الْمُقْسطين عند الله على مَنابرَ مِن نُورٍ عن يَمينِ الرَّحْمنِ، وكلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الذينَ يَعْدِلون في حُكْمِهم وأَهْلِيهم وما وَلُوا».أخرجه مسلم والنسائي وابن حبان وأحمد عبد الله بن عمرو بن العاص. وكون كلتا يدي الرحمن يمين يرجع إلى اسمِه تعالى المؤمن وإلى قول رسول الله «والخير في يديك، والشر ليس إليك» كما رواه مسلم وأصحاب السنن عن علي.

[205] كان ذلك في موطن الميثاق وهو قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟! قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا!﴾[الأعراف 172] فقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خلقَ الله الخلقَ وقضَى القضيَّةَ، وأخذ ميثاق النبيِّين، وعرشُه على الماء. وأخذ أهلَ اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأُخرَى، وكلتا يدَي الرحمن يَمين، ثم قال: يا أصحابَ اليمين! قالوا: لبيك ربنا وسعديك! قال: ألست بربكم؟! قالوا: بلى! ثم قال: يا أصحابَ الشِّمال! قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟! قالوا: بلى! فخَلَطَ بعضَهم ببَعض، فقال قائل: ربِّ لِمَ خَلطتَ بيننا؟ قال ﴿لَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُون﴾ [المؤمنون 63] وقوله ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَة: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين﴾ [الأعراف 172] ثم ردَّهم في صُلْبِ آدَم» رواه ابن أبي شيبة والطبراني

والصغرى؛ فعرف كلٌّ واحد ما رأى منه، لأنه رأى ما يقابله. فالساكن من العالم في الجانب الغربيِّ رأوا سُفْلَه فلم تقُم عندهم قيمتُه، فظهرت في ذلك قبضتُهم ليعلَموا أنهم أشقياء. والساكن من العالم في جانب الطور الأيمن رأوا عُلوَّه فقامت عندهم عظمتُه وظهرت في ذلك قبضتُهم؛ ليعلموا أنهم سُعَداء.

ثم لما كانوا في نور التجريد لم يستطيعوا أن يعرِفوا نورَ التمريج، ولما كانت حقيقتهم صادرةً عن اليد الواحدة شهِدوا لأنفسهم بالتقديس والتحميد. ولمّا رأَوا توجُّهَ اليدَين على الإنسان عرفوا أنه لا بدّ من المنازعة لإمضاء الحُكم، وإذا كانت المنازعة فلا بدّ من الفَساد. فنظروا حقا وقالوا صِدقا، صلوات الله عليهم[206]. فأعرض الله عن إجابتهم في نفْس كلامهم إعراضًا صحيحا من جهة جَعلهم الكلَّ جُزءا، وحكَموا عليه بصِفة النَّقص.

في الأوسط والدارمي في الرد عن أبي أُمامَة الباهِلي. وعن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآيةَ ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة 27] ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة 41] قال: فقبَض بيديه قبضتَين فقال «هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي» رواه أحمد ر22077 وللحديث شواهد موقوفة عن أبي بكر وابن عباس، وله شواهد مرفوعة عن ابن عباس عند مسلم وأصحاب السنن وعن أنس وأبي نضرة.

[206] أي الملائكة وذلك عندما خلقَ الله آدم عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَة: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟! قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون!﴾[البقرة 30] وقوله: التجريد، مِن جرَّد الشيء إذا أزال عنه كلَّ ما علِق به حتى لا يبقى فيه أي اختلاط، يقول

فتركهم الحق وما عدَلوا إليه، وأراد أن يبيِّن لهم حقيقة ما فطرَه عليه، وأن الإنسان هو القبضة الجامعة للعاصية والطائعة، وأن كلّ العالَم على النِّصف منه، فهو أيضا على النصف من الحضرة الإلَهية، وأن الإنسان كلٌّ فهو على الكُلّ من الحضرة الإلَهيّة[207]. فجمع له بين يدَيه لتكمُل صورتُه وتصِحّ خِلافتُه[208]

الشيخ الأكبر: أَفنِ ما أُضيفَ إليك، تَبقَ بما أُضيفَ إليه. والتجرُّد حال الملائكة خلافًا للآدميين. والتمريج عكسُ ذلك ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[الفرقان 53] فلاقى بين البحر العذب والبحر المالِح ولاصَقَ بينهما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خُلِقَت الْمَلائِكَة مِن نُور، وخُلقَ الْجَانُّ مِن مَارجٍ من نَار،وخُلِقَ آدَمُ مِمّا وُصِفَ لكم» أخرجه مسلم عن عائشة. والمارج هنا لَهبُ النارِ الْمُختلِطُ بسَوادِها.

[207] اِعلَم أنّ العالَم إنسانٌ كبير كما أن الإنسان عالَم صغير ونُسخة من العالَم الكبير. فإن قلت: لكنّ الله يقول ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[غافر 57] قلنا نعم ولكن ذلك لا يمنع من كون الإنسان مُركَّبا من أشياء لا حصرَ لها كثرةً، وإذا تعمَّقتَ فيها وجدتَها أجرامًا عظيمة لا نهايةَ لها. أمّا الآية فإنّها ليست بصدد ما نقوله، بل جاءت في سياق إثبات يوم القيامة وذلك قولُه تعالى ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُون﴾[غافر 59] فهي ردٌّ على المتكبِّرين الذين يُنكرون البعث ويجادلون في آيات الله بغير علم، كما جاء في الآية التي قبلَها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ؛ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[غافر 56]. وإلا فإنّه ما من شيء في العالَم الكبير إلا وهو في الإنسان، فالإنسان ليس صغيرًا إلا من حيث ما تَشهَده حواسُّنا وإلا ففي جِرْم الإنسان مثل ما في الكَون وأكثر. وإذا أجلنا الفِكرَ في الكون الكبير أو الصغير وجدنا أن الكِبَر والصِّغَر عبارتان لا حقيقةَ لهما في الوجود. فكلُّ موجودٍ عظيمٌ

لا حدَّ له. ثم ما من شيء في الكون إلا وهو أكبر من نفسه في الحقيقة، إلا الله تعالى فهو أكبر من أن يكون أكبرَ من نفسه؛ وتلك حقيقة قولنا: الله أكبر. فالعناصِر التي يتركَّب منها الكون موجودةٌ برُمَّتها في الإنسان الذي هو مركَّب من ماء وتراب ونار وهواء وطاقات شتّى، ثم في الإنسان أمرٌ خارج عن المادّة بشتَّى صوَرها وطاقاتها، وهو الروح التي نفخَ الله فيه. فالإنسان جمَع بين الأركان التي لا حصرَ لها والجهات التي لا حدّ لها، والقبضتين والروح؛ وتلك هي حقيقة الإنسان. وصدق مَن قال:

دَواؤُكَ فيكَ وما تُبصرُ   وداؤُكَ منكَ وما تَشعُرُ

وتَحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ   وفيك انطوَى العالَمُ الأكبرُ

[208] انتبه فالخلافة لا يمكن أن تكون عن الله، مثل أن يكون نائبا لله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا. فالله لا يَخلُفه أحدٌ ولا ينوب عنه أحد، كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقوله «اللهم أنت الصاحِبُ في السَّفَر والخليفةُ في الأهل» رواه الجماعة إلا البخاري. فالله يرافِقُ المسافِر في سيره ويخلُفه في أهله في الوقت ذاته سبحانه وتعالى. واذكُر ما سبق من قول أبي بكر "مَن كان يعبد محمّدا فمحمد قد مات، ومن يعبد الله فالله حيٌّ لا يموت. ولذلك لَمّا قيل له رضي الله عنه "يا خليفةَ الله" قال "لستُ بِخليفَة الله، ولكن خليفةُ محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا راضٍ بذلك!" رواه ابن أبي شيبة وأحمد بن منيع والخلاّل في السنة والآجري في الشريعة عن ابن أبي مُليكة. فقول الله تعالى للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة 30] معناه أنّه تعالى جاعلٌ في الأرض جنسًا يَخلُف الجنسَ الذي كان يعيش فيها فقضى الله عليه بالفناء وجعلَ بدلَه آدمَ وذرّيّتَه. لذا هاب الملائكةُ أن يحصُل في الأرض ما حصل من قبل من الفساد. أمّا أسطورة كون آدم خليفة الله فهذه من خرافات أهل الكتاب الذين يقولون بأنّ الإنسان خليفة الله في الأرض، وهذا غير مَقبول بتاتا، لا عقلاً ولا نقلا. ويكفيك تلك الآثار التي تعود إلى مائات آلاف السنين من تصاوير وعِظام،

وتَبَيّن مرتبتُه، ويُعلم أنه أشرَف موجود وأعلى مَقصود. ولهذا مدَحه الله لِمن نظَره بعين النقص بقوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ؟!﴾[ص 75] في معرَض الثناء؛ فعرّض في أدَبه بغيره، وهو الذي حكم عليه بالفَساد وسَفْك الدماء.

فما أحسنَ أدبَه! عرّض في آداب الملائكة بإبليس، فطالبهم بعلم الأسماء وجعلَ الإنسان عالِمَ العُلماء. وعرّض في آداب إبليس بالملائكة بخلقه بيديه: الْمُقدَّسة والبيضاء؛ فاتَّعظ إبليسُ بأدبه وآداب الملائكة، واتّعظت الملائكة بأدبهم وأدب إبليس. فهؤلاء اتعظوا بامتثال الأمر ففازوا، وهذا اتعظ بعدَ المخالفة فما نفعَته موعظَتُه وخسِر.

فلا شيء أنكى على إبليس من ابن آدم، في جميع أحواله وفي صلاته، من سجوده لأنها خطيئتُه. فكثرةُ السجودِ وطولُه يُحزِن الشيطان، وليس الإنسان بمعصوم من إبليس في صلاته إلا في سجوده، فإنه إذا سجد تذكّر الشيطان معصيتَه فحزِن فاشتغل بنفسه عنه. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «إذا سَجَدَ ابنُ آدمَ اعتزَل الشيطان يَبكي»[209]. فالعبد في سجوده مَعصوم من الشيطان، وليس بمعصوم من

وهذا آدم لا يتجاوزُ وجودُه في الأرض الثلاثين ألف سنة. والله أعلم ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

[209] «إذا قرأَ ابنُ آدَم السجدةَ فسجد، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقول: يا ويلَتي، أُمِر ابنُ آدم بالسجودِ فسجدَ فله الجنَّة، وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ فلِيَ النار!» أخرجه مسلم وابن ماجه وابن خزيمة وأحمد عن أبي هريرة.

النفس. فخواطر السجود كلُّها إما ربانيَّة أو مَلَكية أو نفسيّة خاصّة، وليس للشيطان عليه من سبيل. وإذا رفع من السجود غابت تلك الصِّفة عن إبليس فزال حُزنُه واشتغل به.

ولعل وليّي، رضي الله عنه، يقول: والنفسُ أيضا تزول في السجود والمَلك يزول، ولا يبقى إلا الحق، فإنه يقول ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب!﴾[الأنبياء 97]؛ فقد صحّت القُربة بالسجود وفنِيَ الساجِدُ بالْمُوجِد عن الوجود. فأقول له: نِعمَ، يا وليي، ما نظرتَ وبِحالك ومقامك قضَيت. ونحن إنما نتكلّم بما تُعطيه الحقائق وكيف ارتَبطت الرقائق. ولو كان الأمر على ما قاله وليِّي، لكان كلّ إنسان في سجوده بالله عارفًا ومعه واقْفا، فانيًا عن الإحساس بعيدًا عن الالتِباس. ولم يصِحَّ منه دُعاءٌ ولا ثَناء ولا تضرُّع ولا بُكاء؛ فإن التضرّع والدعاء نِداءٌ على رأس البُعد والحِجاب، والْمُشاهدة للبَهْت من غير اكتِساب. فإن وجَدَ وليّي مَقام البَهت في سجوده، فتلك حالةٌ لا تَطَّرِد حُكما؛ فإن غيره في سجوده يقول "ربِّ اغفِرْ لي مَغفرةً عَزما" فهذا مع المَلَك حتما، وآخرُ في سجوده يتحدَّث مع شريكه في دُكّانه حَربًا وسِلْما؛ فهذا مع نفسه. فإمّا وإما...

رجَعنا إلى كلامنا: فأضاف الإنسانَ إلى يديه ووَكِل أمرَه إليه. وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض، وحجَبه عن التوكُّل عليه؛ فظهر الإنسانُ لنفسه في نفسه إماما. فالسعيد مَن لازم الباب لرفْع ذلك الحِجاب، والشقيُّ من نبذَ ذلك الباب وراءَ ظهره. فحَسبُه جهالةً ما جهِل من أمره، لا ما جهل مِن

غيره. ولَمّا قام الإنسان خليفةً في الأرض دونَ السماء، لِحَملِها العالَمين على السواء. فقد جمعت جميع العالَم، وهي أقلُّ الأجزاء؛ فمَن وَلِيَ الأرضَ فقد ولي السماءَ والنارَ والماءَ والهواء. ومن ولي السماء فما ولي الأرض، وما له من الميزان سِوى الرفع وما له نصيبٌ في الخَفض. دليلي على ذلك، أيها الولي المالِك، أن الأرض تحمِل الملائكةَ الكرام، وليس السماء بِمَحَلٍّ للشياطين ولا لعوامِّ الأجسام؛ ولهذا كانت الأرض حضرةَ الخِلافة ومنزِلَ الخَليفة، والسمواتُ فِردوسٌ من فَراديسه ومُتنَزَّهٌ من متنَزَّهاته: مَسرَحُ روحه القُدْسي. فإن السماء، وأعني به العالَمَ العُلْويّ، موجود من الرحمة الخالِصة، وإن الأرض، وأعني به السُّفلَ حيث أُنزل آدم بعدَ أحسن تقويم إلى أسفَل سافِلين، موجودة من الغضَب الخالص.

فإن قلتَ "فهذه الرحمةُ الظاهرة فيها؟!" فتلك رحمةُ الإنسان؛ ولهذا إذا لَم يبقَ إنسانٌ عليها زالت الرحمة بزوالِه، وتوجّه عليها فأعدم عينَها وهلكت في الهالِكين. وانتقلت العِمارةُ إلى الدار الآخِرة بانتقال الإنسان. فإن قلتَ "وقبل الإنسان قد كانت الأرض موجودة!" فذلك لِحقيقتَين: لأن ذلك كان زمانَ التَّمهيد للخليفة. والحقيقة الأخرى لِحقيقةِ البَرْزَخيّة فيها؛ لأنها تُشبه العدمَ لكونها تَؤُول إلى الفَناء، وتشبه دارَ البَقاء لأنها قد وُجدت يوما مّا. فهذه النفحة الرحمانية في الوجود هي التي أمسكَتها حتى ظهر الإنسان. فافهم، ولا تقتصر بهذا على آدم فحسْب، فكُلّ صالِح من المؤمنين ومِن غيرهم في وجوده قُطْب،

ولم يَبق إلا خليفةٌ جائر وخليفة عادِل[210]؛ فإمّا إلى عذاب غير زائِل وإما إلى نعيم طائل. ومن هُنا وقع الخوف على الخلفاء، وأنا وأنت من جُملتهم. فنرجِع إلى نفوسنا في هذه الحالة العمياء، ونُقيم عليها ميزانَ القضاء والحكم على السَّواء، بمرتَبتها التي وُجدت لها ومترلَتِها العاليَةِ السَّناء.

فأقول: يا نفس، يا بَرزَخًا بين الضَّرّاء والسرّاء، اِصطفاكِ الله دون أهل الأرض والسماء، وجمع لكِ بين يديه؛ إما للشَّرف الذي لكِ عنده أو للابتلاء. ومُحال أن يكون للشرف: لقبضة الأشقياء. وإنما الشرفُ فيه موطنٌ في مقابلة الخُصماء. فلم يبق أن يكون ذلك إلا لِمُجرّد الابتلاء. قال تعالى ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ

---

[210] فالناس كلُّهم مَسؤولون دنيا وآخرةً عن أنفُسهم وعن ما ائتُمنوا عليه من أهل أو مال أو غير ذلك، كما بلغنا عن عبد الله بن عمر أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «ألاَ كلُّكُم راعٍ وكلّكُم مَسؤولٌ عن رَعِيَّته؛ الأمِيرُ الذي على النَّاسِ راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجلُ على أَهل بيتِهِ وهو مَسؤولٌ عن رعيّته، والمرأةُ راعيَةٌ على أهلِ بَيتِ زوجها وولدِه وهي مسؤولَةٌ عنهم، وعَبدُ الرّجل راعٍ على مال سيِّدِه وهو مَسْؤولٌ عنه. ألا كُلُّكُم راعٍ وكُلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّته!». أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وغيرُهم. ويتعدّى ذلك إلى كل ما يستَعمِله الإنسان في حياته الدنيا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تزولُ قدَما عبدٍ يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربع؛ عن عُمُره: فيما أفناه؟ وعن عِلْمِه: ما عمِل به؟ وعن مالِه: مِن أين اكتَسبَه وفيمَ أَنفَقَه؟ وعن جسمِه: فيما أبلاه؟» أخرجه الترمذي عن أبي بَرزَةَ الأسلَمي وعن ابن مسعود رضي الله عنهما، ورواه الدارمي عن معاذ موقوفا، ورفعه البيهقي في الشُّعب وقال البزار: أحسبُه رفعَه. يُجازُى على تصرُّفِه في كل ذلك فإن أحسن وإلا فالعكسُ بالعكس.

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم﴾[الملك 2] و لم يقل "لِيُشرِّفكم"؛ خِطابًا يشمَل جميعَ المأمورين والأُمراء. فمَن نُصب هذا الْمَنصِب وذُهب به هذا المذهَب، كيف يَطيبُ له مَعاشُه أو يستقرّ به فِراشه، وهو لا يدري بأيِّ اليد من اليدين يُحكم عليه ولا بأي العين من العينين يُنظَر إليه؟![211]

[211] لا أحدَ من الناس يعلَم عاقبَته في الآخرة، لا نبيٌّ مُرسل ولا وليّ صادق، ولكن لا بدَّ من السعي لِمَرضاة الله تعالى بالعمل الصالح الخالص لوجهه الكريم ﴿قُل: لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ؛ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَّبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُون﴾[الأعراف 188] ﴿قُل: لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّه، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مَلَك. إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيّ﴾[الأنعام 50] ﴿قُل: مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُل، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُم﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِين﴾[الأحقاف 9] هذا وبلغنا عن ابن عباس قال: لَمّا مات عُثمان بن مَظعون قالت امرأتُه "هَنيئًا لك الجنّة، يا عثمانَ بن مَظعون! فنظر إليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال «وما يُدريكِ؟» قالت "يا رسولَ الله، فارسُك وصاحِبُك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّي رسولُ الله، وما أَدري ما يُفعَلُ بي!» رواه الحاكم في معرفة الصحابة من المستدرك والطبراني في الكبير وأحمد في المسنَد. وصدق زُهير بن أبي سُلمى إذ قال:

وأَعْلَمُ ما في اليومِ والأمْسِ قَبْلَهُ ... ولَكنَّني عَن عِلْم ما في غَدٍ عَمِ
فَلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في نُفوسِكُمُ ... لِيَخْفَى، ومَهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَومِ الحِسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنقَمِ

فواجبٌ عليك، يا وليّي، مُحافظةُ السرِّ والوقت، مَخافةَ أن تَفجَأَكَ نظرةُ الْمَقْت، وأنت لا تشعُر بذلك؛ فتكون عند الناس السعيدَ المالِك وعند الله الشقيَّ الهالِك. وحكم الله أمضَى وحاكمُه أقضى؛ فالويلُ لِمَن اغترَّ ولو بُشِّر، والويل كلُّ الويل لمن اغترّ وهو لم يبشَّر! هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصَّلْب القويُّ الذي ليس للشيطان عليه سبيل، حَسْبُ الشيطانِ أن ينجُوَ منه، نزل القرآنُ مُوافِقا لِحُكمه وأدّاه أن يقول "لو كُشف الغِطاءُ ما ازددتُ يقينا!"[212] لِما يعرِفه من إيمانه وعِلمه. قد جمع بين العِلم والعِيان وتبرّز في صدر مُشاهدة الأعيان؛ ليس أحدٌ من وقته إلى يوم القيامة يبرُز أمامَه ولا يكون في

[212] سبق الكلام عن هذا الأثر من حيث النسبة. وهذه فائدة: نقل تاج الدين السُّبكي عن أحمد الغزالي، أخي أبي حامد الأصغر والذي كان أعلى مقاما من أخيه في باب التصوف والمعارف. قال: سُئل أحمد الغزالي في مجلس وعظه عن قول علي رضي الله عنه "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا" والخليلُ عليه السلام يقول ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى. قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِن؟! قَالَ: بَلَى، وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي!﴾[البقرة 260] فقال "اليقينُ يُتصوَّرُ عليه الجُحود، والطُّمَأنينَةُ لا يُتَصَوَّرُ عليها الجُحود: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم﴾[النمل 14]. قال السبكي: كان فقيهًا واعظا، وكان يدخُل القُرى والضِّياع ليعظ أهلَ البوادي تقرُّباً إلى الله." طبقات الشافعية الكبرى ج6/ص61، دار هجر. قلت: فانظُر إلى فقه أحمد الغزالي، قدَّس الله سرّه.

حالة من الأحوال إمامَه: قد اهتزّ لِموعظة أويس القرَني خيرِ التابعين هِمّةً وقال ما أدّاه إليه كشفُه المعصوم وعلمُه "ليتَ عمرَ لم تَلدْه أمُّه!"[213].

فكيف ينبغي أن نقول أنت وأنا، إلى متى هذه القِحَة على الله تعالى، أما آن لنا أن نرجع، أما حان لنا أن نَرْعَوي ونُقلع، وقد دُعينا بالعارفين بالله ونحن في حزب ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾[البقرة 156][214]؟! أترضى لنفسك أن تكون صاحبَ حال

---

[213] سبق تخريجه عند ذكر خبر أويس الطويل بلفظ"ألا لَيت أمَّ عُمرَ لم تَلِدْه". فائدة: يقول الشيخ محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبو طالب المكي: لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتمنَّون أنهم لم يُخلَقوا بَشَرًا، وقد بُشِّروا بالجنّة يقينًا في غير خبر. من ذلك قول أبي بكر "ليتني مثلُك يا طير، وأني لم أخلق بشرا!" وقول عمر "وَددتُ أني كنتُ كَبشاً ذَبَحني أهلي لِضَيفهم!" وأبو ذرٍّ يقول "ودِدت أني شَجرةٌ تُعضَد!" وطَلحة والزُّبير يقولان "وَدِدنا أنّا لَم نُخلَق!" وعُثمان يقول "وددت أني إذا مِتُّ لا أُبعَث!" وعائشة تقول "وددت أني كنت نَسْيًا مَنسيّا!" وابن مسعود يقول "ليتني أني أكون رَّمادا!" وفي رواية "ليتني كنتُ بَعْرَة، ليتني لم أكُ شَيئا!" في طبقةٍ يكثُر عَدُّهم رضي الله عنهم وأرضاهم. ونحن في ارتِكاب الكَبائر، ونُحدِّث نُفوسَنا بالدَّرجات العُلَى والقُربِ مِن سِدرةِ الْمُنتَهَى؟! ونسينا أن أبانا آدمَ صلواتُ اللّه عليه أُخرِجَ مِن الجنَّة، بعدَ أن أُدخِلَها، بذنبٍ واحد؟! ونحن لم نرها بعد، فإنما نضرِب في حديد باردا!! قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، ج1/ض381، الكتب العلمية.

[214] أي مَنكوبون مُصابون أصحابُ بلاءٍ ورَزيَّة، فإن كنّا مؤمنين حقًّا فليس لنا إلا أن نصبِر كما قال الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِين: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون!﴾[البقرة 155-156]

فَيَحكُم عليك هواك وتغلِبُ عليك دُنياك ويُلبِّس عليك أن ذلك من مَولاك؟! هلاّ أقَمنا عليها ميزانَ العدْل وطالَبناها بصِحّة النَّقل؟! فإنها لا تخلو في اتِّساعها في دنياها بعد ضَيقها، وراحتِها بعد جُهدها، من أحَد أمرين: إما أن تكون في ذلك تستُر مقامَها عن الناظرين وتُعَمّي مكانتَها عن أبناء الدنيا العاكفين وتَصول بذلك على الْمُترَفين وتسعَى في الكسب، حتى لا يكون عليها يدٌ لأحدٍ من المحجوبين؛ فإن كان ذلك، فيا جهلَ هذه النفسِ ويا حسرتَها، فلا حال لها ولا مَقام! عظُمت الدنيا وأبناؤُها في عينها فصادمتهم وقابلتهم. وأين هي من «جَناح البعوضة»[215] ومن تشبيه النبوّة لها بالْمَزبَلة والجِيفة[216]؟! إلى هذا بلَغت

---

[215] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كَانت الدُّنيا تَعْدِلُ عند الله جَناحَ بَعُوضَةٍ، ما سقَى كافرًا منها شَرْبَةَ ماء!» أَخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه عن سهل بن سعد الساعِدي. وله شواهد، منها: البغدادي والقُضاعي عن ابن عمر، وأبو نعيم عن ابن عباس، والشجري والمخلص عن أبي هريرة.

[216] جاء عن أبي ميمونة اللخمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة, فقال «هَلُمَّ إلى الدنيا!» وأخذَ خِرَقًا قد بَلِيَت على تلك المزبلة وعِظاما قد نَخِرت فقال : " «هذه الدنيا!» رواه البيهقي في شعب الإيمان ر9988 وابن أبي الدنيا في الزهد وغيره. وهذا الحديث مُرسَل وفيه مدلّس قد عنعن. أما وصف الدنيا بالجيفة فلم أجد فيه غيرَ هذا الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: الدُّنيا جيفةٌ وطُلاّبُها كِلاب؛ فمَن أرادَ الجيفةَ فَلْيَصبرنّ على مُخالَطَةِ الكِلاب! رواه الشجري في الأمالي الخميسية ر2387 وأبو نُعيم في الحلية عن يوسف بن أسباط عن علي. وما رواه الديلمي عن علي قال: أوحَى الله إلى داود «يا داود، مَثَلُ

منزلةُ هذه النفس الرَّكيكة، مع دعواها أنها السيَّدة المليكة -إن كانت تقول الحقَّ وعزمَت على مُصادمة الدنيا ومُقارعة أبنائها.

فاستنِد إلى الحق في خَرْقِ العوائد؛ فإن الناس كلَّهم يُنفقون من الجَيب وصاحب الحال إنما ينفق من الغَيب[217]! فإذا رأيتَ نفسَك تَحيد عن ذلك فلا تُغالَط وكُن

الدنيا كمَثَلِ جيفةٍ، اِجتمعَت عليها الكلابُ؛ يَجرُّونَها. أَفتُحِبُّ أن تكونَ كلبًا مِثلَهُم، فتَجُرَّ معهم؟! يا داود، طِيبُ الطعام ولِينُ اللِّباس والصيتُ في الناس، وفي الآخرة الجنَّة؟! لا يجتمع أبدا!» مسند الفردوس ر502، وأنكروه. والله أعلم.

[217] نقل ابن عطاءِ الله في كتاب التنوير في إسقاط التدبير عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي أنه قال "إن كان ولا بد من التدبير، فدبِّروا أن لا تُدبروا!" وذاك الذي فعلَتْه مريمُ عليها السلام كما أنبأنا العليمُ الحكيم ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقا. قَال "يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟"﴾ أي من أين وكيف حصلتِ عليه؟ ﴿قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ إجابةً على سؤال مِن أين، ثم أضافت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب!﴾[آل عمران 37] إجابة على سؤال كيفَ. وكما قيل: مَن كان بما في يد اللّه أَوثقَ منه بما في يديه، فقد بلغ مقامَ التوكُّل. نقل القُشيري في باب التوكل من رسالته عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدين الله عزَّ وجل كالميِّت بين يدَي الغاسل، يُقلِّبُه كيفَ شاء؛ لا يكون له حركةٌ ولا تدبير. والآيات التي تحثُّ على التوكُّل كثيرة، بل التوكُّل هو لبُّ الإيمان وخلاصة التوحيد، كما في قول الله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل 53] ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود 6] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا؛ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُم﴾[العنكبوت 60] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ؛ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَّمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾[الذاريات

لها المجاهِدَ المرابط. ولا تغرنّك حالةٌ طرأت عليك في بدايتك، وافقَت وقتَ صِدقٍ منك، فتتخيَّل أنها أُبقيت عليك. والعادَة طبيعةٌ خامسة. وما عسى الدنيا وأبناؤُها حتى تُنافِسَهم فيها وتقول "أرى أن لا يأكُلوا عندي ولا آكلَ عندَهم، ولا يزوروني ولا أزورَهم!" كلٌّ ذلك حظٌّ نَفساني وتلبيسٌ شَيطاني. فإن كنتَ عبدتَ الله لتُعبد، فقد حصَل لك أجرُك في الدنيا وساء مُنقلَبُك في العُقبى. وإن

56-58] لذا قال عز وجل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه﴾[الطلاق 3] أي كافيه بحيث لا يحتاج إلى غيره وأن الأسباب من عنده تعالى مهما قلَّت أو كثُرَت. ثم للتوكُّل شروط، منها ما بلغنا عن المُغيرة بن شُعبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنِ اكْتَوَى أو اِسْتَرْقَى: فقد بَرِئَ مِن التَّوَكُّل» أخرجه الترمذي قيل أن جماعة دخلوا على الجُنيد رحمه الله، فقالوا "أين نطلب الرزق؟" فقال "إن علمتم في أي موضوع هو" فقالوا "ندخل البيتَ فنتوكَّل؟" فقال "التجربةُ شكٌ" قالوا "فما الحيلة؟" فقال "تركُ الحيلة! وعن بعضهم قال: كنتُ في البادية فتقدمتُ القافلةُ فرأيت قُدّامي واحدا. فتسارعتُ حتى أدركتُه، فإذا هي امرأة بيدها عُكّاز، تمشي على التُّؤُدَة. فظننتُ أنَّها أَعْيَت، فأدخلتُ يَدي في جَيبِي، فأخرجتُ عِشرين دِرهما، فقلت "خُذيها وامكُثي حتى تَلحَقَكِ القَافِلةُ فتَكْتَري بها، ثم إيتيني الليلةَ حتى أُصلِحَ أَمرَك." فقالت بيدها: هكذا! في الهواء، فإذا في كفِّها دَنانير، فقالت "أنتَ أخذتَ الدَّراهمَ من الجَيب، وأنا أخذتُ الدَّنانيرَ مِن الغَيب!" وعن عمران بن حصين قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن الكيِّ، فابْتُلينا فاكْتَوَيْنا كَيَّات، فما أفْلَحْنا ولا أنْجَحْنَا! رواه الترمذي وأبو داود. وعن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لو أنكم توكَّلتم على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» رواه الترمذي وابن ماجه.

كنت عبَدت الله لِحظّ نفسِك في الآجل، إما لكونها عبدا: فتُحشر مع النبيّين، وإما لكونها أجيرةً الحسنةَ بعشرة أمثالِها: فتُحشر مع المؤمنين.

فأَزور وأُزار، وأقصِد وأُقصَد. وهذا حال النبي صلى الله عليه وسلم، كان يزور ويُزار ويحمِل الكَلَّ ويُعين الضعيفَ ويُقْري الضَّيف، ولا يَبيت على معلوم ولا يجزَع من الفقر. ألا إن الفقير العارف من لا يُنكَى غدُه من أجل رزقه، فكيف مِن أجل غيره؟! وبهذا تُغالط النفس فتقول "إنما أُمسك هذا الشيء في حقّ الغير لا في حق نفسي!" قال الله تعالى يُكذِّبُها ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاق!﴾[الذاريات 58] ومُحال أنّ الله يُطعَم، فلم يَبق إلا أن يُطعَم مِن أجله؛ فمَنع مِن ذلك الساداتِ الكبراءَ، وأبقى ذلك في حالة العامّة الضُّعفاء. ونفسي تدّعي الخروجَ من العامة، فقد لزِمها أن تخرُج عن السَّعْي والادّخار في حق الغير؛ فإنه شِرك مَحض وطعْن في القُدرة! كما أن الْمُتسبِّب إذا لم يقدِر على الجلوس مع الله مَطعونٌ في إيمانه. فهذا هو الأمر الواحد من الأمرين؛ قد بطَل دعْواها فيه في اتِّساعها في الدنيا بعد تضييقها.

وإن كان يريد الإنصافَ من نفسه. وهو عند الأكابر مَقامٌ نازل، ولكن لهذا أن يفعله فإنه ليس من الأكابر، حيث رأى للدنيا وأبنائها حظّا وقدرا، فيصول عليهم ويتعزّز. هلاّ شغلته عُبوديّته مع عزّة الله عن عزّته مع ذلة الخلق؟! لقد فاته حظُّه من الله. نسأل الله جميلَ العاقبة، وهو أن يُطعم الخلق ولا يأكُل منه ألبتَّةَ، فإن أكل فلنفسه سعى ولها ادّخر.

وأما الأمر الآخرُ الذي وسّعت به النفسُ عليها بعد تَضييقها، فهو أن تتخيَّل أن ذلك لا يؤثّر في مقامها ولا ينقُصُ لها من مكانتها. ولمّا كانت غيرَ عامِلة للثواب، وإنما عمِلت للعُبوديّة؛ فلا تُبالي في أي وادٍ رُميَ بها إذا صحّ حالُها مع الله. وليس ثَمّ أمرٌ ثالث، والحمد لله.

فإن كانت فعلتْه لهذا، فلا نشكّ أصلا في جَهلها، ونُعزّيها في نفسها، لوجوه كثيرة تدلّ على جهالَتها. منها جهلُها بالْمَوطن حيث عامَلته بما لا يَليق به؛ فإن الدنيا سِجنُ الْمَلِك وهي سَجْن المؤمنين، وأنت تدّعي أنك فوق الإيمان؟! وأنا أسلِّمه لك! ولكن صاحبُ السجن قد أرسلَك إلى السجن وأدخلَك فيه مع المؤمنين وسَجنَك معهم بما حَجره عليك؛ فلا تقدِر أن تشرَب خَمرًا ولا أن تكذِب في حديث ولا أن تُخلِف وَعْدا ولا أن تَحلِف فاجِرا ولا أن تَنكح خمسَ حَرائر، وتوجَّه عليك من الأحكام ما تَوجه عليك مثلَ المؤمنين المسجونين.

فالحكيم يتنبَّه ويعرِف أن ذلك مَوطن التكليف، وقد لزمه ما لم يكن يلزَمه وهو خارجَ السِّجن. فيقول "هل هُنا أحدٌ من حَضرة الملِك مِن طَوري ومِمّن هو أرفعُ مني؟" فيجد الأولياء والأنبياءَ والمرسَلين، فيقول "لنا فيهم اِقتداء، فهُم منّي وأنا منهم" وهذا أكبر الدعاوَى، وأنا أُسلِّمها. وبهذا النظر أمر الله نبيَّه أفضلَ الخلق، فذكَر الأنبياء وما أعطاهم ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ؛ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ!﴾[الأنعام 90] فينظُر في حال الأنبياء فيجدُ سيِّدَهم وإمامَهم قد اختار الفقرَ على الغِنى والذُّلَّ على العِزّ للمؤمنين، وقد خيّره حين نزل عليه إسرافيل فقال «إن الله خيّرك: إن

شئتَ نبيًّا عبدا وإن شئت نبيا مَلِكا» فأشار إليه جبريلُ أن «تَواضَعْ!» فقال «نبيًّا عبْدا» قال عليه الصلاة والسلام «لو قلتُ: نبيا ملِكا؛ لسارت معي الجبال ذهَبًا وفِضّة!» فأعطته المعرفة والهِمّة، حين أشار إليه شيخُه بالأَوْلى، تَمنِّي العبوديّة. فلازَم الفقرَ والذلّة والخُضوع، حتى كان يشُدُّ الحِجارة على بَطنه من الجوع.

فهلا اقتدَى بهم هذا الشخص، ولا يُذهب طيباتِه في حياته الدنيا؟! ولو علم أن الْمَراتب في الجنة على قدْر المراتِب عند الله لسعَى لنفسه ولِعقله، ولكان من الملوك في الجنة وعند الله تعالى. ولا كان يتَّكل على معرفته ويقول بكمال عقله ويجنَح إلى الراحات ويُكِبّ على الشهَوات، ويتنعّم في ليِّن الثياب ولَذيذ الطعام والشراب، وأخوه المؤمن لا يجد ما يأكُل. فيقال له "واسِه" فيقول "حتى يَخطُر لي؛ ما ألقَى الله عندي فيه شيئا" فما أجهلَه بخواطر الحق! إنما يفعل العارفون ذلك فيمن لم تَبدُ منه حاجةٌ ويظهَر عليه الغنَى وهو فقير، فيُخطر اللهُ للعارف أنه فقير؛ وهو كَشْف. وأما مَن ظهر حالُه وبانت فاقَتُه: فذاك الخاطِر الذي أعطاك الله فيه وأنت لا تشعر؛ وهي أقوى حجَّة عليك! فلا يغترَّ مَن زاحم الأنبياء بجهله بسليمانَ ويوسفَ عليهما السلام ولا بقوله تعالى ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا؛ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب!﴾[ص 39].

وأنا أقول مثلَ ذلك في العارف الذي يَرى أن يدَه عاريةٌ في المنع والعطاء، وأن الحساب عنه مرفوع. لكن الموطن يعطيه أنه إذا كسَب الدنيا أنه يتأخّر عن درَجة الذي لم يكتسِب ضرورة، في الشفاعة وفي دخول الجنة وفي المنزلة عند

الله تعالى، وفي الدنيا. فإن الغني يزورُ الزاهد، والأمراءُ الصادقون يزورون الفقراءَ الصادقين. وهنا سِرّ عالٍ مَنفوث، أخاف من الفتنة في كَشفه وإذاعته فسترتُه رحمةً بالعالَم، حكمتْ علينا به الحقائق. يؤيِّده من الأخبار «ما وسِعني أرضي ولا سمائي ووَسعني قلبُ عبدي المؤمن» هذا باب: الفقير يدعوه إلى السُّكون كسرُ فَقاره[218]. فابحث عن السر ولا تُفشِه، ولا تعتمد عليه ولا تجعل حقيقته تحكُم عليك؛ فإن الموطِن لا يُعطيه. ولا تترك حقائق جَمّة كثيرة يعطي استعمالُها سعادةً لحقيقةٍ واحدة يعطي استعمالها إما شَقاوة وإما نَقصا في المرتبة. فاللهَ الله عليها، كن لها كَتوما إن وقفتَ عليها! وقد نبّهتك على طرَف منها والله المستعان. ويكفي هذا المقدار من الوجوه الذي يحتملها هذا الأمر الآخر.

فهذا الابتلاء الذي ذكرناه يوجب علينا الجِدّ والاجتهاد والتجرد عن الدنيا وأسبابِها والتفرُّغ للعبادة، كما كان الأنبياء والأولياء السادة النُّجَباء، مثل أبي بكر وغيره، وقد مضى طرَف من أخبارهم في أول هذه الرسالة. وأما إن لم تنظُر في خلقه لك بيديه ابتلاءً ونظرتَه شرفا ورِفعة، وهو نظرُ جهلٍ، كما حَمَل الأمانة لحقيقته و لم يحمِلها غيرُه، ولكن قيل فيه ﴿ظَلُومًا جَهُولا﴾[الأحزاب 72]. فلو حَملها

---

[218] الفقْر ضد الغنى، وهو أن لا يجد المرء ما يكفيه لسد حاجياته العادية. فإذا أسكن الفقرُ أحدًا من الناس جعله مسكينا، وذلك معنى كسر فقاره أي عموده الفِقَري. والمقصود هنا أن حقيقة الإنسان إنما هي العبودية، حيث يسكنُه الفقر إلى الله تحت المقادير فيلجأ إلى التضرع والدعاء تحقيقًا لذلّته في عزّة الله ولفقره في غنى الله جل جلالُه.

جَبْرا لما نُسب إليه الظلمُ والجهل، ولما حملها اختيارا نُسب إليه ذلك، فاعلم هذا. وأنا أسلِّم لنفسي هذا الجهل وأقول لها: إنما خلقك بيديه لشرفِك على جميع الموجودات، وجعلك إنسانا و لم يجعلك ملَكا ولا شيطانا فتعيشي على النصف من المعرفة. اُنظري يا نفسُ إلى حال مَن خُلقت نشأتُه على نصف المعرفة كيف قال الله فيهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُون﴾[الأنبياء 20] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون﴾[النحل 50] ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُم﴾[التحريم 6] ؛ هذا شُكرهم على قدر معرفتهم، وهي نصف المعرفة. وأنتِ قد أُنشئتِ في مَقام المعرفةِ بكمالها والصورةِ الإحاطيّة والاستخلافِ الإلَهي؛ فكان ينبغي أن يكون شكرُكِ أتَمَّ من شكرهم وزكاتُك أعظمَ من زَكاتهم، لأن معرفتك كليَّة، فكان الأَولى بكِ أن تقوم الركعةُ الواحدة مقامَ عبادة أهل السماوات والأرض!

فإياكَ أن تَحجُب نفسَك بأن تقول، يا أخي "كاتبُ هذه الرسالة ما عرَف مقامي ولا من أنا!" ما قصدتُك بالكلام وحدَك، وإنما تكلّمتُ على ما تقتضيه الحقائق. وحصرتُها حصرا إحاطيّا وكشفتها كشفا اِعتصاميّا؛ لم يَبقَ مَلكٌ ولا رسولٌ ولا نبيٌّ ولا ولِيّ ولا أحدٌ إلا دخل في هذا الحصر! فلا بد أن تكون، يا قارئَ هذه الرسالة، واحدا من هؤلاء الأقوام والطبقات. وَادَّعِ فيمن شئتَ، فقد سلّمتُ لك، ولو ادَّعيت الْمَلَكِيَّة وحدها أو الرسالةَ أو النبوَّةَ أو ما ادَّعيتَه؛ فالحقائق تحكم عليك قسرا وتردُّك إلى العُبودية وإلى الموطن إن عُصمت. وإن خُذِلتَ عَمِيتَ عن الحقائق واستعجلتَ الآجلة وأجّلت العاجلة، وجعلت غيرك المحجوبَ وأنت

العاقلُ عن الله المصيب. فإذا انقلبتَ وجدت عملَك هَباءً منثورا وطردَتك الحقائق السعاديَّة عن بابها وقالت: لا أعرفُك، فإنك ما صحِبتَني في الدنيا ولا تعرَّفتَ إليَّ! ودعاك خيالُك الفاسد القاصر فرمَى بك في سَواء الجحيم.

فكيفما نظرتَ في خلق الحقِّ لك بيديْه: إن كان ابتلاء؛ فلا بُدّ من الحذَر والوزن مَخافةَ النقص أو التطفيف، وإن كان شرفا ورفعة فلا بد من الجِدّ والاجتهاد في الشُّكر. لذا قال عليه الصلاة والسلام «لو تعلمون ما أعلم لبكَيتم كثيرا ولضحِكتم قليلا!» وكما قال بعض العارفين وقد رأى صوفيّا يضحك مِلْءَ فيه "لا يخلو أن تكون قد بُشِّرت بسعادتك أم لا؛ فإن كنتَ لم تؤمَّن، فما هذه حالةُ الخائفين! وإن كنت قد أُمِّنت فما هذه حالة الشاكرين!" فقد ناطَ به الذمَّ من الطرَفين في ضحِكه. فكيف لو رآه مُتنعِّما مترَفِّها ويجمع ويدَّخر ويُمنّي نفسَه بالغُرور؟! وقد تقدّم حديث سلمان الفارسي في وقت ذكْره لِما فَتح الله به على بعض الصحابة والتابعين من كنوز كِسْرى وقَيصر، وأن الله ما اختار ذلك لنبيه بل اصطفاه فقيرا لا يَبيت على معلوم في البيت حتى مات عليه الصلاة والسلام، وأشباه هذا.

فإياك يا وليي والمغالطةَ، فإن الناقد بصير وإليه الأمور تصير؛ وقد مضَت العِبارات وطاحَت الإشارات، وما بقيت إلا تسبيحات. فلا يغترَّ العالِمُ بعلمه ما لم يستعمِله، ولا يغتر باستعماله ما لم يُخلِص فيه، ولا يغتر بإخلاصه ما لم يَفنَ عنه! هذه مسألة مَن تحقّق بها وبمعانيها لم يسكُن له جَأشٌ ولا طاب له عَيش؛

يشغَله شأنُه عن كلّ شأن لِما يؤول إليه حالُه. فإن قَوارع القرآن تُزعِج العاقل اللَّبيب وتنغِّص حياةَ الفطِن المصيب، مثلُ قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُون؟!﴾[المؤمنون 115] وقوله ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى؟!﴾[القيامة 36] وقوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَن!﴾[الرحمن 31] وأمثالُ هذه القَوارع والزَّواجر المتلوَّة في المحاريب والمحاضر؛ تقرَع أسماعنا آناءَ الليل وأطراف النهار. فلا معرفةَ ثابتةً في القلوب، فيردعنا الحياء، ولا خوفَ فيكفَّنا الوَعيدُ والتقريع؛ فلا ندري في أي نَمط نتميَّز ولا بأي فِرقة نلحَق. نسأل الله العافيةَ لنا ولكم وللمسلمين في جميع الأحوال هنا وعند الموت وفي المآل!

ومما يَحُضّ العقلَ السليم على الاجتهاد ويَحول بين جَفنه وبين الرُّقاد، نظرُه في أمّهات النِّعَم المترادِفة عليه إذا حقّقها. وذلك يا وليي أبقاك الله تعالى، أن أوّل نعمة عقلتَها من ربك إخراجُك من العدَم إلى الوجود، وقد عدّ هذا المقام عليك من جملة نعمه فقال ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئا؟!﴾[مريم 67] ثم خاطب بهذا المقامِ الخاصّةَ الرفيعةَ من عباده الذين نحن أتْباع لهم؛ فقال لنبيِّه زكريّا في وقتِ تعجّبه من قُدرة الله تعالى على حُكم العادة في إيجاد ابنه يحيى ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئا!﴾[مريم 9] فإياك أن تتوهّم أن هذا الخطاب لزكريا في حقّ نفسه، لإبطال المعنى فيه. فإن خلق ابنه أعجبُ من خلقه في حُكم العادة، لأن زكريا قد أظهر العلّة، فلو أحالَه على خلق نفسه لَما أتاه بأعجب مما تعجب منه. وإنما أشار إليه بذلك أن ينظر في أول مَوجود، وهي الحقيقة الإنسانيّة، قبلَ كلِّ

شيء. وهي أمّ الأشياء كلها وليست من شيء، وهي سببُ كل شيء وليست مُسبَّبة عن شيء؛ لهذا قال له ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئا!﴾[مريم 9].

فإن هذا الخلق التُّرابي الآدَمي مسبَّب عن أشياء نبّه عليها عليه الصلاة والسلام بقوله «كنتُ نبيّا وآدمُ بين الماء والطين» ولا يكون العدمُ بين أمرَين موجودَين لانحصاره، والمعدوم لا يوصَف بالحصر في شيء. وقال الله تعالى في خلق الجسَد الآدمي ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَاب﴾[الروم 20] وقال ﴿مِن طِين﴾[الأنعام 2] وهو خَلْط الماء بالتراب، وقال ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُون﴾[الحجر 26] وهو المتغيِّرُ الريحِ، وهو جُزء الهواء، وقال ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار﴾[الرحمن 55] وهو جزء النار. فهذه أمّهات الجسَد الآدَمي، وهي كثيرة، فلا يصحّ على هذا قوله ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئا﴾[مريم 9] فإنه قد كان شيئا، وانتقَل في أطوار العالَم من شَكل إلى شكْل حتى صار على هذه الصِّفة.

وكذلك قال في جسَد ابن آدم كما قال في الجسد الآدَميّ من توقُّفه على شيء وأن أصله ذلك الشيء، والصورةُ عرَض فيه فقال ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِب﴾[الطارق 7]. وإياك أن تقول "في وقتٍ كنّا كذا، لم نكن كذا" وقد نبّه تعالى على أنّك هو ذاك وأن أصلَ جسمانيَّتِك مِن شيء فقال ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَاب﴾ وهو الأبُ إن شئتَ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَة﴾ وهو الابن ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَة﴾ تتميَّز في طور آخر ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَة﴾[الحج 5] تَمْييزٌ أيضا في طَور آخر.

وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فجعلك من شيء، هذا طور ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهذا طور آخر ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ هذا طَور آخر، وكلُّه الإنسان ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ هذا طور آخر ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ هذا طور آخر ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً﴾ هذا طور آخر ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ هذا طور آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون 12-14] أثنى على نفسه، يُعلِّمُك صورةَ الثناء عليه لتشكُرَه لا لتكفُره. وهذا كله إنما ذكَره ليَعدُد نِعمَه التي اختصَّك بها وحَباك، وهذه كلها أشياء علَّق وجودَ بعضِها على بعض.

فقوله، على ما تعطيه الحقائق ويُعظِّم التعجُّبَ عند زكريّا عليه السلام، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئا﴾[مريم 9] إنما يُشير إلى البُروز الأوَّل مِن غير شيء؛ لأن زكريا إنما تعجَّب من بُشراه له تعالى بيحيى على كِبَره وامرأتُه عاقِر، فذكر له ما هو أعجَب من ذلك، وهو إخراج الشيء من العدَم إلى الوجود. فإن النَّقلة في مَراتب الوُجود، من وجود إلى وجود باختِلاف الصُّوَر والأحْوال، أهْونُ من إبراز المعدوم؛ فلهذا كان أعجبَ مما تعجّب منه زكريا. ومن هذا تعجَّبت امرأة إبراهيم عليه السلام حين بُشّرت بإسحاقَ عليه السلام فقالت ﴿يَا وَيْلَتَى؛ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخا؟! إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيب!﴾[هود 72]

وهذا يا وليي، إذا نظرتَه، من الأسرار العجيبة؛ فتنبّه له عسى تعثُر على الفضل بينهما. وذلك أن الله قد أخبرنا عن زكريا بما أخبرنا عن امرأة إبراهيم عليهم

السلام، فشرّك بين المرأة والرجل في هذا التعجُّب؛ فشرك بينهما في العلم. لأن التعجب على قدر العلم، ومعلومٌ فضلُ الرجل على المرأة في الميراث والشهادة والصلاة والصيام ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة﴾[البقرة 228]. وهذه المسألة مسألةٌ مُفْزِعة لتعلُّقها بباب المعرفة؛ قد اشترك فيها نبيّ الله زكريا وامرأةُ إبراهيم، وليست بكاملة. فحقِّق نظرَك، يا وليي، في هذه المسألة عسى تعثُر عليها. وكنتُ أذكُر لك وجهَ الفضْل بينهما وأبيِّنه، ولكني رأيتُك تحبُّ أن تأخذ العلم من ربِّك، فتأدّبتُ معك وأبقيتها مُهمَلة. قال الله تعالى جوابا لزكريا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئا﴾[مريم 9] وقال تعالى جوابا لامرأة إبراهيم ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّه؟!﴾[هود 73] وقد لوَّحنا لك وألقيناك على الطريق فادرُج عليها، فإنّ ما بينك وبين العلم بها إلا كلمةً واحدة؛ وهذا غاية ما قدِرنا عليه في حقّك من تقريب المسألة إلى هذا الحد. وسترناها خلفَ حِجاب واحد رَقيق، والخطاب على قدر العقل؛ فانظره.

فهذا يا وليي أولُ نعمة أنعم بها عليك؛ لو كلّفك الله شكرَ هذه النعمة وحدَها وجعل معك أهلَ السماوات والأرض بعبادتهم مُؤيِّدين لك عُمرَك الأُخرَوي الذي لا نِهايةَ له، ما قمتَ بشكرها. كيف وقد اِنضاف إليها نعم كثيرة غيرها؟! ثم طالَبك في الشكر والعبادة على قدر استطاعتك خاصّة، فأَبيتَ الإنصافَ وتَكاسلت وتخاذلت وتعامَيت وتصامَمت. ما هذا ممن يدّعي العقلَ والمعرفة بحسَن؛ إنما يقع الاعتراف بالتقصير بما ينبغي لجلال الحضرة من الاجتهاد بعد بَذل المجهود!

وإياك وشطحةَ مَن شطَح لسُكر غلب عليه فقال "إني أغار على الجمال القديم أن يراه الْمُحدَث من تدنيس رؤيته" فهذه كلمة ليس لها مدخل في الرُّجوليّة، وإنما هي شطحة مِن صورةٍ وقف القائلُ معها، تردُّها الحقائق. أو تغترَّ أيضا بقول القائل "من ظنّ أنه بالجهد يصِل فهو مُتعن" فقد قال هذا أيضا "..ومَن ظن أنه يصل بغير الجُهد فهو مُتمَنّ" فقد أشار لك إلى ما ندَبناك إليه من بَذل المجهود وصِحّة القَصد، ولا وُصولَ لشيء إلا برحمة الله. قال تعالى في المتمني ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيّ﴾[الحديد 14] فذمّه، وقال في المتعنّي ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين﴾[الزمر 74] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[العنكبوت 69] فمدح المتعنِّي.

فإن كان ولا بد من الدعوَى فالتعني أولى، وإن أسقطت الدعوى مع وجود التعني وعدم الالتفات إلى نتائجه، إنما يكون خاليا من جميع أعماله وهو فيها متعرّض لنفحة من نفَحات الربوبية. لأن العبادات بحُكم التسخير إنما هي للفقهاء العامّة الذين أعماهم الله عن الحقائق فقيل لهم "قدِّموا لِتجدوا" وهؤلاء هم الجُهّال عندنا، وعليهم توجّه التكليفُ مُطابقا لاسمه، فيدخُل عليهم في أداء العبادات من الكُلفة والمشقّة ما لا يعلمه إلا الله. وذلك لعدم معرفتِهم بمعبودهم ولاشتغالِهم بشهوات نفوسهم وحظوظِها عاجلةً وآجلة.

وأما هذه الطائفة الصوفية المحقِّقون فعباداتهم لا بحكم التسخير، لكن من طريق الشكر، بشاهد الفَناء عن ملاحظة العمل ونتائجه. فلم يقدموا أعمالا ليجدوها ويلحَقوا بها وإنما عمِلوا لأن السيد قال لهم ﴿إِعْمَلُوا!﴾[التوبة 105] فلهم العمل

والطرْح وللسيد إن شاء القَبول وإن شاء الردّ. فهؤلاء توجّه عليهم التكليفُ وارتفع عنهم معناه، أي ما فيه من الكُلفة والْمَشقّة، لقوة معرفتهم بمعبودهم واشتغالِهم بحقوق معبودهم عن حقوق نفوسهم. فلم يُتصوّر لهم أن يطلبوا أجرا، إنما هو في كل نفَس مشتغل بما كُلف في ذلك؛ فهو يَجبِي والباري تعالى يدّخر له.

والفقيه الضعيف الجاهل صاحب علم الرسوم، الذي قد ختم الله على قلبه بشهَواته، فتراه يلتفِت يمينا وشِمالا في صلاته ويُحرْم الإمام ويبقى هو بعدَه بقدر ركعة في حضور نيته للصلاة، لكثرة شغله عنها بهذيانه ودنياه وكثرة غفلاته. ثم يكرر التكبير مرتين وثلاثا وأربعا لشكه في النية، وذلك لعدم صفاء قلبه وترادُف ظلماته. فإذا سهّل الله عليه وأدى ما كلفه تعالى، وهذه حالة المجتهد الحازم، وساق هذه الجباية المسودّة الوجه بعدم الحضور فيها مع الله وسوء ظنه بربه. كيف يكون له ذلك العمل مدخَرا عند الله حتى يجده عنده تعالى؟ لعدم تطلعه إلى فضل الله عليه فيه، فيجنح إلى عمله؛ وهذه كلها عُلالات فاسدة. ولكن كما قال الله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارا﴾[نوح 14].

فلذلك أكثر الشريعة تجري عليهم رحمةً بهم لضعفهم، وهم في عَماية عن ذلك. بل مِن عظيم جهلهم أنهم ما عقَلوا عن الله رحمتَه هذه بهم، وتخيلوا أنهم إذا فعلوا هذا واقتصروا، أنه لا شيء أعلى منه والخلقُ دونَه. لحفظه الحديث والفقه، ويقال له: يا فقيه، ما تقول في رجل حلَف على كذا وقال كذا؟ فيحكم فيها بحكم الله المشروع، ويحجُبه ذلك المنصب عن القلب المختوم عليه بحب الدنيا وتعظيمها. ونظره الفقراءَ

وأولياءَ الله بعين الازدِراء والجهل، لكونهم لا يعرفون مسائلَ العِتق والطلاق والنكاح؛ فهم عنده الأغمار الجهلاء. فهذا وأشباهُه حجبهم عن الله وطردهم عن بابه. وما زالت الفقهاء في كل زمان مع المحققين بمنزلة الفراعنة مع النبيين!

ثم ننتقل يا وليي إلى الأم الثانية من هذه النعم الثابتة، وهي أن تنظر إلى أنه أوجدك متغذِّيا ناميا و لم يجعلك جمادا صلْدا. وإن كانت الحجارة والجمادات عندنا على خلاف ما يراها الناس كما قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِن خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[البقرة 74] فوصفها بالخشية وغيرها، وقال تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر 21] وقال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾[الأحزاب 72] وقال تعالى للسماوات والأرض ﴿اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا! قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِين!﴾[فصلت 11] وقال ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَه!﴾[سبأ 10] أي رَجّعي معه بالتسبيح وسيري معه، وقال ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِه﴾[ص 36]. وقال عليه الصلاة والسلام «إني لأعرف حجَرا كان يسلم علي» وقال في أُحُد «هذا جبل يحبنا ونحبه» وقال موسى عليه السلام «ثوبي حجر، ثوبي حجر!» يناديه، وسبّح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم، وما أشبه ذلك. فالجمادات عندنا عالِمةٌ بالله ناطقةٌ به تعالى في عالَمها، على حسَب أُفقها وفَلكها. ولها نذير من جنسها، وهي عندنا أمة من الأمم. ولكن الأمم قد فضل الله بعضها على بعض.

فكانت القدرة متمكّنة، لما أوجدتك و لم تكُ شيئا، أن تُترلك في أمة الجَمادات. ولكن مقام النبات أعلى وأمته أفضل، فجعلك متغذّيا ناميا و لم يجعلك جمادا؛ وهذه نعمة كبيرة لا يؤدى شكرُها ولا يقدر قدرها. فاجتهد عافاك الله جهدَك فإنك مسؤول على قدر معرفتك وتدقيقك. فإن العوام ما تُسأل عن هذه النعم التي ذكرناها، ونُسأل نحن عنها. فسؤالنا أشد، فينبغي أن يكون عملنا أتمَّ.

ولا تكن يا وليي كقوم رأيتهم، فأبنت لهم ما لِلّه عليهم من النعم ليجتهِدوا، وأمرهم بما أمرتك وأمرتُ نفسي به فأَبَوا قبول ذلك. وقال كل واحد منهم، لما أراد الله خُذلانَه: إن العبد لا يفي أبدا بشكر نعمة واحدة مما أنعم الله به عليه، فكيف أن يستغرِقها؟ فالتعني لا فائدة منه! فقلت: صدقتم في أن أحدا لا يفي بشكر الله تعالى؛ فإن الشكر منه على النعمة نعمةٌ. ولنا في هذه المعرفة ذراع أطول من ذراعكم وأزيد، مما لا تعرفونه، ولو عرفتموه لَما عبدتم الله أبدا مما ترونه من الحقائق؛ وأنتم قاصرون! ولكن ينبغي للعبد أن يبذُل الطاقة التي أعطاه الله تعالى في مرضاته على الاستيفاء، فإذا لم يبق له اتساع حينئذ يقول أنه لا يفي. وأن ذلك عَقد في القلب والجوارح تتصرف بالأعمال.

فإياك والبطالةَ، فقد تقدمك النبيّون والمرسلون والملأ الأعلى من الملائكة والعارفون وصالِحو المؤمنين بالاجتهاد والكد، مع صحة التوحيد والمعرفة والقصد. وما قال بقولك هذا إلا الإباحيّة والمنحلّة عقائدُهم، الذين قالوا بإسقاط الأعمال. نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين العصمة في الحال والمآل.

ثم زادك الله نعمةً على هذه النعمة بأن نقلك من أمة النبات والشجر إلى أمة الحيوان، فجعلك حسّاسا. فوجب عليك من الشكر والعبادة ما وجب على الجماد والنبات والحيوان، فإنك قد جمعت حقائقَهم وزدت على كل واحد منهم. فينبغي لك أن تعمل على كشف عبادة العالَم سُفلَه وعلوَّه وما هم فيه. فتأخذ نفسَك بعبادة كل طائفة منهم؛ فإنك مشارك لهم في حقيقتهم. ولهذا أنت الأم الجامعة لحقائقهم.

ثم إنه ما منها من أمة، من الجماد والنبات والحيوان وغير ذلك، إلا ولهم عبادتان: عبادة تعمّ الأمة كلّها وعبادة تخصّ آحاد الأمة، كما قال تعالى ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُوم﴾[الصافات 164] ؛ فهذه عبادة الأشخاص على الانفِراد. وأنا لا أُطالبك بعبادة الأشخاص وإنما أطالبك بالعبادة التي يشترِك فيها جنسُ تلك الأمة. وإنما يتوجّه عليك عبادة أشخاصها إذا أوقفك الحق مع واحد منها؛ فحينئذ.

وفي جملة أشياخنا الذين انتفَعنا بهم في طريق الآخرة في هذه الأمم: ميزاب، رأيته بمدينة فاس في حائط يترل منه ماء السطح، مثل ميزاب الكعبة، فوقفت على عبادته وأجهدت نفسي عسى أَجري معه في ذلك. ومنهم ظِلّي الممتد من شخصي، أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسَه بهما. وأشباه ذلك. وأما الحيوانات، فلنا منهم شيوخ. ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم: الفرَس، فإن عبادته عجيبة، والبازي والهِرّة والكلب والفهْد والنحلة، وغير ذلك. فما قدِرت قط أن أتصف بعبادتهم على حد ما هم عليه فيها، وغايتي أن أقدر على ذلك في وقت

دون وقت. وهم في كل لحظة، مع اعتقادهم بسيادَتي عليهم، يوبخونني ويعاتبونني. ولقد ألقى منهم شدة لما يرونه من نقص حالي في عبادتهم.

وربما يغتاظ بعضُهم عليّ حتى تحجبه غيرتُه في دين الله من أجل تقصيري فيهِمُّ بإذايتي، ويغيب عن سيادتي عليه لمعصيتي وسوءِ معاملتي مع الله، فتزول طاعتي من عليهم. وأعذرهم في ذلك وأسلم لهم في إخلاصهم، فإن أبا بكر الصديق قد قال لما ولي الخلافة "أطيعوني ما أطعت الله ورسولَه، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم" وقال الحقّ!

فينبغي لك يا وليي إذا آذاك حيوان من الحيوانات، من كلب أو دابّة أو حنَش أو عقرب، أو غير ذلك من الأمة الحيوانية، أو آذاك عودُ شجرة أو ورقة من الأمة النباتية، أو آذاك حجرٌ بأن تعثُر فيه أو يسقطَ عليك من حائط أو يرميَه صبي أو أحد إلى شيء، فيترك الحجرُ المشيَ لما رُمي له وينصرف إليك؛ فلا تغضب، وأنصف وارجع مع نفسك إلى حالك، وأقم عليها ميزانَ العدل فيما كلّفها الله من مراقبته والحضور معه. فلا بد ضرورةً أن تجد قُصورا أو تفريطا فيك في العبادة التي توجّهت عليك مما تُعُبِّد به ذلك الذي آذاك من حيوان أو نبات أو حجر. فاستغفر الله وتب إليه وأخلِص، واعزم على أن لا تعود؛ فإنه يذهب عنك ذلك الألم من حينه، فإن تقوّيت خاطبك ذلك الذي آذاك. فتُسمَّى كرامةً، وليست الكرامة على الحقيقة إلا تنبُّهُك لهذا وتوبتك وهُروبك إلى موطن الموافقة.

فلا يغرنّك يا وليي قول الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية 13] فإنه لم يقل "فعلت ذلك لنُسعدَكم" ولا أيضا "لنُشقيَكم"، فبقيتَ على قَدم الحذَر والغرور واقفا! فتحفّظ فإنها آية فتنة، يُضِلّ بها من يشاء ويهدي من يشاء. قال كليم الله موسى عليه السلام ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاء﴾[الأعراف 155] ؛ فلا تغرنَّك رِفعتُك على جميع الموجودات، من جهة الحقائق التي أُنشئتَ عليها علوا وسُفْلا، فإنها ليست برفعة إلَهية. وإنما هي رفعة تعطيها الحقائق، لا تعصم من نار ولا تُدخل نعيما، ولا يدخل بها أهل الجنة في جنتهم ولا أهل النار في نارهم. فلا فائدة فيها ولا سُلطان لها على السعادة، وبها زلّت أقدام أكثر أهل هذه الطريقة، وهي التي أخرجتهم عن الشريعة.

وإنما يغتر الإنسان بالرفعة الإلهية الاختصاصية الصِّفاتيّة الزائدة على الإنسانية، وهي قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْه﴾[المجادلة 22]. على ذلك عوّل أئمتُنا وساداتنا من المعصومين من الأنبياء والمحفوظين من الأولياء، وما ثَمّ مَن يُقتدَى بهم إلا هؤلاء، قال الله تعالى ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام 90] وقال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا﴾[النحل 123] ؛ فهذه نعمة يجب عليك نظرٌ قوي فيها.

ثم زادك الله تبارك وتعالى نعمةً أخرى إلى هذه النعم، فجعلك ناطِقا؛ فضّلك بها على الحيوان الحساس خاصة. فزدت معرفة بما لا يعرفه الحيوان، فتزداد عبادة واجتهادا على حسَب الطوْر الذي انتقلت إليه. وهنا عليك نعمتان كبيرتان:

النعمة الواحدة بأن أعطاك بنُطقك حقيقة الْمَلَك، وهو الاشتراك في العقل الإلَهي؛ فوجب عليك ما وجب على الملَك من جهة روحك. وقد سمعتَ بعبادة الملائكة التي أخبرنا الله تعالى بها على مراتبهم، وقد دخلت أنت بعقلك معهم، فتوجّه عليك في روحك العقلي وسِرّك اللطيف الملَكي ما توجّه على الملك؛ فأنت مُطالَب بالحضور الدائم! وشاركت النازلين عنك من عالم الأجسام، جمادَهم ونباتَهم وحيوانَهم، في حقائقهم التي لم يشاركهم فيها الْمَلَك؛ فتوجهت عليك، كما ذكرناه، عبادتهم.

فكل عبد لله مطلوب في العبادة بما تقتضيه حقيقتُه: فالملَك مطلوب في عبادته بحقيقته، ما عليه مَزيد. والحساس مطلوب في عبادته بثلاث حقائق؛ بحقيقة انفصالِه عن النبات والجماد، وبحقيقتَي اشتراكه مع عالم النبات والجماد. وعالم النبات مطلوب في عبادته بحقيقتين؛ حقيقته التي انفصل بها عن الجماد وحقيقة اشتراكه مع عالم الجماد. وعالم الجماد مطلوب في عبادته بحقيقة واحدة، فإنه لا شيء أنزل منه. والملك مطلوب بحقيقة واحدة أيضا في عبادته، لأنه لا شيء أرفع منه. ولهذا أبدا يقابل العلوُّ السُّفْل والأولُ الآخرَ والشيءُ نقيضَه، أبدا.

وأنت يا وليي، الذي هو الإنسان، مطلوب في عبادتك بخمس حقائق: حقيقةِ الملك، فإنها فيك، وحقيقةِ الحسّاس وحقيقة النبات وحقيقة الجماد، وحقيقة الجَمعيَّة لهذه. فإذا وفّيت بشكر هذه الحقائقَ وتأدّبت بها وعبدت الله على

مقدار ما أعطاك من التمكين والكشف في معرفتها، إن كنت مُريدا صادقا، بعد هذا تنتقل إلى أوّل قدَم في ظاهر الشريعة!

ولا تقل أنك أرفع من الجماد ولا أشرف من المَلَك ولا أحطُّ منه، فإنك في طَور آخر مفرَد يخصك. وذلك أن الله قد وهبك سرَّ الجمعية العامّة الكِبريائية، وهو الذي حجبك عن عُبوديتك وبه ترأّست، حتى قيل في الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء 26] ؛ فإنهم ما ترأّسوا قط لعدَم سر الجمعية العامة الكبريائية في حقائقهم، فكانوا عبيدا. وكذلك من نزل عنهم من طبقات العوالِم، إلا أنت.

فإن سر الجمعية الكبريائية مبثوث فيك، وبهذا صحّ لك مقام الخلافة على العوالِم، وبه طَلبت التقدُّم والرياسةَ واحتجبتَ عن الله تعالى، وهو قوله صلى الله عليه وسلم «وأعوذ بك منك!» فإن سر الجمعية العامة الكبريائية هو الذي حجبك عن الله تعالى، ولو أبقاك، كما أبقى العالم، مُعرًّى عنه؛ لكنتَ عبدا. فنبِّه نفسَك.

ولما علم سبحانه أن سرَّ الألوهية في الإنسان داءٌ عُضال كثَّر الأدويةَ فيه. فما زال يُنبهك في كتابه العزيز على أدويتك لهذا الداء لتستعملها فتبرأ منه، فقال تعالى ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئا؟!﴾[مريم 67] فهذه حقيقتك المَلكية، وفي هذه الآية لم تزِلَّ الملائكةُ. وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم 54] ؛ فالضَّعف الأول، بحكم التحقيق لا بحكم التفسير، خلقُه إياك على فِطرة العالم كلِّه، والقوة نفخة سرّ الجمعية العامة الكبريائية فيك بعد

تسْويَتك، والضعف الثاني والشيبة هو ما حصل لك من شُرب دواء المعرفة الذي أعطاك فاستعملته؛ وبهذا تقع الفائدة.

فلستَ من نَمط العالَم في شيء، ولا تتميّز معهم ألبتَّة، فإنك انفصلت عنهم بسر الألوهيّة. فإن استعملته و لم تشرَب من هذه الأدوية شيئا خرجت مع فرعون والنمرود. وكل مَن ادّعى الربوبية على قدره، من كلمة فرعون[219] إلى

[219] فرعون الذي استكبر بغير حقّ وطغى حتى ادّعى لنفسه الألوهية والربوبية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى: اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُلْ "هَلْ لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى؟" فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى، فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى، فَحَشَرَ فَنَادَى فقَالَ "أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى!" فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَّخْشَى﴾[النازعات 15-26] والنَّكال هو النُّكوص والامتِناع والعُدول عن فعل الشيء، ومنه نكِلَ فلان عن اليمين أي أبى أن يُقسِم خشيةَ ما يترتَّب عن ذلك من شهادة زور أو ثأر من المدَّعَى عليه الخ، ونُكِّلَ بفُلان إذا صُنِعَ به صَنيع يُخيف غيرَه إذا رآه قصدَ أن يُتجنَّب فِعلُه. فكانت قصَّة فرعون موعظةً للقرون الأولى والآخرة تمنعهم عن اتّباعه في تكبُّره وتجبُّره وطُغيانه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا "مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَّمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِين" وَقَالَ مُوسَى "رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّار؛ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون" وَقَالَ فِرْعَوْنُ "يَاأَيُّهَا الْمَلأ، مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي؛ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا، لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى؛ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِين!" وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُون. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ؛ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِين. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّار، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُون. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ

قول الإنسان "لولا ما قلتُ له لاتَّفق كذا"، "لولا أنا لهلك العيال"، وهي أدنى المراتب في الألوهية. حتى الشيخُ في هذه الطريقة يقول "لولا هِمّتي في فُلان أصحبتُه إياها؛ وإلا فقد كان هلك!" وهذه كلها عِلل وأمراض من داء سرّ الألوهيّة. وكل واحد من هذه الأصناف مُعاقَب على قدره، إما بالعقوبة

﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾[القصص 36-42] أي من المُبعَدون لقُبحهم الذي تنفِر منه النفوس، وقول العرب "قبَّحَه اللهُ" أي أبعدَه، فهو مَقبوح أي مُبعَد ومُنَحًّى من الخير، والقُبح ضدّ الحُسن. ثم قد تكرّر الأخذُ في القصص الأول قال ﴿فَأَخَذَهُ اللَّه﴾ وفي الثاني ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَه﴾ والأخذ هنا بمعنى الإزالة والتنحية ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَة؛ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد﴾[هود 102] فقد استأصلَها الله تعالى بشدّة ولقي أهلُها من الألم الدُّنيوي أقصاه، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُون﴾ يصيحون ويَصرُخون في تضرُّعٍ مُستغيثين اللهَ من الهلع والألَم الذي أَلَمَّ بهم والنازلة التي نزلت بهم والحاقّة التي حقَّت عليهم ﴿لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ، إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُون؛ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُون﴾ أي ترجعون إلى ما كنتم فيه إدبارا عن الحق الذي يُتلَى عليكم لا لشيءٍ إلا لكونكم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُون﴾[المؤمنون 64-67] ففضَّلوا ما هم فيه من لَهو وجهل وهَجر في القول وتسامُر بالليل فيما يُغضب الله ويُبعد عن سبيله وعن رحمته. ولكن انتبه ولا تغترَّ فإنّك فِرعون نوعًا مّا، وأكثر الناس مُصابون مثلُك بداء الكِبْر الذي يجعلُهم يتربَّبون ويدَّعون الأُلوهية، وإن لم يبوحوا بذلك كما فعل فرعون والنمرود والرؤساء الذين جعلوا أنفسَهم آلهةً من دون الله. فالكِبر الذي بيَّنه الشيخ فيما يأتي جبِلّة يلزم التخلُّص منها وهو أصل أمراض النَّفس الذي يولِّد العُجب والغرور والغطرسة وحبّ الترؤُّس والحسد والخيلاء والظُّلم والكذِب وغير ذلك من الآفات الباطنة التي لا تخفَى في الحقيقة على أحد لأوّل تأمُّل منه.

الكبرَى وإما بنقص الحَظّ، فلا بد من العقوبة. ولهذا يعلو البقاء عندنا على الفَناء[220]، وهذه حقيقة لم يشعُر بها من تقدّم من أصحابنا، فاعرِفها يا وليي.

فإذا لم يتميَّز الإنسان مع العالم لسِرّ الجمعية الكبريائية[221] فلا يقال: مَن أشرف؛ الملَك أو الإنسان؟ فصار الإنسان يزاحم الألوهية لوقوفه على الأسماء كلِّها من

---

[220] الفناء هو ضدُّ الوجود أو هو الزوال والاضمحلال بعد الوجود، وهو حقيقة العبد من حيث إنسانيَّته ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن 26] فكل مَن على الأرض هالِك زائل، لكنّ النَّفس تنسَى هذه الحقيقة فتأمَل البقاءَ وتسعى جُهدَها لنَيل الخلود، لذا لزمَ المرور بمقام الفناءِ في السلوك إلى الله تعالى ليتحقَّق العبد أنَّه لا شيءَ بذاتِه وأنَّه بالله. أوَّل الفناء فناء الشهوات البهيمية وآخرُه فناءُ الشعور بالذات في حضرة مُشاهدة الحق تعالى. والبقاء هو أن يكون العبد حاضرًا بالله ولَه تعالى حتى لا يكون له سعيٌ إلا في مَرضاة مولاه وذلك قوله تعالى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَام﴾ [الرحمن 27] فيبقى ما تُوجِّه به إلى الله من عملٍ صالح موافق للسنّة خالصٍ لوجهه تعالى. فإنّما البقاءُ فناءٌ عن الأفعال الدَّنيّة سعيًا وراءَ الأعمال السَّنيّة، وإلا فالأفعال فانية باطلة لا وجودَ لها في الحقيقة إلا ما كان خالِصًا لله تعالى كما بيَّنه لنا جلّ في عُلاه بقولِه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ؛ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾ [القصص 88] قال الطبَري: واختُلف في معنى قوله ﴿إِلاَّ وَجْهَه﴾ فقال بعضُهم: معناه كلُّ شيء هالِك إلا هُوَ، وقال آخرون: معنى ذلك إلاَّ ما أريدَ به وجهُه، واستشهدوا لتأويلهم ذلك كذلك بقول الشاعر:

أستَغفِرُ اللهَ ذَنبًا لَستُ مُحْصيه   رَبُّ العِباد إليه الوَجهُ والعملُ

[221] لا يدخُل الإنسان في جنس سكان العالَم السفلي، من جماد ونبات وحيوان، ولا العُلوي من ملائكة لِمِيزَتين. إحداهما كونه مخلوقًا من قِبَل الله تعالى بغير واسطة بل بكلتا

جهة سر الجمع العامّ الكبريائي المبثوث فيه وخلافتِه. فعظُم حِجابُه وسجد له العالم أجمع من أجل ذلك السر[222]. فالقوي منا المتمكن هو الذي يخرِق حجاب

يدَيه عزّ وجلّ حتى سوّاه في أبهى صورة كما قال تعالى لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ؟!﴾ [ص 75] فجمع الله له كِلتا يديه تعالى وكذا كلَّ عناصر الكون الموجودة في الهواء والنار والماء والتراب، وهذا معنى الجمعية. والْمِيزة الأخرى ترجِع إلى نفخ الله من روحه تعالى في الإنسان وذلك قوله تعالى ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَة: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون؛ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين!﴾[ص 28-29]، وهذه الكبرياء. لذا كان الإنسان أفضل المخلوقات صورةً ومعنى، أي خَلقًا وخُلُقا في الأصل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾ أي أجمل صورة وأحسن هيأة وأدقّ تقدير ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين﴾ في أدنى الأرض وأرذل العِرض ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾[التين4-6] فاستثنى الصالحين الذين لم ينسَوا أصلَهم، والذين أُعطوا العَقل، فبقَوا بين حَقيقتَي الإقبال والإدبار الحاكمتين على العالم بالسعادة والشقاوة، فحظَوا بالرحمة على الغضب، ودَعوا الله فسلِموا من العطب، كما بيّنه رسول الله بقوله صلى الله عليه مسلّم «اللهم كما أحسنتَ خَلْقي فأحسِن خُلُقي» الصحيح عن ابن مسعود وعائشة.

[222] تعلُّم الأسماء وسجود الملائكة في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَة: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَة! قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟! قَال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون! وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَال: أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين! قَالُوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم. قَال: يَاآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ! فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم، قَال: أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

سر الجمعية العامّة الكبريائية بينه وبين ربِّه، حتى يُشاهد ألوهيةَ ربه دون ألوهيتِه فيتعبّده، فيعرف عبوديتَه. فحينئذ يكون أقوى العالَمِ وأشدَّه، لرفعه ذلك الحجاب الأقوى، فتكون مترلتُه أعلى لأن قوّته أعظم. وهناك يتميّز ويتجارَى مع العالم في الرفعة والانحطاط، وهناك رأيت مبلغ العالِمين العارفين.[223]

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ؟! وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَة: اُسْجُدُوا لِآدَمَ! فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين﴾[البقرة 30-34].

[223] معنى هذا أن الإنسان سيظلُّ غريبًا عن العالَم ما لَم يتحقّق بالجمعية الكبريائية العامّة التي اختصَّه الله بها ليتوحَّد في ذاتِه فيُؤلِّف بين حقائقه الإيجاديّة ومكوِّناتِه الوجودية، التي تضمُّ القبضتين والنفخة الرَّحمانيّة والحقائق المَلكيّة والشيطانيّة والحيوانيّة والنباتيّة والجمادية، وسيظَلُّ يتخبَّط بين تجاذب العناصر الكونية وتناقُض الحقائق الوجوديّة. فلا يبلُغ التحقُّق بحقيقته إلا بخَرق حجاب سر الجمعية العامّة الكبريائية المسدول بينه وبين ربِّه. وذلك هو التوحيد في الحقيقة، لأنّ الله لا يحتاج إلى أن يُوحَّد ﴿قُلْ: هُوَ اللَّه؛ أَحَد، اللَّهُ؛ الصَّمَد، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد﴾[سورة الإخلاص] ولكنّ الناس يُشركون به في عبادته غيرَه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾[التوبة 31] لذا جاء الرُّسلُ بإخلاص العبادة لله ﴿قُل: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى؛ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُون؟!﴾ وإلا فالله ليس له شريك ألبتّة من حيث الحقيقة ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه؟! بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُون﴾ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه؟! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُون﴾ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه؟! قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون﴾ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه؟! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾[النمل 59-63] ولكن الإنسان ينسَى فيعبد غيرَ الله شِركًا به سبحانَه وتعالى ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا مُنذِر؛ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار﴾[ص 65]. فحقيقةُ التوحيد ليست توحيدَ الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرا، بل التوحيدُ توحيد الإنسان، كما

وأما الْمَدرك الذي أومأنا إليه، فبعيد أن تسمعه في غير هذه الرسالة على درَج هذا التحقيق. لكن تجدُه مبدَّدا في أشياء كثيرة يُومَأُ إليه ولا يوَضَّح مثلَ هذا الإيضاح. وكما توجّه عليك بمشاركتك أطوارَ العالَم أن تقوم بالجامع الكبريائي معهم في عباداهم، كذلك توجه عليك بالسر الجامع الكبريائي المبثوث فيك أن تُجريَه على ما أجراه الله تعالى من نفسه في خلقه. فهو اللطيف بعباده؛ فكن كذلك، وهو الرحيم الغفور؛ فكن كذلك[224]. وبهذا وصف نبيَّه صلى الله عليه وسلم فقال

قال الشيخ أرسلان "كلُّك شِرْكٌ خَفَيّ، ولا يَبينُ لك تَوحيدُك إلا إذا خَرجْتَ عنك وعن سائر الأغيار" والخروج عن الماهية مستحيل، فالمقصود الخروج عن الأغيار، أي ما ليس إيّاك. وذالك هو الرجوع إلى الأصل وهو الجمعية الكبريائية العامّة التي تضمُّ مكوِّنات العالَم السُّفلي والعُلوي، فترفعُه لتتحقَّق مَن أنت في الحقيقة فتضُمَّ العناصر وتعُمّ العالَمين في سَيرِك إلى الله تعالى. عندئذ تَحمدُك الأكوان لأنَّك قائدُها وإمامُها إلى الرحمن.

[224] اللُّطف هو مقتضَى الخِبرَة التي لا تكون إلا بالمماثلة والمُطابَقة الحقيقية أي الوجوديَّة. كما يُبيِّنُه ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال «إنَّ الله عزَّ وجلّ يقول يومَ القيامة: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني. قال: يا ربِّ كَيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانا مَرِضَ فلم تَعُدْه؟ أما علمتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لوجَدتني عنده؟! يا ابنَ آدمَ، اِستَطْعَمْتُكَ فلم تُطعمني. قال: يا رب، كيف أُطعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنه استطعمكَ عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أمَا علمتَ أنَّكَ لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي؟! يا ابنَ آدم، استَسقيْتُكَ فلم تَسْقني. قال: يا رب، وكيف أُسقِيكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: اسْتَسقَاك عبدي فلان، فلم تَسْقِه، أما إنَّك لو سَقَيْتَهُ وجدتَ ذلك عندي؟!» أخرجه مسلم والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة. ومن المعلوم ضرورةً أن الله لا يمرَض ولا يعطش ولا

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيم﴾[التوبة 128]. فسرُّ الأُلوهية أثمر لك هذا بعد خَرقه، وأما قبل أن تَخرِقه فإنه أثمر لك ما أثمر للجبّارين المتكبّرين، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار﴾[غافر 35] فمِن أجل سر الألوهية ختم عليه بالشقاء. فتحقَّقْ هذا الفصل وتحفَّظ منه.

يجوع، سبحانَه وتعالى ولا هو بحاجة إلى غيره أصلاً ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَّمَا أُرِيدُ أَن يُّطْعِمُونِ﴾[الذاريات 57] ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَم﴾[الأنعام 14] ﴿إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين﴾[آل عمران 97] ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾[فاطر 15]. ولكنَّه تعالى لطيفٌ بعباده خبير بهم عليم بأحوالهم، لا بعلم زائد أو مُكتسَب بل علمًا ذاتيًّا لقُربه تعالى من خلقِه ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ؛ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور! أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير؟!﴾[الملك 13-14]. وقد دلَّنا الله على ذلك في مواضع من كتابه كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾[آل عمران 153] وهذه الخبرة تدلُّ على كونه تعالى حاضرًا معنا ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيه؛ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَر﴾[يونس 61] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَاعْبُدُوه! وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل؛ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير﴾[الأنعام 102-103] ﴿يَابُنَيَّ، إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّه؛ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير﴾[لقمان 16] ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِه؛ يَرْزُقُ مَن يَشَاء﴾[الشورى 19] فاللُّطف من الله عِلمُه تعالى بما عليه خلقُه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْل؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى!﴾[طه 6-7].

واعلم أن التوبة والتوكّل وما أشبه ذلك قد اختصّ الله بها هذا العبدَ الإنساني. فإن المَلَك طاعةٌ بلا معصية والشيطان معصية بلا طاعة؛ فكلاهما قد فقَد حلاوةَ التوبةِ ومقامَها وسرَّها ومعرفِتَها وشوقَها ومَحبتَها[225]. فإن المَلَك لا يَعصي فيتوبُ فينالُها،

---

[225] اعلَم أن الله توّاب و لم يتسمَّ بالتائب ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة 104]. وعليه فواجبُ العبدِ أن يستصحِبَ التوبةَ طولَ حياتِه وأن يجدّدَها في أكثر أَحيانه وأن يكررها حتى يكون من التوَّابين، بصيغة الْمُبالَغة، أي الذين يفزعون إلى الله في كل أحوالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة 222] و لم يقل التائبين، أي الذين يُكثرون التوبةَ والإنابة والإياب والرجوع إلى الله تعالى كما كان يأمرُنا رسولُه بقوله «يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله؛ فإنّي أتوب إلى الله في اليوم مائةَ مرة!» وقال صلى الله عليه وسلم قال «إنّه لَيُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» رواهما مسلم في الدعاء: الأوّل عن ابن عمر والثاني عن الأغر المزني. والغين هو الغطاء الذي يحجب، كالغيم يحجب الشَّمس، فإذا استغفر وتاب زال الحجاب. فالتوبة ليست مقصورةً على الذنوب بل هي الهرَب إلى الله من الغَفلَة والرين والغين على القلب. فإنّه لا يُمكننا تصوُّر أنّ رسولَ الله صلى الله عليه مسلّم كان يُخطئُ في اليوم أكثرَ من مائة مرَّة، ولكن كان يغفَل عن ذكر مولاه فيغشَى الحجابُ قلبَه فيحول بينه وبين ربِّه فيفزَع إلى الاستِغفار والتوبة لينجلي الغين ويزول عند الذِّكر البَين، وكما هو ظاهر في قول الله ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور 31] فقد شهِد تعالى لهم بكمال الإيمان حيث سمّاهم المؤمنين، ومع ذلك فقد أمرهم بالتوبة التي هي سببُ الفلاح. فالتوبة رفعٌ للرين عن القلب وهي أيضًا إمالةٌ له نَحوَ النور كما في قوله تعالى ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾[التحريم 4] أي نحوَ الحقّ، وهذا هو الصواب وإن خالفَه جمهورُ المفسّرين، ومَن تأمَّله علم ما نقول، لأنّ صغَى يصغَى صَغوًا

والشيطان لا يجنَح إلى الطاعة ولا يُحدِّث بها نفسَه فيتوبُ مِن مخالفته فينالها. وقد اختُصّ بها هذا العبدُ الْمُجتَبَى، ولهذا كانت من كمال آدم عليه السلام حتى عمّ جميع المقامات فقال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه 121-122]. كذلك التطهير الذي اقترنت به مَحبةُ الله تعالى؛ فإن المَلَك مُطَهَّرٌ لا مُتَطَهِّر، والشيطان دَنِسٌ لا يَتطهَّر. وعلَّق الله مَحبَّةً اختصاصيّة بالْمُتَطَهِّر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة 222] فنالَها الإنسانُ. فما لنا يا وليّي نغفَل عن شُكر هذه النِّعَم ونحن منها في مَزيد؟! فهذه النعم كلُّها هي التي تُعطيها حقيقةُ الإنسان بما خُلق عليه، سواءً كان سعيدا أو شقيّا.[226]

يعني مال يميل ميلاً، وأصغى يُصغي إصغاءً أي أميل يُميل إمالة. وهكذا يكون العبد الصالِح الذي يريد أن يُفلِح: يُجدِّدُ التوبة في كل حين ليُزيل الرَّين وليُميل القَلب إلى جَناب الرَّبّ. عندئذ تظهَرُ للعبد آثار التوبة وأسرار الأوبة من بِشرٍ بالأمن بعد الخوف وراحة الطُّمأنينة بعد القلَق وحلاوة الشوق إلى المعشوق ولذَّة الوَجد بعد الفَقد وبَهجة الأُنس بعد الوَحشة وانشراح الصَّدر علمًا بأن الله تبارك وتعالى عند ظَنِّه، يذكُرُه ويفرَح به ويتقرَّب إليه مُهرولا. كما بشَّرنا به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله «قال الله عز وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكُرني! واللهِ لَلَّهُ أفرحُ بتَوبة عبدِه مِن أحدِكم يَجدُ ضالَّته بالفَلاة! ومَن تقرَّب إليَّ شِبرًا تقرَّبتُ إليه ذِراعا، ومَن تقرَّب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإذا أقبل إلي يَمشي أقبلتُ إليه أُهَرْوِل!» أخرجه مسلم عن أبي هريرة وله شواهد عن أنس بن مالك وأبي سعيد وابن مسعود.

[226] ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَّسَعِيد: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّار﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّة﴾[هود 105-108] حقًّا إنّ الله تعالى قد ركَّب الإنسان من مَجموع جواهِر الأكوان،

وفضَّله على سائر الحيوان بالعقل والاطّلاع على عالَمَي الخلق والأمر ودلَّه على بُعدَي المكان والزمان، فأحاط بأقسام المخلوقات من أرواح وأجسام بنور معرفة الله الملِك العلام. فكانت النفسُ الإنسانيّة أَنفَسَ النفوس وأجهرَ الجَواهِر، ومع ذلك الدَّلال ظلَّ أغلبُ بني آدم في ضلال. يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[الإسراء 70] ثم ها نحن أبناءَ هذا العصر نرى العَجب ولا نستَغرِب، نرى أنفُسَنا محمولين في البَر والبحر، بل وفي جوّ السماء، ننتقل من قارّة إلى قارّة ونَعبُر المسافات في بضع ساعات. ويكلِّم بعضُنا بعضًا بالصوت والصورة من قارّة لقارّة، وما إلى ذلك من أمور لو نبِّئ بها الناس قبلَ أقلَّ من قرنٍ لاعتبروها أباطيلَ ومُحالات. فهل هذه الوسائل، والتي ليست بغايات بل هيهاتَ هيهات، مِن خَلْق الإنسان 'العصري' أم أنها من خلق الله رب الأرض والسماوات؟ فاعلَم أنّه ما من شيء في الوجود ولا في الإمكان إلا والله تعالى خالِقُه كما كان ﴿قُل: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار﴾[الرعد 16] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو، خَالِقُ كُلِّ شَيْء؛ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾[الأنعام 102] ﴿قُلْ: أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّه؛ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْض؟!﴾[فاطر 40] أي لا مِن العَدم، فهذا بعيد، ولكن من عناصرَ موجودة في الأرض وعليها، لا يزيدون على جمعِها وتركيبها؛ فَشَر، فهذا ليس بمَقدور البَشَر! فإن كان الأمر كذلك ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَّهُمْ يُخْلَقُون، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَّلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون﴾[الأعراف 191-192] لا، ليس بيَد الناس شيء، مهما بلغت عقولُ آحادِهم، إنْ عَباقِرتُهم إلاّ مُكتشفون لِما أرادَه اللهُ أن يكون ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورا﴾[الأحزاب 38]. فالإنسان، الذي هو مخلوق، لا يمكنُه أن يزيد شيئًا في خلق الله ولا أن يُنقِصَه، وإلا لاختلَّ نظامُ الكون، فالله يقول ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِين﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء 16-22]، وذلك لِما الكونُ عليه مِن

ثم ننتقِل إلى نِعم الاختصاص بالسُّعداء التي تُميِّزك عن الأشقياء من جنسك. فأوَّلُها أن جعلَك مُوَحِّدا و لم يجعلك مُشركا، لا لِيَدٍ تقدَّمت لك عليه[227]، ولكنه أيّدك وقَوّاك حتى خرَقت حجابَ الجمع العامّ الكِبْرِيائي الذي استَودَعه فيك منه. فنفِذتَ من ورائه إلى عبوديتك، فعاينتَ ألوهيَّةَ الحق المقدَّسةَ الجلال؛ فوحّدتَه و لم تشرِك. وهؤلاء هم أهل 'لا إلهَ إلا الله' المقطوعُ لهم بسعادتهم، الْمُنبَّه عليهم في كتابه العزيز ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء 78]. وهنا بُحور عِظام هلَك

قَدَرٍ مَقدور، والذي هو التناسُب والتقدير الضروري للوُجود ولثُبوتِه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُه، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُوم﴾[الحجر 21]. فما مِن شيء إلا والله خالِقُه، ولكن الله لا يُترِّله إلى الأرض ولا يُخرجُه إلى الوجود إلا في أوانه المقدَّرِ أزلا ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون، وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُون﴾[يس 41-42] فالبابُ مفتوحٌ ومن الخير المزيد والمَزيد ممّا لا نَتصوَّرُه نحن ولا أبناؤنا إلى آخر الدَّهر ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيم﴾[الحجر 86]. ولكن انتبه فالوسائل وسائل والغاية واحدة، ألا وهي عبادة الله وحدَه، وإلا فالوسائل كثيرة لا حدَّ لها ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَّيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾[النحل 8] فالله هو الذي خلقَ ما لَم يعلمْه جيلُ التتريل و لم يتصوَّره أهلُ التأويل ولا خطر ببال هذا الرعيل ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّه؛ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونه!﴾ [لقمان 11] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون؛يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ؟!﴾[الروم 6-8]

[227] أي أنّ الله تعالى لم يكن مُجبَرا على جعلِك مؤمنًا لفضلٍ سابق منك عليه، تعالى الله عن ذلك، ولكن جعلَك كذلك فضلاً منه ومِنّة مَحضَة. لا لشيء سوى لأن تكون من الموحِّدين له تعالى.

فيها عالَمٌ كثير من أهل طريقتنا، لعدَم التحقُّق ولِوُقوفهم مع سرّ الجمعية العامة الكبريائية الذي فيهم؛ فحجبتهم الرِّياسةُ عن استيفاء الخِدمة.[228]

---

[228] معنى عبد يرجع إلى الخضوع والاتّضاع والهون والذلّة والحبس والسهولة، فالعبد هو الخاضع الوضيع الهيّن السّهل القياد. ويقابلُه الحُرّ وهو الطليق الذي تحرَّر من شهواته النفسيّة، ولكنّه مع ذلك يظلّ عبدا لله. والعبادة في الشرع هي قيامُ الْمُكلَّف بما يخالِف هوى نفسِه من مُقتضيات الألوهيّة تعظيما لربه. والعبودية هي الشعور بالذل والفقر والعجز والضعف والجهل وغير ذلك مما يناسب العبد من نقائص في مقابلة كمال الرب. والعبودَة وصف ذاتي للعبد وهي عينُ وُجوده، إذ لا وجودَ له إلاّ مَربوبًا لا غِنى له عن ربِّه تبارك وتعالى. فالعبادة فعل والعبودية شعور والعبودة حقيقة وجوديَّة، وهي المطلوبة من العبادة والعبوديّة؛ فكمال العبد في استِكمال حقيقته وهي العبودة. وهذا هو السلوك المطلوب والهدف المرغوب، ولكن قلَّ مَن يبلُغ مِن الناس حقيقةَ العبودية لِمُناقضتِها سرَّ الجمعية العامَّة الكبريائية التي تُولِّد الترؤُّس والتغطرُس. فتبقى هذه العلّة، التي هي أصل الكِبْر وبذرتُه، وكأنّها تلك العلقَة التي في القلب والتي جاء ذكرُها فيما حصل لرسول الله في صِباه كما بلغنا عن أنس بن مالك، قال: أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعَب مع الغِلمان، فأخذه فصرَعَه فشقَّ عن قَلبهِ فاستخرجَه، فاستخرج منه عَلَقَةً فقال «هذا حَظُّ الشيطان منك!» ثم غَسَلَهُ في طَسْت من ذَهَب بماء زَمزَم، ثم لأَمَه ثم أعاده في مكانه... قال أنس: وقد كنتُ أرَى ذلك الْمَخيطَ في صَدرِه صلى الله عليه وسلم. أخرجه مسلم والنسائي وأحمد. فتلك العلَقة التي وصفها جبريلُ بأنّها حَظّ الشيطان الذي هو أبو الْمُتكبِّرين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ: اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين﴾[البقرة 34] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِين. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك؟ قَال: أَنَا خَيْرٌ

مِّنْهُ؛ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَّخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ! قَالَ: فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا؛ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ!﴾[الأنفال 11-13] غلِط إبليسُ حين ظنَّ نفسَه خيرًا من آدم فجرَّه ذلك إلى التَّكبُّر، وجزاءُ التكبُّر الصَّغار والاحتقار والعار والبَوار. نَعم للإنسان فضلٌ من الله على سائر الخلق، هذه حقيقة، ولكنّ الإنسانَ مربوب، وربُّه الله؛ وهذه هي الحقيقة العُظمى وهي العُبودَة، أي كونُ العبد مربوبًا لا يستطيع شيئًا من نَفسِه؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون!﴾[النحل 52] فما نحن فيه من خير ومتاع ومنَعة ودلال فإنّه كلّه من الله الذي يقول لنا ﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء 21]. وفي ذات الوقت قد جعلَ الله الإنسانَ ربًّا حيث سخّر له كلَّ شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَّبَاطِنَة﴾[لقمان 20] ثم سمَّى الله الإنسان ربًّا على لسان يوسف في قوله تعالى ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَك! قَال: مَعَاذَ اللَّه، إِنَّهُ رَبِّي؛ أَحْسَنَ مَثْوَايَ!﴾[يوسف 23] فسمّى يوسفُ عزيزَ مصرَ ربًّا واتَّخَذه ربًّا، وأقرَّه الله على ذلك، ولمّا جاءه رسولُ العزيز ﴿قَال: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾[يوسف 50] أي إلى سيِّدك وهو عزيز مصر، وقد سمّى الله ذلك الرّجُل عزيزا في أربعة مواضع من سورة يوسف، ومعلومٌ أن العزيز من أسماء الله الحُسنى. فالعبد عبدٌ فيما بينه وبين الله ولكنَّه ربٌّ فيما بينه وبين الخلق، وهذا الذي زلَّ فيه العارفون وإن بلغوا ما بلغوا من معارفَ، لكنَّهم لم يتحقَّقوا بمَحض العُبودة. والعبدُ الحقُّ عزيزُ الوُجود، وليس كذلك إلا مَن حَباه الله باللُّطف والجود، وإلا فالعبودية مشوبة بالرُّبوبيّة كما أن تربُّب البشَر لا يخلو من أن يكون تذلُّلا واحتياجا وإن ظلَّ القِشرُ تدَلُّلاً واعتِزازا. يقول الشيخ في حضرة الإعزاز في الفتوحات في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة في معرفة الأسماء الحسنَى التي لرب العِزّة، وما يجوز أن يُطلق عليه منها لفظاً وما لا يجوز: قولُه تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيم﴾[الدخان 49] أي المنيع الحِمى في وقتك الكريم على أهلك وفي قومك. فما هي سُخريّة به فإنه كذلك كان، وهي سُخرية به

لأنه خاطبه بذلك في حالة ذُلِّه وإباحة حِماه وانتهاك حُرمته. فما ظهر مُعتَزٌّ في العالَم إلا بصورة الحقّ، أي بصفته، إلا أن الله ذمَّها في مَوطن وحَمِدها في موطن. وذلك الموطن المحمود أن يكون هو الذي يعطي ذلك على عِلمٍ من العبد؛ فهو صاحبُ اعتزازٍ في ذُلٍّ. ومَن ليس له هذا المقام فهو ذو اعتزاز في غير ذُلّ، وإن أحسَّ بالذل في نفسه، لأنه مجبول على الذِّلّة والافتقار والحاجة بالأصالة. انتهى. فافهم هذا، يا هذا، وارجع إلى قول الشيخ:

الرَّبُّ حَـــقٌّ والعَبدُ حَـــقٌّ يا لَيتَ شِعري، مَنِ الْمُكَلَّف؟

إن قلتَ: عَبدٌ. فذاكَ عَدمٌ أو قلتَ: ربٌّ. أنَّى يُكلَّـــف؟!

ولكن انتَبه، ولا تُغالِط نفسَك. فليس في هذا الكلام اتِّحادٌ بين الخالِق والمخلوق، بل معناه أنّ العبد حقٌّ لا وَهْم، وأنّه كذلك بالله تعالى لا بنفسه. فالمخلوق بخالقِه وهو لا شيءَ من جهَةِ نفسه؛ فهو باطلٌ من هذه الحيثيَّة، ولكنَّه حقٌّ من جهة الحقّ تعالى. لذا كان العبد مُطاعًا وكلامُه مَسموعًا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ؛ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين!﴾[غافر 60] وفي هذا تداخلٌ بين الدُّعاء والعبادة، وإلا فكيف يكون الدُّعاء، الذي هو أمرٌ، عِبادةً وهي تلقٍّ للأمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدُّعاءُ هو العبادة» رواه الترمذي وأبو داود عن النعمان بن بشير فجمع بين النقيضين وجعل الشيءَ نقيضَ عينِه، وذلك الله يريد منَّا أن ندعوَه تعالى لقضاء حوائجنا ولإعانتِنا ولكشف الضُّرّ عنّا، وتلك هي عبادتُنا وهي المقصودةُ من إيجادِنا. فنحن ندعو اللهَ ليستجيب لنا، والله يدعونا وهو ينتظرُ منا الإجابة، كما في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[الأنفال 24] الربُّ يدعو عبدَه ليستَجيبَ له، واستِجابَةُ العبدِ إنّما هي أن يَدعوَ ربَّه حتى يستجيبَ له. فالرَّبُّ يدعُو ليُدعَى فيستجيب، والعبدُ يدعو ليُستجاب. فالله يدعُو ليُدعَى والعبدُ يدعو ليُستجاب له، لذا كانت دعوة الله هي دعوةَ الحقّ لأنَّه تعالى يحبُّنا لنا لا لَه ونحن نحبُّه لنا لا لَه، وذلك قول الله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ

فهذا اختصاص، إذ قد قسَم جنسَك إلى مُوَحِّد وإلى مُشرك، وجعلك من حزب الموحدين. وهذا فيه تفصيل كثير نخاف من طول العُجالة في إيراده، فتركناه. وهذا هو أوّل قدَم في الشريعة، فإن الشارع أوّلَ ما أتى به 'لا إله إلا الله'فلم يُجبه إليها إلا مَن خرق سرَّ حجابِ الجمعية العامّة الكبريائية منهم. وبهذا يقَع الاشتراكُ وتتباين مراتبُ أهل 'لا إله إلا الله' على حسَب رَفع حجابهم: فمنهم مَن يقولها ابتداءً معه من غير نظَر، وهو الإمام. ومنهم من يقول معه ذلك بعد رؤية برهان، فهذا جاهل بنفسه فإن 'لا إله إلا الله' من مُدرَكات العقل بالنور الإلَهي. فتوقُّفُه

كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ؛ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَل!﴾[الرعد 14] وذلك قولُه تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي إِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ؛ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون﴾[البقرة 186] الرَّشادُ أن تعلَم أنَّك تدعو اللهَ ليستجيبَ لكَ لأنَّك عبدٌ فقير، وأنَّه تعالى يدعوك لتدعوَه ليستجيبَ لك لأنّه الربُّ الغني؛ فأنتَ آمرٌ وربُّك يلبِّيك ربوبيةً، كما أنَّك مأمورٌ وربُّك الآمِرُ وأنت المُلَبِّي عُبوديّة. مَن علِم هذا قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِه وعرفَ قَدْرَ نفسه، فاتَّصَف بالعُبوديّة وعبدَ ربَّه الذي لا غِنَى له عنه: فاستجابَ لربِّه الذي دعاه، فدعاهُ فاستجاب له ربُّه وهداه. وهذا هو مقام القُربَة والوَلاية. يقول الشيخ في الباب السادس والثمانين ومائة في معرفة مقام خرق العادات من الفتوحات: خاطَبني الحقُّ في سرّي «مَن اِتَّخذني وكيلاً فقد وَلاّني، ومَن ولاّني فله مُطالَبتي، وعليَّ إقامةُ الحِساب فيما وَلاّني فيه» فَانعَكس الأمرُ وتَبدَّلت الْمَراتِبُ؛ هذا صُنعُ اللهِ مع عِباده الذينَ ارتَضاهم وَاصْطفاهم، وما فَوقَ هذا الاِمتِنان اِمتِنانٌ تَرتَقي الهِمَّةُ إلى طَلَبه. فالعَبدُ الْمُحَقِّقُ لا تُخرِجُه هذه الرُّتبَةُ عَن عِلمِه بِقَدرِه؛ فما يَتَّخِذ اللهَ وكيلاً إلاّ مَن كان الحقُّ قُواهُ وجَوارِحَه، إذْ يَستَحيلُ تَبدُّلُ الْحَقائِق. فالعَبْدُ عَبدٌ والرَّبُّ رَبٌّ، والحَقُّ حقٌّ والخلقُ خَلق!

دليلٌ على التقليد وفَقْدِه ذلك النور[229]. ولكن سَعِد بإجابته، ولو ببرهان، قال الله تعالى ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَل، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ

[229] قال الله تعالى ﴿اعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه﴾[محمد 19] وهذا أشرفُ العلوم وأصدق شهادة على الإطلاق، ومعناها نَفيُ الألوهية عن غير الله وإثباتُها له تعالى بلا شريك، وكما نفيتَ الألوهيّة عن غير الله فعليك نَفيُ العبوديّة لغيره تعالى. ومُقتضاها أنّك، أنت والعوالِمُ كلُّها، عبيدٌ لله تعالى لا لأحد سِواه. وقد تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال «مَن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة» لكن الواجب أن تكون عن علمٍ راسخ، لا تقليدًا بدون علم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم «مَن مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه مسلم وابن حبان عن عثمان بن عفان. وعن أبي ذر الغِفاري، قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال «ما مِن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلتُ "وإن زَنَى وإن سَرَق؟" قال «وإن زَنَى وإن سرَق» قلت "وإن زنى وإن سرق؟" قال «وإن زنى وإن سرق» قلت "وإن زنى وإن سرق؟" قال «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر!» رواه الشيخان البخاري ومسلم. هذا عندَ الموت أو قبلَه بقليل، بأن يموت عليها. ثم لا يمكننا تعميمُ ما قاله الشيخ من أن النظر تقليد، بل علمُ أن لا إلهَ إلا الله يحتاج إلى دليل، لذلك جاء الجَدَل القرآني بكثرة لبيان أنّ الله واحد لا إلَه غيرُه. فالبرهان على وحدانية الله مشروع بل واجب، ولولا ذلك لتعطَّلت مِئات الآيات القرآنيّة كقولِه تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَد﴾[سورة الإخلاص] ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَّاحِد؛ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم﴾[البقرة 163] ﴿قُل: مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟ قُلْ: اللَّهُ! قُلْ: أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّا؟ قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّور؟

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟ قُل: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار!﴾[الرعد 16] ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِد؛ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِق﴾[الصافات 4-5] ﴿اُعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُه﴾[الأعراف 59] وغيرها من براهين على وحدانيَّة الله. فالنَّظر واجب لأن التقليدَ غير كافٍ في شيء من أمور الدين، فضلاً عن الإقرار بالوَحدانيّة. وحدُّ التقليد أنّه العمل بقول الغيرِ مِن غير حُجة ولا دليل، فالمقلِّد تابعٌ لا يدري ما إذا كان مَتبوعُه على حقٍّ أو مُبطِلا ﴿قَالُوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم﴾[الزخرف 22] قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «لا يكُن أحَدُكُم إِمّعَةً؛ يقول "أنا مع الناس، إن أحْسَنَ الناسُ أحسنتُ وإن أساءوا أسأتُ" ولكن وَطِّنوا أنفسَكم: إن أحسن الناسُ أن تُحْسِنُوا وإن أساءوا أن لا تَظلِموا» رواه الترمذي عن ابن مسعود والبزار عن حذيفة. فلا بدّ من التفكُّر والاعتبار في الآيات القرآنيّة والكونيّة. قد أمرنا الله بالنَّظر في كتابه نظرَ نَقدٍ وتحرٍّ لنُدرك بعقولِنا صحَّةَ نسبتِه إليه تعالى، وإلا أنُصدِّق هكذا بأن الله اختار رجلاً اسمُه محمّد ليُدخِلنا الجَنَّةَ أو ليَزُجَّ بنا في النار؟ ثم ماذا يقصِد بالجنَّة والنار وغير ذلك من أخبار؟ فقال ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟! وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرا!﴾[النساء 82] وقد حثّنا على البحث في الأرض حيث بثَّ تعالى من الأدلَّة ما لا يُحصى ﴿قُلْ: سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[العنكبوت 20] وقد دلّنا على فتح عين البصر للنظر إلى الخارج وعينَ البصيرة للنظَر في داخل أنفُسنا، أي في بني جنسنا وفي داخليّة كل واحد منا لِمعرفة النَّفس، وحيثُ الآيات التي وعد الله أن يريَنا إياها فقال ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ﴾[فصلت 53] فالآيات أدِلَّة تُخاطب العقلَ البشري حتى يظهَرَ الدليلُ وتقوم الحُجَّة على جنس البشَر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾[الرعد 3] ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾[النحل 12] ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾[طه 54]. إلا أنّ رؤية هذه الآيات لا تستَوجبُ التصديقَ، بل كثيرًا ما يرى الناسُ من الآيات ما يبهَر العَقل ولكنّ أكثرَ النُّفوس تأبى الإيمانَ

الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلاًّ وَّعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[الحديد 10] فاعبُدِ الله يا وليي واجهَد على شكر نعمة التوحيد الأوّلية في الشرع لأهل التقليد.

ثم زادك إلى هذه النعمة نعمةً أخرى، وهي إيمانك بالرسول. و لم يجعلك موحِّداً له مُكذِّبا برسوله، كما فعل بغيرك من أبناء جِنسك حيث كفر برسوله. مثل فرعون وآلِه بموسى، والنَّمرود وآلِه بإبراهيم، وأبي جهل وأصحابه بمحمد، عليهم الصلاة والسلام. وعذابُ كلِّ فِرعون على مقدار نعيم نبيّه الذي كفَر به، وسُفلُه على قدر علوِّ نبيه. وكذلك العارفون الصالحون مع المنكِرين عليهم من الفقهاء علماءِ الرسوم؛ ينقُص من حظّ نعيمهم في الدار الآخرة على قدر مرتبة العارف الذي أنكروا عليه، وعليهم نقصُ نعيم أتباعِهم في ذلك المقلِّدين لهم. فينقص للفقيه صاحبِ علم الرسم، إذا أنكر على الولي العارف –ما لا يبلُغه علمُه من

﴿جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا؛ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّنْ كَفَرَ﴾[البقرة 253] ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا﴾[غافر 22] ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَّيَهْدِي بِهِ كَثِيرا﴾[البقرة 26] وذلك لأنّ الآية حُجَجُ الله على عباده موضوعةٌ لكل الناس، والهداية من الله ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَّـيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾[الحج 16] فالعَقل ليس كافيًا للإيمان بل لا بدَّ له من أن يُخاطِبَ النَّفسَ التي هي المقصودة من كلِّ هذا، فإن أبت ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾[الروم 29] وقد بيَّن الله تعالى هذا كلَّه بأوجز سبيل في قوله جل وعلا ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون. قُلْ: انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُون؟!﴾[يونس 100-101] فالنَّظر هو سبيل الفتح على التوحيد الحق، وهو أوَّل قدم في الإيمان بتوفيق الرحمن.

نعيمه في الجِنان إذا سعِد– على قدر مرتبة ذلك الولي في المعرفة بالله، وقدر السر الذي أنكرَه عليه، وعلى قدر مَن اتّبعه في إنكاره من المقلِّدين.[230]

---

[230] وَلِيَ يَلِي وَلْيًا أي دَنَا يدنو دُنُوّا وقَرُبَ يقرَب قُربًا، ومنه الوَلِيّ، وهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[الشورى 9] ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيد﴾[الشورى 28] ومنه أيضا الوالي، وهو أيضا من أسماء الله تعالى، وهو الذي يتولّى أمرَ الناس ويُراعي مصالِحَهم ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[الرعد 11] ومنه أيضا المَولى، وهو كذلك من أسماء الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[محمد 11] أي ناصرُهم الذي يتولّى الدفاعَ عنهم لما بينَه وبينَهم من وَلاء. وذلك لقُرب الله تعالى من خَلقِه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيب﴾[البقرة 186] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة 85] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد﴾[ق 16]. إلا أن اسم الولي في القرآن يأتي بخصوص الصالحين من عباد الله الذين يرضى تعالى عنهم، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور﴾[البقرة 257] ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين﴾[الأعراف 196] فالصالحون هم الأولياء، وهم الذين يطيعون الله فيما أمر به ونهى عنه على لسان رسولِه ووفقًا لهَديه كما بلغنا عن رسول الله أنه قال في إحدى خُطَب حَجّة الوَداع «ألا إنّ أولياء الله: الْمُصَلُّون! من يُقيمُ الصلَوات الخَمس التي كُتِبنَ عليه ويصومُ رمضانَ، يَحتَسِبُ صومَه يرَى أنه عليه حَقّ، ويُعطي زَكاةَ مالِه، يَحتَسِبُها، ويَجتَنِبُ الكبائرَ التي نَهَى الله عنها» رواه الحاكم في التوبة وصحّحه ووافقه الذَّهبي، ورواه أيضا البيهقي في الكبرى والطبراني في الكبير عن عُبيد بن عُمير الليثي عن أبيه. فبيَّن صلى الله عليه وسلم أن الوليّ هو العبد الطائع الواقف مع الشّرع المتَّقي لمولاه والله يقول ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون﴾[يونس 62-63] فالوَلاية قد عمَّت كلَّ مَن آمن واتَّقى. هناك علاقة بين الله وبين

الصالحين من عباده مبنية على الوَلاء في الله والبَراء فيه تعالى، فكل ولي لله وليٌّ لأوليائه وكلُّ عدوٍّ لله عدوٌّ لأوليائه كما بيَّنه النبيُّ بقولِه «أَوثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في الله، والبُغضُ في الله» رواه المروزي في الصلاة وأحمد وغيرُهما عن البراء بن عازب. وعن أبي ذرّ أنه صلى الله عليه وسلّم قال «أفضَلُ الأعمال: الحُبُّ في الله والبغضُ في الله» رواه أبو داود، وفي المسترَك والسنن الكبرى للبيهقي ومسند أبي داود الطيالسي أن النبيَّ قال لعبد الله بن مسعود «هل تَدري ما أوثَقُ عُرَى الإيمان؟» قال "اللهُ ورسولُه أعلَم، قال «الوَلايةُ في الله، والحُبُّ في الله، والبُغضُ في الله». والله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[المائدة 55] أي أنّه لا قرابَةَ لكم إلا مع الله ورسوله والذين آمنوا. وتلك العلاقة تسمَّى وَلايةً بفَتح الواو كما جاءت في قوله تعالى ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[الكهف 44] ومعناها النُّصرة والمدافعة لأنّها تلت قولَه تعالى ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرا﴾[الكهف 44] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج 38] أي عن أوليائه. فقد ثبتت المدافعة من الله عن أولئك الذين يُظلَمون من المؤمنين الأتقياء والذين هم الصالحون الأولياء، وهو ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنّ الله قال: مَن عادى لي وَلِيًّا فقد آذَنتُه بالحرب! وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كُنتُ: سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يَبطِش بها، ورِجلَه التي يمشي بها. وإن سألَني لأُعْطِيَنَّه، ولَئِن اِستَعاذَني لأُعيذَنَّه. وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله، تردُّدي عن نفس المؤمن؛ يكره الموتَ وأنا أكرَهُ مَساءَتَه!» خرّجه البخاري في الرقاق وابن حبان عن أبي هريرة، وله شواهد عن عائشة وعمر وابن عباس. فمَن اعتدى على هؤلاء القوم لا لسبب سوى إنكاره لما لا يدركُه عقلُه ولما على قلبه من رَين ولبُعده من نور الوَحي والوَلاية والهُدى، فإنَّه يتعرَّض لا محالَةَ لحرب من الله تعالى. وإن لَم تظهر آثارُ حرب الله في الخارج فإنّ باطنَ هؤلاء الظلمة خراب ودمار، خاصَّة إذا كانوا من العلماء الذي يُقتدَى بهم، فإنّهم يبوؤون بإثمهم وبآثام

ومن هذا كان يفزع شيخنا أبو عمران موسى بن عمران المِيرْتُلي، وكان من أهل علم الرسوم وعلم هذه الطريقة، وهو الذي ذكرناه في جُملة أشياخنا من أهل الطريقة في هذه الرسالة، نحا منحى المحاسبي. دخل عليه أبو القاسم بن عُفير خَطيبُ إشبيلية فتكلّم معه فيما يأتي به أهلُ هذه الطريقة من المعارف التي تقصُر أفهامُ علماء الرسوم عنها. لأنها علوم نبويّة وهذه العلوم الخَبَرية لا يقوم دليل العقل عليها، فلم يبق إلا مُجرَّدُ الإيمان بها، لأنها علوم إخبارٍ تحتمل الصدقَ والكذبَ، ولذلك إذا أتى بها الرسول تلقّاها الفقهاءُ بالقَبول. ولو أحالَها العقلُ لرُدّت أبدا في كل حال، وما يشعُر الفقهاء بهذا القدر.

فقال أبو القاسم ابن عُفير الفقيهُ لشيخنا "أمّا أنا فأُنكِرُها!" فقال له الشيخ أبو عمران "أما أنا فأُومِن بها كلِّها! وإياك يا أبا القاسم أن يجمع الله علينا فيها

أتباعهم في غيِّهم ما دام لهم أتباع عبرَ العصور يقولون بقولِهم ويلعَنون أولياءَ الله ويُكفِّرونهم تقليدًا لهم؛ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ جمع وِزْر وهو الحمل الثقيل ومعناه هنا العقاب الذي يترتَّب عن المعصية ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ﴾ ليحملوا ﴿مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل 25] أي الذين يقلِّدونهم بغير حُجَّة ولا برهان، ولكن من دون أن ينقص من أوزار هؤلاء شيءٌ، كما بيَّنه لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله «مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنة فعُمِل بها بَعدَه، كُتِب له مِثلُ أجرِ مَن عَمِل بها، ولا يُنقَص من أجورهم شَيءٌ. ومَن سنَّ في الإسلام سُنّة سَــيِّئَة فَعُملَ بها بعدَه، كُتِبَ عليه مِثلُ وِزْرِ مَن عمِل بها ولا يُنقصُ مِن أوزارهم شيء» رواه مسلم والنسائي والدارمي وأحمد عن جرير بن عبد الله ورواه الترمذي عن عمرو بن عوف.

حِرمانين: لا نَراها من أنفسنا ولا نصدّق بها مِن غيرِنا؛ فيكون العامِّيُّ أحسنَ حالا منا في ذلك عند الله!" فتنبَّه الفقيهُ أبو القاسم الخطيب وقال "نَبَّهتني، رضي الله عنك!" و لم أحضُر هذا المجلس ولكنه أخبرني به أبو القاسم الفقيه المذكور المنكِر. ومن ذلك الوقت صار يُحبُّني وينظُرني بعين التعظيم. فقد حَبانا الله يا وليي بالإيمان بالنبي حين خَذَل غيرَنا؛ فتفرَّض علينا شكرُ الله وعملٌ زائد بمزيد هذه النعمة.

ثَمّ نعمةٌ أخرى. لَمّا جعلك مؤمنا بنبي، جعلك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم و لم يجعلك من أمة غيره من الأنبياء. وهنا نِعَم: منها أن ألحق هذه الأمّةَ بدرجة الأنبياء باتّباعهم محمدا عليه السلام. وعيسى ابن مريم من جملة أمة محمد[231]، وهو رسول الله وروحُه وكلمتُه؛ وقد دخل في عِدادنا، وهذا مقام!

---

[231] ذلك أن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام سوف يحكم بالشريعة المحمدية عند رَجعتِه في آخر الزمان. فعن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول «إن الدَّجّال خارجٌ، وهو أعورُ عينِ الشِّمال، عليها ظَفْرَةٌ غَليظة. وإنه يُبرِئُ الأَكمَهَ والأبْرَصَ ويُحيِي الْمَوْتى ويقول للناس "أنا ربُّكم" فمن قال "أنت ربي" فقد فُتِن، ومن قال "رَبِّيَ الله" حتى يَموت فقد عُصِم مِن فِتنتِه، ولا فِتنَةَ بَعدَه عليه ولا عذابَ. فَيلبَث في الأرضِ ما شاءَ الله. ثمّ يَجيء عيسى ابنُ مريَمَ عليهِما السلام مِن قِبَل المغرِب مُصدِّقًا بِمُحمَّد وعلى مِلَّته، فيَقتُل الدَّجّال، ثم إنما هو قيامُ الساعة» رواه أحمد ر20163 والطبراني في الكبير وقال الهيثمي في المَجمَع: رجالُه رجال الصحيح. وله شاهد عن عبد الله بن مُغفَّل عند الطبراني في الكبير والأوسط وقال الهيثمي: ورجالُه ثِقاة وفي بعضهم ضعف لا يضر. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم مِنكم؟!» رواه

والنعمة الأخرى أن جعلك شهيدا على سائر الأمم؛ وهي مرتبة النبوّة، فإنهم الشهداء على أُمَمهم. قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ﴾[النحل 89] فالأنبياء شهداءُ على أُمَمهم، وقيل فينا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس﴾[البقرة 143] فقد شُورِكنا معهم في هذا؛ فهذه مَواطن نُحشَر فيها غدًا مع النبيّين. وقال الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾[آل عمران 110] وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطا﴾ فوصفَنا بالعَدالة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس﴾ وإن شئتَ جعلتَه من الشيء بين الشيئين: بين شهادتِك على الناس وشهادةِ رسولك عليك، وأنت بينهما ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا﴾[البقرة 143].

ونعمة أخرى لم يعطَها أحدٌ قبلَك من الأمم؛ فإنك مؤمن بنبيِّك، آخرِ الأنبياء، وبِمَن تقدَّم إلى آدم[232]. وغيرُ ذلك من النعم التي يتضمَّنها هذا المقام، ولكلِّ

البخاري في أحاديث الأنبياء، ومسلم في الإيمان، وفي أخرى له «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابنُ مريم فأمَّكم منكم» قال الوليد بن مسلم: فقلت لابن أبي ذئب "إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة «وأمَّكم منكم» قال "تدري ما «وأمَّكم مِنكم؟» قلت "تخبرني؟" قال "أَمَّكم بكِتاب رَبِّكم تبارك وتعالى وسُنَّة نبيِّكم صلى الله عليه وسلم." قلت ومعناه أن عيسى عليه السلام سيحكم بالقرآن لا بالإنجيل، أي أن الشريعة المحمدية باقية إلى يوم القيامة.

[232] وهذه مِيزة خصَّ الله بها أمّةَ محمّد دونَ سائر الأمم، وهي الإيمانُ بالرُّسُل والأنبياء قاطبةً بلا استثناء. يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمَّد ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَّالنَّبِيِّينَ

مِن بَعْدِهِ؛ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورا. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيما؛ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء 163-165] فالرُّسُل شُهود الله على خَلقه كما بيَّنه الشيخ فيما قبْل. وهم كثيرون كما بلغنا عن أبي ذر الغفاري قال: قلتُ "يا نَبيَّ الله، أيُّ الأنبياءِ كان أَوَّلَ؟" قال «آدَمُ» قلت "يا نبي الله أوَ نبيٌّ كان آدم؟ قال «نعم نبي مُكلَّم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحَه ثم قال له: يا آدمُ! قُبُلا» -أي مواجهةً من دون حجاب- قلتُ "يا رسول الله، كم وَفِيَّ عِدَّةُ الأنبياءِ؟ قال «مائةُ ألفٍ وأربَعةٌ وعشرون ألفًا، الرُّسُلُ من ذلك ثلاثُ مائة وخمسةَ عشر؛ جَمًّا غَفيرا!» رواه أحمد ر22342، والحاكم وابن حبان وصححاه والطبراني في الكبير وضعّفه جماعة. فعددُ الأنبياء 124000 وهو عدد هائل، وعدد الرسُل منهم 315، على أنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رَسولا. هذا والإيمان بالأنبياء والرُّسل ركنٌ من أركان الإيمان، فلمّا جاء جبريلُ عليه السلام ليبيِّن لنا الدينَ سأل النبيَّ عن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم «أن تؤمِنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسله واليومِ الآخر» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وانفرد به مسلم عن عمر بن الخطاب. ومِصداقُه قولُ الله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[البقرة 285] فالإيمان يجب أن يعمَّهم جميعا سواءً مَن عرفنا ومَن لم نعرف ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ "نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ" وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا؛ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّا! وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ؛ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[النساء 150-152] وعليه فالكُفر بأحد منهم كفرٌ بجميعهم ومعناه أنه كفرٌ بالله تعالى. أما الأنبياءُ الذين جاء ذِكرُ أسمائهم في القرآن فهم ستةٌ وعشرون وهم: آدم، نوح، إدريس، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، لُوط، هود، صالح، شُعيب،

موسى، هارون، داود، سليمان، أيوب، ذو الكفل، يونس، اليَسع، إلياس، زكريا، مريم، يحيى، عيسى، محمّد. والصحيح أن مريم عليها السلام نبيَّة، كما بيَّنه أبو محمد ابن حزم، في الفِصَل في الْمِلَل والأهْواء والنِّحَل، ج5/ ص 12-13، مكتبة الخانجي، القاهرة، وأبو عبد الله القُرطبي في تفسيره وفي التذكرة، وقد بينّا أنّها نبيّة مُرسَلة وميزةَ رسالتها في كتابنا فهم الصلاة بما يشفي ويكفي. وأمّا الجمهور فقد اعتَرضوا على هذا وقالوا "ليس في النساء نبيّة" واستدلّوا بقول الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ إلا أنه تعالى زاد في سورة يوسف ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[يوسف 109] وهذا إن قام دليلا فعلى الرسُل لا الأنبياء، ثم ما الذي يمنعهُ من أن يكون دليلا أيضاً على أن الرُّسل لا يكونون إلا من أهل القُرى. وإذ لم يكفِهم هذا، استدلُّوا بقول النبي صلى الله عليه وسلّم «لَن يُفلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُم اِمْرَأَة»، وهذا الخبرُ لا يقوم دليلاً أيضا لأنّ سبب وُرودِه يدلُّ على اختصاصه لا عُمومه، وذلك لأنّ راويه من الصحابة هو أبو بَكرة الثَّقَفي، مولاهم، وهو نُفَيع بن مَسروح، وهو عبدٌ من عَبيد الحارث بن كِلْدَةَ بن عَمرٍو الثَّقَفي، وأمُّه سُمَيّة وهي جاريةٌ للحارث المذكور. وكان أبو بَكْرَةَ يقول "أنا مولى رسول الله" ويأبى أن ينتسب. كما ذكره ابن عبد البرّ في الاستيعاب. كان أبو بَكرةَ ممَّن اعتقَد صحّةَ ما ذهبت إليه عائشة، ثم تخاذلَ عنها. قال: لقد نَفَعَني الله أيامَ الجَملِ -أي لَمّا قامت عائشةُ أمُّ المؤمنين، تُريد الإصلاحَ بين الجماعتَين-، بكلمةٍ سَمِعتُها من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال: بَعدَمَا كِدْتُ أَن أَلحقَ بأصحاب الجملِ فَأُقَاتِلَ معهم -أي الصحابة الذين اتَّبَعوا عائشةَ وأُجبروا على القِتال، ثم هُزموا- قال: لَمَّا بَلَغَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ أهلَ فارِسَ مَلَّكُوا على أَنفُسِهم بنتَ كِسرَى بعد موتِه، قال «لَن يُفلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُم اِمْرَأَة». رواه البخاري والترمذي والنسائي. نعم السنَد ثابتٌ ولكن الحديثَ مِن جهة البيان أقرب إلى الدُّعاء منه إلى الحُكم الشرعي. وهاكَ واقِعةَ الجَمل لتعلم ما وراء الحَدَثِ فتحكُمَ على بصيرة: لَمّا قُتلَ عُثمان بنُ عفّان خليفةُ عُمر سنةَ 35 بُويعَ عليٌّ بن أبي طالب فأصبحَ رابعَ الخلفاء. وفي محرَّم

نعمةٍ شكرٌ يخصُّها وعمل يُطابقها. فلْنَجهَد في تحصيله أو تحصيلِ ما أمكَن منه. ثم بعد هذا أن قسَم أمّةَ نبيه بين مُبتَدع ومحفوظ، فحفظك من البِدعة وميّزك في ديوان السنّة؛ فهذا اختصاص. ثم أهل السنة قسَمهم قِسمين: عالِم وجاهل، فجعلك عالما بما تعبَّدك به من شريعته و لم يجعلك جاهلا بذلك؛ فهذه نعمة يجب أيضا شكرُها. ثم جعل العالِمين على قسمين: طائعٌ وعاصٍ، فجعلك من الطائعين و لم يجعلك من العاصين؛ فهذه نعمة عظيمة. والطاعة على مقاماتها، أن عصمك بالشيء من نقيضه، وذِكرُه يطول. ثم جعل الطائعين على قسمين:

عام 36 ذهبت السيدة عائشة أمُّ المؤمنين إلى مكة للعُمْرَة، ثم لَحِقَ بها طَلْحَةُ بن عُبَيد الله والزُّبَير بنُ العَوّام، فطالب ثلاثتُهم الخليفةَ بإيقاعِ القِصاص على الذين شاركوا في قتل عثمان، لكنّ عليًّا لَم يُجبهُم إلى ذلك بل فضّل التَّهدئة، فلم يوافقوه على ذلك واستقرَّ رأيُهم على التوجُّه إلى البَصرة بالعِراق. فقاد عليٌّ جيشًا لِيُقابلَهم وعَسكَرَ بقواتِه قُربَ البَصرة. جرت محاولات للتفاهم بين الطرَفين دون جَدوى، ونشب القِتالُ؛ وتلك هي حادثةُ الجمَل، وسُمِّيت بذلك نسبةً إلى الجمل الذي كانت تركبُه السيدةُ عائشة خلالَ الواقعة التي انتهت بانتصار عليٍّ وجنودُه، ثم سِيقت أمُّ المؤمنين عائشة، بأمر من عليٍّ، بسلامٍ إلى المدينة وهدأت الفتنةُ إلى حين. الحاصلُ أن عائشة وطلحة والزبير وغيرَهم من كِبار الصحابة قد اجتهَدوا على بصيرة وعلم وقَضَوا بأنّ مَقتَل عثمانَ لن يمرَّ دونَ قِصاص وأنّه لا بُدّ من وَضع حدٍّ للفتنة، وإلا فلن تفتَأَ تستشري. وذلك ما حصَلَ، حتى وقع عليٌّ ذاتُه ضحيَّةً لَها. فالمسألة ليست في كون الحاكم امرأةً أو رَجل، ولا يكفي خبرٌ شاذٌّ كهذا وإن صحَّ إسنادُه دليلاً على الحكم بأنّ النساء لا يصح أن يكنَّ على رأس الحُكم ولا نبيَّات، فقد كمُل منهنّ جماعة، ولا يخفى على أحد أن عائشة كانت من أفقه الصحابة للدين.

عارفٍ وعابد، فجعلك من العارفين العابدين؛ فهذه نعمة يجب الشكر عليها. ثم قسم العارفين قسمين: وارث وغير وارث، وجعلك من الوارثين، والوارثون على حسب مراتبهم. فقد غمرت النِّعم ولم يتَّسِع الليلُ والنهار لأداء شُكر واجبات هذه النعم، وإنه إن اشتغلنا بواحدة منها فغايتنا أن نقطع ضياءَنا وظَلامنا ببعض ذَرّة من واحدة منها.

فعلى هذا يجب علينا الذي يُمكِننا أن نفعلَه؛ أن لا يرانا الله وقتًا واحدا بَطّالين، ولا متصرِّفين في مُباح إلا حاضرين بقلوبنا على الدَّوام. مَكفوفي الجوارح عن التصرُّف المحظور علينا، مَطلوقي الألسِنة بالذِّكر أو بإظهار العِلم والشكر عليه، والاعترافِ بالتقصير دائما وتوبيخِ النفوس الذي أراده الحقُّ منا لتعديلها وتزكيتها. فـ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاها﴾ بالأعمال الصالحة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاها﴾[الشمس 9-10] مثلي، فأَدخَلها في الصالحين وليست منهم.

فهذه يا أخي نصيحَتي لي ولك، لَمّا رأيتُك مثلي وأحببتُك في الله تعالى وأعجبني إنصافُك وتعشَّقت مُعاشرتَك. ووَدِدتُ اليومَ أن أكونَ معك حيث كنتَ تنصَحُني وأنصحك وتوبِّخني وأُوَبِّخُك، ونكونَ رفيقَين في الله تعالى مُحِبَّين فيه حتى نموتَ. فما أحبَّني فيك وأشدَّ شَفقَتي عليك، رضي الله عنك!

انتهى الجزء الرابع

ولقد تَمنّيت أن أكون معك كما حدّثنا أبو محمد يحيى بن أبي الحسن رضي الله عنه قال: حدّثنا أبو الفتح عبد الباقي بن أحمد بن سلمان حدثنا أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خَيرون حدثنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان حدثنا أبو الحسن بن عبد العزيز الخرزي حدثنا أبو حَفص التّنسي حدثنا أبو معبد قال: سمعتُ بلالَ بنَ سعيد يقول: أخَوان من بني إسرائيل خرجا يتعبّدان. فلما أراد الطريقُ يفرّق بينهما قال أحدُهما لصاحبه "خُذْ أنت في هذا الطريق وآخُذ أنا في هذا الطريق، فإذا كان رأسُ السَّنة فهذا الموعد بيني وبينَك" فخرجا يتعبّدان. فلما كان في رأس السنَة اجتمعا في ذلك الموضع، فقال أحدُهما لصاحبه "أيُّ ذنبٍ فيما عمِلتَ أعظم؟" قال "بينما أنا أمشي على الطريق إذا بسُنبلة فأخذتُها فألقيتُها في إحدى الأرضَين، أرض عن يميني وأرض عن شِمالي، ولا أدري: هي للأرض التي ألقيتُها فيها أم للأخرى! ثم قال المسؤولُ للسائل "أي ذَنبٍ عملت أعظم؟" قال "لا أعلم، إلا أني كنت أقوم إلى الصلاة فأميل مرةً على هذه الرِّجْل ومرَّة على هذه الرجل، فلا أدري أكنتُ أعدِل بينهما أم لا!" فسمعهما أبوهُما مِن داخل الدار فقال "اللهم إن كانا صادقَين فأمِتْهما!" فخرج فإذا بهما قد ماتا[233].

[233] لم أجد لهذا الأثر أثرا ولا أدري مَن هو بلال بن سعيد.

فهكذا يا وليِّي يكون اجتماعُ أهل الله ومُخاطبتُهم: على ذكر المعايب والإنصاف، لا على وجه الْمِدحة والاتِّصاف! هل يُذكر في السجن إلا ما يليق به[234]؟! إذا ترحّلت ونزلت في مُستقرّ الرحمة وجنَيت ثَمَرَ عملك، هنالِك تذكُر ما يليق بموطن الحُسنَى من مَحاسنك. وأما هُنا فلا؛ فإنها دار البلاء والاِقتِراف والاجتراح. والإنسانُ فيها، مِن نبيٍّ وغير نبي، مَسجون على دَمه؛ لا يخرُج منها إلا بالقَتل[235]! ولولا التطويلُ لتكلّمنا على مراتب السجن والمسجونين بما تعطيه الحقائق الثابتة والعاديّة، ويكفي هذا القدر فيما بيني وبينك.

---

[234] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدنيا سِجنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر» أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة، وله شواهد عن ابن عُمَر وعن سلمان وعن ابن عَمْرو وأنس.

[235] أي بالمَوت، وهذا تجوُّز لإيثار الفَجع من كون الحياة الدنيا مأساة متكرِّرة ولإيثار الفَزع حتى يستعدّ العبدُ للقاء ربِّه، وإلاّ فأكثرُ الناس يموتون ولا يُقتَلون. صحيح فما خلَد أحدٌ من بني آدم في الدنيا، وما يخرُج أحدٌ منها إلا بالموت، فالله تعالى يقول ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُون؟! كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَّإِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾[الأنبياء 34-35] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة؛ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَاز. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور!﴾[آل عمران 185] ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَّلاَ يَسْتَقْدِمُون﴾[الأعراف 24] فالبدارَ البدار قبلَ زوال الأعمار بقضاء الأقدار، وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول في خُطَبه «إنَّما هُما اثْنتانِ: الكَلامُ والْهَدْي، فَأحسَنُ الكلامِ كلامُ الله، وأحْسنُ الْهَدْيِ هَدْيُ محَمَّد. ألا وإيّاكُم وَمُحْدَثاتِ الأُمور؛ فإنّ شَرَّ الأمور مُحْدَثاتُها، وكلُّ مُحْدَثَةٍ بِدعَة وكلّ بِدْعَة ضلالَة. ألا لا يَطولَنَّ عليكم الأَمَدُ فتقسُوَ قلوبُكم، ألا إنّ ما هو آتٍ قَريب، وإنَّما البَعيدُ ما ليس بآتٍ» رواه

ويعلم الله، لولا وُدّي فيك وحُرمتُك التي لك في نفسي ما خاطبتُك بشيء من هذا كلِّه ولا ذكرتُ اسمَك ولتركتُك مُهمَلا[236] في جملة عباد الله تعالى! لكن الله قد عرّف بيني وبينك روحا وجِسما، ومعنًى ورسما، فلم يتمكّن أن أُخاطبك إلا

ابن ماجه في السنة والطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في الشعب عن عبد ابن مسعود يرفعه والبزار والدارمي عنه موقوفا. فكلُّ آتٍ قريب والبعيدُ ما ليس يأتي، والموتُ لا بدَّ منه والدنيا مَزرَعة الآخرة ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ "رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيب، فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِين" وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[المنافقون 10-11] هذا واعلَم أنّه لا يصحُّ أن يقال عن الله أنّه يَقتُل ولكنَّه تعالى يُميتُ كما أحيَى ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيت﴾[آل عمران 156] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾[البقرة 27] فالموت والحياة مخلوقان والله هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاة﴾[الملك 2]. أمّا القتل فهو أن يتسبَّب أحدُ المخلوقين في مَوت غيرِه أو نفسه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ﴾[الأنعام 140] ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة 54]. ولكن الله يُقاتِل أعداءَه ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون﴾[التوبة 30] وهو بمعنى حاربَهم وإن لَم يموتوا من جرّاء ذلك. الحاصل أن الموتَ، إن كان سببُه القتلَ أو المرضَ أو الأجَل، فلا مَفرَّ منه ﴿لَن يَّنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْل!﴾[الأحزاب 16] وصدق مَن قال:

ومَن لَم يَمُتْ بالسَّيف مات بغَيرِه ... تَنوَّعَت الأسبابُ والْمَوتُ واحِدُ

[236] صحيح أن الشيخ عبد العزيز المهدوي من علماء الشريعة وأئمّة التصوُّف ولكنَّه ظلَّ خاملَ الذِّكر، لم أجد له مع طول الفتْش ترجمة واحدة تخصُّه بالذات، ولكن يأتي ذكرُه ضمن تراجم غيره من أقرانه. وابنِ العربي هو الذي أشهرَه في هذه الرسالة وفي الفتوحات لبقيَ مُهمَلا مَجهولا. وهذا تنبُّؤ وحدَس وفِراسة من قِبَل الشيخ الأكبر.

بما يقتضيه الوُدّ الصريحُ والدين الخالِص الصحيح. وأما فضلُك وتقدُّمك في طريقك عندي فمشهور ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾[يوسف 67] ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم!﴾[البقرة 105] وقلَّ اليومَ مَن يَصحبُك لِلَّه، فأكثرُ الصُّحبة معلولة في زمانك من أجل هذه الأعراض واستِحكام سُلطان الأغراض، وعَبْدُ الله اليومَ قليل. ولنا في معنى هذا أبيات وهي هذه:

اُنظر إلى هذا الوجود الْمُحكَم ووجودِنا مـــثلَ الرِّداء الْمُعْلم

وانظر إلى خُلفائه في مُلكهم من مُفصِح طَلْق اللسان وأعجَم

ما منهم أحد يُحبّ إلَـــهَه إلا ويَمزِجُه بِـــحُبِّ الدِّرهـــم

فيقال هذا عبدُ معرفـــة وذا عبد الجِنان وذا عُبَيد جهـــنَّم

إلا القلـــيلَ من القليل فإنهم سَكرَى به من غير جنسِ توهُّم

فهم عَبيدُ الله لا يدري بهم أحدٌ ســـواه لا عَبيد الْمُنعَم...

إلى آخر القصيدة.

فأجهِد نفسَك يا وليي في أن تتحلّى بحِلْية قوم بكَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شوقًا إليهم. ولا يؤثِّرْ فيك كلامُ المغرورين من الفقهاء علماءِ السَّوء، الذين لبسوا رِقاق الثياب وتناوَلوا لذيذ المطاعم. فإذا قلتَ لهم في ذلك تلوا عليك ﴿قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّـــيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْق؟!﴾[الأعراف 32] فقد أخبر النبيُّ عليه السلام أنهم سيقولون هذا إذا قلتَ لهم في ذلك، على ما كتب به إلينا شيخُنا أبو محمد بن محمد بن سعد الله بن محمد البجَلي البغدادي الحنفي

رضي الله عنه من حديث سعيد بن زيد بن عَمْرِو بن نُفيل قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأقبل على أُسامةَ بن زَيد فقال «يا أسامةُ عليك بطريق الجنّة وإياك أن تُختَلجَ دونها!» فقال "يا رسولَ الله، وما أسرعَ ما يُقطع به ذلك الطريق؟" فقال «الظَّمأُ في الهَواجر وحَبس النفس عن لذة الدنيا! يا أسامة وعليك عند ذلك بالصوم؛ فإنه يقرِّب إلى الله عزّ وجل. إنه ليس من شيء أحبَّ إلى الله من ريح فَمِ الصائم، تركَ الطعام والشراب لله عز وجل. فإن اِستطعت أن يأتيَك الموتُ وبطنُك جائع وكبِدُك ظمآن فافعل، فإنك تُدرِك بذلك شرَف الْمُنزَل في الآخرة وتُحلّ مع النبيِّين، تفرح بقُدوم روحك عليهم ويصلّي عليك الجبّار. وإياك يا أسامة وكلَّ كبد جائعة تُخاصمك إلى الله يومَ القيامة، وإياك يا أسامة ودعاءَ عبادٍ قد أذابوا اللحوم وحرّقوا الجلود بالرياح والسمائم، وأظمؤوا الأكباد حتى غُشيت أبصارُهم. فإن الله إذا نظر إليهم سُرّ بهم وباهَى بهم الملائكة؛ بهم تُصرَف الزلازل والفِتن!» ثم بكى النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى اشتدَّ نَحيبه، وهاب الناسُ أن يكلِّموه، حتى ظنّوا أن أمرا قد حدث بهم من السماء.

ثم سكت فقال «ويحَ هذه الأمة؛ ما يلقى منهم مَن أطاع ربَّه فيهم! كيف؛ يقتلونه ويكذِّبونه مِن أجل أنه أطاعَ اللهَ؟! فقال عُمر بن الخطاب "يا رسول الله، والناسُ يومئذ على الإسلام؟" قال «نعم» قال "ففيمَ إذَن يقتلون مَن أطاع الله وقد أمرهم بطاعته؟" فقال «يا عمر ترك الناسُ الطريقَ وركِبوا الدوابّ ولبسوا لَيّن الثياب وخدَمتهم أبناءُ فارِس؛ يتزيّن الرجل منهم تزيُّنَ المرأة لزوجها ويتبرَّجُ تبرُّجَ

النساء. زِيُّهم زِيُّ الملوك الجبابِرة ودينُهم دينُ كسرَى وهُرمز! يسمَنون، باهَوا بالجُشاء واللباس. فإذا تكلَّم أولياءُ الله، عليهم العَباء مَحنيّة أصلابُهم قد ذَبَحوا أنفسَهم من العطَش، فإذا تكلّم منهم متكلّم كُذّب وقيل له "أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة؛ تُحرِّم زينةَ الله والطيبات من الرزق؟!" يتأوّلون كتابَ الله على غير علم، استذلّوا أولياء الله عز وجلّ.

اِعلم يا أسامةُ أن أقربَ الناس من الله يوم القيامة لَمَن طال حُزنه وعطَشُه وجوعُه في الدنيا: الأخفياءُ الأبرار الذين إذا شَهِدوا لم يُقرَّبوا وإذا غابوا لم يفتَقدوا. تعرِفهم بقاعُ الأرض، يُعرفون في أهل السماء ويخفَون على أهل الأرض وتَحُفُّ بهم الملائكة. يَنعَمُ الناسُ بالدنيا وينعَمون هم بالجوع والعطش، لبِس الناس لَيِّنَ الثياب ولبسوا هم خَشِنَ الثياب، افترش الناس الفرُش وافترشوا هم الجِباه والرُّكَب، ضحك الناس وبكَوا.

يا أسامة لا يجمعُ الله عليهم الشِّدّةَ في الدنيا والآخرة؛ لهم الجنة. فيا ليتني قد رأيتُهم يا أسامة، لهم البُشرى في الآخرة، يا ليتني قد رأيتهم! الأرضُ بهم رَحْبة والجبّار عنهم راضٍ؛ ضيّع الناسُ فعلَ النبيين وأخلاقَهم وحفِظوا هم. الراغبُ مَن رغب إلى الله في مثل رغبتهم والخاسر من خالفهم. تبكي الأرض إذا فقدَتهم ويسخَط الله على كل بلدة ليس فيها مثلُهم! يا أسامة وإذا رأيتَهم في قرية فاعلم أنهم أمانٌ لتلك القرية، لا يعذّب الله قوما هم فيهم. اتخِذْهم لنفسك عسى أن تنجوَ بهم، وإياك أن تدَع ما هم عليه فتزلَّ قدمُك فتَهوي في النار.

حرّموا حلالَ ما أحلَّ الله لهم، طلَبوا الفضل في الآخرة، تركوا الطعام والشراب عن قُدرة، لم ينكبُّوا على الدنيا انكِبابَ الكلاب على الجيَف. شُغِل الناسُ بالدنيا وشغَلوا هم أنفسَهم بطاعة الله، لبسوا الخلَق وأكلوا الفلَق. تراهم شُعْثًا غُبْرا، يظُنّ الناسُ أنّ بهم داءً وما ذاك بهم. ويظنّ الناس أنهم قد خولِطوا وما خولطوا، ولكن خالط القومَ حزنٌ فظنّ الناس أنهم قد ذهبت عقولُهم، وما ذهبت ولكن نظَروا بقلوبهم إلى أمرٍ ذهب بعقولهم عن الدنيا؛ فهم في الدنيا، عند أهل الدنيا، يمشون بلا عقول. يا أسامة، عقَلوا حين ذهبت عقولُ الناس؛ لهم البشرى في الآخرة».[237]

فانظر يا وليي وصفَ حبيب الله ورسوله لأولياء الله وكيف نعتَهم. فعلى هذا الوصف ينبغي أن نعكِف وبه نتّصف عسى ننقلب إلى الله ونحن بهذا النعت منعوتون وبهذه الحلْية مُتحلَّون. فاجتهد يا أخي في ذلك ولا تتأخّر عنهم. ومُدَّني بالدعاء والهِمّة، فإن الصاحب المطلوب اليوم معدومٌ جدا.

ولما رأيتُ القَرين الصالح معدوما والطبيبَ المشفِق الناصح غيرَ موجود، تأسَّفت لذلك. ولحِظت كلَّ إنسان مسرورا بما هو فيه لا يتنبَّه لعَيب أخيه فيتنبه ذلك لعيبه، فيتصاحبان بالنصيحة وتحصُل لهما المرتبة الصحيحة؛ فعمِلنا في عدَم القرين الناصح وفتنة الإنسان بحاله أبياتا وهي:

---

[237] أخرجه الخطيب البغدادي في 'الزهد' والبوصيري في 'الإتحاف'، وبهذا اللّفظ الحارثُ في مسنَده والهيثمي في 'بغية الباحث'، ج2/ص143، مركز خدمة السنة، المدينة.

ذكرتُ ذنــبي فأبكاني وحيّــرني ... لَما غدا من جوار الله يَــطرُدني

كيف الخَلاص وما ضيَّعت من عمُري ... به الْمُهيمِن يوم الحشر يطلُبنــي

يا ليت أُذْني لم تسمَع حديثَ هوًى ... يا ليتَ عيني لم تنظُر إلى حسَــن

يا ليت كفّي لم تُخلق ولا قَــدمي ... ولا لساني وليت القلبَ لم يكُــنِ

أو ليت إذ كان خلقي كان يُسعدني ... تَــوفيقُ ربي في سرٍّ وفي علَــن

ولا أَهيم بشخص ليس يَــنفعُني ... يومَ النشور إذا الرحمن يسألُــني

ولا ندَبت ديارا كــنتُ آلَــفُها ... ولا حنِــنت إلى رَبْع ولا سكَن

ولا تغزلْــت في وَرْقاءَ صادحةٍ ... على الأراك تُغنّي وهي تَندُبــني

ولا شَــربت حُمَيّا ضَنّ حابسُها ... بها على الشُّرب من عَهد ابن ذي يزَن

ولا تَمنَّــيتُ شيئا لستُ مُدركَه ... ولا قطعت بأسباب الرَّدَى زمَني

ولا تكلَّمت في عِــلم ومَــعرفة ... حتى دُعِيتُ له بالعالِــم الفَطِــن

وظَــلَّ إبليسُ الْمَلعون يلعَب بي ... وحُرقةُ الذَّنب في الأحشاء تُحرِقُني

كم ذا أقيم على العِصيان مُكتَتِمًا ... وأنت سُبحانك اللهم تَحفظني ؟!

أُمسي وأصبح في شيء يقرِّبــُني ... إلى الشقاء ومن سَعدي يبعِّــدُني

كم ذا أُبارزه بالذنب مُستَــتِرا ... عن العباد وعــينُ الله تنظُرني ؟!

ولا حياءَ من الرحْمَن يَقبضُــني ... عن المعاصي الذي لو شاء أهلكني

ولا خليلَ من الإخوان يوقِــظُني ... من نَومةٍ لعذاب الله تَحملُــني

سِــوى خــليلٍ رآني في تَــغرُّبه ... فحلّ مني مَحلَّ الروح من بدَني

فــلا أزالُ إذا يلْــهو أبصِّــرُه ولا يزال إذا أسهو يُذكّــرنــي
فليس خِــلّي إلا مَن يرى زَلَــلي فلا يزال مع الأحيان ينصَحُــني
فالصاحب الحقُّ كالصابون يُذهب ما في الثوب من دنَس الأقذار والدرَن
لَمّا سَمِعتُ رقيبي وهو يَطْــعنُني من عن يميني وينهاني ويزجُرنــي
يا سَــيّدي، ورعاك اللهُ، تسمعُني كم مرةٍ جــئتُ والبوّاب يَمنعُني
وليس شخصا فتُــؤذيه وتَضرِبه لكنّه فِعلُك الْمَرفوع في الكَــفَن
فانظُر إليه وحسِّــن خلْق صورته فهو الأنيسُ إذا استوحشتَ في الجَنن
وهو الذي يدفع الخصمَين عنك إذا ما أفــتناك وذا من أعظم الْحُــنُن
فعندما سَمعتْ نفسي مواعِــظَه حنّت وقالت: تُرى الرحمن يقبَلني؟
فقلت: يا نفس مهما كنتِ ساعيةً إليــه هَــروَل بالآلاء والْــمِنَنِ

فيا وليي أبقاك الله:

لقد كنتُ أخشى أن تقول بحُرقةٍ مقالةَ عبد خالف الحقَّ في القَصْدِ
أنوح على نفسي وأبكي لغَفلتي وأندُب قلبًا حادَ عن سَنن الرُّشد
إذا كان قُربــي من إلَهي مُقارنا لقُرب فؤادي مِن إلَهي فيا بُعدي!
فإن هو جازانــي على فَعلتي فما جزائي سوى الإقصاءِ بالعُنف والطرد
ولكنّــني أرجوه سِــرًّا وجَــهرة فإن كان هذا الوَجْد يُجدي فيا جَدّي
وإن كنتُ بدرًا أذهب الجهلُ نورَه فعمّا قريــبٍ يُــنعم الله بالــرَّدِّ
ولم يُقصني ذنــبي ولا سوءُ فَــعلَتي فإتــيانُ سوءِ الذنب أَلْيَقُ بالعبد

كما الجُود والصَّفحُ الجميل مع الرّضا　　لألْيق شيءٍ في الوجود بذي الْمَجدِ
وقد ثَبت الْمَجد الكريمُ لِخالِــقي　　وقد ثبت الإيمان عندي، فيا سعدي!

فهذا يا وليي ما أمر اللهُ وليَّك وصفيّك أن يخاطبك به ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقّ﴾[الأحزاب 53] وحقُّ الله أحقّ. واعلم أن هذه الرسالة من أعظم المِنن عليك ومن أسنَى تُحَفِه إليك! والسلامُ الطيب المبارك على النبيِّ ورحمةُ الله وبركاتُه، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعليك ورحمة الله وبركاتُه.

وكذلك يخصُّك بالسلام الأتمِّ عبدُ الله بدرٌ الحبشي وجميعُ إخواننا. وسلامي يتردّد على أبنائك وأصحابك وأوليائك: الشيخِ المبارك السعيد بخدمتك أبو عبد الله ابن المرابط والشيخ الموفّق أبو عتيق والجار الصالح الحاج مُعافَى وأبو محمد الحافظ والزكي المجتهد أبو القاسم القابِسي والفقير الصادق القَريح عبد الجبار والخَديم المبارك الناصح عبد العزيز النابُلي ووليّي وصفيي الذي واخيتَ بيني وبينه أبو عبد الله القطان. وقد نعيت إليكم محمد التائب رحمه الله تعالى، مات بين مكة والمدينة على مرحلة من مكة بين مَرٍّ وعُسْفانَ، زائرًا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم شهيدا بين الحرَمين؛ يُحشر يوم القيامة آمنا.

وكتب إليكم وليُّكم بهذه الرسالة من مكة حرسَها الله في شهر ربيع الأول سنةَ ستمائة[238]، وطاف بها أسبوعا وألمسها الحجرَ الأسود والملتزَم والمستجار، وأدخلها

[238] يعود هذا التاريخ إلى النُّسخة الأصليَّة، ولكنَّها مفقودة منذ زمان. وأمّا المخطوطات المُعتمَدة التي بلغتنا فكلُّها تعود إلى ما بعدَ سنة 634. وفي هذه النُّسخ كلِّها ما يدلُّ على أنَّ

البيتَ والمواضع الفاضلة تَيمُّنا وتبَرُّكا. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وصفوة المرسلين، وعلى آله الطاهرين وأصحابه أجمعين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وجميع عباد الله الصالحين وسلم تسليما.

* * *

تم نقل ومقابلة ومراجعة وتصحيح وتبييض هذه الرسالة الفذّة المباركة لهذا الإمام القُدوة البركة

على يد المذنب المعترف أضعف العباد وأحقرهم في نفسه وأفقرهم إلى رحمة ربّه

أبي حامد صخر بن محمد الهادي بن محمد الأمير الناصري

بباريس في شهر شعبان سنة 1434هـ

أصل الرسالة كان بحوزَة الشيخ الأكبر في دمشق في تلك السنة. فذكرُ عبد الله الحبشي، المُتوَفَّى سنةَ 618 بمدينة مَلَطْيَة بتركيا حاليّا، آخرَ الرسالة ضمنَ الأحياء يدلُّ على أنَّ الشيخ الأكبر، قدَّس الله سرَّه، لَم يُغيِّر مبنى النسخة الأصل ولا معناها، بل ظلَّ معتنيًا بها إلى آخر عُمره؛ يُضيف إليها ما يبلغُه فيما بعد.

هذا آخر ما يسَّرَه الله من التحقيق والتبيين على يد الفقير أبي حامد صخر بن حسين

وكان ختامُه في رمضان عام 1439 هـ. والحمدُ لله رب العالمين

والصلاةُ والسلام على سيد المرسلين

وعلى آله وأتباعه أجمعين

فهرس المحتويات

التعريف بالرسالة 3

التعريف بالشيخ المهدوي 9

التعريف بالشيخ الأكبر سيِّدي ابن العربي 13

خصائص هذه النَّشرة 17

أسانيد الشارح إلى الشيخ الأكبر 18

التعريف بالشارح 26

صور المخطوطات 31

رسالة روح القدس

الجزء الأوّل

فضل النُّصح 39

فَضائح أهلِ الزمان 53

لا حقيقة بلا طريقة، ولا طريقة بلا حَقيقة 55

ماهية التصوُّف ووصف أهلِ الله 62

مَنعُ السَّماع، لكن دون تحريمه 73

مُحاورة النَّفس بالبُرهان الشرعي 77

القرآن والسنَّة بَحران لا يُمثَّلان 79

الجزء الثاني

أوصاف أهل الصُّفَّة 85

عمار بن ياسر؛ إرادة إرضاء الله تعالى 86

عُمر بن الخطّاب؛ القيام بحق الله	87
ثَوبان؛ «لا تسأل أحدًا شيئا»	88
عُثمان بن عفّان؛ شَظَف العَيش مع القدرة	88
علي بن أبي طالب؛ إحكام الحِكمة	91
أبو بكر؛ مقام الصِّدِّيقيّة	96
سلمان الفارسي؛ لذَّة سَماع القرآن	97
السماع الباطل وما ينجرّ عنه	99
أبو الدّرداء؛ الفقه الحقّ هو الفهم عن الله	107
النّهي عن الاقتداء في الخطأ	112
القرآن يدعو إلى مُخالفة الخلق في ذات الحقّ	115
عثمان بن مَظعون؛ الزُّهد في الدنيا وزَهرتِها	117
لا سبيلَ إلا بالزهد ولا زُهدَ إلا بالفَقر والذِّلّة	122
الشيطانُ وطالِب الدُّنيا	127
أويس القَرَني؛ خير التابعين	128
مَدَى ما بين أويس والحلاّج	130
إن كان المَنعُ حقًّا فهو عينُ العطاء	134
أحوال الدارَين مَعكوسة	136
فضل الصدِّيق على الفاروق	142
وَزيرا الجلال والجمال، وأن الإقتار من الأقدرا	148
إذعان النفسِ للحق ورجوعها عن أخلاق السُّفهاء	151
فضائل أويس القَرَني	152

المُصابرة والمُرابَطة على جِهاد النَّفس 160

الجزء الثالث

العُريبي؛ أوّل المُربِّين، شيخٌ أُمّيّ 165

الكُومي؛ طريق المَلام 172

البربري؛ طريق التوكُّل 179

محمد الشرَفي،مقام الحريَّة 181

الشُّبَربُلي؛ الشفقة على الحكّام 183

ابن قسّوم؛ وَظيفة اليوم والليلة 186

الميرتُلي؛ حِفظ الأدب مع الله 189

الخيّاط؛ رِعاية حقوق الله 194

الحرّار؛ الرضا بالقضاء 197

ابن جُمهور؛ لُزوم العبادة 199

الشكّاز الإشبيلي؛ الشُّجاعُ البكّاء 201

عبد الله ابن العربي؛ عم الشيخ 203

المَوروري؛ الهِمَّة الفعّالة 204

مُعاداة الفقَهاء لأهل الله 212

الشكّاز الباغي؛ ترك المعاصي صغيرِها وكبيرها 220

القطّان؛ مَن لا تأخُذه في الله لومةُ لائم 224

ابن جَعدون الحِنّاوي؛ الوتَد المستور 227

محمّد الرُّندي؛ شيخ السواحل والجبال 231

السِّدراني؛ الأرض الواسعة وجبل قاف 234

القبائلي؛ وزيارة الأنبياء له 248
صالح الخرّاز؛ الفرار من الخلق إلى الخالق 250
القرّاق: طوبى لِمَن عرف ما خُلقَ له! 252
السلاوي؛ أنوار السماء 253
ابن طريف القِيسي؛ الشيخ ضحيَّة الهفوة 254
القلفاط؛ لا فُتوَّةَ فيما خالَف حقّ الله 255
أبو بكر الصنهاجي وغيرُه من الفقهاء المتصوِّفين 259
اليابِري؛ ترْكُ مَن يضادُّ القومَ جُملةً 261
مِن الأسود السائح إلى أبي العباس الخرّاز 262
البَرّجاني وغيرُه من رجال تونس 263
الأشخاص السبعة؛ السكينة 265
شمس أمُّ الفقراء؛ جامِعة الخوف والرضا! 267
نونَة الوالِهة في الله، الزاهدة في غيره تعالى 267

الجزء الرابع

المقصود من هذه الرسالة 271
خلق الأسباب والمُسبَّبات 273
عجائب خلق الإنسان 275
سرُّ السجود 279
جمع الإنسان للكَون كلّه 281
التشريف تكليفٌ وابتلاء يقتضي العبوديّة 282
التواضع للخلق سر الشَّرف وبُرهان العبودَة 287

الدنيا سِجن المؤمن 290

التأسّي بالأنبياء وأحباب الله 292

الحياة ابتلاءٌ يُلجئ إلى النظر في الوَحي 294

أمَّهات النِّعَم 295

الخلقُ ليس مِن عدم 296

الشُّكر على الإيجاد بالعبادة والاجتهاد 298

أمّ النِّعم الثانية، النَّماء 301

حياة الجَمادِ وعبادتُه 303

الواجب أن تعمّ عبادةُ الإنسان الكائناتِ كلَّها 305

وُجوب هَتْكِ حِجابِ الكِبْر 307

الاتّصاف بالأوصاف الإلَهيّة 309

سِرُّ التوبة وذوقُها 315

النِّعمة الاختِصاصِيّة: لا إلَهَ إلا الله 322

النعْمة الاختصاصيَّة: محمد رسول الله 324

النعمَة الاخْتصاصية: الإيمانُ بكَرامات الأولياء 328

النعمة الاختصاصية: الانتماءُ إلى أمّة محمد والوِراثة نبويَّة 329

اتِّباعٌ لا ابتِداع، علمٌ لا جهل، طاعةٌ لا مَعصية، معرفة وعبادة 333

الخاتمة

دُعاءُ الإسرائيلي لابنَيه أن يموتا على الصِّدْق 335

صِدقُ وُدِّ الشَّيخِ الأكبرِ لأخيه المَهدويّ 337

وَصْفُ النبيِّ، عليه السلام، لأولياءِ الله تعالى	339
التصاحُب بالنَّصيحة دواءٌ ربّاني	341
خاتمة وتحيّات من الله مُباركات	344